أنا ضعيف

سامر الصليبي

رواية

أنا ضعيف

رواية

لسامر الصليبي

حقوق
الطبع والنشر والاقتباس والترجمة
متاحة للجميع تماشيًا مع قناعات الكاتب

رجاء المؤلف

كثير من النقلات على رقعة الشطرنج لا نفهمها إلا في حال اكتشاف صلتها بالنقلات الأخرى على الرقعة، وكذلك الحال في الفلسفة، كثير من النقلات الفكرية لا نفهمها إلافي حال استطعنا ربطها بنقلات أخرى، ولهذا نرجو أن تتاح للقارئ قدرة على الربط بين الأفكار المطروحة من صفحة 172 إلى صفحة 257، ونرجو منه الصبر والحذر.

ملاحظة: الأفكار التي قدَّمناها في روايتنا السابقة تساعد القارئ على فهم أفكارنا في هذه الرواية بشكل أوضح.

3 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ل.ت

"أنا قوي"، وقفت أمام المرآة هذا المساء وأخذت أرددها كما نصحتني، بأعلى صوتي بغضب صاحبه يأس في البداية، حتى صدَّقتُ ذلك وطردت ما بقي من شك لدى جيراني بأنني مجنون.

لماذا ما زلت أستجيب، لماذا أرد على الانحطاط بالتقزز وعلى التفاهة بالسخط وعلى الدناءة بالنفور وعلى الإهانة بالغضب؟! لماذا إلى الآن لم ألتحق بركب من تبلدت مشاعرهم وتعطل استشعارهم بإنسانهم؟! لماذا موقفي هذا يتركني وحيدًا، وأنت خير من يعلم أن لا سبيل لادعاء القوة في الوحدة وتصديق ذلك؟! لماذا أشعر بهذا القدر من الاختناق الذي يدفعني للأخر بدون إيصالي إليه، فلا أنا أنا، ولا أنا غيري؟! لماذا هذه الاستجابة، ألدي ما أُقدِّمه، ألدى العالم بعد ما ينتظره مني، ما يتوقعه مني، ألدى القدر بعد مقدار أكبر من القسوة، ألدى الله بعد جحيم أسعر، بل ألدى الإنسان جحيم أسعر؟!

أننا المنحرف بانفرادي، أم هم المنحرفون باجتماعهم وكثرتهم؟ نعم يا صديقي، أنا أستجيب بدون إرادتي، لأنَّ إنساني لم يكن خياري، ولكن ما يحيرني إرادتهم لعدم الاستجابة، أيُعقل أن يكون إنسانهم غير مفروض عليهم كما هو مفروض عليَّ؟ هل هم مخيَّرون بقبول إنسانهم أو برفضه؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هي الوسيلة التي مكَّنتهم من أن يكونوا مخيرين؟ لماذا منحوا الوسيلة ولم أمنحها أنا الذي في أمس الحاجة إليها؟ أهناك عدل بهذه اللامساواة؟ هل عالمنا القاسي هو وسيلة تخييرهم؟ إذا كان كذلك، فلماذا هو عاجز معي؟ أيُعقل أنه بي رحيم وأنا المُعتقد أنه لي كاره رافض مُعذِّب؟ لا، هذه سخرية لا أحتملها، هذه سخرية لا أستطيع التعايش معها.

لماذا هذا العالم عاجز عن تخييري يا صديقي؟ لماذا أنا ملعون بالقيد واللاخيار؟ لماذا يُريد الله مني أن أكون صالحًا بدون إرادتي؟ لماذا يريد الله لي نعيم الآخرة، وأنا أطالبه بإلحاح الأطفال وعنادهم بنعيم الدنيا؟ لماذا يريد الله أن يُقدِّم لي المساعدة بعد الموت ويحرمني منها قبله؟ هل هو حبه لي ما يدفعه لذلك أم بغضه ومقته وغضبه؟ لماذا يُخيّر الله غيري ويُبقيني بدون قدرة على الاختيار؟ لماذا ربي لا يترك لي فرصة للانحراف والانحطاط والتمتع بالتفاهة والتلذذ بالسذاجة والانسجام مع القطيع، فرصة لعدم الاكتراث للأخطاء والانتفاض للاعتراض عليها؟

لماذا أنا ثائر، متمرد، ورافض ومعترض باستمرار؟ أين هو ذلك الشيطان الذي يتم تحذيرنا منه على الدوام؟ لماذا هو عاجز عن تضليلي، لماذا هو عاجز عن الانتباه لوجودي؟ هل أنا موجود حقًا؟! نعم يا صديقي، لقد بت بكل هذا التجاهل أشك لا بوجودي فقط بل بالغاية من ذلك أيضًا في حال صح ذلك.

هل أنا بذلك العلم وبتلك المعرفة التي لا تُبقي لخبث الشيطان فرصة لخداعي؟ هل أنا بذلك الذكاء الذي يتسبب للشيطان بالاتصاف بالغباء أمامي؟ هل أنا حائز على وسائل الدفاع التي لا تبقي لوسائل هجوم الشيطان أي جدوى وفعالية؟ لا يا صديقي، أنا لستُ بهذا القدر من العظمة، أنا لستُ مُحصَّن إلى هذا الحد، أنا لستُ إلهًا، أنا ما زلت إنسان، ولهذا هناك شيء أجهله، هناك سر مدفون في أشد أعماق نفسي ظلمة، هناك ما هو غائب عني وأنا عاجز كل العجز عن استحضاره، هناك شيء بعيد عن خطواتي العاجزة عن الاقتراب منه بالرغم من الغبار الذي يَخلِفُها والضجيج الذي لا تأبه له، هناك مسافة كبيرة تفصل بيني وبين الحقيقة، هناك ما يعجز إنساني عن البوح به لي، فهل أنا المذنب بامتناعه، أم هو العاجز بالرغم من قوته؟

أنا غاضب يا صديقي، ومقهور أشد القهر، لا لشيء سوى أنني ابتليت بغضب الآلهة، لا غضب البشر الذي بإمكانه التراجع في لحظة تأتي بالجديد أو القديم.

نعم، لقد ابتليتُ أنا الإنسان بغضب الآلهة لكي أحترق، لكي أتمزق، لكي أتعذب، لكي يكون الجحيم لي قبل مماتي، لكي أتناثر بانفجار يقف عائق أمام أي محاولة للملمتي، لكي أتناثر بانفجار يُبقي شرقي بعيد عن غربي وجنوبي بعيد عن شمالي، لكي أتناثر بانفجار يجعل أضدادي عاجزة عن الالتقاء عند أقصى الحدود، لكي أتناثر بانفجار لا يُبقي بقايا تكون شاهدة على وجودي، لكي أتناثر بانفجار يمنح لكل قطعة مني انفجارًا يأكلها، لكي تستحيل العودة، لكي يستحيل تجميعي، لكي يستحيل بعثي، لكي يستحيل وجودي مجددًا، لكي يُعلن لي رحيل بلا عودة، بل لكي لا يُعلن لي رحيل ولا عودة، فأنا لست موجود، ولا دليل سيكون متاح يُشير لوجودي، لا دليل سيكون بإمكان أحد تقديمه يُبرهن أو يُشكك باحتمال وجودي، لربما لأنه لا يوجد أحد. لا، لا، هذه حماقة مني، فكيف لي أنا المُتشكك بوجوده، أن يُشكِّك بوجود غيره؟! نعم، هذه وقاحة مني.

صديقك المُحتاج لك

ف.د

6 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ف.د

لست متيقن إذا ما كان هذا الغضب الذي اخترته لنفسك يا صديقي مدعاة للحزن عليك أم الفرح لك. نعم، لا تتعجب من اتهامي لك باختياره ولا تحاول الاعتراض فلائحة اتهامي صادر الحكم النهائي فيها بالإدانة.

ألم يكن خيارك الإقدام على تعظيم معرفتك بجهلك، إذًا فلتحتمل الغضب الذي تبثه في النفس هذه المعرفة، فلتحتمل ادعاء الناس المستمر بالمعرفة والعلم، فلتحتمل عجزك عن لفت انتباههم لما لم يدركوه، لما أخطأوا بالحكم عليه، فلتحتمل اتهامهم المتواصل لك بالجنون والجهل والحماقة.

أأعتذر لك على قسوتي؟ لا، لن أعتذر حتى لو طالبتني بذلك بإلحاح، حتى لو استجديتني وأنت جاثيًا أمامي بانكسار على ركبتيك والدموع تنهمر من عينيك، لأنني إن صح وكنتُ قاسيًا فعلًا وهذا ما لا أظنه، فأنت بحاجة إلى هذه القسوة.

اغضب يا صديقي، فالغضب في عالمنا هذا نعمة لا غنى عنها، اغضب وتأكد باستمرار أنك غاضب، اغضب وحطم، اغضب وتمرد، اغضب فالغضب في حياتنا كإحدى مفاتيح البيانو لا تكتمل ألحاننا إلا بوجوده، اغضب فالغضب تغيير، اغضب فالغضب يأتي بالجديد، اغضب واصرخ بوجه العالم بأعلى صوتك قائلًا: "أنت على خطأ"، اغضب وكن إلهًا، اغضب وقف بحزم وقل: "أنا أعترض، أنا أرفض"، هذا ما تود مني قوله لك أيها الخبيث، نعم، أنت تود مني تشجيعك على غضبك، تود مني تصفيقًا ورفع للقبعة، تود مني ما يساعدك على المواصلة لا وسيلة تساعدك على التوقف والتنعم بالحياة الهادئة.

دعني أعترف لك بدون مجاملة. أنت يا صديقي بكل صدق تستحق التصفيق ورفع القبعة وكافة أشكال التشجيع، ولكن لا على الاستمرار بغضبك، بل على جهدك المبذول في الفلسفة والذي هو سبب رئيسي في غضبك. تراك

متعجب وتتساءل: هل كانت ستتاح لي هذه المعرفة التي لطالما طمعتُ بها ولهثت وراءها بدراستي للفلسفة، بدون أن تكون أسباب غضبي أكثر؟ هل كان متاح فصل السعي في طلب المعرفة والطمع بطريقة تفكير مخصوصة، عن تلك الظروف التي تتيح لأسباب الغضب المُتخفّية التجلّي؟ إجابتي بكل بساطة: نعم، هذا متاح، هذا ممكن لمن يريد ذلك حقًا.

لقد اهتديت إلى وسيلة مؤخرًا يمكنها المساهمة في ذلك، دعني أعرضها عليك. لا تخف، لن أضغط عليك، في حال كانت تناسبك استعن بها، وفي حال لم تكن كذلك تغاضى عنها.

لقد اكتشفتُ مؤخرًا أنَّ الغضب هو نتيجة البحث عن آلية دفاع خارج النطاق الذي تم اعتماد واعتياد الدفاع فيه، وبهذا تبين لي أنَّ المرونة في التنقل بين نطاقات ذات وسائل دفاعية مختلفة تتيح لنا معرفة في تحصيل تجارب قليلة المخاطر وذات ارتدادات وعواقب خفيفة الأثر، تُفيد بتسريع نيلنا الوسيلة والآلية الدفاعية الفعالة في مختلف النطاقات أو تفيد بتسريع نيلنا وسائل وأليات دفاعية مختلفة قادرة على تحصيننا في مختلف النطاقات. إنَّ حيازة هذه المعرفة وذلك بمرونة التنقل، يُسهم بتقليص عدد وطول نوبات الغضب ويعمل على زيادة الفترات الفاصلة بينها. وبناءً على هذا، أعتقد أنَّ الطبيب النفسي الجيد يمنح مرضاه آلية الدفاع، ولكن الطبيب النفسي العبقري يمنح الخبرة في تحصيل آلية الدفاع ليُقلل اللجوء إليه في كل مرحلة وظرف يدفع للتنقل بين النطاقات، وهو بهذا يدفع مرضاه للاتكال على أنفسهم، وبالتالي يمنحهم الثقة في التعامل مع أزماتهم وظروفهم القاسية.

نعم يا صديقي، في حالتك ليس الدفاع ما يغضبك بل هو البحث عن آلية دفاع في النطاق الذي لم تعتَد بعد الدفاع فيه. لدى كل فرد رغبة في الاستقرار في النطاق الذي اعتاد الدفاع فيه، وهذه الرغبة تكون نتيجة الحاجة لتلمُّس العائد واستشعار القدرة على الاستفادة من الخبرة المُجتَهَد في تحصيلها والمستنفذ وقت طويل في لملمتها والمبذول في سبيل حيازتها تضحيات كبيرة، وهذه الرغبة باعتقادي هي سبب في ذاك الغضب. نعم يا صديقي، النطاقات المُعتاد الدفاع فيها ستبقى مُفضَّلة على تلك النطاقات الجديدة حتى لو كانت هذه النطاقات مُتطلِّبة لجهود أقل، وذلك للسبب الذي ذكرته، وهو حب الإنسان لرؤية جهوده مثمرة وتجاربه مُستفاد منها. يا صديقي، من اعتاد الدفاع في نطاق مُحدَّد، سيكون مترددًا مُستصعِبًا الانتقال للدفاع في نطاق آخر حتى لو كانت الانتكاسات والعواقب والخسائر أكبر في نطاق الدفاع المُعتاد الدفاع فيه.

في حالتك يا صديقي أنت مستعد لبذل أقصى الجهود في بحثك الفلسفي، ولكنك غير مستعد لبذل حتى ولو جهد يسير في أي نطاق آخر، وهذا الاستعداد هو سبب ردود أفعالك الغاضبة باستمرار.

يا صديقي، الحياة تشترط علينا تقديم التنازلات ليكون متاح لنا فيها المواصلة بدون عثرات مؤذية وسقطات ارتطاماتها ساحقة، تطالبنا بالتأقلم مع قوانينها ومتطلباتها، تطالبنا بالخضوع كما تطالبنا بالتمرد والمقاومة، فلا خضوع باستمرار، ولا مقاومة على الدوام.

هناك نطاقات تمنح الحماية من النطاقات التي يصعب التغلب على جاذبية العمل فيها وعلى جاذبية وسيلة الدفاع فيها، مثل النطاق الديني والنطاق التأملي.

إنَّ حجم التصوير الديني ومقدار وضوحه يكسبانه جاذبية تبث في النفس مشاعر وعواطف قادرة على انتزاع الفرد من نطاقه الجذَّاب لا عن الطريق التقليل من أهميته -النطاق أقصد-، وإنما عن طريق إشعاره -أقصد الفرد- عظمة وأهمية هذا التصوير الذي في حال أُدركت مقاصده أسهم بتحجيم كافة التصورات الأخرى التي تعيق الفرد من القيام بمهامه ومن استشعار الهدوء في حياته.

نعم، إنَّ التصوير الديني للضرر الأخروي يُحجّم من التصور الذي نحوزه للضرر الدنيوي، أي للضرر الناجم عن النطاقات الأخرى، وبالتالي فالتصوير الديني يجعلنا قادرين على التعايش مع الضرر الدنيوي وتقبله وتجاوزه.

نعم، النطاق الديني يمنح الفرد خروج سلس من النطاق الذي اعتاد الدفاع فيه، وولوج سلس للنطاق الذي لم يعتَد بعد الدفاع فيه. وإنَّ النطاق التأملي يسهم بذلك أيضًا ولو بدرجة أقل، فمقدار ونوعية الصفاء الذي يتطلبه التأمل تدفع المُتأمِّل بشكل لاإرادي للخروج من النطاقات الجذَّابة له.

إنني هنا لا في سياق الدفاع عن الأديان والممارسات التأملية، بل في سياق الدفاع عنك، فانتقِ ما يناسبك من الوسائل التي ذكرتها، لا للتخلص من اهتمامك بالفلسفة، بل للتخلص من الارتدادات السلبية لهذا الاهتمام عليك، لا للتخلص من غضبك، بل لتخفيف حدته.

هذا هو ما توصلت إليه مؤخرًا، وأرجو أن يكون مفيدًا لك.

أنا في خدمتك دائمًا يا صديقي، ولكن برهن لي أنك في خدمتي بخدمة نفسك، برهن لي أنك في خدمة نفسك لا من أجلك بل من أجلي.

أطلعني على ذلك النطاق الذي انتقلت إليه بدون آلية دفاع وتسبب في كل هذا الغضب، أعلمني به فلربما كنتُ قادرًا على مساعدتك في حيازة آلية دفاع إلى حين اتقانك للطريقة التي وصفتها لك.

أرسل لي صورة جديدة لك.

شوقي لك كبير وحبي لك أكبر. عيوني بانتظار رسالتك القادمة.

صديقك المُشتاق

ل.ت

9 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ل.ت

استنتاجاتك رائعة يا صديقي، ولكنها مُكلِفة وتتطلب تضحية لا أستطيع تقديمها وبالتحديد في هذه الفترة الحاسمة المُحتكِرة كل وقتي وتركيزي وجهودي.

أنا بالكاد أستطيع كتابة رسائلي إليك، بالكاد أستطيع منح حاجاتي وقت إشباعها. الأفكار تغزو رأسي في جميع الأوقات، وعقلي بالكاد يكون قادر على التعامل معها، بالكاد يكون قادر على فلترتها وطرد تلك التي لا تتوافق مع قناعاته، ولهذا أنا أولًا بحاجة إلى أفكار بإمكانها المكوث، أفكار بإمكانها الصمود أمام ذوق عقلي الرفيع وانتقائيته شديدة الموضوعية، أنا بحاجة لهذه الأفكار أولًا لكي أنال على الأقل شعور بجدوى جهودي، بل والأهم من ذلك بجدوى وجودي.

أنا مطرود بتلك المقدرة الهائلة لعقلي على طرد الأفكار، أنا غير مُتمسِّك بي لأنني عاجز عن التمسُّك بما تتوصل إليه جهودي وأبحاثي، أنا مرفوض لأنَّ أبحاثي لم تكتب لها النهايات لا لجهد مُحتكر لغيرها بل لأنَّ النهايات

ترفض التواجد فيها. نعم يا صديقي، أنا لستُ لي، ولهذا لا تطالبني بتملُّك بعضي لأنني لا أحوز الثمن الكافي لهذه الملكية، نعم، أنا لا أستطيع تحمُّل تكلفة هذه الحيازة.

أتعجب يا صديقي من طلبك التعرُّف على النطاق الذي يتسبب في هذه الفترة بفقداني لوسيلة الدفاع التي اعتدتُ الدفاع بها، على النطاق الذي يطالبني بوسيلة دفاع جديدة، كأنني على مدار ثلاث سنوات لم أُحدِّثك عنه، كأنني لم أكن أبُح لك بمعاناتي وانكساراتي وهزائمي فيه.

أواقع أنت في حب إحداهن؟ نعم، فهذا وحده ما يفسر طلبك، هذا وحده ما يُفسر اضطرابك في رسائلك مؤخرًا، هذا وحده سبب عجزك عن ربط الماضي بالحاضر، هذا وحده ما يُفسِّر حضورك المشوَّه والمشوش في رسائلك، هذا وحده ما يُفسِّر عدم التزامك بتعهدك بمواصلة المراسلة، هذا وحده ما يفسر قسوتك، هذا وحده ما يفسر نصائحك الجافة وأسلوبك العلمي في النصيحة. نعم، أين تلك العاطفة التي كان بمقدورها احتضاني بحنان وتطبيبي وأنا تحت المُخدِّر. نعم، لا سبيل للشك بأنَّ إحداهن تمكَّنت منك، لا سبيل للشك أنَّ شباكك تشاركت مع شباك إحداهن. نعم، لا بد أنك وقعتَ في تلك الحفرة التي تتسع لاثنين.

أيها الخائن اعترف ما اسمها، أمتذوقة هي للأدب، أتستمع هي لموتزارت، أتجد سعادتها بالنظر إلى لوحة المادونا، أقادرة هي على فهم كانط، أقادرة هي على التمرد كنيتشه وشتيرنر، أمغرمة هي بالكتَاب، أتستطيع التحليق بالكلمات، أتبغض هي الحياة السريعة المُتعجِّلة، أتقف هي لتأمل السماء، أفي إمكانها منحك الهدوء والسلام والثورة والوصول؟ أرجوك قل لي: نعم، هي كما ذكرتها. أرجوك دعني أقتحم خصوصيتك بتحقيق طلبي باطلاعي على إحدى رسائلها إليك. نعم يا صديقي، أنا قلق عليك، أنا أريد الاطمئنان.

ألها صديقة تريد الانتظار، لديها ما يشغلُها ويحتاج لوقتها وكامل تركيزها، لديها اهتمامات نبيلة وأهداف عظيمة، لديها طموح بترك أثر يختصر الطريق ومشقة الاستدلال والبحث للآخر، ليس لديها رغبة بحصار أحدهم وخنقه بالاهتمام، لديها عقل لا يتنازل للعواطف والمشاعر.

نعم يا صديقي، أنا بحاجة إلى من لديها ما يشغلها بدلًا من الانشغل بانتظاري، أنا بحاجة إلى من هي بحاجة إلى من ينتظرها لا لتلك التي تريد الانتظار، فأنا لا أريد أن أكون سبب في ألم إحداهن، لا أريد الابتعاد ممن يحاول الاقتراب مني، بل أريد الاقتراب ممن يحاول الابتعاد عني، من تلك

التي أنا الذي أتألم لبعدها، من تلك التي أنا الذي أنتظر منها أن تفرُغ مما يشغلها ويحتكر اهتمامها، من تلك التي أنا الذي أجدها عند التوقف لأخذ استراحة. نعم، أريد تلك التي تريد المسير والمسير والمسير، أريد تلك التي تتملص من بين أناملي كما تتملص المياه، أريد تلك التي لا تتقبل نفسها إلا وهي تسعى، أريد تلك البعيدة لا للاقتراب بل للمحافظة على البُعد.

أريد أن أعيش قصة حب لا سذاجة فيها، قصة حب فكرية، أريد امرأة أحاربها بكانط وتحاربني بنيتشه، أحاربها بهوبز وتحاربني بلوك، أحاربها بروسو وتحاربني بفولتير، أحاربها بأدلر وتحاربني بفرويد، أحاربها بالمعري وتحاربني بالمتنبي، أحاربها بموتزارت وتحاربني بيتهوفن، أحاربها بنجاة الصغيرة وتحاربني بأم كلثوم، أحاربها بدوستويفسكي وتحاربني بتولستوي، أحاربها بجوخ وتحاربني بمونيه، أريد قصة حب بعيدة عن كل تلك النقاشات المهترئة الساذجة. نعم، أنا مرهق من قدر السذاجة الخانق من حولي.

أريد امرأة أُمنح بعينيها الفرحة بجمال يتراءى لهما، أُمنح السعادة التي يبثها الجمال المتجلِّي للأعين التي ليست كعينيَّ، أريد امرأة تمنحني شيء من ذلك السلام والهدوء الذي تبثه في النفس تلك المناطق المسالمة الهادئة، أريد امرأة تمنحني الحياة في تلك الأماكن الحية، فأنا مغلق ولا شيء قادر على اختراقي يا صديقي.

أريد امرأة تؤنس وحشة عزلتي، وتطبب انكسارات الكتابة وحروق الشوق لقراءة كتب شديدة الإلحاح، أريد امرأة تفتحني أنا المُغلق على العالم، أريد امرأة تخترقني بهدوء، أريد امرأة تمنحني أناي.

صديقك المحب أبدًا

ف.د

15 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ف.د

يا إلهي، أهذا أنت حقًا الذي في الصورة؟! في أي جحيم تمكث يا صديقي، وما هو ذلك الجحيم الذي بإمكانه القيام بكل هذا؟!

لماذا "أنا قوي" غير مُجدية معك بالقدر الذي هي به مع غيرك؟! لا، لا، هي مُجدية دائمًا، ولهذا لا بد أنَّ التقصير منك، لا بد أنك كاذب بادعائك ترديدها باستمرار. نعم، أنت كاذب، كيف صدَّقتك طوال هذه المدة؟! أنت لا تعرف عائد "أنا قوي" ولهذا تجرَّأتَ وكذبت عليَّ، أنت تجهل ما بمقدور "أنا قوي" فعله ولهذا اعتقدتَ أنني لن أكتشف أمرك. نعم، أنت غير قادر على تصوُّر فعالية لمساتها المُطيّبَة في كل جحيم، عاجز عن تصور كيف أنَّ بمقدورها منح التحصين الذي لا تخترقه أخبث الشياطين، كيف أنها تُحيل الإنسان إلهًا، كيف أنها تمنح فرص للهجوم لا فرص للدفاع، كيف أنها تمنح فرص للتأثير لا للتأثُّر، كيف أنها لتسديد اللكمات والركلات لا لتلقيها، كيف أنها لا تكتفي بمنح الآخر معرفة بحدوده بل أيضًا توقفه عندها، نعم أنت غير قادر على استيعاب كيف أنَّ بمقدورها منحك التقدُّم وللآخر التراجعَ. نعم، أنت تجهل كيف أنَّ "أنا قوي" ترجمة لأنا موجود، بل ترجمة لأنا موجود ولا اعترض على وجودي.

نعم يا صديقي، لقد بثت فيَّ صورتك حزن عميق وألم شديد وبؤس قاتم. هذا وعدك لي بترديد "أنا قوي" باستمرار، هذا وعدك لي بالحفاظ على صحتك، هذا وعدك لي بالتخلي عن كل ما يؤذيك أو على الأقل بمحاولة تخفيف ضرره عليك، هذا وعدك لي ببذل الجهود لطمأنتي عليك، هذا وعدك لي بعدم السماح للظروف القاسية والآمال والطموحات الكبيرة بإحلال هذا التغيير البشع فيك.

لا ثقة لي بك بعد اليوم، لقد خذلتني. نعم، أنا نادم على تركك وأنت في حالتك هذه، أنا نادم على الاستماع لوعودك والخضوع لإلحاحك عليَّ بالسفر. أقسم أنني سأحاول استغلال أقرب فرصة تتاح لي للعودة، لكي أعاقبك أيها الخائن بقرب مزعج لا راحة فيه. نعم، لقد كنتُ محقًا بحاجتك لي، لقد كنتُ محقًا بأنك لا تستطيع الصمود بدوني. نعم، أنت ضعيف جبان ناكث بوعوده.

بالتأكيد أيها الجبان الهارب باستمرار ستتحجج بالتكلفة والوقت والظروف، كما هي عادتك، بجانب الإشادة باستنتاجاتي لمحاولة إرضائي وتلطيف الأجواء، هذا متوقع منك أيها الخبيث. أنت مكشوف يا صديقي وجميع محاولات إخفاء نفسك عني ستكون غير مجدية، ألم تدرك ذلك بعد؟ نعم، أنت تريد الاحتفاظ بغضبك، تريد الاستمرار بالتضحية بنفسك، ولهذا أرجوك يا صديقي توقف لوهلة والتفت وتساءل: هل هناك عائد من هذا

الاحتراق؟ هل هناك جدوى من هذه التضحيات؟ أليس الهدف أسلم بسلامتنا؟ أليست الجهود باقية ببقاء أصحابها؟

أما فيما يخص عدم حضوري في رسائلي إليك مؤخرًا، فأنا اعتذر لذلك، فلقد حزرت أيها الخبيث سبب ذلك. نعم، أنا واقع في الحب، أنا واقع في شباك امرأة مُعقَّدة صعبة القراءة كما أردتها دائمًا، امرأة ليست مطابقة للصورة التي رسمتها ولكنها قريبة جدًا. لديها يا صديقي شيء مختلف يميزها، فيها تلك اللمسة التي يمنحها الله للقليلات، لديها ذلك الاختلاف الذي تستطيع تمييزه بسهولة، لديها ما لا تستطيع منحه لي امرأة أخرى. لها يا صديقي ذلك الحضور التي بإمكانه زلزلتي وكركبتي، لها تلك الابتسامة التي بإمكانها بث الراحة في العقول المُرهَقة، لها تلك النظرات التي تنتمي لذاك الصنف الفريد من العيون المُربِكة، لها ذلك النفوذ الذي تعجز أمامه أقسى القلوب تحجرًا، لها تلك القراءة للطبيعة التي لا سبيل لك عند سماعها إلا إبداء أشد إعجاب، لها قدرة على النقد تعجز أمامها أشد الحجج إقناعًا، فيها يا صديقي من عمق السماء ومن عظمة الله ومن جمال الطبيعة، فيها من جمال بريق مياه نهر متدفق، ومن جمال رسمة شعاع أصاب الأفق من أسفل، ومن جمال ليلة نجوم سمائها باسمة وقمرها ضاحك، فيها يا صديقي من كل شيء أشياء. أتعجَّب يا صديقي كيف لكيان أن يتسع لكل هذا الجمال! نعم يا صديقي، هي مصدر لدهشتي وذهولي.

سألتني: هل لديها صديقة؟ نعم، ولكنها لا تناسبك، فهي امرأة مهيبة، لا أحسبك ستكون قادر على احتوائها، امرأة وصفك قليل عليها، امرأة ستجد نفسك بدونها مهما اجتازت خطواتك باتجاهها المسافات، امرأة ستزيد من تحقيرك لنفسك، ستدفعك للاحتراق بنار أسعر لكي يتمكن نور احتراقك من مجابهة نور احتراقها وفي النهاية ستجد نفسك بلا قدرة على المجابهة، امرأة لن ترفضك مرة بل ألف مرة، امرأة لن تكون معاناتك مجدية في الاقتراب منها، امرأة مُكرّسة نفسها لهدف تعترف بأنها لن تصل إليه، امرأة معرفتها ستزيد بؤسك واختناقك. نعم يا صديقي، هي امرأة لا تناسبك، امرأة لن تستطيع أنت الضيق احتواءها، ستُميتك قهرًا وتخنقك حبًا وتعذبك شوقًا.

أنت يا صديقي بحاجة إلى امرأة أخرى تستطيع احتواءها، أخرى أنت قادر على التماسك معها. نعم، أنت تحتاج إلى من تمنحك الاهتمام، من تختار لك الملابس المناسبة، من تمنح جسدك الهزيل طعام يجعله قادر على الصمود أمام أشد الوعكات، من تمنحك حرصها، من تمسح جبينك الملتهب بماء

بارد، من تمنحك كتفها للبكاء، من تمنح سمعها لشكواك وكلماتها المُطيّبَة لانكساراتك.

نعم يا صديقي، أنت بحاجة إلى من تعوّض إهمالك بنفسك، أنت بحاجة إلى من تساعدك بحمل أعبائك، لا لتلك التي لن تجد لديها الاهتمام الذي هي عاجزة عن منحه لنفسها أيضًا، لا لتلك التي ستُهلكك، لا لتلك التي ستترك تموت بدون التفاتة، بدون حتى أن تترك لنفسها لحظة لإنزال بضع دمعات عليك، أو حتى التوقف أمام قبرك بباقة زهور لترتيل صلاة أو دعاء برحمة، أنت لا تحتاج إلى تلك القاسية، أنت بحاجة إلى إنسانة لا مُتألِّهة. أجدك تقول أنك بحاجة إلى من تريد منك انتظارها، فاعلم يا صديقي أنَّ هذه لا تريد من أحد حتى انتظارها، لا تريد أن تمنح حبها لأحد، فكيف لمثل هذه الكائنة أن تكون مناسبة لأحدهم؟!

لا تبتئس يا صديقي، الحسناوات هنا كثر، لا تقلق سأجد لك من تناسبك، سأجد لك أفضل من طلبك، سأجد لك من لا تجد الكلمات أمامها، سأبحث لك عمن ستكون عاجز عن اختيار أفضل منها لنفسك، فقط اطلب ذلك وستجدني على الفور أنفذ. نعم يا صديقي، القليل عنك قادر على إيقاع النساء في حبك، فلا تقلق، لن أعدم الوسيلة.

لقد استطردنا في أحاديث الحب، إذا كان لديك إضافة فاكتبها ودعنا نعود لأولئك الرفاق الذين كانوا سبب غضبك، لقد نسيتُ أنَّ هذا موسم اجتماعاتكم. هل عداؤهم لك يتعاظم وحربهم عليك قادتهم لانتصار جديد؟ غضبك منهم له ما يفسره، فاكتب لي الأسباب بالتفصيل، لعلِّي أكون قادر على مساعدتك في تفادي مواجهتهم وتخفيف حدة عدائهم لك.

وتذكر دائمًا يا صديقي أنَّ العدالة تتمثل بتحملهم انطلاقًا من قدرتك لا من قدرتهم الضعيفة على تحمُّلك. نعم، العدالة تتمثل في العطاء بقدر المقدرة لا العطاء بقدر العطاء. لا تدعهم يُلبسوننا شخصياتهم المريضة، لا تسمح لهم بإهدار جهودنا التي بذلناها في تعظيم قدرتنا على التحمُّل والعطاء. انطلق يا صديقي منك إليهم لا منهم إليك.

ملاحظة: في المُغلَّف ستجد صورة تجمعنا ثلاثتنا.

المخلص لك

ل.ت

18 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ل.ت

لربما أنا في جحيم "أنا قوي". لا تتسرع يا صديقي أنا أمازحك فقط. لا داعي لكل هذا القلق الذي تبديه، صحيح أنني أعاني ولكنني قادر على الصمود، قادر على الاستمرار.

أقسم أنني أستعين ب"أنا قوي" على الدوام، إنني لا أنهض من الفراش كل يوم إلا ويكون ترديدها أول مهامي، ولا آوي إليه في المساء إلا ويكون ترديدها آخر مهامي المُنجزة.

أنا لا أشكك في جدواها، ولا أجرؤ على فعل ذلك، ولكنها يا صديقي عاجزة عن تحصيني في كثير من الأحيان، عاجزة عن منحي تلك القدرة التي بإمكاني بها التغلب على جميع العقبات والعوائق.

لا تقلق ما زال إيماني بها كبير، وأملي بها عظيم، وحتمًا عائدها سأناله يومًا ما، وحتمًا هذا اليوم ليس ببعيد. نعم، لقد منحتني الكثير وحتمًا ستمنحني أكثر. لهذا يا صديقي امنحني الوقت، وأعدك بأنك ستجدني في حال أفضل، نعم ستجدني أقدر وأقوى.

أرجوك اهتم بشؤونك ولا تشغل بالك بي، لن أكذب عليك بالادِّعاء بأنني بخير ولكنني أقول بأنني سأكون بخير، سأصبح أفضل، سأكون أقوى، ولكنني بحاجة لمزيد من الوقت.

يا إلهي، في الصورة التي أرسلتها ملاكان. أنا سعيد لك يا صديقي، نعم هذه امرأة حتمًا ستكون قادرة على إسعادك، امرأة حتمًا ستكون قادرة على منحك الكثير، أما بالنسبة لصديقتها فإنها من النساء ذوات الجمال المربك لمن هم مثلي، ذوات الجمال الذي يهددني ويدفعني بعيدًا مخافة فقدان القدرة على الابتعاد، حتى وصفك لها أثار فيَّ مشاعر تجاهها، جعلني مُعجب بها بشدة، جعلني أتخوف من لقائها.

في عينيها يا صديقي نظرة تحدي، نظرة توحي بالقدرة على التغيير، نظرة فيها الحدود مُتجلِّية للآخر، نظرة تُوحي بحيازتها لطموح لا يمكن لجمه، نظرة مُستبصِرة مُنطلقة للمكان البعيد الذي لم يتسع له زماننا، نظرة تملأ النفوس رغبة بالعمل، نعم إنها تحوز نظرة جادة متمردة على عالمنا الرخو الساخر باستمرار.

هنيئًا لك بحبك وصداقتك يا صديقي، لقد رأيت في عينيك سعادة لم أراها منذ زمن بعيد، شكري لهما كبير على رعايتك والاهتمام بك.

لقد كان اعترافي لك بحاجتي إلى امرأة أحبها، اعتراف ناجم عن حالة ضعف وانكسار، والحقيقة هو اعتراف لا يُعبِّر عني اطلاقًا، وإنما يُعبِّر عن تلك اللحظة. لقد كنتَ مُحقًا بأنني لن أكون قادرًا على احتوائها، ولكنك غفلت عن حقيقة أنني لن أكون قادر على احتواء أي امرأة. نعم، أنا أشبهها كثيرًا صديقتك، أنا أخاف من الارتباط بإحداهن، أنا مشغول باستمرار مثلها، صحيح أنَّ نظرتها توحي بأنها أقوى مني وتحوز مقدرة أكبر على الصمود، ولكن قوتي لها مفعول قوتها في الاستمرار بالرفض، ومواصلة التحدي. نعم، آثار ذلك الرفض والتحدي مُتجلِّية عليَّ أكثر، ولكن ما أدراك يا صديقي فلربما جمالها وسحر عينيها وهدوء ابتسامتها هم السبب في اختفاء آثار وارتدادات مواصلة التحدي والرفض عليها، لربما هي تحترق من الداخل مثلي، نعم لربما قوتها وقوتي من نفس الصنف والدرجة.

لا تقلق يا صديقي، مثيلات هذه الأنسة درجة الاحترام والتقدير المُتوجَّب عليَّ إبدائها لهن تجعلني مكتفي بالإعجاب بهن، تُلزمني بعدم التجرؤ على الوقوع في حب إحداهن. نعم، أنا معجب بصديقتك كثيرًا، ولكنني متيقن أنني لن أقع في حبها، نعم فطموحي وطموحها سيضعان لنا نحن الاثنين الحدود، كما تفعل هذه المسافات التي بيننا الآن.

تقول بأنني بحاجة إلى امرأة تعوّض إهمالي بنفسي! أحقًا هذا هو تصورك لوظيفة المرأة! أحقًا تريد لي امرأة بهذه الصورة الرجعية يا صديقي، أحقًا تعتقد أنَّ المرأة وجدت لتعويض وتغطية إهمال الرجل بنفسه! لا، لا أعتقد أنك تقصد ذلك، عقلك وثقافتك ووعيك لا يتجرؤون على رسم هذه الصورة لها. نعم، خوفك وقلقك وحرصك عليَّ، هم من أوقعوك في هذا الخطأ، هم من دفعوك لإحالة هذا الدور للمرأة. نعم، إهمالي بنفسي لا يُبرر لك وأنت النصير للمرأة أن تقبل لها بهذه الصورة. أنا مصدوم.

يا صديقي، طموحي سيضر بكل امرأة تقترب مني، فارتدادات إهمالي لا تطالني فقط، بل تطال جميع من هم بقربي، لهذا لا يوجد أحد بقربي، لهذا أنا منبوذ، متروك وحيدًا في صراعه. نعم، يا صديقي فوضى حياتي هذه لا ينبغي أن تكتوي بها أي امرأة. أنا لا أناسب جميع النساء كما هي صديقتك في عدم ملاءمتها لجميع الرجال. نعم، نحن من صنف واحد، نحن منتفون بطموحنا، نحن متمردون على واقعنا، نحن ممن يُعاقبنا العالم لمجرد الرفض، نحن الموجودون لا لشيء سوى الاحتراق.

أعترف بأنني أرغب بالوقوع في حب إحداهن، ولكن يا صديقي هذا ليس مطلبي، نعم أرغب بشدة بمقابلة تلك التي ستجبر قلبي على الاضطراب في حضورها، ولكنني في ذات الوقت لا أريد تقديم التنازلات، فكيف تجتمع فيَّ هاتان الرغبتان في ذات الوقت؟! كيف يمكنني التخلص من إحداهن؟ كيف يمكنني أن أرغب بالحب، وفي ذات الوقت لا أرغب بظروفه وبيئته؟! كيف يمكن أن أكون مُؤثِر وأناني في ذات الوقت؟! كيف يمكنني أن أرغب بأن أكون مع إحداهن في نفس الوقت الذي لا أرغب فيه بأن أكون مع أحد؟! لماذا أتعذَّب بجميع الخيارات تلك التي وقع اختياري عليها وتلك التي لم أجرؤ على اختيارها؟ لماذا أتعذب بالحالة ونقيضها؟ ما سر هذه المقاومة للحياة فيَّ وأيضًا سر هذه الرغبة فيها؟! لماذا لا أكتفي بتوليد دوافع للآخر لمقاومتي، وأطمع وأسعى لتوليد دوافع لنفسي لمقاومتي؟! هناك ما هو غير مفهوم، هناك قصور في عقلي هو السبب في ضبابية الرؤية، هناك مسافة كبيرة تفصل بيني وبين المعنى من كل ذلك لا تجتازها محاولاتي.

نعم يا صديقي، أنا خائف من الحب، أخاف لأنني إنسان أدمن إعمال عقله والتضحية بعواطفه ومشاعره، أخاف لأنني بلا اطِّلاع على التجارب، أخاف للنهايات الحزينة لقصص الحب.

بغض النظر عمن هي، أخاف أن أحبها فأجد أنني لا أحبها كفاية، أخاف أن أحبها فأجد أنني بذلك الحب أُقيدها وأحاصرها وأخنقها، نعم يا صديقي أخاف أن أهملها أو أتملَّكها، أخاف لأنني بلا وقت لي، أخاف لأنني أحس بالاغتراب عندما تجتاحني عواطف ومشاعر ما، أخاف لأنني جبان، أخاف لأنني لا أريد أن أؤذي أحد، أخاف لأنني أناني، أخاف لأن وقتي ليس ملكي، أخاف لأنني هارب باستمرار، أخاف لأنني لا أحوز استحقاقًا، أخاف لأنني لا أستحق المكافأة، أخاف لأنني أجهلني، أخاف لأن المستقبل يهددني باستمرار، أخاف لأنني لست لي.

نعم يا صديقي، أنا كما كتبتُ لك سابقًا مغلق، أنا مُقفل عليَّ بأشد القيود صلابة، أنا بعيد عن تلك القادرة على فتحي، عن تلك القادرة على تحطيم القيود التي تُبقي الأبواب مقفلة في وجهي باستمرار.

"هي وأنا" لفظة لن تدخل في جُملي لتعبر عن اتحاد، "هي وأنا" لفظة لن تدخل في جملي لتعبر عن حالة أشعر فيها بالهدوء والسلام، "هي وأنا" ستبقي لأولئك الذين كان لهم حظ في هذه الحياة غير العادلة في توزيع الحظوظ. نعم، "هي" و"أنا" لفظتان لن تجتمعا في جملي، ستبقى المسافات شاسعة بينهما، نعم سيكون الكيان الذي بإمكانه الجمع منتفي باستمرار لها

ولي. توقف لوهلة يا صديقي، كيف غفلتُ عن حقيقة أنني لستُ متأكد بعد من إمكانية وجود "هي"، أحقًا سيكون لها وجود يومًا؟ نعم، لربما أفضِّل التصديق بأنه سيكون لها وجود، لكي أستأنس بها، لكي أتوهم وجود تلك المسافة التي تفصلني عنها، تلك المسافة التي هي في كل الأحوال أقل توحشًا من ذلك الفراغ المُفترِس. نعم يا صديقي، أنا أفضِّل التصديق بأنه سيكون لها وجود يومًا، لكي يتاح لي أن أشير لوجودي بها، لكي انطلق منها إليَّ أنا الذي لا مُنطلق لي ولا إليَّ، لكي أشعر بوجود الطرف الآخر، لكي أبدد شعوري بتلك العزلة التي لا يحتملها إلا الله، تلك العزلة التي لم يوجد إنسان لاحتمالها، لكي أهوّن عليَّ عذابي وشقائي. نعم، أنا مخادع، نعم هذه الحيلة هي أثمن ما أملكه، لا بل هي كل ما أملكه.

قاسية هي أحاديث الحب في فتح الجروح، لهذا دعني الآن أنتقل لكي أحدِّثك عن الرفاق في اتحادنا الذي بت أخاف عليه ومنه.

لقد انطلقتْ الجلسات الافتتاحية التي يغلب عليها التخطيط للمؤتمرات القادمة، والترحيب بالأعضاء والأحزاب الجدد في الاتحاد، والتي يتم فيها التذكير بما تم الإجماع عليه في مؤتمرات السنوات الثلاث الماضية، وبما كان مصدر للخلاف والاختلاف عليه خاصة في برنامج عمل الاتحاد ونظامه الداخلي.

لقد لاحظتُ مؤخرًا وهذا ما أثار غضبي، أنَّ كثير من الرفاق أخذوا بالتخلي عن الوسائل التي كانوا يستعينون بها في إخفاء وتلطيف عداوتهم لي، نعم لقد أخذوا باللعب على المكشوف، لقد باتوا بلا حاجة إلى إخفاء وقاحتهم وعدائهم ورفضهم وعدم تقبلهم لاختلافي، لقد أصبحوا على درجة من الوقاحة تؤهلهم لارتكاب فعل شنيع، تؤهلهم لإلحاق أشد الأذى بي.

أنا لست خائفًا يا صديقي عليَّ، بل على الثورة التي بدأت شعوب المنطقة تتهيأ لها وتوشك على الإقدام عليها نتيجة الظروف المعيشية الآخذة بالتدهور، فلا عمل ولا حرية ولا مساواة ولا عدالة، نعم أنا خائف على الثورة من هؤلاء الذين يعتقد بعضهم أنَّ الحماس والصدق كافيان لحراك ثوري ناجح قادر على انتزاع الحقوق وتحقيق آمال الشعوب ومطالبهم.

بعدما كان حماسي في تأسيس الاتحاد يعجبهم، ها هو الآن في تبني الأفكار وتوليدها وخلق التوجهات وتقييمها يُضايقهم ويزعجهم، ها هو الآن يُتهم بالرجعية وبالمساهمة في إماتة الحماس الجماهيري، ها هو يُتهم الآن بعرض تنبؤات وطرح قراءات وتوقعات تبث التردد والخوف من الاستعانة

بالوسائل المقترحة، ها هو الآن يُتهم بالمغالاة في التخطيط والتقدير والحذر، ها هو الآن يتهم باللاواقعية والراديكالية كما لو كانت هذه التهم توحي بنقص وعيب.

لقد أخذوا بتشكيل التحالفات التي حتمًا إذا استمرت، ستتسبب للاتحاد بتوجهات ليست توجهاته، وبمسارات ليست مساراته، وبتبني أفكار لا اجماع ولا توافق ولا مشاورات حولها، وبانقسامات ستهدد بتفكيكه وانحلاله.

أنا سأستمر بالتمسك بمبادئ حزبنا وطرح وعرض أفكاره في مختلف المؤتمرات لضمان إسهام هذه المبادئ بتشكيل برنامج الاتحاد ونظامه الداخلي. لا تقلق عليَّ، فلقد قدِمتُ إليهم هذه المرة بحجج قوية وأدلة دامغة وقراءات يسهل استيعابها والخضوع لأفكارها وتحذيراتها، قدِمت إليهم بجديد لن يستطيعوا الصمود أمامه ورفضه، فلقد منحتني فترة الإعداد والمشاورات الحزبية فرصة للبحث أكثر ووقت لربط الأفكار ببعضها، مما سيمنحني وصول أسرع إليهم بدون أن أترك لهم وقت يتيح لهم التخطيط لإزاحتي، أو يتيح لهم القيام بحراك ينزع من الثوار حول العالم ثقتهم بجدوى الثورة.

لقد ضم الاتحاد بعض الأعضاء الجدد، وجدتُ في مقالاتهم الداخلية قدرة على الإحاطة كبيرة، توحي بأنهم سيكونون متفهمين لأفكار وتوجهات حزبنا، سأحاول إقناعهم واستمالتهم إلى جانبنا، لتحصيل دعمهم وتكوين التحالفات معهم.

لا تقلق، كثير من الظروف هذه المرة ستقف إلى جانبي بالرغم من البداية التي لا تبشر بذلك، وسأعمل كما في كل موسم على تخفيف حدة الخلاف لكي تتبدد العداوة التي لن تخدم أحد، وستجعل الجميع خاسر في هذه المرحلة التي تستوجب أن يكون الجميع رابح.

صديقك إلى الأبد

ف.د

26 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ف.د

لدي خبر وطلب يا صديقي، أعلم أنهما سيُخيفانك ويزعجانك، ولكن أنا متيقن أنك ستتمكن من التعامل معهما من أجلي. أما الخبر فهو تلقي صديقتي الأنسة هيا دعوة للانضمام إلى الاتحاد من الرفيق رقم 17. لا أعلم كيف التقت مساراتهم، وكيف تمكَّن من الوصول إليها والتعرُّف عليها بالرغم من هذه المسافة الكبيرة التي تفصل بينه وبينها، وصراحة لا أعلم أيضًا إذا ما كان بينهما معرفة سابقة ولا أعلم إذا ما كانت تجمعهما علاقة عاطفية أو معرفية، ولهذا كل ما أعلمه -وهذا هو المهم- أنَّ هذه الدعوة تستعجلها للالتحاق بالاتحاد قبل بدء مؤتمراته التي ستنطلق فيها الحوارات الساخنة والنقاشات المُرهِقة والتي من نتائجها سيستقر الاتحاد على برنامجه ونظامه الداخلي.

يا لها من مصادفة بشعة وجميلة في ذات الوقت، نعم بشعة بكون مصدر الدعوة الرفيق رقم 17. يا إلهي كيف يكون هذا؟! كأنَّ القدر مُصمم على تحديك وتعظيم معاناتك من خلال هذا الذي لطالما عاداك لمجرد أنك رشَّحته بدلًا منك لرئاسة الاتحاد بعدما تم الاجماع على اختيارك، من خلال هذا الذي لم يدَّخر جهدًا في تأليب الرفاق عليك، من خلال هذا الذي يراك منافس وعدو له، من خلال هذا الذي لطالما كان تمسكه بأفكار لم يقع اختياره عليها إلا لأنها نقيض للأفكار التي تحملها، من خلال هذا الذي يجد باستمرار في تنازلك له إهانة واستخفاف، وفي تحديك له عداء. نعم، هذه صدفة قبيحة ولكنها جميلة في كون الدعوة موجَّهة للأنسة هيا، هذه المرأة التي لطالما عرفتها محاربة ثائرة مناضلة ووجدتُ فيها شرارة قادرة على إشعال أسعر النيران ورأيتُ فيها قدرة على إحلال الجديد بطموحها الذي لا سبيل لإلجامه.

هل يُعقل أن يكون هذا الخبيث قرر الاستعانة بها لهزيمتك؟ إذا كان الأمر كذلك وهي كانت مُقتنعة بمشروعه، فأنت من هذه اللحظة مهزوم يا صديقي شر هزيمة، أنت من هذه اللحظة بلا أي تأثير بلا أي فرصة للنصر، ولكن في حال لم تكن مُقتنعة بمشروعه ومالت لمشروعك فالنصر حليفك، بل حليف الثورة، فهذا ما سيُرضيك أن أقوله.

لا تتسرع يا صديقي وتعتقد بأنه يمكن التلاعب بها، لا تتسرع وتعتقد بأنها بلا مشروع، فأنا أُرجّح أنَّ لديها مشروعها الخاص المستقل، نعم فهي قادرة على هذا، ولو صح توقعي، فحينها ستتجرع أنت وهو الهزيمة.

بصراحة يا صديقي، أعتقد أنها ستخطف الأضواء منكما، وستتمكن من استمالة الجميع إلى جانبها واستقطابهم إلى مشروعها. نعم، سيتلقى ذلك الحاقد الهزيمة لا منك بل منها، وهذا باعتقادي سيُرضيه، فهذا سيشعره بمساواته لك، نعم سيطرد بهذه الهزيمة التي سيتلقاها كلاكما شعوره بالنقص والدونية، ذلك الشعور الذي تسلل إليه من رؤيته لك تتطور باستمرار بأفكارك وشخصيتك.

بصدق، هي تعرف الكثير عنك، فلقد كنتُ أتحدث باستمرار عنك في كل مرة كنت ألقاها برفقة خطيبتي التي لربما هي أيضًا حدَّثتها عنك مطولًا لدفعها للوقوع في حبك. لقد أبدت في كثير من الأوقات رضاها عن كثير من أفكارك، وتحفظت بالحكم على عدد منها، في حين قامت برفض بعضها.

أنا مذنب يا صديقي بعدم تعريفك عليها وبعدم اطلاعك على بعض أفكارها خوفًا عليك من الوقوع في حبها، نعم أنا مذنب في تعريفها هي التي قد تكون خصمًا لك عليك، أنا مذنب بجعلك مكشوف لها إلى هذه الدرجة، أنا مذنب بجعلك بدون قدرة على مفاجأتها في حال كانت خصمك. نعم، أنا أحمق، كيف كنتُ باستمرار خائف عليك من الوقوع في حبها مستبعدًا احتمال أن تكون خصمًا لك يومًا ما؟

هل سأكون مُخطئ حقًا؟ ألا يمكن أن تكون حليفًا، ألا يمكن أن تكون نصيرًا؟ أرجو ألا أكون مخطئ، أرجو أن أكون منحتك الدعم ومددتُ لك يد العون بتعريفها عليك.

سيستغرق وصولها بعض الوقت، فحاول استغلاله يا صديقي بالبحث عن آليات دفاع جديدة غير تلك التي اعتدت استخدامها، حاول تحصين نفسك، حاول إحداث تغيير فيك يجعلك قادر على الصمود أمامها لفترة أطول، يجعلك قادر على مفاجأتها.

أما طلبي الذي أعلم بأنه سيكون ثقيل عليك، ولكن أعلم أيضًا أنه سيكون بمقدورك احتماله ولهذا أتوجه به لك، فهو تهيئة شقتك لاستضافتها، والذهاب في تاريخ سأحدده لك لاحقًا لاستقبالها في المطار.

أعلم أنك بالكاد تكون قادر على الاهتمام بنفسك، ولهذا اطمئن فلا داعي للتفكير كثيرًا، نعم لا داعي للقلق فهي تفضِّل الاعتماد على نفسها في القيام بمهامها، فمثلًا لا داعي للترتيب ورائها، لا داعي لتقديم القهوة لها في الصباح، لا داعي لمغادرة غرفتك لاقتناء حاجياتها، لا داعي للخوف من

احتمال تعطيلها لروتينك، لا داعي للخوف من احتمال بعثرتها للهدوء في حياتك.

هي أخف من ضوء النهار ومن عتمة الليل، ولهذا لا داعي لقلقك. لا أستبعد أن تؤنس وحشة عزلتك، ويُحفزك اجتهادها على بذل جهود أكبر، ويثير فيك جمالها رغبة في الحب، وتساعدك شخصيتها القوية في بناء شخصية أكثر اتزانًا. نعم، ستجد فيها الكثير مما سيُلهمك ويغيرك ويبعثك، ولربما يسعدك.

أعلم أنك لا تستطيع التعامل مع النساء لتجربتك الفقيرة معهن ولشخصيتك الانطوائية التي لا تساعدك على الصمود أمامهن طويلًا، أعلم أنه يكفي لأي امرأة أن تقف أو تجلس بجوارك لتثير فيك اضطربًا تُعبّر عنه جميع ملامح وجهك وأعضاء جسدك. نعم، أنت ضعيف جدًا، مهزوم باستمرار، فاقد لقدرتك على احتواء نفسك أمامهن. أعلم أنَّ هذا كله سببه الخوف من الوقوع في الحب. فلماذا يا تُرى مع كل هذه المعرفة بك تراني أطلب منك أن تستعد لمكوثها معك؟ لا تتعجب يا صديقي، فذلك سببه عدم معرفتي لأحد غيرك يمكنني الاعتماد عليه في مهمة خطيرة كهذه. أنت لا تعرف كم هي قريبة من خطيبتي وبالتالي مني، أنت عاجز عن تصور مقدار الحزن الذي سيصيب خطيبتي في حال جرى لصديقتها مكروه. نعم، يا صديقي مدينتنا خطيرة جدًا، السُلطات فيها مستنفرة، متخبطة، سريعة الاشتباه، ولهذا أنت المتمرس على إخفاء نشاطك الثوري قادر على مساعدتها في إخفاء نشاطها، قادر على تجنيبها الوقوع في الفخاخ التي ينصبها هذا النظام للثوار. مع الوقت ستعتاد وجودها، ولهذا أضمن لك أنك ستصبح معافى من مرضك هذا.

ولهذا أنصحك في هذه الفترة بالوقوف أمام المرآة وترديد جمل تعزز من ثقتك وقدرتك على التعامل مع النساء من قبيل "أنا قوي" "أنا قادر على القيام بهذه المهمة" "أنا جيد في التعامل مع النساء"، وأنصحك بتخيل وجودهن حولك، لكي تُحسن استقبالها والتعامل معها. استعن بالصورة التي أرسلتها لك إذا كان خيالك مُعطَّل.

نعم، أعلم أنَّ خوفك في أحيان كثيرة يدفعك للاستعانة بالوقاحة مع النساء، ولهذا أرجوك تدرب جيدًا لتُحسن التعامل معها، تدرب لتحسن استضافتها، أريد أن أسمع منها أخبار سارة، أريد أن يكون لك سمعة حسنة عند خطيبتي.

لا تسمح للرفيق رقم 17 بالاستئثار بها، واستمالتها إلى جانبه، قف ببسالة وبجرأة وتحدى طموحه القذر. نعم، ستجد لعاب أطماعه على لحيته، فأوقفه عند حده.

لا تقلق شخصيتها القوية لن تسمح بأن يتجاذبها ويتلاقفها أحد، ولهذا ما أطلبه منك بسيط، وبمقدورك القيام به.

أنت من سيُقدِّمها للرفاق، لكي لا تترك للرفيق رقم 17 الفرصة للاستفراد بشرف دعوتها وضمها وتقديمها، فيكسب بذلك الكثير من المناصرين، أنت من ستُقدمها للرفاق لكي تبطل تعويذته الخبيثة، أنت من سيستقبل ضيوفها لكي تمنح أفكارك مساحة أكبر للظهور ووقت أطول للعرض.

أعلم أنك لن تكون راضيًا عن مثل هذه الأساليب، وأعلم أنك ستجد أنَّ مجابهة الرفيق رقم 17 بوسائله هي خسارة بحد ذاتها، ومع ذلك أدعوك لفعل ذلك، أدعوك لتقبل خسارتك لتمنح الثورة نصرها. أنا أعلم أنَّ تقديم التنازلات صعب جدًا عليك، ولكن يا صديقي لا سبيل لنا آخر، هذا الطريق الوحيد المتاح لنا.

تحذير: إياك يا صديقي والوقوع في حبها، فهي لن تمنحك حبها مهما عَظُم حبك، لن تلتفت إليك مهما قدَّمت من تضحيات وتنازلات، نعم يا صديقي هي غير ملائمة لك، هي بعيدة ليس عنك فحسب بل عن الجميع.

صديقك الوفي

ل.ت

29 أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز ل.ت

أمتأكد يا صديقي أنَّ رسالتك الأخيرة مُرسلة لعنوانها الصحيح، وطلبك موجَّه إليَّ؟ أحقًا أنت المرسل أم أنَّ هناك آخر ينتحل شخصيتك، أم أنَّ هناك من يعبث بمعرفتك بي؟

هل تدرك ما تطلبه مني أنا، هل تدرك ما يتطلبه مني التنازل لطلبك، هل تعتقد أنَّ في حياتي هذه كفاية لإحلال ذلك القدر من التغيير الذي سأكون به قادر على تنفيذ طلبك.؟!

إنَّ التفكير بطلبك، مجرد التفكير به يتسبب باضطرابي، يتسبب لي باستشعار أحاسيس تنزعني مما أنا فيه، لا لتُلبسني غيري، بل لتجعلني مُعلَّق منتفي منعزل. لقد عطَّلني طلبك فأصبحت غير قادر على القيام بأي عمل، عطلني فأصبحت كاللاموجود لا في لاوجوده فحسب بل أيضًا في انتظاره الوجود. من أي جحيم استوردت طلبك، من هو ذلك الشيطان الذي وسوس لك بتوجيه إليّ، أي ذنب ارتكبته مؤخرًا استحق هذا الغضب الإلهي.

أتجهلني يا صديقي أم أنَّ بُعدك أنساك من أنا؟ دعني أذكرك إذا كنتَ نسيت. أنا هو ذاك الذي لم يتعرَّف في حياته على امرأة ليحبها، أنا هو ذاك الذي إن تحدث لامرأة في قضية غير جادة كانت أنفاسه تبعثر كلماته ونظراته، أنا هو ذاك الذي لم تقترب منه امرأة عارضة حبها ومبدية إعجابها لجلافته التي لطالما كانت نتيجة ارتباكه لا تكبره، أنا هو ذاك الذي لم يخض في حديث مع النساء إلا وكان على درجة من الرسمية التي لا تترك لواحدة منهن قدرة على الابتسام بطريقة تتصف بها بالعفوية وعدم اللباقة، أنا هو ذاك الذي لم يُبدِ لامرأة نظرة تحمل إعجابًا، أنا هو ذاك الذي لم يسبق أن طلب من امرأة مرافقته لعشاء، أنا هو ذاك الذي لم يسبق أن نظر في عيني امرأة وصارحها بجمال لونيهما، أنا هو ذاك الذي لم يجامل امرأة بجمال ثوبها أو أناقة شعرها أو ملائمة عطرها لرقتها وأنوثتها، أنا هو ذاك الذي يبتعد لكي لا يجرح، فكيف يا صديقي تُرسل لي من أجرحها، كيف تريد مني استقبال من قد أتسبب لها بأذى قد لا أسامح نفسي عليه أبدًا، أذى يدفعني الندم والرغبة بالتعويض إلى خيارات وقتي لا يسمح بها ، وظروفي تمنعني من الإقدام عليها؟

حقًا يا صديقي أنت لا تعي ما تطلب، ولا ممن تطلب، لأنك لو كنت كذلك لما أقدمت على توجيه طلبك إليَّ أنا المثقل بهموم بالكاد تكون لدي القدرة على التعامل معها، لكي أطمع بمزيد منها.

لا يا صديقي،ليس أنا من بإمكانه تعظيم أعبائه، ليس أنا من بإمكانه الاحتمل أكثر، ليس أنا القادر على التعامل مع مشاكل أكبر. أنا ممتلئ يا صديقي، وأرجوك لا تتهمني بالضيق وأشِر لتلك الأشياء التي فيَّ بالضخامة. هناك يا صديقي في الأرض اتساع لمزيد من الآثام، ولكن ليس مني، هناك في الأرض قدرة على تحمل المزيد من الحماقات، ولكن ليس مني، هناك في

الأرض قدرة على العطاء، ولكنها قدرة لا تنتمي إليّ أنا الذي أعطيتُ وما زلت أعطي في نطاقي المسموح لي به.

هل أنا جبان؟ نعم أنا في هذا النطاق جبان، بل إنَّ الجبن نفسه يخجل من اتصافي به هنا. هل أنا ضعيف؟ لا أعرف، ولكن أريدك أن تعلم أنني لا أجرؤ على ادعاء القوة هنا، نعم لا أجرؤ على قول "أنا قوي" هنا.

يا صديقي هذه المهام وجدت ليس لمن هم مثلي. تبًا لي، وهل يوجد من هم مثلي أنا الذي يخجل أناي مني. هذه مهام لأولئك أصحاب القلوب القادرة على مبادلة الحب، أو على الأقل الإعجاب أو المجاملة، لا لأولئك المنشغلين بمهام كبيرة تحتكر جميع اهتمامهم، لأولئك الذين يتحلَّون بالشجاعة لا لأولئك الجبناء، لأولئك القادرين على جرح الآخر لا لأولئك الذين لا يتسببون إلا بجرح أنفسهم.

يا صديقي تَفَهَّم أرجوك، أنا في البُعد غير مضطر للتعويض عن وقاحتي وجلافتي وبلادتي التي أُبديها، غير مضطر لمراقبة تصرفاتي وحركاتي وكلماتي ووضعياتي، غير مضطر للتعامل مع خبايا المستقبل، غير مضطر للتحوط والحذر.

أن تعيش معي أنا في نفس البيت، معي أنا! ألا تدرك أنني حينها سأكون مضطر لقول: صباح الخير، مع كل طلوع شمس، وتنسيق الورود على طاولة فطورنا؟! هههه فطورنا! حتى هنا يصعب عليَّ الجع.

كيف تطلب مني ذلك يا صديقي؟! هل حقًا تتصورني قادر على إلقاء تحايا الصباح والمساء، قادر على تنسيق الورود وانتقاء عبيرها وألوانها؟! هل كنتَ تأمل عندما وجَّهت طلبك هذا إليَّ أن أكون قادر على المحافظة على شقتي مرتبة باستمرار، قادر على التخلي عن فوضويتي؟! هل كنت تعتقد أنني سأكون مضيافًا وأنا العاجز عن استضافة نفسي؟! نعم يا صديقي، هو الحب من أكسب خيالك هذه المقدرة على التخيل والتصور. نعم، هذا الطلب لم تكن ستتقدم به إليَّ، لو لم تكن واقع في الحب. لقد شوش الحب حضورك، وبعثر معرفتك، وجعلك وقحًا معي. لا تقلق، أنا قادر على احتمال وقاحتك، ولكن بصدق أجد صعوبة في احتمال جهلك، نعم أجد نفسي عاجز تمامًا عن قبول طلبك.

أنا يا صديقي على استعداد لترك شقتي لها والاستئجار في مكان آخر. نعم، سأكون بهذا حققتُ لك طلبك، وفي ذات الوقت حافظت على المسافة بيني

وبينها، سأكون بهذا تنازلتُ لك بما أنا قادر على احتماله، وسأكون سعيد ومرتاح بعدم ردك خائبًا. أرجو منك تفهُّم موقفي الذي لم يكن اختياري بل اختيار شخصيتي وظروفي.

لا يمكنك تخيل حالتي عندما انتهيت من قراءة رسالتك. لقد كنتُ مشوش مرتبك ومضطرب أشد اضطراب، كنتُ عاجز عن القراءة والتأمل والنوم والخروج لاجتماعات الحزب، بل إنني بالكاد كنتُ قادر على كتابة رسالتي هذه إليك. نعم، قلقي مفضوح في كل كلمة من كلماتها، وخوفي مكشوف بقلمي المرتجف.

أنا أسف يا صديقي، كنتُ أتمنى لو كان بمقدوري تنفيذ طلبك كما طلبته. لا تقلق، لن أتوقف عن التمني أملًا في أن يدفعني ذلك للعمل أكثر. أعدك أنني سأكون أقوى في المستقبل، أعدك أنني سأتيح لك طلب ما تشاء في قادم الأيام وسألتزم أنا بدوري بالتنفيذ. أنا فقط بحاجة للوقت فامنحني إياه يا صديقي، نعم امنحني فقط هذا الملعون بوجودنا، وسأكون أفضل حالًا، سأكون كما تتمنى رؤيتي عليه.

أما يا صديقي بخصوص خوفك من أن تكون مذنب باطلاعها على أفكاري وتعريفها على شخصيتي، فلا داعي له. نعم، فأنا في الحقيقة كنتُ مذنب بحملي أفكار الآن لا رضى لي عليها. أنا الآن أحمل أفكار أكثر استدامة وأكثر تقدُّمية، أفكار سأجد من يؤيدها بقوة ويدافع عنها بحماس، أفكار ستستقطب وتجذب أولئك الذين لا يملكون حماس مُقيَّد ببرنامج عقلاني لتتيح لهم حماس أنفع وأسلم للهدف.

إذا كانت تحمل معارضة منطقية ضد أفكاري، فأنا منتصر بها، وكذلك الثورة. أنا يا صديقي مستعد دائمًا للتنازل عن أفكار لا تصمد أمام الحجج القوية المقنِعة، أنا لا أخاف من المعارضة بل أخاف من التأييد المستمر واختفاء المعارضة، أنا بحاجة للمعارضة لتخفيف المسؤولية عن عاتقي.

سأحاول استقبالها في المطار بكل ود ولباقة، مُتخليًا عن جلافتي ووقاحتي من أجلك، سأحاول التعامل معها كما يجدر بكل رجل التعامل مع كل امرأة، سأحاول تقديم الورود لها عند استقبالها كتعبير مني عن سعادتي بوصولها سالمة، سأحاول اصطحابها بعدما تنال قسط من الراحة إلى أحد المطاعم أو إلى شاطئ البحر أو إلى أحد المتنزهات كما يفعل الرجال النبلاء للتعريف بأنفسهم والتعرُّف على الآخر، سأحاول بدون أن أدَّخر أدنى جهد أن أفعل ما يُتطلب مني فعله.

أما بخصوص تقديمها للرفاق بدلًا من الرفيق رقم 17 -الذي أجدك تواصل ظلمه بوصفك غير الدقيق-، فلن أتمكن من فعل ذلك، فهذه ستكون وقاحة لا يمكنني الإقدام على ارتكابها حتى ولو كان ذلك في سبيل الثورة. يا صديقي، الثورة لا تتطلب منا أن نكون بهذه الدرجة من الوقاحة. دعه يُقدِّمها للرفاق، دعهم يُعجبوا بانتقائيته ودقة اختياراته، دعهم يميلوا إليه ويعجبوا بهذا الميل بخطبه الحماسية ذات الأفكار التي لا رضى لي عليها، دعهم يقعوا في فخه، فإذا كانت كما وصفتها، تمكَّنت بما هي عليه من أن تكون فخهم جميعًا، من أن تكون هي الصفعة التي توقظهم من سباتهم العميق. أنا يا صديقي أريد التراجع خطوة للوراء لأعيد ترتيب أفكاري، أنا لا يناسبني الظهور الفخ، أنا ابن الظل، سأدعمها إذا كانت أعقلنا ولن أدَّخر جهدًا في مساعدتها بتحقيق النصر، فالانتصار لها سيكون حينها انتصار للثورة. دعنا نأمل بأن تكون ذلك النور الذي ينير طريقنا، فهذا كل ما لدينا الآن.

سأحاول قراءة رواياتها المتاحة في مدينتنا، لأتعرَّف عليها أكثر، سأحاول الاطلاع على مقالاتها المتاحة بالرغم من صعوبة الوصول إليها، للرقابة المفروضة من النظام الحاكم على كثير من المواقع الإخبارية والصحف والمجلات.

أما بخصوص تحذيرك لي من الوقوع في حبها، فلا داعي له، فأنا مغلق يا صديقي، أنا مُتحصِّن بشكل جيد.

تذكر يا صديقي بأنني قوي، وبأنني سأصبح أقوى. أرجوك، لا تفقد ثقتك بأنني سأكون كذلك.

صديقك المحب

ف.د

2 تشرين الأول (أكتوبر)

صديقي العزيز ف.د

كنت متوقع لرسالتك التي كادت تخنقني رائحة توترك فيها، وكاد طعم جبنك فيها يدفعني للتقيؤ، والتي فيها أيضًا ملمس سذاجتك مُقشعر، واضطرابك مستفز أشد استفزاز.

أهذه رسالة تصدر عن ثائر متمرد مُعلن لاعتراضه ورفضه، أهذه رسالة تصدر عن شخص يقف أمام المرآة كل صباح ومساء يردد "أنا قوي"؟! نعم، لقد خيبت ظني فيك يا صديقي.

أيها الأحمق، أأنت متأكد أنك قرأت رسالتي؟! لمن كنتُ أكتب عندما كنتُ أصِفها؟! ألم تدرك بعد طبيعة هذه المرأة التي طلبتُ منك استضافتها في شقتك؟! ألم تدرك بعد عظمة هذه المرأة التي يقف الرجال أمامها وفي أعينهم احترام لا ينازعه أي شعور آخر؟! أكنتَ تعتقد بأنني أجهلك أيها الجبان؟! أيها الأحمق، لا أحد يعرفك أكثر مني سوى الله حتى أنت تجهل من أنت، ولهذا دعني أقودك، دعني أكشف لك عن بعض خططي لك.

في البداية هي ليست كالنساء اللاتي قمتَ بتصويرهن في رسالتك المرتجفة، هي بعيدة كل البعد عن وصفك. سأحاول وصفها لك، ولكن صدقني، حتى كلماتي ستكون عاجزة عن رسمها كفاية، وأوصافي ستكون عاجزة عن إيفاء صورتها الحقيقية حقها.

سأبدأ بوصف مظهرها، وجهها كإشراقة صباح، عيناها كأغنية ربيعية، شعرها كسمفونية خريفية، ابتسامتها كومضة يُخلِّفها شهاب قاصف، نظراتها كنسمات هواء عذبة وعليلة، أما في ظهورها، فوقفتها كوقفة السماء، في جلوسها كالبحر الهادئ، في صمتها عمق، في كلامها معنى، في يدها كتاب، في وقتها عمل لا راحة تخلفه. هذا في الحقيقة وصف خطيبتي لها التي تفخر بكونها أعز صديقاتها، ولكن أقر بموضوعيته ونزاهته.

هذه أوصاف يا صديقي لم أذكرها لك للطمع والطموح، بل لانتزاع الاحترام والتقدير، لكي أدفعك للاستغناء عن حذرك منها عليها والتركيز على الحذر منها على نفسك. وقاحتك التي أنت متخوف منها عليها لن تجرح سواك، فهي مُحصَّنة يا صديقي، لديها قدرة على اللامبالاة ستعجزك أمامها بكل وقاحتك هذه التي تفاخر بها. نعم، أنت مغرور يا صديقي، وهي ستحطم غرورك هذا، ستدفعك لتحقير انتصاراتك السابقة. نعم، ستغيّرك يا صديقي، حتمًا ستحل اختلافًا كبيرًا فيك، ستكون للمستها عليك الأثر الواضح، لا لأنك ضعيف بل لأنها قوية أكثر مما تتصور.

أتعتقد أنها ستريد منك أيها الحقير تنازلًا لتقديم باقة من الورود عند استقبالها. نعم، ستعرف كم أنت ساذج فقط برؤيتها، ستعرف كم أنت مغرور متكبر. إنها أيها الجبان، أبعد مما تتصور، ستجد امرأة يُعلن الله عن نفسه بظهورها ومظهرها، ستجد امرأة تُسفِّه رغبات العشيقات وسذاجة طلباتهن لعقلانيتها، ولربما أيضًا لاعتقادها أنَّ زماننا هذا زمن ثورة وليس زمن حب، ولربما أيضًا لاعتيادها العمل ليل نهار على أبحاثها.

إنها امرأة غامضة مجهولة لا تُحسن القراءات في الكشف عنها، فإياك الاعتقاد بأنك تعرفها، إياك الذهاب للتحوّط منها بخبرة لديك مُحصَّلة من التعامل مع غيرها من النساء، لأنَّ جهود تحوطك هذه ستضيع سُدى، لأنك ستجد خبرتك وجميع معارفك لا تنفع معها. يا صديقي، لا أحد بمثل غرورك يتجرأ على التعامل مع الألغاز المُعقدَّة خوفًا على الثقة التي يحوزها بنفسه، خوفًا من تلك المشاعر التي يفجرها العجز فيه، ولهذا أنصحك بالتوقف وعدم الاندفاع.

أنت مخطئ يا صديقي إذا اعتقدت أنها تنتظر إطراء على جمال مظهرها أو ظهورها، فلديها ما ليس لدى الكثيرات، لديها اهتمامات أعمق ومشاريع أكبر وتطلعات أبعد. لديها ظهورًا بسيطًا لإهمالها بنفسها، ولكنه ظهور يبقى فيه شيء من الجلال الذي لا سبيل للأرواح إلا استشعاره بلذة، ولذلك لا تخف يا صديقي من الالتزامات التي تعتقد أنها ستقع على عاتقك برؤيتها، لا تخف لأنها لن تعفيك منها فقط بل أعتقد أنها ستنهرك لدفعك لعدم استشعارها.

أنت ضيق الأفق يا صديقي. أحسبتَ حقًا أنني أرسل لك امرأة في ظل هذا التوقيت الحرج، لكي أُعلِّمك كيف تحب وكيف تتجرأ على إبداء إعجابك، لكي أعلِّمك كيف تهتم وتقدِّم التنازلات، لكي أُعلِّم قلبك التمرد؟! نعم يا صديقي، أنت مخطئ، لأنك مرتبك. لو أتيح لك كتابة رسالتك الأخيرة إليَّ وأنت هادئ لكانت مغايرة، نعم لأنه كان حينها سيتاح لك إدراك الهدف من استضافتك لها في شقتك.

أنت غير مُحيط بعوائد إقامتها معك عليك. نعم، سيكون بإمكانك أن تكون ثائرًا أفضل، سيكون لأفكارك نقدًا ورفضًا، سيكون لديك الحافز للبحث أعمق والعمل أكثر، سيتاح لك أن تكون متزن في ظل هذه الظروف المضطربة، والأهم من هذا كله سيكون للثورة انتصاراتها. نعم، أنا أهتم بك كونك صديقي، ولكن اهتمامي بك لن يكون على حساب اهتمامي بالثورة أيها المغفل. "الثورة" ما أجملها من لفظة، يا إلهي، أي مصدر يليق بهذه

الكلمة! إنَّ مجرد النطق بها يملؤني أمل ورغبة ببذل مزيد من الجهود، يجعلني مستعد لتقديم أعظم التضحيات، فلماذا تعتقد أنك ثمين بالنسبة لي لدرجة أنني غير مستعد للتضحية بك في سبيلها؟! أنت مخطئ يا صديقي، نعم أنت مخطئ في تقديرك.

لقد بذلتُ أنا وخطيبتي جهود مُضنية حتى استطعنا إقناعها بالمكوث عندك لبضع أيام حتى الانتهاء من الأعمال في منزلي، فلقد كانت تود النزول في أحد الفنادق على الرغم من إدراكها للخطر الذي يتهدَّدها من الإقامة فيها، للرقابة المُتشددة والمتواصلة المفروضة على الفنادق المُخصصة للزوار الأجانب الذين غالبًا ما يُشتبه بصلتهم بالاتحاد وبالأحزاب المعارضة.

نعم، أنا متأكد أنك بت تدرك السبب الحقيقي وراء إرسالها لتُقيم عندك. نعم يا صديقي، توفير الحماية لها هو السبب الحقيقي. نعم، لقد ارتأيتُ أن تقيم معك لكي تصرف عن نفسها الأنظار والشكوك والرقابة.

أعاجز أنت عن تصور ما سيحدث لها في حال كُشف أمرها؟! انظر لما حلَّ بالرفاق الذين وقعوا في فخ السلطة الحاكمة، منهم من لا يزال إلى الآن مُعلَّق في الساحات تأكل الطير منه، ومنهم من تعفن في السجون، ومنهم من لم يبقَ في جسده موضع إلا وعليه آثار تعذيب. إنَّ أعين السلطات يا صديقي تراقب، وهي الآن أكثر تخبطًا على إثر الخوف من الثورة التي تتهددها والتي باتت على الأبواب، وعلى إثر القلق من الاتحاد الذي يتربص بها. إنَّ مجرد الشك الآن كافي للاتهام وإصدار الحكم بالإدانة وإلحاق أفظع عقوبة، ولهذا أريد إبعادها عن الشبهات، أريد أن أبعدها عن الخطر، وأيضًا أريد الاطمئنان عليك، فأنت تدرك أنهم يتخوفون من الشباب الذين يمكثون بمفردهم ويشتبهون بهم على الدوام، نعم يا صديقي هم يتخوفون من التفرد، لأنهم يدركون أنَّ الإنسان في وحدته خطير، فغضبه يتعاظم وفكره يتطور، وهم لا يريدون له ذلك.

دعنا نُضللهم، دعهم يعتقدون أنَّ دخولها البلاد للقاء حبيب، دعهم يعتقدون أنها لحظات رومانسية لكما، فانصراف أنظارهم عنكما، يعني حرية في التنقل، ومساحة للعمل أوسع، وقدرة على المجابهة والمناورة أكبر.

ستصارع وتكافح هي وأنت على جبهات مختلفة، ولهذا أخاف أن يُشتتكم هذا ويُضعف تركيزكم، فتفقدان الحذر. ولهذا لا بد لكما من العمل معًا لصرف الأنظار، وإتاحة المجال لارتكاب الأخطاء التي لا مفر منها بدون أن تكون مُلفتة. يا صديقي، هذه لحظات تستوجب الحرص في العمل، فأقل

خطأ قد يوقعكما في مشاكل لا قدرة لكما على التعامل معها. أعلم بأنَّ لكل منكما سيكون هناك خطط مختلفة، فتشاركا الوسائل وتبادلاها لكي يتاح لكما تنفيذ أسرع وأدق، أعلم بأنَّ لكل منكما سيكون هناك أعمال، فتشاركا الجهود لإنجاز أكثر تنظيمًا وانضباطًا، أعلم بأنَّ لكل منكما سيكون هناك أفكار، فتداولاها ليتاح لكما بناء مشروع متكامل ولتحصيل أهداف واضحة.

اليوم السلطات تعمل أكثر من أي وقت مضى بقواعدها الثلاث، افعل ثم برر، افعل وأنكر إذا لم تجد تبريرًا أو إذا كان التبرير غير مجدي، فرّق لتسد. ولهذا علينا نحن الثوار التكاثف والعمل سويًا والحذر من الفخاخ السلطوية. يا صديقي، علينا الحذر، فالرصاص بات يتطاير بكثافة، قاصدًا كل من يُعلن نفسه ثائرًا، مُلاحقًا كل من فشل في إخفاء تمرده، أو حتى فشل في إظهار ولائه للنظام الحاكم. اليوم يا صديقي الثقة بالقدرة على التخفي توقع صاحبها في مصائر بائسة، فاحذر يا صديقي من حيازة هذه الثقة، نعم شك باستمرار بأنك تعمل المطلوب لكي تعمل أكثر. نعم، إنني يا صديقي أرسلها لتقيم معك، لإخفائها بك، ولإخفائك بها.

أريد من الثورة استنزاف كل منكما، فأنتما تحوزان الكثير الذي باستطاعتها الاستفادة منه، نعم أنتما تحوزان الكثير الذي بإمكانه أن يمد الثورة بما يُنجحها. أنا خائف عليكما من الموت قبل أن يبذل كل منكما جميع ما في حوزته، قبل أن يمنح كل منكما كل ما في مقدوره منحه. نعم، لستُ خائف عليكما بعد ذلك إلا كصديقين، أما قبل ذلك فكثائرين وخوفي هذا هو من له الأولوية. نعم، أنا لا أطلب يا صديقي منك لك أو لي أو لها بل للثورة فقط. أأدركت الآن دواعي طلبي أيها الجاهل؟

أُقر أنَّ الحب شوَّش عليَّ بعض حضوري، وبعثر بعض معرفتي، ولكنه لم يجعلني وقحًا معك، بل الثورة هي من جعلتني كذلك معك فقط، لأنك تحوز احترامي وحبي، ولأنَّ لدي حدس يُنبئني بأنك قادر على احتمال هذه الوقاحة مني. ما زال لدي قدر كافي من الحضور والمعرفة يساعدني على تقديم المساعدة لك والتخطيط لحماية خططك وأهدافك، ولهذا لا يؤخذ عليَّ أثر وقوعي في الحب. أنا معك يا صديقي، وسأبقى دائمًا بجوارك.

أما فيما يتعلق بحيازتك لأفكارك جديدة، فأنت تجهل كم أدخلتَ إلى قلبي من سرور وطمأنينة بهذا الخبر. نعم، هذا دليل يا صديقي على أنَّ عزلتك ما زالت قادرة على العطاء، هذا دليل على أنك تعمل باستمرار، هذا دليل على اجتهادك وصبرك وكفاحك وإخلاصك للثورة. نعم، هذا صديقي الذي أفضِّله، هذا هو المحارب الذي أفخر به.

وأما بخصوص تقديمها بدلًا من الرفيق رقم 17، فأنا متنازل عن طلبي، وأقر لك بأنني أخطأتُ بطلبه منك. نعم أنا مخطئ من لحظة تفكيري به. كيف لم ألتفت لعنادك -الذي لطالما عهدتك عليه- على التمسك بمبادئك؟! كيف لم أنتبه لعجزك التام عن إبداء ولو قليل من الوقاحة في سبيل الثورة؟! لا تقلق، لن أضغط عليك، لن أطالبك بإلحاح بالقيام بما أنت عاجز عن بذله وتقديمه. دعه يُقدِّمها، ولكن عليك حينها التعامل مع تبعات ذلك، عليك حينها تحمل تبعات عجزك، عليك الاستعداد والتهيؤ للعواقب.

وبما أنني تنازلت عن بعض طلباتي، وأعفيتك مما تعتقد بأنه ليس من مسؤوليتك، الآن أتي دورك للتنازل وإعلامي بأنك قبلتَ باستقبالها واقتنعت بأسبابي. طلبي منك استقبالها لا تنازل عنه أبدًا، مهما قدَّمت من مبررات، نعم رفضك سيبقى غير مقبول به. يا صديقي، لن أسامح نفسي ولن أسامحك لو تعرَّضت لمكروه. نعم، عليك قبول طلبي، أنت هنا لست مُخيَّر، يجب عليك أن تستوعب ذلك وتتقبله.

أنا واثق يا صديقي، أنك قادر على تجاوز تلك العقبات التي تتصورها ويُعظِّمها لك خوفك. اذهب، وقف أمام المرآة وردد: "أنا قوي"، وستكون قادر على تجاوز مخاوفك وقهرها، ستكون قادر على القيام بمهمتك على أكمل وجه، ستكون قادر على حيازة شخصية جديدة، سيكون بمقدورك توليد وتحفيز الرغبة بالتحدي والمواصلة حتى النجاح.

أما بخصوص كونك مغلق، لندع المستقبل يكشف لنا عن حقيقة ذلك.

ملاحظة 1: - أنا هذه الفترة مشغول جدًا يا صديقي، ولهذا لن أتمكن من الكتابة لك. واصل الكتابة لي، وتذكر أنك قوي دائمًا.

ملاحظة 2: - ستصل الأنسة هيا يوم الإثنين في السابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، بحدود السابعة صباحًا.

صديقك المخلص

ل.ت

5 تشرين الأول (أكتوبر)

صديقي العزيز ل.ت

يا إلهي، كنتُ أدرك أنك شديد الإلحاح، كنتُ مدرك أنك مُقنِع، كنت مدرك أنَّ لديك الكثير من الأسباب، ولهذا كنتُ متخوفًا من رسالتك، مضطربًا أشد اضطراب، أنتظرها لا بدافع الاقتراب بل رغبة في إبعادها والابتعاد عنها.

لم تترك لي خيارًا يا صديقي، ولهذا أنا مُضطر لقبول طلبك بل للخضوع لإلزامك، ولهذا من الآن أُطالبك أنت ولا أحد غيرك بالتعامل مع تبعات حماقاتي، نعم عليك أنت أن تطبب الجروح التي ستتسبب لها بها وقاحتي وأخطائي، فأنا لا أجيد مهارة التطبيب.

أرجو أن تكون كما وصفتها، قادرة على خلق المسافات واحترامها، قادر على الصد وتحمل صد الآخر لها، قادرة على رد الوقاحة بوقاحة، والجلافة بجلافة، والبُعد بالبُعد، قادرة على تخليصي من أعباء تُحمِّلُني إياها متطلبات الذوق والنبالة، متطلبات الصداقة المشتركة.

لا تفهم من كلامي يا صديقي، أنني لن أحاول أن أكون كما تريدني أن أكون معها، بل سأحاول وبأقصى استطاعتي، سأحاول التنازل، وسأسعى لإرضائها، سأحاول جعل راحتها أولوية لي. نعم، سأحاول ولكن لا أضمن لك أن أنجح في ذلك.

يا صديقي حياتنا مرهقة في كِلا الحالتين، في تلك التي نكون فيها مطالبين بالتنازل، وفي تلك التي نكون فيها مطالبين بعدم التنازل. ألا تجد مثلي أننا نَمنح الحياة اهتمامًا أكثر مما تستحقه، ألا تجد أننا نكافح فيها كفاحًا ربما تكون لا تستحقه، ولا نستحقه نحن فيها، ألا تجد أننا نحن المتسببون ببؤسنا الذي لا نرفضه إلا لنرفضنا؟ حقًا هذه الفوضى في حياتنا لا توحي إلا بعبثيتها، لا تدلل إلا على دونيتها. ألا تعتقد أنه فات الأوان لنجعلها أفضل، ألا تعتقد أنَّ تضحياتنا وجهودنا التي نبذلها فيها هي محاولة منا في إعلان أنفسنا كمشاركين في عبثيتها؟ نعم، إنَّ هذا الكثير الذي تطلبه منا هذه الحياة ليس له حدود، نعم إنها تطالبنا بما نحن عاجزون عن بذله، تطالبنا بما سنكون دومًا عاجزين عن الوصول إليه، فهل هي في الحقيقة لا تستهدف الكثير وإنما تستهدفنا نحن المرهقون من السعي؟ هل هي تخدعنا لتنالنا لا لننالها؟ أنا مستنزف يا صديقي، أنا مرهق من حجم التنازلات المطالب بتقديمها. هل هناك وصول، هل هناك نهاية، هل هناك جائزة، هل هناك

راحة، هل هناك نصر؟ لماذا بدأتُ أشك بأنه ليس هناك وجود لما نسعى إليه خلف هذا الحاضر، هناك فيما يُسمى مستقبلًا؟ أهو الكثير المطالب أنا به، أم هو الكثير الذي قمت بتقديمه، أم هو الكثير المطالب به بعد الكثير المأمول مني تقديمه، المتسبب بهذا الشك الذي يولِّد فيَّ هذا الغضب والسخط والإحباط واليأس والبؤس والضعف والتردد والتراجع أحيانًا؟

ماذا يُراد لنا بعد كل هذه المعاناة، بعد كل هذه الجهود المبذولة، هل هو النعيم أم هو جحيم آخر؟ أريد محض لمحة لما يحمله المستقبل، أتمالك بها نفسي، أستجمع بها قُوَاي، أجدد بها أملي، يُردُّ لي بها حماسي وشغفي أنا المُنطفئ، نعم أريد بها لمشيتي استقامتها بعد كل هذا الترنح، أريد بها لنظرتي حِدَّتها، ولوجهي إشراقه، ولشفتيَّ ابتسامتها. نعم، أعلم أنني أطالب بالكثير، ولكن أليس هذا نتيجة الحرمان والضباب الكثيف الذي يُعيق كل شعاع يبشِّر ببدايات جديدة مختلفة؟! أليس هذا نتيجة الفضول الذي لا سبيل لنا نحن البشر في التملص والفكاك منه؟! نعم، أعلم أنَّ هذا الطمع وقاحة مني، فكيف لمن سيكون بمقدوره رؤية المستقبل أن يحتمِل حاضره، كيف له أن لا يُقدِم على إنهاء حياته في حال أدرك بُعد مكافأة التحمُّل والصبر والمقاومة، كيف له أن يحتمل كل هذا الكثير المطالب به الذي يكشفه له العلم بالمستقبل دفعة واحدة، بعدما تعوَّد على ذلك الكثير الذي يتعاطاه بالجهل قطرة قطرة، ورشفة رشفة؟!

أنا تعب يا صديقي من هذه المراوغة، تعب من الأمل بأنَّ المرة القادمة هي المرة التي سنتخلص فيها من عبء طموحنا بتحققه، هي المرة التي سننال فيها ما رغبنا به وسعينا لتحقيقه. نعم، لقد أصبحتُ أرى الكثير الذي نحن مطالبون به من دون تلك اللمحة. أه ما أشد عذابي هذا يا صديقي، أه ما أثقل الحِمل. نعم، هذا عبء لم يوجد للبشر لتحمله بل للآلهة. هل بإمكاني الاستمرار مع هذه المعاناة، هل بإمكاني التغاضي والاستمرار بمقاومة جاذبية الحبال المُعلَّقة التي لا تكف عن الغناء لي أغنية ما قبل النوم؟ أريد ذلك الجهل الذي لم يُمنح للبشر إلا لتناسبه مع قُدُراتهم، ذلك الجهل الذي لم يُمنح للبشر إلا ليُطبب جروحهم ويخفف من أعبائهم. هل من عودة لي، عودة لذلك الذي لطالما عاديته فيّ؟

نعم يا صديقي، أريد عودة للوراء، أريد أن ألتفت إلى هنا وهناك، وأقول بعد ذلك لا أعلم، أريد أن أرجع للإنسان الذي استبدلته بما لا أحتمل أن أكونه.

هل لمن كان مرحًا عودة لما كان عليه، هل لمن كان لامباليًا عودة لما كان عليه؟ لا أعتقد أنَّ ذلك متاح، ولكن صدِّقني يا صديقي، إنني أرجو ذلك من كل قلبي، وأتمنى أن يتاح لي ذات يوم مسار للعودة، لكي يتاح لي المسير برغبة ورضى وحماس. هل من مسار للعودة سيتاح لي يومًا ما؟ إذا قلتُ لك بأنني متفائل، فحينها لن أصْدُقك القول. نعم يا صديقي، لا عودة لمن هم مثلي، لا عودة لأولئك الذين اكتووا بنيران جحيم المستقبل بمجرد إدراك وجوده.

هل هذه المسؤولية الثقيلة في هذه الحياة، كُتبت علينا أم أننا قمنا باختيارها بكل حرية؟ إذا كانت كتبت علينا، فلماذا تم اختيارنا لها من بين جميع البشر؟ هل فينا ما يميزنا، هل فينا ما يجعلنا أكثر كفاءة، هل نحن أقرب للآلهة من كوننا بشرًا؟ بكل تأكيد، ليس هذا هو السبب. يا إلهي كم سنكون حمقى ومتغطرسين ومتكبرين في حال اعتقدنا ذلك! هناك سبب نجهله، لن يتاح لنا معرفته في حال كنا في الحقيقة من بين الذين وقع عليهم الاختيار. أما في حال كنا نحن من قمنا باختيارها، فإنَّ السبب جلِي هنا يتمثل في كوننا حمقى. ولكن السؤال هنا: كيف يمكن أن يبلغ البشر هذا القدر من الحمق؟ هل هذه الحماقة منتقاة لنا أم أنها محض اختيارنا؟ إذا كانت منتقاة فهي ابتلاء للإنسان مغفور به ذنبه، أما إذا كانت محض اختيار، فهي ستكون مبرر للغضب الذي أتاح لنا ملاحظة تلويح الجحيم المُعبِّر عن شوقه.

أه ما أكثرها الأسئلة، وما أكثرها الاحتمالات التي لا أَمَلَ لنا في الاستبعاد أو الانتقاء منها.

هل استنفذنا تلك الأمنيات الثلاث، بحيث لم يعد لنا أمل بأمنية وحيدة تكفل لنا الرجوع لوضعنا قبل التمني؟ أما من أمنية متبقية؟ هذا مدعاة للحزن والبؤس والاكتئاب يا صديقي. نعم، لعنة ذلك المصباح الذي أتاح لأمانينا التي لم تكن أمانينا الوجود. هل هي أمانينا التي لا تتيح لنا الوصول إليها أم هي قدرتنا على التمني المتسببة بشقائنا؟ نعم، لن يُتاح لأحد الوصول إلى أمانيه، فذلك الذي اعتقد أنه وصل هو المرتاح فينا، فلا هو يسعى ولا هو يأمل. محظوظ ذلك الجاهل.

أعتذر يا صديقي، فلقد أوجعت رأسك بهذه الشكاوى، بهذا التذمر والتأفف، بهذه الأحاديث غير المجدية. لا تقلق سأكون بخير، غدًا سأكون في أفضل حال، سأعود لعافيتي بالوقوف أمام المرآة وبترديد "أنا قوي"، نعم سيتاح لي التوقف عن التذمر والعودة للسعي وللتعامل مع الواقع.

أعلمها بأنني سأكون بانتظارها في المطار، ولا تقلق سأتدرب على كيفية التعامل معها، لاستقبالها أفضل استقبال.

صديقك المخلص

ف.د

17 تشرين الأول (اكتوبر)

صديقي العزيز ل.ت

مضت يا صديقي ثلاث ليالي لم أعرف فيهن النوم من شدة القلق والتوتر اللذان انتابانني ومن طول التفكير الذي سلبني من جميع مهامي. لقد كنتُ طوال هذه الفترة أُعِد الخطط ولكن سرعان ما أتخلى عنها، أرسم المسارات ولكن سرعان ما أختار عدم المسير فيها. نعم، لم أعرف أنني مخطط فاشل بهذا القدر قبل الآن. لماذا هذه المهمة البسيطة التي بإمكان الجميع التعامل معها مُعقدَّة لي أنا فقط، لماذا تراني عاجز تمامًا عن التعامل معها والاستقرار على مخطط لإتمامها؟ نعم، لم أكن أدرك أنني ضعيف إلى هذا الحد يا صديقي، لم أكن أدرك أنَّ "أنا قوي" لم تنقلني من ضعف إلا لضعف، نعم لقد كنتُ مُضلَّل مُغيَّب. هل أنا بهذا الضعف عبء على الثورة، هل يجدر بي الانسحاب والانطواء؟ نعم، لا أصْدُقك القول، إذا قلت لك أنني لم أفكر بالانسحاب والتراجع والانزواء. كان هناك شيء أجهله يدفعني للتأجيل، فهل آن الأوان؟ لا أعلم، ولكن حتمًا ستتاح لي فرصة تكون فيها مبررات انسحابي أكثر من مبررات بقائي التي أجهل معظمها.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا، كنتُ قد تهيأت بمظهري للخروج، ولكن نفسيًا لم أكن بعد أحوز أي استعداد للخروج، وأعتقد بأنني لم أكن سأحوز مهما مُنحتُ من وقت، فقررتُ الوقوف أمام المرآة آملًا بأي مكسب قبل الإقدام على هذه المهمة، وأخذتُ أردد عبارات من قبيل "أنا قوي" "أنا بإمكاني إنجاز هذه المهمة" "سأكون بخير"، ونتيجة لذلك تراجع الخوف قليلًا، وبتُّ أحوز قدر من الجرأة ممكن به الخروج، وعندها خرجت من شقتي متوجهًا لوجهتي.

وقفت لحظة خروجي من البناية التي أقطن فيها لدقائق قليلة أتابع السماء. كانت بعض النجوم مُحتجِبة بالغيوم التي تهدد بشتاء صعب، يزيد من معاناة

الناس ويؤسهم ويحفزهم على المشاركة في الثورة التي باتت أقرب من أي وقت مضى. كان هناك نجوم متمردة، تُلوّح بثغر باسم متفائل وهناك نجوم ذات وجه عابس باهت حزين يُنبئ بمستقبل لا يحمل بشرى. كنتُ بحاجة لمتابعة الأولى لإكمال طريقي، ولكن كان هناك شيء يجذبني لمتابعة الثانية، كأنه يُريد تحذيري وإخافتي وردعي، ولربما الحفاظ على المُتبقِي مني. نعم يا صديقي، كريمة هي السماء مع الجميع، مع ذلك الباحث عن الراحة ومع ذلك الباحث عن الشقاء، مع ذلك الباحث عن التفاؤل ومع ذلك الباحث عن التشاؤم، مع ذلك الباحث عن اللذة ومع ذلك الباحث عن الألم.

كان الجو باردًا متآمرًا عليَّ، يحاول طرد ذلك الدفء الذي حصَّلته من نيران ثقتي الخامدة، ليعود بي إلى برودة خوفي، ولكن كان صدى أصوات الثوار -الذي كنتُ ما زلت قادر على سماعه- وحماسهم -الذي كنتُ ما زلت قادر على ملاحظته بمجرد النظر إلى الشوارع التي احتوتهم في النهار- قادرين على مساعدتي في مقاومة البرد.

لطالما كان الظلام الذي يسبق طلوع الشمس يبث في نفسي ذلك الصنف الفريد من الهدوء، الذي يكاد يُشتبه به بأنه محض بلادة وبرود، نعم لطالما كان ذلك الظلام حليف لي ولغيري ممن عرفوه. كانت الطرقات الخالية سوى من تلك الأعين المُترصِّدة والمُتتبِعة والمُلاحِقة المُعتاد وجودها، تحاول طمأنتي بلفت انتباهي لحقيقة أنَّ هناك وجود نقيض لتلك الطرقات المُزدحمة، بإعلامي بأنَّ هناك زمن ومكان للحظات الهادئة التي يخلو منها التدافع والتصادم.

بينما كنتُ أسير في هذه الطرقات الخالية، كانت خطواتي تُصدر صوت مرعب، مُقشعر، مُتسبب ببؤس خانق، صوت مشابه للصوت الذي يصدر عن أرواحنا لحظة قصفها بالظروف القاهرة، كان ذلك يا صديقي صوت تفتت أوراق الشجر الخريفية تحت قَدَمَيَّ. كنتُ أسمع تلك الأشجار المُتخلِّية عن أوراقها تُحدثني قائلة: "هذا ما ستفعله الثورة، ستسقط الجميع وتتخلى عنهم، ليتاح الربيع لأبناء المستقبل. لا تبتئس هذه تضحية ضرورية، هذه تضحية لا بد منها للنجاح. الثورة لها عائد ولكن لها ثمن أيضًا. لا تتهمني بالخيانة أيها الرفيق، لكي لا يتاح لهم غدًا وصفك بها. الربيع أيها الرفيق ابن ثورتي، أما الخريف فهو ضريبة طموحي. نحن مدارسكم أنتم البشر، فتعلَّم منا أيها الرفيق، وإلا بقيتَ على جهلك.". يا إلهي كم بث فيَّ من خوف حديثها يا صديقي. لماذا في هذا التوقيت تكلَّمتْ معي، أو لماذا في تلك اللحظة أتيح لي القدرة على الإنصات لحديثها؟ هل لوجهتي علاقة؟

بعد مروري من أمام حاجزين قام من يقف عليهما بتفتيشي والاستعلام عن هويتي ومكان إقامتي ووجهتي وأسباب خروجي في الليل، استقليتُ سيارة أجرة، كنتُ مُتعجّب من كيف لصحابها الخروج في هذا الليل الذي يرمي الجميع بتهمة الخيانة.

كنتُ أفكر طوال الطريق بطريقة اللقاء المناسبة، أحاول بخيالي رسم صور أنا فيها راضي عن نفسي، صور أحوز فيها الثقة والجرأة، أحوز فيها القدر المناسب من اللباقة والذوق في التعامل معها، صور أنا فيها ند لها، أنا فيها حائز على رضاك ورضاي. نعم، لقد كانت تقاطعني تلك الحواجز المنتشرة ونقاط التفتيش المتناثرة هنا وهناك، والتي توحي بخوف النظام الحاكم واستشعاره الخطر من الثورة القادمة لا محالة، وكان أيضًا يقاطعني اضطراري للتفاعل مع بعض أحاديث وأسئلة وتعابير السائق الضجر المُتذمر من اضطراره للتوقف عن كل حاجز ونقطة تفتيش. كان غضب السائق يُعبّر عن غضب جميع السائقين في المدينة، ويوحي بقرب الانفجار. نعم يا صديقي، لقد ساهم النظام الحاكم بإجراءاته الاحترازية وخطواته التحوطية بزيادة سخط الشعب عليه، فباتت جميع الطبقات والفئات متضررة من هذه الإجراءات، وهذا حتمًا ما سيجعل الجميع في صف الثورة ضد هذا النظام القمعي الجشع.

استغرق وصولي للمطار ساعة ونصف، بسبب هذه الإجراءات التي حالت دون وصولي إليه في ثلاثين دقيقة على أقصى تقدير. أخذتُ بعدما ترجلت من السيارة أحاول الإنصات إلى لحن الهدوء محاولًا تطبيب نفسي المضطربة والثائرة بفعل الشتائم والسباب والأوصاف القبيحة التي كان يعبر بها السائق عن غضبه من السلطات لذلك الوقت المُهدر من يومه بسبب عمليات التفتيش. لقد كنتُ متعاطف معه شاعر بمعاناته راغب بمساعدته، أنا الذي لا حيلة لي.

عند مدخل المطار كان هناك بائع للورود، كنتُ قد توقفتُ أمام بضاعته حائرًا جدًا، أتساءل إذا ما كان من الملائم تقديم باقة من الورود لها عند الالتقاء. ارتأيتُ بعد وقت ليس بالقصير كان يتابعني فيه البائع بتعجب، أنه من اللباقة تقديم ضمة صغيرة من الورود، وحينها عانيت من الحيرة مجددًا، فلقد أخذت بالتساؤل عن اللون المناسب. قمت باستبعاد الأحمر فهو للعشاق، ولكنني عدت فاحترت فيه، بعدما انتبهت أنه أيضًا يُعبر عن غضب الثائر. كنتُ أيضًا قد استبعدت الأبيض كونه يُعبّر عن الاستسلام، ولكن عدتُ للحيرة فيه بعدما انتبهت أنه يُعبّر عن السلام. كنتُ أيضًا قد اخترت اللون

الأسود كونه يمثل لون علم حزبنا، ولكنني عدتُ فاستبعدته كونه لون غير مناسب للترحيب. بعد دقائق هزمتني فيها حيرتي، فنظرتُ للبائع محاولًا طلب المساعدة، وقد كان رجل هرم أبيض الشعر قصير القامة ذو ابتسامة تمنح الطمأنينة ونظرة بانت أنها لقارئ نهم. لاحظتُ أنَّ نظراته إليَّ في البداية كانت نظرات تعجب من حالتي ثم استحالة لنظرات تعاطف، ثم إلى نظرات لم تشعرني بتاتًا بكوني عبء، نظرات لا يملكها سوى قلة من الباعة المتجولين. سألته عن لون ورود الباقة التي ينبغي عليَّ اقتنائها، أملًا بدفعه للاختيار لي سريعًا لطردي من أمامه لإنهاء حيرتي المؤلمة، ورغبة بالتخلي عن مسؤولية الاختيار وتحمِيله إياها، ولكنه فاجأني بسؤاله عما إذ كان من أستقبله رجل أم امرأة ثم عاد ليسأل بعدما أجبته عما إذا كانت صديقة أم حبيبة، وبسؤاله هذا أربكني، فأخذتُ أفكر فيما إذا كان من المبكر اعتبارها صديقة من تلك اللحظة، ثم أخذتُ بسؤاله بعد تفكير عما سيكون لون ورود الباقة الأنسب في حال لم أكن بعد متأكد من مشاعري تجاهها، فالتقط باقة ألوان ورودها مختلفة، فهممتُ أخرج النقود من جيبي لأدفع إليه ثمنها، ولكنه أوقفني بعدما أخذ يُعرب لي عن رغبته بإهدائي إياها وعن أمله بتحصيل ثمن الباقة التي سأكون عند شرائها منه مستقبَلًا متأكد من مشاعري نحوها، فشكرته على لطفه وكرمه غير المعهود ودخلت صالة الانتظار وجلستُ أنتظر وصولها.

لم تكن صالة الانتظار ممتلئة كما في سابق عهدها، كما كانت قبل الإجراءات التي أعلنتها سلطات المدينة، بل إنها تكاد تكون فارغة، كيف لا تكون كذلك وتهم الخيانة تلاحق كل من يعتزم الخروج من البلاد أو دخولها، كيف لا تكون كذلك وتهمة التخطيط لعمل ثوري تطال كل من يتجرأ على تقديم طلب دخول أو خروج أسبابه غير مقنعة أو غير واضحة. هذه الإجراءات المفروضة على السفر أيضًا دليل لا يَخفى عن أحد على تخبط النظام الحاكم وخوفه من الحراك الثوري القادم. نعم يا صديقي هذا التخبط سيجعل الثورة أقرب، فالغضب والسخط يتعاظم باستمرار.

بينما كنتُ أنتظر كنتُ متوتر مضطرب أشد اضطراب وذلك جراء تفكيري بالعيون المُترصِّدة وانشغالي بكيفية التصرف عند الالتقاء بها، ولقد أبانت ملامح وجهي وحركات جسدي عن ذلك، برغم محاولات الإخفاء.

وبينما كنت جالس أنتظر وصولها، فجأة وجدتُ ثلاث رجال يلتفون حولي من أمن المطار، وامرأة -بدت قائدتهم والعقل المدبر لهم وسبب احاطتهم لي- تقف أمامي تطلب مني التوجه معهم لغرفة التحقيق في المطار.

تجاوبت مع طلبهم بهدوء، وفي أثناء اقتيادي كان معظم من تواجد في الصالة ينظرون إليَّ مشفقين، يتهامسون كأنهم كانوا يترحَّمون عليَّ، ويرمقونني بنظرات بدت كأنها نظرات تعاطف مع مصيري البائس. نعم يا صديقي، كان سبب نظراتهم تلك واضح، فهذه السمعة التي انتزعتها غرفة التحقيق، تبث حتى في أقصى القلوب تحجرًا وبلادة مشاعر الخوف والحزن على مصير المُقتاد إليها. نعم، لقد كانت هذه الغرفة هي الطريق المباشر والمُختصر للسجن أو لساحات الإعدام لكل من يدخلها.

لم أكن في تلك اللحظات خائف، وإنما كنتُ من لحظة وقوفهم حولي مستقرًا هادئًا بدون خوف ولا قلق، فلقد أشغلني ذلك عن التفكير في كيفية الالتقاء والترحيب بها.

أدخلوني غرفة التحقيق، وقد كانت غرفة جدرانها متباعدة شديدة البياض، فارغة تمامًا ليس فيها سوى مقعدين تفصل بينهما طاولة، كان يُهدف من ديكورها بث الذعر والتوتر والقلق في نفوس زائريها، بهدف الكشف عن صدق إجاباتهم.

بعد تركي لمدة قدَّرتها بثلاثين دقيقة -فلقد كانوا قد جردوني من جميع ما أحوزه- هدفوا منها إدخال أثر الغرفة فيَّ، دخلت تلك المرأة التي وقفت أمامي، وبعدما جلستْ مقابلي أشعلتْ سيجارة وأخذت تحدق في عينيَّ بدون كلام تحاول بذلك إخافتي وتوتيري للكشف عما أُخفي. للأسف يا صديقي لم أستمتع بجمالها فلقد كان مجرد فخ الهدف منه التشويش، الهدف منه أن أعتقد بأنها بجانبي.

بعد دقائق من التحديق أخذتْ تسألني بعض الأسئلة الاعتيادية، محاولة إبداء عدم رضاها عن إجاباتي عليها لكي أنهار، لكي تتسبب بتعثري، ولكنها توقفتْ بعدما علمتْ من إحدى إجاباتي أنني لا أنوي السفر، بل أنتظر قدوم أحدهم. أصابتها هذه المعرفة بالحيرة، فسألتني مباشرة عمن أنتظره، فأجبتها بأنني أنتظر خطيبتي -وذلك للتحوط- مضيفًا أنني ألتقيها وجهًا لوجه للمرة الأولى، ولقد حاولت وأنا أجيبها أن أظهر بمظهر المرتبك المُضطرب بعدما كنتُ هادئًا وواثقًا في إجاباتي السابقة، وذلك لأدفعها لتصديقي، ولتضليلها بالاعتقاد أنَّ مشاعر الحب هي المتسببة بظهوري بذلك المظهر الذي كان سبب في الاشتباه بي.

بان عليها أنها صدَّقت ما قلته، فأدركتُ أنني تمكنت من خداعها، ثم أخذتْ بتوجيه أسئلة سريعة إليَّ بان أنها تحطاط بها، ثم أخذتْ بعد ذلك بتذكيري

بالعواقب في حال كنت غير صادق بإجاباتي، ثم طلبتْ عنوان سكني وتركتني أخرج.

بعدما استرجعتُ جميع ما جُردِّت منه، رجعتُ للجلوس على المقعد الذي كنتُ جالسًا عليه. كان جميع من يتواجد في الصالة آن ذاك مدهوشين من عودتي، ومتعجبين من خروجي متماسكًا وغير منهار من تلك الغرفة، ومن نظراتي التي لا توحي بالخوف والتوتر. نعم يا صديقي، أعتقد أنَّ منهم من ظن بأنني ممثل سيء، وبأنَّ ما جرى ليس إلا مشاهد تمثيلية الهدف منها إخافتهم، وهذا وحده ما يفسر النظرات المُحقِّرة من البعض.

تجاهلتُ الجميع، وعدتُ أفكر فيما سيُحيلني إلى فعله ادعائي بأنها خطيبتي لحظة اللقاء، فعاد لي القلق والخوف والتوتر، فمشاهد التمثيل التي رسمها خيالي لا يمكنني المشاركة فيها، والأدوار التي حمَّلني إياها ذلك الادعاء لا يمكنني تأديتها أنا الممثل الملتزم، المنضبط، الذي لا يقبل إلا بوجود المسافات والحدود.

نعم يا صديقي، كنتُ خائف من الانطباع الأول لكل منا عن الآخر، كنت خائف من عدم فهمي وعدم المشاركة في التمثيل معي، كنت خائف من تلك الصفعة التي سأتلقاها من الدور الذي يهدد وجود المسافات، ذلك الدور الذي يرفضه الذوق والأدب العام وحدود اللباقة، كنتُ خائف من ذلك الجرح الذي سأتسبب به لها، ومن ذلك الجرح الذي ستتسبب به لي، كنت خائف من عدم توفر الفرصة للتوضيح.

كان سؤال: ماذا عليَّ أن أفعل؟ يُفتتني، يمزقني، ينثرني على احتمالات لا سبيل لأجزائي منها العودة لشدة انغماسي بالتفكير بها الذي لا يتيح لي استقرارًا، الذي لا يتيح لي فرصة للجزم بالقبول أو الرفض.

لقد غضبت يا صديقي آن ذاك من كل تلك الجهود المطلوب منا بذلها للنجاة، وأخذتُ أتساءل: أتستحق النجاة منا كل ذلك الجهد المبذول في سبيلها؟ ألا يُعقل أن تكون تلك السذاجة التي توقع أصحابها في فخ السلطات بدون جهد مُرهق، هي الراحة التي نبحث عنها في النجاة؟ نعم يا صديقي، فكَّرتُ بالهرب آن ذاك، فكرت ألا أستقبلها، حاولت العودة إلى شقتي لأغلق على نفسي بابها بإحكام، ولكن للأسف لم أكن أحوز شجاعة وجرأة كافية لأكون جبانًا ونذلًا إلى ذلك الحد. لقد كنتُ غاضب من عجزي عن أن أكون نذلًا، وفي ذات الوقت من عجزي عن تحمُّل ضريبة النبالة والشهامة.

كنتُ أتساءل آن ذاك بغضب: لماذا نُعذَّب بجميع الخيارات؟ هذا أمر محير ومربك ومحبط. أما من خيارات ليس فيها شقاء؟ نعم، في تلك اللحظات يا صديقي، لم أكن أريد سوى استشعار تلك الراحة الملعونة التي لم يُتح لنا استشعارها. أهذا هو مصير الإنسان يا صديقي؟ ألا سبيل لإيقاف شقائه؟ لماذا نسعى إذًا؟ ما فائدة كل هذه الجهود المبذولة؟

نتيجة عجزي عن الاستقرار على خيار، قررتُ التوقف عن البحث والتخيُّل، وعزمت على الارتجال لحظة الالتقاء وتحمل تبعات تلك الفوضى التي تخلِّفها تلك الخطوات غير المخطط لها، ولكن للأسف ذلك لم يوقف أسئلتي المعترضة على هذه الحياة القاسية، أسئلتي التي أراد غضبي أن يَظْهَرَ بها بعدما فشل بالظهور بملامحي وتعابير وجهي وسلوكي ومواقفي. نعم، كنتُ عاجز عن كبت كل ذلك الغضب، والتعامل معه، نعم لو أتيح لي تحطيم شيء ما، أو الانشغال بعمل ما، لربما كان سيتاح لي المقدرة على إطفائه، ولكن لا شيء كان متاح لي أمام المتواجدين في الصالة والأعين المترصدة لكل حركة ونظرة.

في أثناء ثورة الغضب تلك والأسئلة الاعتراضية التي كانت نتيجة لها، فُتحت بوابة خرج منها عدد قليل من الواصلين للبلاد، كان يبدو عليهم الإرهاق الشديد من الانتظار الطويل ومن عمليات التفتيش والتحقيق التي خضعوا لها، اختفت مع رؤيتي لهم جميع تلك الأسئلة الاعتراضية واستحال غضبي خوف وتوتر.

بدون وعي وقفت، فأخذتْ نبضات قلبي بالإسراع ويداي بالارتعاش وجبيني بالتندِّي في ظل ذاك البرد، ولكن فجأة انتبهت لما قد يوقعني فيه هذا الخوف المتنامي، فأغلقت عينيَّ محاولًا تهدئة نفسي وطمأنتها بالوصول لمشهد استلقاء شعاع شمس غاربة على سطح البحر، وفي لحظات قليلة كنتُ قد نجحت بالوصول لذلك المشهد وتحصَّلتُ منه على قدر بسيط من الهدوء جعلني أقل اضطرابًا ومنحي مظهر المتزن، ثم أخذت أبحث عنها بنظري.

رأيتها واقفة في أحد الزوايا تبحث بنظرها عني، فعاد قلبي للاضطراب. أتعجب يا صديقي كيف كان قلبي بذلك التمرد الذي لم أعهده عليه يومًا! لماذا كنتُ فاقد السيطرة عليه بذلك القدر؟ هذا مما لا أعلمه.

تقدَّمتُ خطوة نحوها ثم تذكرتُ باقة الورود التي نسيتها على المقعد، فتوقفت والتفت إليها، وعندها شعرت بالسذاجة لتفكيري بتقديمها. تركتها ملقاة على

المقعد، وبعدما خطوت ثلاث خطوات مبتعدًا عنها تذكرت ادعائي لضابطة الأمن، فرجعت إليها والتقطها وتوجهت بها إلى الأنسة هيا.

كنتُ أقترب شيئًا فشيئًا بترنح روحي لا جسدي، فكنتُ كلما اقتربتُ منها أشعر بأنني أترك شيئًا مني خلفي، شيئًا لطالما تمسكتُ به، شيئًا لم يكن مُتوقع مني التنازل عنه بتلك البساطة. نعم، كنتُ أشعر بتغيير يحلُّ فيَّ بكل خطوة أخطوها باتجاهها. ماهية ذلك الشعور الغريب الذي اجتاحني حينها؟ لا أعرف، ولم أنشغل بمحاولة معرفته آن ذاك، فلقد كان لديَّ كثير مما يشغلني.

يا إلهي ما أجملها يا صديقي. نعم، جمالها مربك، كاد يُطفئ قدرتي على التفكير، ويحبط جميع خططي.

بعدما رأتني، حاولتُ بنظري مرة واحدة الالتفات يمنة ويسرة لكي أوصل لها رسالة مفادها أنني مراقب، ولكنني قدَّرت أنها لم تنتبه لذلك، فغضبت لأنه لم يكن متاح لي تكرار ذلك مخافة اكتشاف أمرنا.

اقتربتُ منها وفي آخر خطواتي أسرعت إليها وعانقتها، عناق آلمني لكونه كعناق العشاق السذَّج. نعم، لقد شعرتُ بسذاجة مُقززة، ولكنني لأول مرة كنت راضيًا عن تلك السذاجة الصادرة عني، متمنيًا أن تنجح في خداع الأعين المُترصِّدة.

لقد تفاجأتُ يا صديقي، فلقد بادلتني ذلك الحماس في التمثيل وتلك السذاجة. لقد كنتُ متيقن أنها لم تنتبه لتلميحي، فرجَّحتُ أنَّ ذكائها قدَّر لها أنَّ حملي باقة الورود إشارة وتلميح مفاده أنني مراقب ومشتبه به، وبأننا بحاجة للتمثيل لصرف الأنظار.

كنتُ أتساءل آن ذاك: هل من هذا التمثيل سينطلق كل منا للاعتقاد بأنه نال انطباعه الأول عن الآخر، أم سيختار كلٌ منا أن يكون مُنصِف للآخر ويُقر بأن اللقاء لم يتم بعد؟ نعم، لقد كنتُ مجروح يا صديقي آن ذاك من صورتي لديها. لا أعلم سر ذلك الاهتمام بصورتي لدى الآخر، أنا الذي لطالما لم أُبدي اهتمامًا بذلك. نعم، هناك اختلاف حل فيَّ بدأتُ أستشعره منذ تلك اللحظة.

ذلك القرب من المرأة الذي لطالما رفضته، ها أنا أقبل به مرغمًا، تلك المسافات التي لطالما حافظتُ عليها في علاقتي مع النساء ها أنا ألغيها في

تلك الظروف. يا لسخرية القدر. نعم، هذه سخرية يا صديقي لا طاقة لي على احتمالها.

قدَّمتُ لها باقة الورود بعد ذلك العناق، وهي بدورها أخذت تلعب دورها باشتمامها، وبعد ذلك تقدَّمتُ خطوة باتجاهي ومنحتني قبلة على خدي الأيسر. اضطربت في تلك اللحظة، وتساءلتُ عما إذا كان لهذه القبلة من داعي، بعدما كادت بها تفقدني قدرتي على التمثيل من شدة الاضطراب.

نعم يا صديقي، لقد كدتُ أبكي، لقد اغرورقت عيناي بالدموع، فتلمستُ خوفها من تمثيلي السيء، وفجأة وجدتها تطلب مني جر عربة حقائبها بعدما شبكت يدها في يدي محاولة التغطية على أخطاء تمثيلي.

يا إلهي كم تجيد التمثيل، يا إلهي ما أجملها يا صديقي. نعم، لم أنْسَ أنني أخبرتك بذلك، وأعتقد أنني سأكرر ذلك في رسالتي هذه، فأنا ما زلت مضطربًا، وباعتقادي أنَّ هذا سيطول. نعم، أنا أحب الجمال. لا تخف عليَّ يا صديقي، لم أعرفها بعد لكي أقع في حبها، وحتى لو عرفتها فأنا مغلق.

خرجنا من الصالة ووقفنا على بابها للحظات كنا فيها ما زلنا نُمثِّل مخافة استمرار المراقبة، إلى أن وقفت أمامنا سيارة أجرة بان على سائقها علامات الضجر والغضب.

لم تكن تحمل سوى حقيبتين ولهذا لم يكن هناك داعي لنزول السائق لمساعدتي في وضعهما في حقيبة السيارة. بعدما فرغت، استقلَّينا السيارة وانطلقنا بعدما أعلمتُ السائق بوجهتنا.

كان الجو ما زال باردًا بالرغم من شروق الشمس، ولهذا كان ما زال يلعب ضدي، وكانت نسمات الهواء التي تحمل رائحة الأوراق الميتة تهددني وتشعرني بالخطر باستمرار، وكان وجه السائق الغاضب يوترني.

مررنا عن أول حاجز بسرعة وبدون عوائق، فقد كان يبدو من ذاك الحاجز الذي لا يشغله أحد، أنَّ توقيت مرورنا متزامن مع توقيت تغيير المناوبة، وما أن وصلنا إلى الحاجز التالي الذي لا يبعد كثيرًا عن ذاك الحاجز حتى تم توقيفنا، وهذه المرة طُلب منا النزول لتفتيشنا وتفتيش السيارة بالكامل، فامتثلنا ونزلنا بهدوء، بخلاف السائق الذي أخذ يتمتم بغضب معترضًا على ذلك.

أمر قائد الحاجز أتباعه بإفراغ الحقيبتين، فأخذوا بإفراغهما بفوضوية، فوجدوا في الأولى ملابس أما في الثانية وجدوا كتب ودفاتر وأوراق، وهذا أخافهم كثيرًا.

أخذ قائد الحاجز بالنظر إلينا، وكان يبدو عليه البلاهة، فسأل عما تحتويه تلك الأوراق والكتب، وكان سؤاله يدل على أنه لا يجيد القراءة، فرددتُ عليه بأنها مجرد روايات وتابعت الأنسة هيا بالقول بأنَّ الأوراق والدفاتر مجرد يوميات تدونها باستمرار، وبان من نظراته أنه صدَّق ما قلناه، ولكن بقي لديه بعض الشك.

نعم يا صديقي، لقد كذبنا عليه فأنت تدرك ما يعينه لهم حمل كتاب معارض لنظامهم، تعرف ما يعنيه أن تكون كاتب مقالات أو كتب تحمل نقد ومعارضة لنظامهم الحاكم، أنت تدرك ما يعنينه فقط أن يكون المرء كاتب أو قارئ. نعم، حتى مع ما ادعيناه، كنتُ متخوف من احتجازنا إلى حين التحقيق في أمرنا.

توجَّه نحوي، ثم سألني عمن تكون بالنسبة لي، فأجبته بأنها خطيبتي، فارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتيه وقفزت من عينيه التي يلوّح منهما شيطان نظرات خبيثة، ثم قال: "أما زلت إلى الآن غير متأكد من طبيعة مشاعرك نحوها"، فبانت على وجهي إمارات المُتعجب وتعابير المتوتر القلق المرتبك.

نعم يا صديقي كنتُ حينها قد أدركتُ أنَّ بائع الورود ذاك ما هو إلا أحد رجالهم المتخفين. نعم، خبثهم هذا خبث شيطان متمرس على الاصطياد. لقد أدركوا أنَّ مشاعر البشر الحقيقة وعواطفهم تتكشف أمام الورود، أمام كل ما هو جميل وجليل، ولهذا أرادوا استغلال هذه اللحظات المُقدَّسة للبشر كفخ. نعم، هم لا يريدون للثوار حتى التمتع بالجليل والجميل مخافة الوقوع في فخهم، هم يطاردون الثوار في كل مكان وزمان ومشهد.

من شدة ارتباكي لم أكن قادر على التفكير برد أو البحث عن حل، وفجأة وأنا في تجليات تيهي وضياعي ذاك، أحسستُ بصفعة قوية كان مصدرها الأنسة هيا، ثم وجدتها تصرخ بغضب في وجهي: "أيها الحقير أما زلت إلى الآن غير متأكد من طبيعة مشاعرك نحوي؟! لماذا قمتَ بخِطْبتي إذًا، لماذا كنتَ أيها الحقير تخدعني بادعاء حبك لي وباطلاعي على رغبتك بالزواج بي؟! لا أريد المواصلة، سأرجع إلى بلدي، الآن سأرجع للمطار.". نعم يا صديقي، بفطنتها أدركت المأزق الذي وقعت فيه، فسارعت للتصرف.

سارع السائق إلى تهدئتها بعدما طلبتْ منه العودة بها إلى المطار، وأخذ قائد الحاجز بعدما خُدع بتمثيلها المُتقن التأكيد لها على وجود سوء فهم، وبالبرهنة على أنني لم أكن صاحب تلك الكلمات، وبأنه فقط كان يمازحني، وبعدما أخذتْ وقتها في ادعاء عدم تصديقهم، أخذتْ تُمثِّل أنها صدَّقت ما يقولون، ثم تقدمت نحوي وعانقتني وقامت بالاعتذار مني على الصفعة، وما أن انتهت المسرحية، حتى استقلينا السيارة مجددًا وانطلق السائق بنا إلى وجهتنا وهو يُحيل السباب واللعنات على قائد الحاجز ومعاونيه.

توقفتْ السيارة بعد كل هذه المعاناة أخيرًا أمام البناية التي أقطن فيها، فأعطيت السائق حسابه وبقشيشًا كبيرًا وأخذتُ أشكره على وقوفه معنا، ثم ترجَّلتُ من السيارة والتقطت الحقيبتين وأخذتُ بالتَّأكد من أننا لم نعد مراقبين، ثم صعدنا ودخلنا الشقة معًا، وهناك كانت المفاجأة.

في داخل الشقة وجدتها امرأة أخرى بنظراتها وشخصيتها ونبرتها، ومع ذلك قاومتُ وأخفيتُ أثر هذه المفاجأة عليَّ، وأخذت أرحب بها، معربًا عن سعادتي باستضافتها، وبادلتني هي بدورها عبارات الشكر على استقبالها واستضافتها، ولكن فاجأتني مجددًا قبل الجلوس في الصالون، بالقول بحزم بعد نظرة وجدتُ فيها كل الجد اخترقت أعماقي: عليك الحذر أكثر يا رفيق، تلك الأعين التي كانت تلاحقنا كانت نتيجة أخطاءك.

كانت مُحقة ولكنني شعرت بالإهانة، ولكن سرعان ما طردتُ ذلك الشعور، وقدَّمتُ اعتذار ألزمني به الثائر المتواجد فيَّ. بان لي أنها أحسَّتْ باعتذاري صدقي، ثم قامت بعد ذلك بمد يدها لمصافحتي والتعريف بنفسها، فمددتُ يدي لمصافحتها وقمتُ بالتعريف بنفسي أيضًا.

نعم، هذا إجراء كان لا بد منه ليتاح لنا حينها القول بأننا التقينا، نعم هذا إجراء كان لا بد منه ليُشكِّل كل منا انطباعه الأول عن الآخر، انطباع لا صلة له بلحظات التمثيل السابقة. نعم يا صديقي، أنا معجب بقدرتها على التصرُّف في الأوقات التي تتطلب منها ذلك، نعم هي عبقرية، هذا ما يوحي به ارتجالها وسرعة بديهتها في التصرف، فيا له من ذهول ذلك الذي ستبثه فيَّ عبقرية تخطيطها. نعم لقد تفوق ارتجالها على تخطيطي، وبهذا أيقنت أنها تتفوق عليَّ كثيرًا، وبهذا أدركتُ أنَّ هناك كثير تحوزه لا أحوزه.

عندما تشابكت يدي بيدها أثناء المصافحة، شعرتُ بشخصيتها الغامضة، أحسستُ بكيان مغلق فيه من الأسرار التي ستقف عائق أمام جميع محاولات اختراقه، وعندما نظرتُ في عينيها وجدتُ عمق ورسالة مُلغزة. نعم، لأول

مرة أفشل في قراءة إنسان. شعرت أنني إن حاولت التعمق ستُكشف محاولتي فتراجعت مستكفيًا بفشلي. نعم، على الرغم من غموضها هذا لا تخفى قوتها، نعم ستكون قادرة على احتمال من هم مثلي، سيكون بمقدورها أن تكون صريحة وتتحمل الصراحة، سيكون لديها دائمًا استعداد للثورة.

كنتُ مرهق للغاية، وفكَّرتُ بالاستئذان منها للانصراف إلى غرفتي، ولكنني تذكرتُ وعودي التي قطعتها لك بمحاولة القيام بالتصرفات التي تستوجبها اللباقة.

بعدما جلسنا نهضتُ بسرعة ثم سألتها عن المشروب الذي تفضله بعدما عدَّدتُ لها ما هو متوفر لدي، ففاجأتني بطلب القهوة التي استبعدت أن تطلبها لحاجتها للنوم بعد سفرها المرهق، فاضطررتُ لمشاركتها شرب القهوة على الرغم من أنَّ رغبتي كانت بمشروب بارد يُطفئ تلك الحرائق التي أشعلها في نفسي ما صاحب مهمتي من عوائق.

تحدثنا عنك وعن خطيبتك أثناء شربنا القهوة، وما أن انتهينا حتى طلبتُ مصاحبتها بجولة تعريفية في الشقة ثم وضعت حقيبتيها في غرفتها، واستأذنتُ منها للانصراف بعدما عبرتْ لي عن تعب السفر، وبعدما حاولتْ شكري على استضافتها. فكَّرتُ أثناء ذلك في سؤالها عن موعد وجباتها المناسب، ولكنني تراجعت بعدما قدَّرتُ بأنَّ ذلك ليس هو الوقت المناسب، ثم انسحبت إلى غرفتي.

استلقيتُ على فراشي محاولًا النوم، ولكنني فشلتُ بالرغم من التعب الشديد. بقيتُ أتقلب يمنة ويسرة لفترة طويلة، محاولًا إيجاد وضعية جيدة للنوم ولكن بدون جدوى. كنتُ مضطربًا جدًا، يا إلهي ما أصعب وجود امرأة بهذا القرب. كم هي عذبة تلك الراحة التي تُقدِّمها المسافات لنا! هل بإمكاني الاعتياد على هذا الوضع، هل بإمكاني الصمود طويلًا؟ نعم، أنا أشك في ذلك، ولكن من أجلك يا صديقي سأحاول وأحاول.

نهضتُ من فراشي بعدما فشلت في النوم، وتناولت أحد الكتب التي لم أكن قد أنهيت مطالعتها بعد، وأخذت أقرأ من حيث توقفت بدون توقف للتمتع بالجمل أو لتفكيك وتحليل بعض النصوص، فمن شدة التعب كنتُ عاجز عن إمساك القلم للكتابة. أحسستُ بذلك أنني غير مُقدِّر لجهود الكاتب، ولا أوليه حقه من الاحترام، فتركتُ الكتاب، ثم أخذتُ أطالع إحدى الروايات، فطالما كانت ملجئي من تلك الكتب التي تستنفذ كامل قدرتي على التفكيك والتحليل والنقد والربط، ولكنني أيضًا فشلت في الاستمرار بالمطالعة، فلقد كنتُ

مُعطَّل كليًا. كنتُ منزعجًا يا صديقي من تلك الجاذبية المفقودة للكتب وللروايات، فأخذتُ أحيل لها تهم كالخيانة والتآمر.

حاولتُ البدء بالنشاط الذي لطالما أراحني ونجح في بث الهدوء في نفسي المضطربة باستمرار، نعم حاولت أن أبدأ بالكتابة لك، ولكنني عجزت أيضًا، فزاد ذلك غضبي، وأخذت أتساءل: كيف لهذا العمل الذي لطالما كنتُ أنجزه بسهولة، أن يستحيل لعمل مُعقَّد لا سبيل لي للبدء به حتى، كيف لهذا العمل الذي لطالما أفرغ غضبي أن يزيده، كيف لهذا العمل الذي لطالما جعلني مسالمًا أن يُحفِّزني الآن على العنف؟! لماذا هذا العالم لم يعد ذلك العالم الذي أعرفه، لماذا كل شيء استحال إلى نقيضه؟!

قفزتُ عن مقعدي، ولجأتُ إلى مرآتي. وقفت أمامها وأخذت أردد: "أنا قوي"، ولكن هذه أيضًا لم تفلح ببث الهدوء في نفسي، فتراجعت متهمًا مرآتي بالخيانة، ثم أخذت أتهم نفسي بخيانة نفسي، ثم أخذت أتهمك بخيانتي. نعم كنت غاضب، لدرجة أنني أقدمت على ذلك الفعل الشنيع. تعاظم غضبي وبت غير قادر على احتماله، وغير قادر على إفراغه بالوسائل السلمية، ولا حتى بتلك الوسائل العنيفة التي حال وجود الأنسة هيا بقربي دون أن تكون خيار متاح دائمًا في حال فشل الوسائل السلمية.

كنتُ مُختنق جدًا أكاد أنفجر، فخرجتُ من غرفتي، ثم وقفتُ في المطبخ للحظات كنتُ فيها غير مدرك لسبب تواجدي هناك، فعزمتُ على الخروج من الشقة.

لم أتساءل عن وجهتي، فلم يكن سوى البحر لي ملجأ في مثل هذه الأحوال. بعد دقائق سيرًا على الأقدام وصلت، فجلست على رمال الشاطئ أتأمل ذلك الأفق البعيد، وهنا كانت خيبة أمل جديدة، فلقد فشل الأفق أيضًا في انتشالي لأول مرة، فشل البحر في احتواء غضبي بالرغم من اتساعه، وفشل ذلك الامتداد في لملمتي، فأخذتُ أمشي يمنة ويسرة.

كنت مضطرب أشد اضطراب ومدرك لسبب ذلك، ولكنني مُتمرد أحاول البحث عن أسباب أخرى أُحسِن التعامل معها، ولكنني كنتُ دائمًا للأسف أمام سبب وحيد وهو وجود الأنسة هيا بهذا القرب مني. نعم، هذا سبب لم أستطع استبعاده بالرغم من محاولتي ذلك بإصرار لكيلا أفقد لطفي ولباقتي معها. نعم يا صديقي، كونها سبب يجعلها عُرضة لجلافتي ووقاحتي ولامبالتي، ولهذا أنا بحاجة لأسباب أخرى.

أخذتُ أتساءل: هل هو جمالها سبب اضطرابي أنا الذي كنت على الدوام قادر على الصمود أمام الجميلات؟ أهو وصفك المُنزّه لها السبب في ذلك؟ هل تمثيلنا السبب في ذلك؟ هل غموضها، وعجزي عن قراءتها السبب في ذلك؟ هل هو قربها المتسبب بذلك؟ نعم، لربما جميع ما ذكرته كان سبب بطريقة ما في ذلك، ولكن لماذا، وكيف ذلك؟ أنا أعترض يا صديقي، نعم أعترض على ضعفي، أعترض على قوتها. لماذا وجدتُ طالما سأكون بهذا القدر من الضعف، هل لضعفي هذا مهمة، وأي مهمة سيكون مُقدَّر له إنجازها؟! كيف احتوتني الثورة، وأنا بهذا القدر من الضعف، أو كيف أُتيح لي أن أكون ثائرًا وأنا بهذا الضعف؟ هناك ما أجهله يا صديقي، هناك أسرار محجوبة، هناك ألغاز ليس متاح لي حلها، هناك أسئلة لا سبيل لي للعثور على إجاباتها التي لربما لن أحتملها. نعم، لربما أنا بهذا الجهل في أمان، ولكن كيف أكون في أمان، وأنا بهذا القدر من الضعف؟ كيف تمكَّن هذا الضعف الذي أنا عليه أن يحوز هذا القدر من الغضب؟! يا للسخرية، أيُعقل أن يكون للضعف مهمة عظيمة؟ هههه. تساؤل يدل على حماقة، ولكن حماقة وسذاجة مبررة باختفاء الإجابات، واحتجاب الأسرار، وتعقُّد الألغاز.

هل سيتاح لي التخلص من ضعفي يومًا ما؟ هل سيتاح لي مجابهة تلك العقبات، وإنجاز تلك المهام الصعبة بقوة؟ هل هناك لحظة لن أحتاج أن أدَّعي فيها القوة لأحوزها؟ أسئلة كثيرة يا صديقي، التفكير فيها يُشعرني أنَّ لامساواة بيننا نحن البشر، أنَّ لا عدل في الأرض، وهذا يُعظِّم غضبي.

توقفتُ عن المسير يمنة ويسرة، ثم جلست واستلقيت على الرمال. أخذت أتابع السماء، أحاول بزرقتها تهدئة نفسي، ثم أخذت أقرأ رسومات الغيوم المتناثرة، أحاول إعطاءها معنى لأمنح لعفوية الرياح المُشكِّلة لها قيمة.

نجحتُ آن ذاك بإلهاء وإشغال نفسي بعمل ما، ونجح هذا العمل بتضليل غضبي، فوجدته تائهًا عني. كانت تلك اللحظات لذيذة يا صديقي، لها لمسة مُطيّبة، فيها الروح متحررة من قيودها، فيها الحياة لها معنى، فيها لي أناي، فيها البعد على الدوام حليف.

بعد ما يقارب الساعة والنصف تذكرتُ الأنسة هيا، فشعرت ببعض الحرج لتركها لوحدها في المنزل. لم أعتد هذا الشعور من قبل، ألم أقل لك أنَّ اختلاف كبير حل فيَّ بلقائها. نهضتُ للعودة، وفي أثناء المسير مررت على إحدى المحال التجارية للتبضع، فاخترتُ بعض أصناف الأطعمة التي أجيد إعدادها، وانتقيتُ كل ما اعتقدتُ بأنه يجعل استضافتي لها أفضل، وأثناء خروجي من المتجر وجدتُ عند باب المخرج بائع ورود، فوقفت أمامه،

ورمقته بنظرة مُحقِّرة. لا أعلم إذا ما تمكن من قراءتها، ولكنني شعرت أنني ظلمته بعدما شككت فيه، فأعدتُ نظراتي إلى طبيعتها، ثم أخذت أنظر إلى الورود المعروضة، ألومها على خداعي وأعاتبها، وأُعلِمها بأنني لن أقع في فخها مجددًا. قاطعني البائع قائلًا: "أمحتار أنت؟ دعني أساعدك، ما هي المناسبة؟ لمن تود تقديمها لصديق أم لحبيبة أم لقريب؟"، نظرتُ إليه وقلت محدثًا نفسي: لن تتمكن من خداعي هذه المرة، ثم قلت له مخفيًا نظراتي الموحية بأنها على علم بطبيعة عمله الحقيقة: "شكرًا، لست بحاجة إلى المساعدة، أنا فقط أحاول اختيار اللون المناسب."، وبعد لحظات من الوقوف أمامه أبنتُ عن عدم رضاي عن الألوان المتاحة ثم تركته بدون اقتناء أي باقة.

بعدما وصلتُ أخذتُ بإفراغ الأكياس ووضع المقتنيات في أماكنها بهدوء، ثم جلستُ في المطبخ أخطط لما سأقدّمه من طعام، وأحاول تحديد الموعد الملائم لذلك، وأحاول تقدير ما إذا كان من اللائق الاقتراب من غرفتها والطرق للاستعلام. كنتُ مشوَّش ومضطرب وتائه يا صديقي بين الخيارات. أعلم أنك تعتقد وأنت تقرأ رسالتي هذه بأنني أحاول تعقيد الأمور بدلًا من التصرف بأريحية وبساطة وعفوية، وتدرك أيضًا أنني سأجادلك في ذلك في حال أقدمت على توبيخي بالتأكيد على أنه لا مجال للتصرف بعفوية، وسأسارع لتقديم الدليل تلو الدليل على وجود المبررات لموقفي، ولهذا دعنا لا نخوض في ذلك.

نعم يا صديقي، لم نعد نتذكر كيف يمكن التصرف بعفوية لما عانيناه من هذه الثورة التي تُلزمنا دائمًا بحيازة الخطة للنجاة، لم نعد نتذكر كيف يمكن التصرف ببساطة من شدة صعوبة الحلول التي تتطلب منا الثورة البحث عنها، لم تعد نظراتنا وحركاتنا تعرف الهدوء من عظيم ذلك الاضطراب الذي تبثه الثورة في نفوسنا. ما أحمقني، دعوتك لعدم الخوض في هذا الموضوع وها أنا أخوض فيه، دعوتك لعدم الجدال وها أنا أجادل. اعذر لي حماقتي يا صديقي، فأنا مضطرب، وأنا في هذه الفترة لست أنا. ما أشد سذاجتي! متى كنتُ أنا أنا؟!

انتقلتُ للجلوس في الصالون آملًا بتغيير المكان تَغيُّر الحال، وهناك انبجست في ذهني المرهق ذكريات الطفولة وشقاوات المراهقة. كنتُ أتنقل بين كل ذكرى بابتسامة حزينة مرسومة على شفتيَّ. نعم، لقد أشعرتني تلك الذكريات بالحزن، مكَّنتني من الالتفات إلى بؤس كان يفتك بي بدون ملاحظة وجوده. محزن يا صديقي أن نكون على حال لا يتيح لنا فرصة للعودة لذلك الطفل

الذي كنا عليه، محزن أن لا نجد الوقت للعودة بالذاكرة إلى الوراء الذي حمل شيء من السعادة، محزن أن لا نجد الوقت للعودة لتلك اللحظات التي قضيناها بعفوية وبساطة وفوضوية وعدم اكتراث بالعواقب، محزن أن لا يتاح لنا العودة. لا أعلم يا صديقي سر تلك العودة المفاجئة بي للوراء، نعم لربما ضغط التفكير الزائد والإرهاق الشديد هما السبب في ذلك.

وفجأة وأنا جالس، سمعتُ صوت خُيّل إليَّ أنني سمعته من قبل، ذلك كان صوت تقليب صفحات كتاب ونقرات قلم، وحينها أدركت أنها لم تعلمني أنها مرهقة من السفر إلا لكي تعود للقراءة والكتابة. كان انشغالي بالتفكير هو ما صرفني عن ملاحظة ذلك. نعم يا صديقي، لقد تفاجأت من قدرتها على العمل بعد عناء سفرها وظروفه المُرهقة، تفاجأت من قدرتها على العمل وعدم الاكتراث والمبالاة بهذا القرب مني. نعم، لقد توقعتُ أن تكون مثلي مضطربة خائفة متوترة، عاجزة عن متابعة أبحاثها، ولكنني كنتُ مخطئ. نعم يا صديقي، حينها أدركتُ الفرق بيننا، أدركت كم هي قوية وكم أنا ضعيف، كم هي قادرة وكم أنا عاجز، كم هي متماسكة وكم أنا منهار، فنهضتُ بسرعة للوقوف أمام مرآتي وأخذت أردد "أنا قوي"، وعندما استشعرت أنني حزت ثقة بقدرتي على الطرق على بابها وسؤالها عن الطعام الذي تفضّله والوقت الملائم لتقديمه لها، انطلقتُ لتنفيذ ذلك قبل أن أفقد تلك الجرأة بالتردد والحذر وتقدير العواقب.

نجحتُ بالوقوف أمام باب غرفتها، وذلك كان إنجاز كبير لي، ولكنني وجدت صعوبة كبيرة بالطرق عليه، ومع ذلك تجرأت وطرقت عليه بعدما أخذت أردد أمامه بدون نطق "أنا قوي". لا أعلم إذا ما كنتُ طرقتُ ثلاث مرات أم مرتين متتاليتين أم أنني لم أطرق من الأساس. كنتُ أفكر في لحظات الانتظار تلك فيما إذا كانت طرقاتي قوية كفاية لتكون مسموعة أم أنها ضعيفة إلى حد لا يمكن سماعها. أخذ قلبي يخفق ويداي بالارتعاش وجبيني بالتندِّي وعقلي بالضياع.

حينها تذكَّرتُك يا صديقي، لا أعلم لربما أحلتُ إليك بعض الشتائم والسباب، نعم لقد كرهتك آن ذاك، لقد شعرت أنك ورطتني في قضايا لا طاقة لي في التعامل معها، لا سبيل لي في معالجة الجروح والتعويض عن الأضرار المتسببة بها لي.

أحسستُ أنَّ بعضي يتساقط وينهار، فكدتُ أقع، فوضعت يدي على الحائط لتسندني، ولكنني شعرت بحرج من تلك الوضعية، شعرت بأنها وضعية

توحي بعدم الاحترام، فرجعتُ للوقوف مستقيمًا، مع أمل بأن يبقى مني ما أنا قادر على حمله، للظهور به على تلك الهيئة التي أريد الظهور بها أمامها.

فتحتْ الباب، لستُ أعلم إذا ما كان ذلك بعد دقيقة أم بعد ثلاثين دقيقة من طرقي، فحين ذاك لم أكن مستشعر بالوقت. في تلك اللحظة تذكرتُ أنني نسيتُ تحديد التحية التي من المفترض أن أستخدمها والتخطيط للكلمات التي ينبغي عليَّ الاستعانة بها، تذكرتُ أنني غفلتُ عن انتقاء الأسئلة التي سأوجهها لها، وتحديد النظرات التي يتوجب عليَّ تفاديها، فوقفتُ جامدًا. يا إلهي كم رغبتُ آن ذاك بالهرب من أمامها، وحاولتُ ذلك ولكنني عجزت. لا، لم يكن سبب ذلك الثورة، أو الحياء أو صورتي عندها أو وعودي لك بالتصرف بلباقة، بل شيء آخر أجهله أبقاني رغمًا عني.

قررتُ عدم البدء بالتحدث مخافة التلعثم، ولكنني وجدتُ نفسي ألقي تحية الصباح، ووجدتها ترد عليَّ بنفس التحية. كان المساء حينها قد حل وكانت تحيتي غير مناسبة. لا أعلم إذا ما كان ردها عليَّ بنفس التحية سخرية، لربما لم تكن مُدركة بعد أنَّ المساء كان قد حل منذ مدة ليست بالقصيرة، ولربما سايرتني لكي تتجنب إحراجي بعدما بان لها عظيم ارتباكي وتوتري. حاولتُ التماسك وأخذتُ أعتذر منها على اضطراري للطرق، فوجدتها تحاول الإبانة لي بأنني لست مضطرًا للاعتذار، فشعرتُ بأنني أحسن حالًا بكلماتها، ولكن وجهها المتجمد الذي لا يُحسن التعبير عن حقيقة شعورها وتفكيرها عاد فأربكني، ولكن تلك الابتسامة البائن أنها ابتسامة مصطنعة هدفها المجاملة، عادت فأشعرتني بالراحة لشدة جمالها. قدَّمتُ اعتذار آخر على مقاطعة قراءتها وكتابتها، فوجدتها هنا تبرر لي ذلك الخطأ بتقديم عدم تعارفنا بعد كسبب لذلك، فأدركتُ حجم الخطأ الذي ارتكبته وقدَّرتُ أنني لن أستطيع التكفير عنه، فكررتُ اعتذاري ثم سألتُ مباشرة لكي لا أدع لها مجالًا لرده، عما تُفضِّل تناوله على الغذاء لكي أعدُّه لها وعن توقيت تقديمه الذي يناسبها، وحاولت أن أكون ظريفًا -لا أعلم كيف نجحت في ذلك- بالابتسام والقول بأنني طباخ ماهر، فوجدتها ترد عليَّ بابتسامة أعرض ارتسمت على شفتيها أكثرًا جمالًا وأقل تصنعًا، فباغتت قلبي سعادة المنتصر، ثم سألتُ بعدما لم أجد إجابة، أو لربما بعدما فضَّلت عدم انتظار إجابتها:

- هل تفضلين طبق السمك المشوي أم الدجاج المقلي أم طبق نباتي؟

فردَّتْ بعدما تقدمتْ نحوي وأغلقت باب غرفتها:

- دعني أساعدك فيما تفضل أنت إعداده.

فقلتُ بعدما أخذنا نسير معًا متوجهين إلى المطبخ:

- أُفضِّل أن تختاري.

- صراحة، أنا لا أجيد التعرُّف على ما أفضِّله من الطعام، ولا أجيد الحكم عليه، ولا أُجيد الطبخ، ومع ذلك سأحاول مساعدتك.

حينها يا صديقي تذكرتُ أحاديثك عنها. نعم، لقد كان وصفك في محله، فهذا الرد لا يوحي سوى بإهمالها الحاد بنفسها، وبانشغالها على الدوام بالقراءة والكتابة. نعم، هناك شبه بيننا وعوامل مشتركة، ولكنني أختلف عنها في أنني بعد البحث أكافئ نفسي بوجبة لذيذة، على الرغم من أن جسدي لا يوحي بذلك. نعم، جمالها المُربك وحده المتسبب بإخفاء ضعفها وتهالك جسدها.

عدتُ لأقول ممازحًا:

- هذا جيد، سأنجو بالرغم من ادِّعائي.

فأخذنا بالضحك، ثم واصلتُ المزاح قائلًا:

- وبهذا أيضًا ستكونين مُعفاة من العمل، وسأبقى مُعفيك منه بعدم منحك الدروس في الطهي.

ثم عدنا للضحك. لم تكن ضحكاتنا صاخبة، ولكنها حطَّمت بعض الحدود التي كانت ستتسبب بإعاقة تواصلنا. من المعهود عن الضحكات أنها تتيح المجال لقراءة الشخصيات ولكن ضحكاتها كانت خلاف ذلك، نعم لقد أعاقتني فأبقتها غامضة. كنتُ أيضًا في تلك اللحظات متعجب من نفسي، وأتساءل: كيف استحالت شخصيتي التي لطالما كانت مصدرًا للتصرفات غير اللبقة الجافة مع النساء نتيجة الارتباك، إلى ذلك الحال وبهذه السرعة، كيف بتُّ قادر على المزاح وأنا لفترة طويلة متمسك بالجد؟!

قالت بنبرة جادة:

- لن أسمح لنفسي بأن أثقل عليك يا رفيق.

انتظر، لربما قالت "يا رفيقي"، فلقد شعرتُ بصلة ربطتني بها، شعرتُ بانتمائي لها، ولكن أيضًا شعرتُ بهذه الكلمة بأنها تتعامل معي بحذر، برسمية، بحدود، بمهنية، فقلت لها:

- بحكم الصداقة التي ستكون بيننا، هل تسمحين باستخدامنا كلمة "صديق" بدلًا من "رفيق" التي أفضل استخدامها عند تواجدنا بين الرفاق فقط؟

نظرتْ إليّ نظرات أعتقد أنها نظرات تعجُّب، لستُ متأكد، فهي غامضة، شعرتُ بها أنني تعجَّلتُ، شعرتُ بها بأنني كنتُ وقح بطلبي، ثم قالتْ:

- لا تبدو كما سمعت عنك.

- ليس كل ما يُقال حقيقة، ولكن لا بأس من التعرُّف في بعض الأحيان على ما يقال؟

- قيل لي أنك حذر في تكوين الصداقات، وها أنت تعرض عليَّ صداقتك قبل معرفتي.

- أنا في الحقيقة لستُ حذر، وإنما أجد بعض الصعوبة في تكوينها، فشخصيتي الانطوائية هي المتسببة بتعثري. أما بخصوص المعرفة كشرط للصداقة، أجد صديقي يعرفكِ جيدًا ولهذا أعتبر نفسي أعرفكِ بمعرفته لكِ.

- هذه ثقة كبيرة به.

- يستحقها. إذا لم يُقنعكِ مبرري فلدي آخر. في أحيان كثيرة تكون الصداقة مفتاح للمعرفة لا المعرفة مفتاح للصداقة، أليس كذلك؟

- صحيح.

- إذًا دعينا نعلن صداقتنا، لكي نتعرَّف بها على بعضنا البعض.

- لديك قدرة على الاقناع، ولهذا أجد نفسي مضطرة للموافقة على طلبك.

فمددتُ يدي مصافحًا ومدَّتْ يدها. حينها شعرت بسذاجتي، ولا أستبعد أنها شعرت بها أيضًا، ومع ذلك سايرتني ولم تحرجني. نعم، هذه السذاجة دليل على ارتباكي. لقد كنتُ ثرثارًا، فكيف احتملتني؟! هذه الثرثرة مؤشر على الاضطراب، أتعتقد أنها لاحظت ذلك؟ نعم، أنا بصراحة أُرجّح أنها لاحظت ومع ذلك تظاهرت بالعكس، لكي لا تزيد اضطرابي.

لم يكن الكلام الذي تفوَّهتُ به مخططًا له، ولكنني راضي عنه أتم الرضى، بالرغم من أنه خرج بطريقة ساذجة. نعم يا صديقي، لربما أنا أفضَل في الارتجال، لربما أنا لستُ بمخطط بارع. لقد أعلنتُ الصداقة بيننا، لأن الصداقة رابطة قوية، رابطة مُقدَّسة، لا سبيل لحلها، لا يمكن الانتقال منها لرابطة الحب. لقد حذَّرتني يا صديقي من الوقوع في حبها، وأنت لا تفعل ذلك إلا عندما تستشعر خطرًا، وأنا أخاف من حدسك أيها العراف، فهو دائمًا ما يُصيب، ولهذا خفت وقررت التحوط، فأعلنتُ صداقتنا بسرعة. لربما أنت الآن تُكذِّبني وتقول بأنَّ تحذيرك ليس هو من دفعني لذلك أنا الذي لطالما كنتُ متهورًا، أو على الأقل ليس وحده من دفعني لذلك، وهنا سأصْدُقك القول وأعترف، بأنَّ جمالها المربك سبب، وشخصيتها المُتزنة سبب آخر، وغموضها أيضًا سبب. نعم، كثيرة هي الأسباب يا صديقي، في حال عدَّدتها لن تتسع لها رسالتي هذه، ولهذا أكتفي بما ذكرته.

نعم يا صديقي، توفير الحماية من الوقوع في الحب خدمة من الخدمات التي تُقدِّمها الصداقة، ولعلَّها أعظم خدمة. أترى كم أنا ماهر في التحصن والهروب. ستسألني بخبث كعادتك قائلًا: "وهل كنتَ مضطر للصداقة؟ ولماذا من الآن؟"، وستجدني أجيبك أيها الخبيث بصراحة بأنني لربما أمام جمالها المربك كنتُ مضطرًا. نعم، أنا أعترف، لقد خفتُ من الوقوع في حبها، لقد خفت أن أقع في حبها والثورة على الأبواب. يا صديقي الثورة تطلب التضحيات، وأخاف بأن أعجز عن تقديم ما تطلبه، نعم أخاف أن تطلب مني تلك التي لا سبيل بعدها لإصلاح قلبي. لماذا من الآن؟ لأنها نافذة يا صديقي، لأن جمالها لا يترك مجالًا للمناورة والمراوغة، لأنها كرصاصة تستقر في هدفها مع وميضها، لأنها الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، ولربما لأنها قريبة، من يدري؟

كن منصفًا يا صديقي ولا تحاول استفزازي بتوصيف كلامي هذا على أنه كلام عاشق، ففي الحقيقة هو كلام من هو خائف وهارب باستمرار من العشق، كلام من هو حيادي وموضوعي. نعم، كلام العشاق لا حياد وموضوعية ونزاهة فيه. إياك أن تجرؤ على وصفي باللاموضوعية وأنا من تمسكتُ بالموضوعية طوال حياتي، إياك أن تتجرأ وتتهمني بالانحياز وأنا من تمسكتُ بالحياد على الدوام. نعم، هذه تُهم وأوصاف لا تليق بمن هم مثلي، بمن طهَّرتهم الفلسفة بجحيمها ونعيمها وكانت سببًا في نقائهم. نعم، سأغضب منك في حال فعلت ذلك، وستكون سبب في القطيعة بيننا. أنا يا صديقي لا أعرف الحب، ولكن أعرف الجمال، ولهذا لا تُسيء فهمي عندما أُعبّر لك عن إعجابي بجمالها.

أخذتُ بإعداد السمك مع البطاطا والأرز ،وأثناء ذلك اتفقنا على تحديد موعد لوجبتين في اليوم بعدما أسقطتْ الفطور واكتفتْ بكوب من القهوة صباحًا وبقالب من الشوكولا اختارته بعدما ألححتُ عليها، وأخذتُ بالتعرُّف على مصادر إزعاجها لتفاديها، فكانت منها المقاطعة أثناء القراءة والكتابة، ثم أخذتْ تطالبني بعدم تكلُّف جهود في سبيل إحسان استضافتها تؤثر على جهودي في البحث أو تعطل روتيني اليومي،ثم أخذتُ أطلعها على ظروف تأسيس الاتحاد، وأسلوب عمله، وبرنامجه المؤقت، وشروط العضوية فيه، وبتعريفها على مختلف الأحزاب المُنضمَّة إليه، ووعدتها باطلاعها على المزيد حول الاتحاد أثناء تناولنا الطعام، لأهمية الموضوع، ولأن الحديث سيطول، ثم طلبتْ مني جميع كتبي ومقالاتي التي قمت بنشرها لمطالعتها، وهي بدورها قدّمت إليّ بعض كتبها ورواياتها التي سبق أن أطلعتُ على بعض مما توفر منها في مكتبات مدينتنا، وحينها أخذتُ أبدي لها إعجابي بأفكارها وأسلوب سردها الذي اعتادت عليه في رواياتها، وبالحوارات الشيّقة والحيوية التي قامت ببنائها، ثم أخذتُ أطرح عليها بعض الأسئلة عن منطلقات أفكارها والنتائج المأمولة منها، وهنا بان لي عظيم ثقافتها وإحاطتها ومهارتها المُخيفة في الربط بين الأفكار التي يصعب رؤية العلاقة بينها، فأخذتُ أعبر لها عن إعجابي بأسلوبها في الربط الذي شبَّهته بأسلوب كاسباروف، فأعجبتْ بربطي وذلك لمعرفتها أنني أمارس الشطرنج، واتفقتْ معي على ممارستها معي في أوقات الفراغ، ثم أخذتْ هي بدورها بالوقوف على بعض أفكاري فتقدَّمتْ لبعضها بنقد أذهلني لشدة نفوذه، ولبعضها بإشادة جميلة، ولبعضها بمطالبة بالمزيد من الإحاطة لها وذلك باقتراح أسماء بعض المفكرين واقتراح عناوين بعض الكتب شديدة الإلحاح، ثم طلبتْ الاستعانة بمكتبتي، لاستعارة كتب الرفاق الداخلية والاطلاع على مقالاتهم للإحاطة بأفكارهم، ليتاح لها التواصل معهم جيدًا.

بدا لي أنها تحوز خطة، أنها مستعدة للمجابهة والتحدي والاستقطاب. نعم، أعتقد بأنه سيكون لها دور كبير وتأثير عظيم على الاتحاد، أعتقد بأنها ستلعب دور محوري. يا إلهي يا صديقي كم لديها من القدرة على إخفاء حماسها. نعم، هي غامضة تكاد تبدو بليدة من شدة مهارتها في اخفاء تعابيرها ومشاعرها. نعم، لا يحسن لأحد قراءتها أو الاطلاع على ما تفكر أو تحيط به أو تخطط له. هذا الغموض الذي هي عليه مرعب مخيف، وأعتقد بأنه سيكون له مفاجآته الصاخبة. تصوَّر أنه طوال حديثنا بالرغم من إعلان صداقتنا، بقيت هادئة، تتحدث باتزان لم أعهده على أحد سواها، تحركاتها وحركاتها لم تتغير بقيت متوافقة ومتناغمة مع الهدوء المُتجلي في

طريقة حديثها. نعم، لم يكن هناك هدوء خاص لحركاتها وتحركاتها وهدوء خاص لطريقة حديثها بحيث يمكن التمييز بينهما، بل كانت تحوز صنف وحيد من الهدوء لكافة ظهورها، نعم هذا الصنف من الهدوء هو ذلك الصنف الذي يترك أثرًا، هو ذلك الصنف المُتسبب باندلاع الثورات. كنتُ أحاول تصيُّد أي زلة لها، ولكنني لم أنجح. ذلك أربكني أنا الممتلئ بالهفوات والزلات، أنا كثير الأخطاء والسقطات.

بسبب إعلان صداقتنا كنتُ أقل اضطربًا، ولم أكتفِ بذلك فحاولت مررًا احتوائي والسيطرة على انفعالاتي ولكنني كنتُ أتعثر بهدوئها وركوزها وجمالها وبتلك الابتسامة الخفيفة المرتسمة على شفتيها.

نعم، لقد منحتني درسًا في الاتزان والانضباط والتحكم بالمشاعر والعواطف، ولكن هل سيتاح لي الاستفادة من هذا الدرس والنجاح في تطبيقه؟

اليوم يا صديقي أتيح لي إدراك الحقيقة التي مفادها أنَّ لا وجود لما هو أصعب من البدايات، تلك التي نتهرب منها باستمرار بحجج عديدة. نعم، لقد تعرَّفت اليوم على امرأة سأتعلم منها الكثير، ستمنحني الكثير للاستفادة منه، امرأة بت متفائل أنَّ أهدافي الثورية بها هناك فرصة لقطع أكبر مسافة ممكنة إليها. نعم، لقد كنتُ قبل ظهورها بعيد وما زلت مع ظهورها أشعر بالبعد، ولكنني أشعر ببُعد يمكن الاقتراب منه أكثر، بُعد بالإمكان قطع أكبر مسافة إليه تتيح للأجيال القادمة رؤية الجنان التي يتيحها الوصول لتتحفز للعمل في سبيل الاقتراب منه بعدما احترقنا نحن والأجيال السابقة به. هل هذا الذي بدأت أشعر به هو الأمل؟ لا أعرف. نعم يا صديقي، هناك مشاعر وعواطف جديدة بدأتُ أتلمسها بالرغم من عدم قدرتي على التعرف عليها وتمييزها بعد، هناك شيء من سعادة بدأ ينبجس في ذهني المرهق الحزين البائس، هناك ألوان بدأت تتمرد على اللون الأسود الذي طبع حياتي بعتمته لا بنوره وشغل نطاق رؤيتي. لماذا حلَّ فيَّ هذا الاختلاف الكبير بهذه السرعة؟ هل أنا مشارك في هذا الجديد المُباغت؟ هل سيتاح لها إحلال تغيير في توجه الاتحاد ومسار الثورة في ظل هذه الظروف المتمردة على المسارات التي نطمع بها؟ لندع الأيام تكشف لنا عن ذلك، ولكنني متفائل يا صديقي، وهذا يخيفني.

بعدما جهز الطعام اقترحتُ عليها تناوله في الشرفة، فلقد كان الجو منعشًا بعض الشيء بالرغم من برودته، ومشهد شعاع الشمس المُتسلل من بين الغيوم والمتكسر على سطح البحر جليلًا، ونسمات الهواء الباعثة بروائح

البحر والبرد والخريف لذيذة، وكذلك زرقة السماء مطربة، فوافقت على اقتراحي.

كنتما يا صديقي أنت وخطيبتك موضوع حديثنا طوال فترة تناولنا للطعام، فلقد حدَّثتني عن أول لقاء لك بهما، وعن أول انطباع حصَّلتاه عنك، وعن مغامراتك الرومانسية، وجرأتك وإقدامك، وعن محاولاتك في الاعتراف بحبك، وعن هداياك وعن الحوارات التي كنتَ تثيرها بهدف دفعهما للمشاركة، وبهدف التباهي بثقافتك. نعم، لقد كشفتْ لي عن بعض تصرفاتك الساذجة فكنتَ موضوع ضحكاتنا. كنتُ متفاجئًا وكدت لا أصدق حديثها. أيفعل الحب بك كل هذا وأنت الذي لطالما سخرت من تصرفات العشاق، أيفعل بك هكذا وأنت أنت؟! أعلم أنك ستبرر ذلك بالقول بأننا بحاجة إلى مقدار من السذاجة لكي يتاح لنا التصرف باتزان وعقلانية، نعم أعرفك ستراوغ، ولكنك أيضًا تعرف بأنني لن أقتنع بمبرراتك. لا تقلق، لم تكشف لي الكثير، ولهذا أنت في أمان مني الآن. نعم يا صديقي، لقد حدَّثتي باحترام عن حبك لصديقتها وحبها لك.

بعدما انتهينا من تناول الطعام، ولقد لاحظت أنها لم تأكل إلا القليل، ورجَّحت أنها دائمًا على تلك الحال فتفاديت الإلحاح، نهضنا للجلوس في الصالون لاطلاعها على كل ما تريد معرفته عن الاتحاد. بدأت باطلاعها عن كيف تولدت لدي الفكرة، وكيف شاركتها مع الرفيق رقم 17، وكيف أخذنا معًا بالعمل على تنفيذها، ثم أخذتُ أطلعها على التحديات التي واجهتنا في البداية وعلى العراقيل التي وقفت في طريقنا ونجحنا في التغلب عليها، وعلى طبيعة السياسة التي أبقت نشاطنا متخفيًا والتي اتَّبعناها في التأسيس وفي ضم الأعضاء ودعوة الأحزاب واختيار أماكن الاجتماعات وتحديد مواعيد المؤتمرات لتفادي المطاردات والملاحقات والاعتقالات وكافة أشكال الإرهاب التي ابتلي بها الثوار في كل مكان، ثم أخذتُ أطلعها على الهدف من منح العضو رقمًا بدلًا من استخدام اسمه الشخصي، وأشرح لها كيف أنّ معرفة الاسم قد تطيح بكافة أعضاء الاتحاد بينما معرفة الرقم تتيح في حال سقوط صاحبه في إحدى فخاخ النظام الحاكم عدم انحلال السلسلة بالكامل، ثم أخذتُ أطلعها على السياسة التي اتبعناها في منح العضوية للأحزاب، وأشرح لها كيف كان لكل حزب لونه الذي يعبّر عنه، وأخذت أسرد لها كيف تمكَّن كل من الحزب الأحمر والحزب الأسود أن يصبحا الحزبين الرئيسيين في الاتحاد، ثم أخذتُ أُعرّفها على الأعضاء المؤثرين في كل حزب وعلى بعض أفكارهم، ثم أخذتُ أبيّن لها كيف أنَّ انتمائي للحزب الأسود وانتماء الرفيق رقم 17 للحزب الأحمر تسببا بجو من

المنافسة الشرسة بعد صداقة وتحالف، وأطلعها على كيف كان عدم توافق أعضاء هذين الحزبين وعدم تلاقيهم واتفاقهم على الأهداف النهائية للاتحاد والوسائل التي ينبغي العمل بها، سببًا في عرقلة جهود الاتحاد وتأخر خروجه للعلن، وأطلعها على أبرز نقاط الخلاف بين الحزبين في مجال الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأطلعها على بعض ما تم الاتفاق عليه في مؤتمرات واجتماعات الاتحاد وعلى ما تم الاتفاق على إدراجه في برنامج الاتحاد ونظامه الداخلي، وأخذتُ أبيّن لها المساحة التي يُغطيها الاتحاد بأعضائه المنتشرين في مختلف النقابات والاتحادات العمالية والتعاونيات والمصانع والأراضي الزراعية والجامعات سواء كان ذلك في المدن أو في المناطق الريفية، كاشفًا لها أخيرًا عن مدى قدرته على التأثير ودفع الجماهير لخيار الحراك الثوري وتوجيههم ضد النظام الحاكم. وكل هذا بالرغم من احتفاظه بسرية وجوده ونشاطه.

بعد كل هذا العرض، عبَّرتْ لي عن إعجابها الشديد بآلية عمل الهيئة التنظيمية التي تتكفل بتنظيم اجتماعات الحزب ومؤتمراته والتي تكفل سرية نشاطه، والتي تتكفل بجمع البيانات عن الأعضاء المرشحين للعضوية وبضمهم للاتحاد عند استيفاء الشروط مع الحفاظ على سرّيّة هويتهم الحقيقة، وأيضًا عبرت لي عن إعجابها بالإجراءات الأمنية المُتشددة لهذه الهيئة، ومن قدرتها على توفير الحماية للأعضاء، ثم أخذتْ بعد ذلك تُقدِّم بعض الأفكار والاقتراحات دللت على نباهتها، وصدقها، وحنكتها العظيمة سواء على مستوى التنظيم أو التخطيط.

بعدما انتهتْ، تجرّأتُ وسألتها عن علاقتها بالرفيق رقم 17، بعدما كنتُ مترددًا. لا تذهب بخيالك لبعيد، فلقد كنتُ مترددًا مخافة اتهامي بالتحفظ والتكتم أو بتضليلها لعلمي بوجود هذه العلاقة بينهما، وأيضًا مخافة اتهامي بعدائه والحقد عليه، وأنا الذي لا أعادي سوى حماسه غير المنطلق من برنامج عملي، وأيضًا مخافة اتهامي بحيازة مشاعر نحوها. نعم، أعترف أنني أغالي بالحذر بالرغم من الاحتمالية القليلة بل التي تكاد تكون معدومة لوقوع ذلك، ولهذا لا داعي لتذكيري بذلك ولومي عليه، ومطالبتي بالكف عنه.

أجابتني على سؤالي ببرود وبدون توتر يوحي بأنها تخفي شيئًا، بالقول بأنها تعرفتْ عليه في أحد المظاهرات العمالية التي اندلعت في مدينتها قبل شهور، وذلك بعدما قدَّمه إليها أحد أصدقائها على أنه أحد الثوار الصادقين ممن هم أصحاب فكر وعمل، ثم أخذتْ تبيّن كيف التقت به في ثلاث مناسبات لاحقة

خاضوا فيها حوارات عديدة، مُضيفة أنها شعرت بأنه كان يخفي شيئًا ويخطط لعمل ما من محاولاته استدراجها للحديث أكثر من خلال إثارة مواضيع وقضايا عديدة للكشف عن ثقافتها وما تحمله من أفكار. ذكرتْ لي أيضًا كيف أنه بالرغم من الهدوء المُصطنع الذي كان يحاول جاهدًا الظهور به أمامها كان حماسه في أحيان كثيرة يفضحه، ويؤكد لها أنه يُخفي شيئًا، ولهذا السبب عبرتْ لي عن قلقها على سرية عمل الاتحاد بعدما أعلمتها بترؤسه له، ولكنني حاولتُ طمأنتها بإعلامها أنَّ تلك الرئاسة فخرية، إدارية، لا صلاحيات كبيرة لها، وبالتأكيد على أنَّ الرفيق رقم 17 رفيق مخلص، صادق، ذكي جدًا، إداري مُنظَّم، ومخطط بارع ولكن يعيبه فقط حماسه، مضيفًا بأنه لا داعي للخوف منه. لا تحاول الاعتراض على ما فعلته، نعم أنا أنصفته بوصفي ذاك، أنت تعلم أنني لا أكن له سوى الاحترام والتقدير، نعم أنت تعلم أنه من المستحيل أن أُقدم على تشويه سمعته لمجرد أنه في بعض الأحيان يكون سبب في غضبي، نعم ذلك سيكون عمل غير نزيه في حال أقدمت عليه، عمل مجحف في حق رفيق ما زال يُقدّم التضحيات تلو التضحيات.

لا أعلم يا صديقي ما السبب، ولكنني كنت مسرورًا بإجابتها تلك، مرتاحًا لها، ولهذا خفتُ من ارتياحي وسروري، خفتُ من أن يكونا لأسباب وأهداف ليست ثورية، خفت من أن يكونا تماشيًا مع مشاعر وعواطف لا تناسبني كثائر، خفت أن يكونا لرغبات لا تلائم طموحي وأهدافي.

تسبب خوفي باضطرابي، وحينها لم أعد قادر على التماسك أمامها، فوددت الاستئذان بالانصراف والانسحاب من أمامها، ولكن وعودي لك بالتصرف بلباقة دفعتني لاستشعار الانسحاب من أول جلسة بعد اللقاء بأنه تصرف غير لبق، فعزمت على البقاء والصمود، إلى أن أنقذتني هي بانسحابها بعدما عبرتْ لي عن رغبتها بالانصراف لغرفتها لمواصلة بحثها، وبعدما قدَّمتُ لها كتابًا كانت قد استعلمت عما إذا كان بحوزتي، وبعدما أخذتْ تشكرني على الإحاطة التي زودتها بها عن الاتحاد والرفاق والأحزاب، وبعدما أعلمتني بنيتها عدم الخروج لتناول طعام العشاء مُعللة ذلك بحاجتها للحفاظ على التركيز الذي يتطلب منها وقت طويل لتحصيله.

دخلتُ غرفتي وكانت الساعة تشير إلى التاسعة. وقفت أمام المرآة، وأخذتُ أنظر إلى صورتي فيها، وفي تلك اللحظة صدمت باختلاف كبير حل فيها. هل أصبحت أقوى؟ كانت هناك زوايا جديدة أخذت تتكشف لي، فهل مرآتي هي التي باتت أجود، أم أنا هو الذي بات ذو نظرة أكفأ؟ كنتُ أنظر باهتمام

لصورتي، فهل كنتُ مهتمًا بها من قبل؟ ماذا حدث لي؟ نعم، لقد بثت في نفسي هذه النظرة الجديدة لي أعظم خوف، ففرت من أمامها، وذهبت للاستلقاء على فراشي للنوم. كنتُ في حال لا يتيح لي النوم، ولكنني واصلت المحاولة مرغمًا نفسي على الهرب من نتائج مرعبة قد يوصلني إليها التفكير في الاختلاف الذي حل بي، في الاهتمام الذي أخذتُ أبديه بصورتي.

نهضتُ من فراشي بعدما فشلت في النوم، ثم جلست بجوار النافذة وأخذت بمطالعة رواية وقعت في يدي، على ضوء خافت، محاولًا الهرب بأحداثها وتشويقها وأفكارها، ولقد نجحت في ذلك.

بعد ساعة من المطالعة رجعت إلى فراشي محاولًا النوم، ولكن آن ذاك تبين لي بأنني غير مستشعر بأثر الجدران والمسافات التي لطالما استشعرتها، اكتشفت أنني غير متخفي غير بعيد، أنني لست متواجد في الظلمة، أنني لست وحيد.

لقد اضطربت أعظم اضطراب، لقد اختلط عليَّ واقعي بخيالي، فبدأتُ أسمع أنفاسها ودقات قلبها وحركة صفحات كتبها ونقرات قلمها. نعم، كان ذاك هو الجحيم بحد ذاته.

يا إلهي كم كنتُ خائفًا يا صديقي! ففزت مسرعًا إلى مكتبي وقررت اللجوء إليك، فتناولت قلمي ومجموعة من الأوراق وأخذت أكتب لك رسالتي هذه التي نجحت في تهدئتي قليلًا.

لربما لن أستطيع النوم هذه الليلة، ولكن لا تقلق عليّ يا صديقي، فأنا ما زلت متمسكًا بترديد "أنا قوي" التي ستُبقيني صامدًا متماسكًا.

أرجو أن تكون راضيًا يا صديقي، فلقد بذلت كل ما بوسعي، واعلم أن تلك الحماقات التي صدرت عني سببها أنني لم أصبح بعد قويًا بالقدر الكافي.

المخلص لك

ف.د

20 تشرين الأول (اكتوبر)

صديقي العزيز ل.ت

مضت ثلاثة أيام على وصولها، كنتُ قد بدأت فيها التأقلم على وجودها، بالرغم من مصاحبة شيء من التوتر والقلق لي في جلساتنا. بدأت أعود شيئًا فشيئًا إلى روتيني، فلقد أصبح بمقدوري القراءة والكتابة والنوم والاستماع لتشايكوفسكي، بدأت أسترجع شيئًا فشيئًا تلك الدرجة من صفاء الذهن التي تتطلبها الفلسفة، ولكنني إلى الآن ما زلت عاجز عن استرجاع تلك الدرجة من البؤس التي أنا في أَمَس الحاجة إليها، تلك الدرجة من الغضب، تلك الدرجة من الشقاء التي ليس باستطاعتي إلا العيش بها.

نعم يا صديقي، أنا عاجز عن احتمال الراحة، عاجز عن احتمال السعادة، عاجز عن الاستمتاع بالربيع، عاجز عن البقاء في غير الأماكن المظلمة. ستقول بأنها مجرد عادات يمكن التغلب عليها، ولكن يا صديقي حينها لن تكون منصفًا وصادقًا. نعم، هناك ضريبة للطموح وللمشاريع الكبيرة لا بد من دفعها، ولأنني منذ مدة طويلة أدفع، بت غير قادر على التعايش مع خيار عدم الدفع، مع خيار التخلي عن الطموح. نعم يا صديقي، لا عودة لمن أوغل في التضحية والطموح والعمل، العودة فقط تكون من نصيب من لم يُقدِّم ويطمح ويعمل كفاية، العودة فقط لمن أبقى لبعضه بعضًا لا لذلك الذي استنفذ وبذل كُلَّه، العودة لمن أبقى غضبه عند تلك الحدود المحتملة، العودة فقط لمن لم يتحمل جحيم البداية لا لذلك الذي تحمَّل جحيم البداية وعلى استعداد لتحمل جحيم النهاية أيضًا، العودة تكون لذلك الذي يتاح لملمته لا لذلك الذي تناثرت شظاياه في كل زاوية وركن واتجاه.

في اليومين الماضيين لم نكن نجلس للتحدث إلا في وقتي الغداء والعَشاء، فلقد كانت مشغولة في قراءة الكتب الداخلية للرفاق البارزين والمؤثرين في الاتحاد، بعدما جمعتهم لها من رفوف مكتبتي وأرسلتهم إليها. لقد كانت تقرأ طوال الليل والنهار، لا تنام سوى بضع ساعات، بالكاد تأكل، بالكاد ترتاح، فأخذتُ أنافسها، ولكنني كنت عاجز عن مجاراتها، فكنتُ أتعرض للهزيمة تلو الهزيمة، وبكون المرأة أقدر على التحمل أخذتُ أبرر هزائمي. نعم يا صديقي، أنا بحاجة إلى بؤس أشد من بؤسها، وعزلة أوحش من عزلتها، وظلمة أحلك من ظلمتها لكي يتاح لي منافستها وهزيمتها، نعم أعترف هي أقوى مني، هي أكثر اطلاعًا وإحاطة مني، هذا أيضًا مايدلل عليه غموضها وما توحي به شخصيتها القوية المتَّزنة ونظراتها الهادئة.

في صباح هذا اليوم، أخذتُ أتهيأ للخروج، فلقد كانت قد عبرت لي أمس عندما انتهينا من تناول وجبة العشاء عن رغبتها في الخروج برفقتي لشاطئ البحر، ولقد كنتُ فرحًا بطلبها الذي شعرتُ به أنها كالجميع بحاجة للتوقف والراحة، كنت فرحًا بكونها بشرًا، كنت فرحًا لأنها مثلي على الأقل في شيء واحد.

بعدما فرغتُ من الاعتناء بمظهري للخروج، وعزمت على تهيئة نفسيتي ومزاجي لذلك، وقفت أمام المرآة لترديد "أنا قوي"، فتفاجأتُ بأنني أرتدي أجمل ملابسي، وبأنني مُعتني بمظهري أحسن اعتناء، فذُعرت وأحسست بقلق كبير من هذا الاختلاف الكبير الذي حل بي، وأخذتُ أتساءل عن دافعي لهذه الاهتمام المستحدَث والمفاجئ بمظهري بعد إهمال طويل، ولكنني لم أجد الإجابات، فعدتُ وخلعت ملابسي الأنيقة وارتديت ملابس غيرها وبعثرتُ شعري الذي كنتُ قد صففته، وعدتُ للوقوف أمام المرآة. أخذتُ أنظر إليَّ بارتياح وأقول: هذا أنا. وفجأة تذكرتُ أنني بحاجة إلى الاستمرار بالتمثيل بأنها خطيبتي مخافة تلك العيون المترصِّدة التي بقي لديها شك في ادعائنا، فعدتُ لكي أحسن التمثيل إلى ارتداء تلك الملابس الأنيقة والاعتناء بمظهري. نعم يا صديقي، عدتُ للهدوء بعدما أدركت أنني فعلت ذلك في البداية لرغبة لاشعورية ولاستشعار خطر مُحدق، عدتُ للهدوء بعدما تمكنتُ من التخلص من تلك الدوافع التي اعتقدتُ أنها سبب فيما حدث.

خرجتُ للجلوس في الصالون منتظرًا خروجها من غرفتها. كنتُ قد نسيتُ دفعها لتحديد موعد مُحدد للخروج، ولذلك فضَّلتُ الانتظار بدلًا من الطرق مخافة مقاطعة لحظة تركيز مُنتجة، وأخذتُ بإكمال مطالعة إحدى الروايات التي لم أكن قد انهيتُ مطالعتها بعد وذلك لتمضية الوقت.

بعد مرور مدة قاربتها بثلاثين دقيقة، خرجتْ من غرفتها متهيئة للخروج، وبعدما لاحظت انتظاري لها، أخذت تعتذر مني للتسبب بذلك، وأخذتُ أنا بدوري بالتأكيد على أنها ليست مُضطرة لذلك، موضحًا لها بأنني المخطئ.

خرجنا الساعة الثامنة، وتوجهنا مشيًا على الأقدام إلى وجهتنا بعدما عبَّرتْ عن رغبتها بذلك. كانت تلك رغبتي أيضًا يا صديقي، فطول فترة جلوسي تجعلني بحاجة للمسير لتليين عظامي وإرسال الدماء إلى أطرافي، وأيضًا كانت رغبتي بالمسير للاستمتاع بالسير تحت المطر الخريفي، والتمتع بمشاهدة الألوان الخريفية التي أفضلها. ولكنني أيضًا يا صديقي كنتُ خائفًا من ذلك، فشوارع الخريف لا ينبغي لمن هو مثلي أن يشارك امرأة المسير فيها. نعم يا صديقي، الخريف تعبير عن ضعف الطبيعة الكونية، والحب

تعبير عن ضعف الطبيعة البشرية، وكل منهما مُلفت ومُرغِّب بالآخر، ولهذا أخاف الخريف بالرغم من محبتي له.

بينما كنا نسير ببطؤ وهدوء على أرصفة الشوارع المُكدَّسة بالأوراق المتساقطة، وبعد صمت سألتني فجأة بدون مُقدمات عما يُخيفني، فارتبكت من سؤالها في البداية، ثم نظرتُ إليها فوجدتها تُحدِّق بالأرض تتأمل الأوراق المتساقطة، فأدركت أنها لا تتعجل إجابتي وأحسستُ لوهلة أنَّ سؤالها غير موجَّه لي وإنما لنفسها، نعم أحسستُ أنه تاه من حوار داخلي، ومع ذلك شعرتُ أنَّني مُلزم بالإجابة.

سؤال بهذا العمق لا يُقدَّر لأحد إجابة سريعة وبسيطة عليه، لا يُقدر لأحد عدم الارتباك منه، لا يُقدر لأحد عدم التفكير به طويلًا، ولهذا بقيتُ صامتًا للحظات اعتقدتُ فيها أنني لن أجيب أبدًا، إلى أن قلتُ بأن التساؤل بحد ذاته عما يُخيفنا مُخيف، فهزتْ رأسها موافقة وكان يبدو عليها الشرود. أخذتُ أتساءل عما كانت تفكر فيه عند سؤالي، وعما إذا كانت تطلب إجابتي أم لا، وعما إذا كان من الخطأ الإجابة، وعما إذا كانت إجابتي جيدة. ثم أخذتُ أتساءل عما إذا كنا بحاجة إلى ما يخيفنا أم لا، وعما إذا كان الخوف تعبير عن ضعف أم قوة، وعما إذا كان ما يُخيفنا يقوّينا أم يُضعفنا، وعما إذا كان وجود ما يُخيفنا حتمي. نعم يا صديقي، لقد انفجرت في ذهني المرهق تساؤلات كثيرة بسرعة وفي مدة قصيرة أرهقته أكثر، فأدركتُ حينها بأن لا سبيل لنا للفكاك من هذه التساؤلات المرهقة، لا سبيل لنا للراحة، لا سبيل لنا للهدوء، فتعاظم بؤسي.

كثير جدًا ما نجهله يا صديقي، فلماذا نتجرأ على إصدار الأحكام واتخاذ القرارات التي تأثيرها يتجاوز نطاقنا كأفراد؟! نعم، هذه وقاحة منا لن تُسامح عليها، هذا ذنب لن يُغفر لنا. نعم، هناك جدوى لكثرة الأسئلة، وهي الكشف لنا عما نجهله، لإيقافنا عند حدودنا، فكيف نتجرأ ونتجاوز هذه الحدود؟! ألتلك الكثرة وجود لدى قلة، أهناك من يُجيد صم أذنيه وتحييد وعزل عقله؟ أدرك أنها مرهقة بوجودها هذه الكثرة، ولكنني أدرك أيضًا أن عدم وجودها مرهق، ولهذا تجدني أتساءل عما إذا كان هناك وجود لخيار ثالث.

وصلنا إلى الشاطئ، ولكننا لم نجلس، بل أخذنا بالمسير فوق الرمال بالقرب من الأمواج. كانت أشعة الشمس ما زالت عذراء، ونسمات الهواء الباردة كقبلات يُهذِّبها الحياء والذوق، والأمواج صاخبة كغناء أطفال في صباح عيد سعيد، ورائحة البحر كرائحة آدم لحظة هبوطه على الأرض، وسعادة طيور النورس بصيدها كسعادة مؤمن بلقاء ربه.

بينما كنا نسير متجاورين، كنتُ أشعر بوجود عيون تراقب، بوجود غضب وغيرة وحقد وتوعد بعقاب شديد، بوجود مُستشعر بالخيانة حولي. أكان ذلك ظلي أم وحدتي أم الكون؟

في تلك اللحظات كان قد أصبح لي ماضي، نعم لقد حل اختلاف أوجد لي حاضرًا، فهل يكون لي من وراء ذلك مستقبل؟ يا لي من جشع، ما زلت أطمع بالرغم من عظيم هذا الكثير الذي نلته. أنا خائف يا صديقي، نعم خائف من هذا التوقيت الذي أحسستُ به بكل هذا، خائف من ذلك الذي قد يحمله المستقبل. يا إلهي كم كنتُ أتذمر من ذلك الماضي، وكم بت مشتاق إليه الآن، أشعر بالفقد بفقده، أشعر بالحنين إليه! هل من عودة ستتاح لي؟ نعم، أنا أرغب بذلك بشدة.

بدون التفات إليَّ قالت بعد صمت طويل، وقد كانت تسير بجواري واضعة يديها في جيوب معطفها:

- لقد كنتُ مترددة بتلبية دعوة الرفيق رقم 17.

فسألت، وقد شعرتُ بأنني أخطأت بسؤالي:

- هل لمصدرها علاقة؟

- لم أفهم عليك، ماذا تقصد؟

- أقصد هل ترددكِ سببه أنَّ الدعوة صادرة بتوصية من الرفيق رقم 17؟

- لا، لا، ما أقصده الانضمام إلى الاتحاد.

- إذا سمحتي لي، أرغب بمعرفة السبب.

بعد صمت للحظات، قالت بهدوئها الذي سأحتاج وقت للاعتياد عليه:

- أشعر أنَّ العمل من خلال اتحاد سيُقيدني بمسارات لربما لن تكون مساراتي، ويربطني بأفكار قد لا تكون أفكاري، ويلزمني بتوجهات قد لا تكون توجهاتي. إنني أنفر من التوجهات الشمولية ولا أطيق التعامل مع الأشخاص الشموليين الذين لا يكفون عن محاربة كل اختلاف ولجم كل معارضة. ما يجره علينا الاندماج في الشخصية الجماعية، الاندفاع بدون تقدير العواقب، وتقمص الشخصية الانفعالية، وإلغاء التفكير الفردي، وبالتالي سهولة الانقياد. أخبرني، هل ظلمتُ الاتحاد بمخاوفي؟

- مخاوفكِ التي كانت سبب في ترددكِ لها ما يبررها بنظرة سريعة على التاريخ، ولهذا السؤال هنا: هل التاريخ منصف أم لا؟ صراحة لا أعلم، ولربما لا وجود لمن يعلم. قلم التاريخ سيستمر بالكتابة، فهل سيكون للعمل من خلال اتحاد سمعة جيدة؟ لا أعلم أيضًا. هل نتراجع إلى حين سماع تلك السمعة المُستحسَنة؟ من وجهة نظر شخصية لا أفضل ذلك. أعلم أنني سأروّج للعمل من خلال اتحاد سمعة جيدة بعضويتي فيه لدى من أُعجب بأفكاري لربما يحمل المستقبل نقيضها، ولكنني أدرك أيضًا أنني سأكون مُشارك في حال كان له تلك السمعة التي نرتضيها له، وهذا عائد أجد أنه يستحق المجازفة. وأيضًا باعتقادي يا صديقتي أننا أقوى من أن نكون غيرنا في الاتحاد على الأقل، ولهذا لا خوف علينا. الخوف على أولئك الذين لم يحوزوا سوى الحماس غير المُهذب بالأسئلة، على أولئك الذين لم يتسلّحوا بالفكر. أي شخصية جماعية قادرة على دمجنا وصهرنا فيها؟! مخاوفكِ هذه تدل على تواضعكِ وعدم استكثاركِ لجهودكِ، وعلى التزامكِ بالحذر، ودليل أيضًا على معاناتكِ من وجود تلك الأسئلة الكثيرة التي لا يتوفر لها إجابات بالرغم من الجهود المبذولة في البحث عنها.

- طالما الانسحاب لا يعوّض ضرر العضوية والانتماء، فلا بد من إيجاد حل لذلك. هل لديك خطة ما؟

- لا، فأنا لم أفكر بذلك من قبل.

- توقعتُ هذا منك، فلقد شعرتُ صراحةً أنّ تفاؤلك هو من يقودك.

- هل هذا اعتراف بأنكِ متشائمة؟

- لا أعلم، ولكنني أعتقد أننا بحاجة للتشاؤم والتفاؤل بنفس القدر، فبالأول وحده نطيل التخطيط، وبالثاني وحده نكتفي بما تم التخطيط له ونندفع بحماس مفرط للعمل والتطبيق.

- أعتقد أنكِ على حق.

هذا هو أول انتقاد لي. نعم، لم تثر موضوع ترددها إلا لكي تصل إلى هنا. إنها امرأة شديدة الدهاء والحنكة. لقد قامت بتحذيري من حماسي وتفاؤلي بدون أن تجرحني، بدون أن تدع لي مجال للمراوغة وفرصة للإنكار أو الدفاع. لقد تسللت بهدوء وخفة وسرعة، وألقت فيَّ ما أرادت إلقاءه، وانسحبت بدون جلبة وبدون مفاخرة، بدون مُخلّفات تتيح فرصة لتوليد عداوة وبغضاء وحقد. كيف استطاعت قراءتي بهذه السرعة، كيف

استطاعت فهمي بهذا الوقت القصير، كيف استطاعت التعرف على مداخلي ومخارجي بهذه الدقة؟! إنها خطيرة، نعم إنها خطيرة جدًا. أي حذر سيُجدي معها؟!

أخذتُ أتساءل في تلك اللحظات عما إذا كانت تريد مني سؤالها عن الخطة التي لربما تحوزها لدعوتي للمشاركة، وعما إذا كانت تريد مني مشاركتها في إعداد وصياغة خطة ما تحسبًا في حال فشل الاتحاد بتحصيل سمعة جيدة، وبعد صمت للحظات قررتُ سؤالها فقلتُ مترددًا:

- هل بحوزتكِ خطة ما؟

- ليس بعد، ولكن سيتاح لي ذلك قريبًا.

- أترغبين بمساعدتي؟

- لا، لا أريد تشتيتك وبعثرة جهودك. ركز على بحثك الذي تعمل عليه الآن، لكي تشاركني التطبيق في حال اقتنعتْ ورغبتْ.

- في حال احتجت للمساعدة سأكون موجود.

- جميعنا بحاجتها، ولهذا لا تقلق فأنا لا أتردد بطلبها.

هل جميعنا حقًا بحاجتها يا صديقي؟ إذا كانت إجابتك نعم، فلماذا أنا ممن يظهر عليهم حاجتها باستمرار، وهي ممن لا يظهر عليهم الحاجة إليها أبدًا؟! لماذا هذا التفاوت؟! هل هناك خطأ أرتكبه باستمرار هو المتسبب بذلك؟ هناك مشكلة أرجو أن يتاح لي التعرُّف عليها قبل فوت الأوان.

عدنا للصمت بعد تلك اللحظات. كنتُ مرتبكًا من إحساسي بوجود مسؤولية تقع على عاتقي تتمثل بفتح موضوع للحديث فيه يكسر ذلك الصمت الذي أخذتُ أستشعر بأنه مصدر توتُّري. أخذتُ بالبحث عن موضوع ملائم لتلك اللحظات، ولكنني كنتُ عاجز تمامًا عن إيجاد موضوع حتى غير مناسب، كأنَّ لا مواضيع متبقية في هذا العالم، كأنَّ لا مواضيع لدي يمكن أن تثار بيننا أو يمكن أن يكون بيننا اهتمام مشترك بها. كنتُ كتائه لا طريق له، عاجز أشد العجز.

كنتُ أداري اضطرابي وارتباكي بالنظر إلى الرمال لكي لا تفضحني نظراتي، حينها تولَّدت لدي رغبة بمعرفة ما إذا كان حالها كحالي، فرفعت

رأسي بحذر بنية استراق النظر لوجهها لقراءته، ولكنني فشلت، نعم فشلت في استراق النظر لأنني بقيت مُحدِّق.

لقد كانت في عينيها يا صديقي نظرات توحي بسعادة غامرة، وابتسامة مرسومة على شفتيها تُعبِّر عن الرضى. أكان جمال الطبيعة هو مصدر سعادتها ورضاها؟ نعم، حتمًا هو جمال الطبيعة، فنظراتها المتأمِّلة للبحر والمُتَّسعة له دليل على ذلك. هذه هي أول مرة يا صديقي أرى وجهها يُعبِّر عما يعتمل في داخلها من مشاعر وعواطف. لقد شعرتُ بالسعادة والراحة بسعادتها وبجمالها، ولكن وفجأة خفتُ يا صديقي، فنبضات قلبي اختل نظامها، فأزغتُ بصري بسرعة، ورجعت أتابع الرمال بدون بحث عن موضوع ما، وبدون ارتباك من الصمت.

نعم أعترف، لقد أطلتُ النظر إليها وهذا خطأ لم أكن قادر على تفاديه، ولهذا لست نادمًا عليه. لهذا يا صديقي أنا ممتن للطبيعة لإشغالها وإلهائها، أنا ممتن لها لإتاحة الفرصة لي للخطأ بدون عواقب.

لقد كانت تسير بجواري كأنني لستُ بجوارها، غير متأثرة بوجودي، غير شاعرة بأي إلزام تجاهي. يا إلهي كم هي عظيمة. لا تعتقد يا صديقي أنها بذلك كانت مُهمِلة لي، فلقد كانت في الحقيقة مُهتمة بي أشد اهتمام، فاهمة لي أوسع فهم. لقد منحتني بذلك مساحتي الخاصة، لقد حافظت على المسافة بيني وبينها. كيف توصَّلتْ لمطلبي بهذه السرعة؟! أيُعقل أن يكون هذا مطلبها أيضًا الذي لا تتحرج من البوح به والتعبير عنه؟ هذه امرأة مختلفة حقًّا.

عندما ابتعدنا بالمسير جنوبًا التففنا للمسير شمالًا عائدين إلى نقطة انطلاقنا، وحين ذاك استأذنتها بإتاحة الفرصة لي بإجراء حوار معها حول نشاطها الفلسفي والأدبي، أقوم بنشره في الصحيفة التي أنشر فيها مقالاتي، وأخذتُ أطمئنها بأنه لن يتعرَّف عليها أحد فلا صورة متوفرة لها، وبعدما انتزعت موافقتها، بدأتُ سؤالها قائلًا:

- مُتعجب من قدرتكِ على الجمع بين الفلسفة والأدب. كيف أمكنكِ التنازل لمطلب الفلسفة بعزل المحيط بأحداثه وعواطفه ومشاعره لمنح الأفكار ذلك القدر من الانتباه والتركيز الذي تتطلبه، ثم العودة للتنازل لمطلب الأدب في الاهتمام بالمحيط، كيف أمكنكِ التعامل مع ذلك القدر من التجريد ثم العودة للتعامل مع ذلك القدر من التجسيد، كيف أمكنكِ منح أعظم حرية للعقل، ثم العودة لمنح الحواس أكبر فعالية وللقلب أفتك جموح.

- يوحي إدراكك لما يتطلبه كل من الأدب والفلسفة بوجود محاولات لك للجمع بينهما، أليس كذلك؟

- في الحقيقة هي محاولات قديمة، توقفتُ عنها بعدما أدركتُ أنني عاجز عن الجمع، بعدما اكتشفتُ أنني مطالب ببذل جهود لا طاقة لي على بذلها أو احتمالها، بعدما تبين لي أنني وجدتُ فقط للبحث الفلسفي. نعم، نشاطي الفلسفي لم يُبقِ لي أي وقت أو جهد لأي اهتمام آخر.

- الجمع بين الفلسفة والأدب تطلَّب مني جهودًا لم أُقدِّمها إلا على حساب صحتي النفسية والجسدية. نعم، لقد عانيت وما زلت من قلق يحاول افتراسي، يجعلني عاجزة باستمرار عن النوم، ومن نوبات اكتئاب حادة إلى الآن تحاول دفعي لوضع نهاية لحياتي. أما إقدامي على الجمع فلربما سببه رغبتي بالاحتفاظ لبعض أفكاري بالشك، نعم الأدب يتيح لي ذلك. لقد عانيتُ من التخلص من كثير من الأفكار التي منحتها اليقين، وأنا لست مُستعدة لتكرار ذلك، ولهذا أحاول الاحتفاظ بالشك لبعض الأفكار. أيضًا من خلال الأدب أستطيع أن أميل وأحكم بدون اتهامي بالخطأ أو بعدم الموضوعية، بإمكاني التراجع والتملُّص وذلك بالادعاء بأن ذلك كان موقف شخصيات رواياتي لا موقفي. ولكن أعترف بأنني قريبًا سأستغني عن أحدهما، فأنا لم أعد قادرة على تحمل عبء الجمع.

- إذًا هي خسارة لأحدهما.

- لا أعتقد ذلك، فما سأستغني عنه سأكون غير قادرة على الإضافة فيه.

- أعتقد أنكِ تقصدين الأدب.

- لا، بل الفلسفة، وأعتقد أيضًا أنَّ الأدب سيلحق بها بعد فترة وجيزة كإنتاج فقط، فأنا سأتفرغ للمطالعة فقط. أريد أن أُتيح لنفسي مساحة للمطالعة فقط. محظوظون أولئك الذين لا تتاح لهم سوى المطالعة، أولئك الذين لا تطاردهم رغبة أو حاجة للإنتاج، أولئك الذين يطالعون بطمأنينة وتأنِّي وهدوء واندماج وراحة. أريد أن أقرأ كل كتاب، كأنه الكتاب الأخير لي، أريد استشعار اللذة من كل جملة لذيذة، أريد الوقوف على تلك الأوصاف الجميلة والصور التي ترسمها بإحكام مُخيلة مُبدِعة. أريد أن أقرأ ثم أقرأ ثم أقرأ.

هل تعتقد حقًّا يا صديقي بأنَّ في مقدورها فعل ذلك؟! بالتأكيد لا، نعم هي تدرك ذلك، ولكنها تحاول خداع نفسها وتضليلها لاحتمال الحقيقة المُرة والتعايش معها. نعم، جميعنا نداوي أنفسنا بالخداع والتضليل. لا فكاك لنا

نحن من تجرأنا على إمساك القلم، لا خلاص لنا، لا منفذ، لا سلام، لا أمان. نعم، سيبقى جحيم أقلامنا مُلتصق بنا مصاحب لنا، مُدعيًا محبته وصداقته. نعم، لا حماقة ولا تعقُّل سيتيح لنا ذلك الخلاص. تلك المهام البسيطة لم تعد تلائمنا بعدما استغنينا عنها واخترنا إمساك القلم، أصبحنا وأمسينا به أصحاب المهام المُعقَّدة التي تلاحقنا حتى في منامنا. الحياة الهادئة من نصيب صاحب الحظ، ذاك الذي لم يطمع ولم يسعَ للإمساك بالقلم. نعم، جميعنا نحن الذين أمسكنا بالقلم حاقدون على أقدارنا، كارهون لأنفسنا، غاضبون منها أشد الغضب. جميعنا لا نرمي من وراء تلك الوعود والعهود والنوايا إلا تصبير أنفسنا على ذلك الجحيم الذي اخترناه بأيدنا.

تفاديتُ سؤالها عما إذا كان ذلك ممكنًا، وقررت سؤالها بعض الأسئلة عن قناعاتها الأدبية، وعن رواياتها وأسلوبها، فأخذت أسأل كالتالي:

- هل مهمة العمل الروائي الرئيسية التأريخ؟

- باعتقادي قدرة العمل الروائي على التأريخ، ينبغي ألا تطغى على قدرته على بناء معرفة استجابة لحاجة. ولهذا تجدني أستخدم لغة تشكيل وليس لغة تمثيل وتصوير للواقع.

- هل بمقدور العمل الأدبي احتواء أفكار فلسفية على درجة من التعقيد؟ ألا يُقلل ذلك من جاذبيته؟

- السياق التاريخي لبزوغ وانتشار الأعمال الأدبية وخاصة الرواية، يُؤكد على قدرة هذه الأعمال على عرض مثل هذه الأفكار وطرح مثل هذه المشاكل. لقد كان للرقابة دور في تعظيم أهمية ومهمة الأدب وخاصة جنس الرواية الذي أخذ على عاتقه مهمة إيصال أفكار فلسفية خضعت للحظر كرسائل مُبطَّنة من خلال التغطية عليها بالقصة المليئة بالأحداث والمشاعر والعواطف. ولأن الرقابة الآن باتت أقل قدرة على الملاحقة والحظر، أرى أنه ينبغي على العمل الأدبي الاستغناء عن أسلوبه غير المباشر في عرض الأفكار ونقاشها، والعودة لنقاشها وعرضها بأسلوب مباشر وصريح ومكثَّف. وأيضًا أجد أنَّ كثرة المُلهيات والمشاغل عزلت الناس عن مطالعة الكتب وخاصة تلك الفلسفية منها والتي كان لها دور في التقدُّم والنهضة والحضارة، ولهذا أرى أنه ينبغي استغلال جاذبية الأعمال الأدبية للحفاظ على الموروث بشكل عام وخاصة الفلسفي. هل هذا يُقلل من جاذبية الأعمل الأدبية؟ لا أعتقد ذلك، بل أرى أنه يزيد من جاذبيتها، ومن قدرتها على منافسة الأعمال السينمائية.

- بمناسبة حديثنا عن الأعمال السينمائية، ألا تجدين أنَّ جاذبيتها باتت تهدد الأعمال الأدبية؟

- للأسف، هذا صحيح. ولهذا أرى أنه ينبغي على كثير من الأدباء وخاصة الروائيين تقليل اعتمادهم على التصوير الخارجي والكشف عن المحيط الذي تدور فيه الأحداث، لأنَّ الأعمال السينمائية قدرتها على ذلك باتت أكبر. ولهذا أجد أنَّهم مطالبون بالتوجه نحو تكثيف عرض الأبعاد النفسية للأحداث والمشاهد على الشخصيات، وطريقة تشكيلها لأفكارهم وتوجهاتهم، لضمان حفاظ الأعمال الأدبية على ما يُميزها عن الأعمال السينمائية، لضمان خصوصية العمل الأدبي، ولتعجيز العمل السينمائي عن نقل العمل الأدبي. لقد كان الأدب الكلاسيكي بتلك القدرة الهائلة على التصوير الخارجي التي باتت غير ضرورية للعمل الأدبي، لكثير من الأسباب منها عدم وجود الكاميرا، وأيضًا للقليل الذي انتفى بالكثير الذي أضافته الثقافة الاستهلاكية والديكور والعمارة وقدرات التصميم المتنامية، من أشكال وألوان ومستلزمات بات الأديب عاجز عن التعامل معها. نعم، قدرة القارئ اليوم على التخيل أقل بكثير بسبب وجود الكاميرا، ولهذا على الأديب التكيف مع عصره، وإلا بات من الماضي.

- إذًا الأعمال الأدبية في صراع وجودي؟

- نعم، أعتقد ذلك.

- والحل ترينه بلجوئها إلى تلك الأماكن التي لا تستطيع الكاميرا الولوج إليها، أي إلى الداخل، إلى أعماق النفس البشرية، إلى العقل؟

- هذا صحيح.

- إذًا فأنت ترفضين أن تُشكِّل الأعمال السينمائية الأعمال الأدبية، أي ترفضين أن تكون الأعمال الأدبية امتداد للأعمال السينمائية، فهل تقبلين بأن تكون الأعمال السينمائية امتداد للأدبية؟

- في أحيان أقبل بذلك لتكون للأعمال السينمائية رسالة وفكرة وهدف، ولكنني في أحيان أفضِّل بأن يكون هناك فصِل للحفاظ على خصوصية كل منهما.

- في رواياتكِ أجد أنكِ تفضلين الكشف عن الأبعاد النفسية وعن مشاعر وعواطف الشخصية الرئيسية فقط، فلماذا هذا الاستبعاد؟ وأيضًا أجد أنكِ تفضلين الاستعانة بعدد قليل من الشخصيات، فهل لهذا سبب؟

- أعتقد أنني أفضل الاستعانة بعدد قليل من الشخصيات بهدف عدم تشتيت القارئ الذي باتت قدرته على الاحتفاظ بتركيزه أقل لاعتماده على الكاميرا في العرض، وأيضًا أذهب لذلك بهدف التأكيد على أهمية الفرد وتسليط الضوء على الظلم الذي يقع عليه من قبل الجماعة. أما فيما يخص سؤالك الأول، فأنا لا أفضل الإشارة لإجرائي الذي ذكرته على أنه استبعاد، فهناك مشاركة للشخصيات الثانوية، ولكن دائمًا أفضل إخفاء أدوارها وتحجيمها لأتيح مساحة أكبر للشخصية الرئيسية، فباعتقادي المَشاهد التي لا تكون حول الشخصية الرئيسية باتت عبء على القارئ وتُشكِّل خطر على الرواية، وأيضًا أجد غموض الطرف الآخر بمشاعره وعواطفه يسهم بتحسين جودة خيال القارئ الذي سيأخذ بدوره بالكشف عن ذلك الغموض بخياله، وأيضًا أجد هذا الإجراء يسهم بتحسين عامل التشويق الذي لا أفضل الاعتماد عليه كثيرًا، لكي أُبقي للقارئ فرصة للتوقف والتفكير والاستفادة.

- نعم، لقد لاحظتُ أنكِ لا تعتمدين على عامل التشويق كثيرًا.

- من صغري كنتُ أفضل الروائي الذي لا يجعلني متشوقة طوال الرواية للنهاية، ذلك الذي يشغلني بالاهتمام فيما أنا فيه وواقفة عنده. نعم، لطالما كنتُ أريد أن أُحصِّل متعة البداية والمنتصف والنهاية، أريد تحصيل فائدة من كل حدث والنظر في كل مشهد والتأمل في كل حوار، لطالما أردتُ المسير وليس التطلع للنهاية. نعم، كنتُ أنزعج من ذلك الذي يخدعني بملاحقة النهايات والتطلع إليها. نعم، كنتُ وما زلتُ أكره استغلال فضولي. لطالما كنتُ أريد من الروائي تفعيل حواسي، وتوسيع مداركي، ومنحي تجربة عاطفية، وهذا لا يكون له إلا إذا أشغلني عن النهاية، وأبعدها عني إلى حين وصولي إليها. نعم، لطالما كنتُ أفضل ذلك الروائي الذي يشغلني عن النهاية بموقعي، لا ذلك الذي يشغلني بالنهاية عن موقعي.

- كيف يتاح لكِ النجاح بالمراقبة في ظل الحاجة إلى عيش الأحداث والتفاعل معها.

- المراقبة إذا طغت على العيش، كان هناك تصنُّع وغاب الصدق، أما في حال طغى العيش على المراقبة كان هناك نقص في التعبير، ولم تكن الصورة واضحة بقدر كافي. كيف النجاح بالموازنة؟ هذا يتطلب قدرة كبيرة

على الصبر وهذه تتاح بالكثير من المطالعة، والتأمل وملاحظة الانطباع، والإيمان بقاعدة القليل كثير.

- يرى بعض النقاد حسب رينيه جيرار أنَّ جوهر العبقرية الروائية بعيد عن القوانين، لأنه مرتبط بالحرية، فما هو رأيكِ في ذلك؟

- أجد الحفاظ على قدر ولو بسيط من الأساليب والمعايير الكلاسيكية ودمجه مع الأساليب والمعايير الحديثة، أسلم للأدب.

- أفكاركِ من تأتي في البداية أم القصة؟

- لا أُشكِّل أفكاري لتخدم قصتي، بل أُشكِّل قصتي لتخدم أفكاري، ولهذا أفكاري أولًا.

- أعلم أنني أثقلتُ عليكِ، ولهذا سؤالي الأخير هو كالتالي: هل تجدين أنه ينبغي على الأديب التفاعل مع واقعه لضمان جودة أدبه؟

- أرى أنه ينبغي على الأدباء الاستغناء عن التفاعل مع الواقع البائس جدًا، لأنَّ أدبهم في حال عدم القيام بذلك سيكون رد فعل لا فعل، نتيجة السخط والغضب والحماس غير المُهذَّب.

هنا انتهى الحوار، فأخذنا نسير بصمت حتى وصلنا لنقطة انطلاقنا، ثم جلسنا. كنتُ مبهور بإجاباتها معجب بها أشد إعجاب. كان هذا حواري الأول معها في الأدب وكنت سعيدًا جدًا به. هذه العبقرية التي تحوزها حتمًا ستستفيد منها الثورة أكبر استفادة. نعم، لقد أشعرتني بضعفي ونقصي بما عليه من كمال وقوة وإحاطة.

لقد كانت تُحدثني بهدوء ورزانة وتحكم بمشاعرها وعواطفها وحركاتها لم أعهده في أحد من قبلها. من يحوز قدر ثقافتها حتمًا سيكون مندفع متفاخر، ولكنها لم تكن كذلك بتاتًا، كانت هادئة باهتة غير مندفعة، يداها في جيوب معطفها أثناء الحديث، حركاتها متناسقة مع الكلمات، أفكارها مُعبَّر عنها بكلمات لا فائضة ولا ناقصة، بكلمات مدلولاتها كافية، نظراتها مُستقرة غير مضطربة، تعابير وجهها قليلة. نعم، شخصيتها هذه نتاج معاناة وألم وبؤس كبير، نتاج صبر ومجاهدة. يا إلهي ما أجملها يا صديقي.

هي امرأة معرفتها ينبغي أن تثير الخوف في نفسي عليَّ، ولهذا لربما أنا محظوظ بعدم معرفتها كفاية بعد. بُعدها بالرغم من أنه يُضايقني في أحيان، إلا أنه يُريحني في أحيان أخرى. نعم، بُعدها يجعلني بعيدًا عن التجرؤ

والوقوع في حبها، يجعلني ملتزم بحدودي وحدودها لي، يجعلني مُطمئنًا بقدر الاحترام الذي أوليه لها. نعم يا صديقي، يحق لي التعجب منك على تحذيري من الوقوع في حبها! أتجدني جشعًا طمَّاعًا إلى ذلك الحد الوقح؟ نعم، هذا ما تراني عليه، وإلا فلماذا حذَّرتني وأنت عالم لما هي عليه وبما أنا عليه. أدرك أنَّ للبعيد جاذبيته وأنَّ المستحيل مرغوب، ولكنني أدرك أيضًا أنَّ ذلك ليس لمن هم مثلي. أنا على يقين بأنني لن أقع في حبها، نعم لن يحدث ذلك، وتذكر بأنني أحوز "أنا قوي" التي بها لن تتمكن من اختراقي مهما فعلتْ.

بينما كنتُ جالسًا بجوارها يُخيّم على جلستنا الصمت،شعرتُ بعدم الارتياح، فلطالما كنتُ أجلس بدون التفات لوضعية جلوسي، وأستلقي غير مكترث لمن يراني. نعم، لقد كنتُ مُقيَّد بوضعية جلوس لائقة ونظرات لبقة، لم يعهدها مني البحر ولا الأفق ولا السماء ولا الأمواج ولا الطيور. في الجحيم متاح لنا التقلُّب، ولكن هناك لم يكن متاح لي ذلك، لقد دغدغته النيران جانبي الأيسر المجاور لها، حتى بكي جانبي الأيمن لحاله. لم أتعرَّف عليَّ، شعرتُ أنَّ هناك من حلَّ فيَّ فطردني، وهناك من حل في المكان الذي اعتدت التواجد فيه فطرده أيضًا. كنتُ أنظر إليه كلما اقتربتُ منه للتَّعرُّف عليه، ولكن بلا جدوى فلقد كان هناك ما يعيق رؤيتي، كأنه لا يريد لي التعرف على ذلك الذي حلَّ فيَّ وفي المكان. أكان المكان يبادلني ذلك الشعور والفضول، أكان يبحث عن الجديد، عن ذلك الذي حل فيه فطرده، أم أنا فقط من كان لديه الفضول؟ كنتُ أطلب من المكان القديم أن يهمس لي بماهية الجديد الذي حلَّ فيه في حال التعرف عليه، ولكن كان يعود ليؤكد لي أنه لم يتعرَّف بعد على ماهية ذاك الجديد. أهذه المعرفة محجوبة عني وعن المكان لخطورتها علينا أم لأسباب أخرى غير مسموح لنا معرفتها؟ لقد أصبحتُ غريب عنِّي وعن المكان، لقد استوطن فيَّ ذلك المجهول الذي يأبى الإفصاح عن نفسه. هل هو يأبى الإفصاح ليتجنب مقاومتي، ليتفادى إشارتي إلى عدم مشروعية وجوده، ليتفادى توسلاتي له بالرحيل عني، أم أنه يأبى الإفصاح لضعفي، لحاميتي، ليُجنِّبني المزيد من الرفض الذي أنهكني، ليُجنِّبني تلك المعارضة التي تستنزف طاقتي؟

كيف أمكن طردي منِّي، ومن ذلك الذي استطاع فعل ذلك؟! ما هي نقطة الضعف التي استُهدِفتُ منها؟ ما هي المداخل التي لم أكن قد حصَّنتها جيدًا؟ ما هي المنافذ التي لم أُحكِم إغلاقها؟ بهذه السرعة! نعم هناك إهمال وتقصير مني، هناك ضعف لم ألتفت إليه لمقاومته. أكان ذلك الولوج من مُتسلل لم أنتبه لخفيف أقدامه، أم لطارق لما أستمع لضجيج طرقاته، أم لقاصف لم

أنزعج من أصوات مدافعه؟ هذه الخفة في الاختراق مُرعبة؟ كيف لم أستشعر بأنني أُخترَق، كيف أمكن للحواس وللقلب وللعقل أن يكونوا بهذه الغفلة، جميعهم في آن واحد؟! لماذا تعطَّل الحدس ولم يُشعرني بالخطر؟! أهناك خيانة؟ نعم، الخيانة وحدها ما تفسر ذلك. ولكن كيف تم تجنيد ذلك الخائن؟! كيف لم أنتبه أنَّ هناك خيانة ستقع، وأنَّ هناك غدر ومكر يتربصان بي؟! هل أنا مشارك في هذه الخيانة أم هو محض تقصير وإهمال مني؟ أكنتُ متمرد عليَّ، فطردتُني وعزلتُني؟ كيف ذلك وأنا المُتمسك بالوقوف أمام المرآة والترديد "أنا قوي"؟! هل يُعقل أنني لم أُرددها كفاية ولهذا تم اختراقي؟ هل كان ينبغي عليَّ ترديدها أكثر؟ هل لم أكن أرددها بالحماس الكافي؟ لا، لا، ليس هذا هو السبب بالتأكيد. هل يُعقل أنني نسيتُ ترديدها هذا الصباح؟ لا أعتقد ذلك، فأنا أذكر أنني رددتها بحماس. نعم، لم أُقصِّر يومًا في ترديد "أنا قوي" ولن أفعل. فما هو السبب إذًا؟ هذا ما أجهله يا صديقي. لا تقلق، أنا متفائل بأنني سأتمكن من اكتشاف السبب والتغلب عليه.

بينما كانت تتأمل الأفق بطمأنينة، قالت كاسرة للصمت لربما بعدما شعرتْ باضطرابي:

- نحن بحاجة للأفق كحاجتنا للماء، أتتفق معي في ذلك؟

زاد اضطرابي بطلبها رأيي، فلقد شعرت بأنها تُلمِّح لشي ما. هل كانت تقصدني بكلامها؟ هل أدركتْ ما أشعر به؟ هل كانت تطلب مني التغلب على حالتي بتأمل الأفق؟ هل كانت تطالبني بالهدوء؟ هل كنتُ أزعجها؟ نعم، على الأرجح أنني كنتُ مصدر إزعاج لها. يا إلهي ما الحل؟ لقد أثقلت عليَّ يا صديقي بمهمة لا طاقة لي بها.

نظرتُ إليها لأجيب، ولكنني وجدتها مستمرة في التحديق بالأفق، فأطلتُ النظر بدون قصد، أتمتع بجمالها وبسحر عينيها وبالسلام المُعلن عنه في وجهها، فشعرتُ أنَّ روحي تريد منح روحها قبلة على خدِّها، شعرتُ بجلال الله فيها، شعرت برغبة في الانحناء، شعرت برغبة باللجوء، شعرت برغبة بالتقديس. نعم، لقد شعرتُ بضعف شديد. لقد كدتُ أبكي يا صديقي. تساءلتُ بتعجب وحيرة عما يجري، ولكنني لم أبحث عن إجابة، وتوقفتُ عن التساؤل بعدما أدركت أنني ما زلت أنظر إليها، وبصوت مُرتجف أجبتها:

- أعتقد أنكِ علي حق.

تفاجأتُ من إجابتي، فلقد كنتُ دائمًا متيقن من حاجتنا للأفق، وأخذتُ أتساءل آن ذاك معترضًا: لماذا الآن لدي شك؟! أبَدَأ البُعد يفقد تفضيلي؟ أأخذتُ أفضل القرب؟ هل لقربها علاقة بذلك؟ أعترف يا صديقي، لقد بدأتُ أشعر بالخوف، فأنا منذ ظهورها لستُ أنا الذي اعتدتُ عليه. أين كل تلك الثقة التي كنتُ أبديها أمام النساء؟! لماذا هذا الانهيار الذي أنا عليه؟! لماذا هذا الانجراف؟! لماذا هذا الاحتراق من المقاومة التي لم تُؤثِّر فيَّ من قبل؟ لا تتعجل وتصدر الأحكام. أؤكد لك أنني لست واقع في حبها، ولكنني أجد صعوبة في المقاومة، وهذا فقط ما يربكني، فلطالما كنتُ أقاوم بلا عناء. أنا متأكد، قُربها مني هو السبب في هذا العناء. سيكون حالي أفضل عندما تنتقل إلى منزلك، سيُتاح لي مقاومتها كما أقاوم غيرها عند الابتعاد. في كل لحظة تكون فيها بقربي يزداد إدراكي لأهمية البُعد لي، ولفضله عليَّ، يزداد شعوري بحجم ونوعية الحماية التي يوفرها لي. ولكن أعترف، أنني بحاجة للبُعد معها أكثر مما أنا بحاجته مع غيرها، بل أكاد أجزم أنني لست بحاجة إليه مع غيرها، بل بحاجة له معها هي فقط. نعم، أنا مع غيرها بعيد بدون بُعد، ولكن معها قريب بالبعد وبدونه. تبًا لي، لقد أصبحتْ كتاباتي ككتابات العشاق. نعم، معك حق بالشك والاعتقاد بأنني وقعت في حبها، معك حق وكتاباتي أصبحت رومانسية، معك حق وكلماتي أصبحت أرق وأعذب، معك حق وجملي بدأت تبدو رشيقة وحيوية، معك حق ورسائلي إليك فيها كثير من المشاعر والأحاسيس والعواطف، ولكن أؤكد لك يا صديقي أنك مخطئ في اعتقادك.

نعم، أنا ما زلتُ قادر على الصمود، ما زلتُ قادر على المقاومة، ما زلتُ قادر على إلجام تلك المشاعر الجياشة وكبح جماح العواطف الهدَّامة الجامحة المتمرِّدة، ولكن أعترف أنَّ ذلك لن يطول، ولهذا عليك التصرف وبسرعة. لطالما كنتَ تُعوّل على قدرتي على التحمُّل، لطالما كنتَ تضغط عليّ لإظهار إمكانياتي وقدراتي لي، لطالما كنتَ تختبرني بأشد الاختبارات وحشية وقسوة لمنحي الاستعداد والقدرة على التعامل مع العقبات، لطالما كنتَ تدفعني إلى أسحق الحفر لكي تدفعني للاجتهاد والمثابرة للخروج منها بدون الاعتماد على الآخر، لطالما كانت ثقتك بي في محلها، لطالما راهنت على صمودي وكسبتَ الرهان، ولكن هذه المرة مُختلفة يا صديقي، أُقسم بذلك، نعم هذه المرة سأفشل، هذه المرة لن أستطيع الصمود، هذه المرة سأبقى عالقًا في الحفرة للأبد، هذه المرة ستخسر رهانك، ولهذا أرجوك لا تراهن يا صديقي الآن، لا تختبرني، لا تثق بي، لا تحاول ادِّعاء أنني أحوز قوة أجهلها. نعم، أنا متيقن هذه المرة من الخسارة، صحيح أنني كنتُ أفعل

هذا سابقًا، ولكن هذه المرة مُختلفة يا صديقي، هذه المرة أشعر بذلك بكل جوارحي. انسحب يا صديقي بهدوء ولا تكابر، سبق أن راهنت عليَّ وربحت الرهان، تقبَّل الخسارة، جميعنا يخسر. أعلم أنَّها ستكون صعبة عليك، فلقد أدمنتَ الربح، ولكن حاول وأنا متأكد أنك ستنجح، لا تنسى ترديد "أنا قوي" فهي ستساعدك كثيرًا. إياك أن تتيح لها تضليلك بالمكابرة والمجازفة فهي خطيرة وضارة في أحيان كما هي نافعة في أحيان أخرى. كيف قلتُ بأنها قد تكون ضارة، هذه وقاحة مني وعدم احترام وتقدير لعطائها، نعم هذا الخطأ في حق "أنا قوي" سببه ضعفي والحالة التي أنا عليها الآن. نعم، أعتذر منكَ ومن "أنا قوي"، فهذا خطأ يستوجب الاعتذار. لا تجعل اعترافي بخطئي يمنعك من البحث عن حل يا صديقي، أرجوك فأنا أعاني، أنا أتألم، أنا أفقد السيطرة.

نهضنا للعودة إلى الشقة بعد مدة قصيرة من جلوسنا هيَّأ لي اضطرابي طولها، وبينما كنا نسير سألتني قائلة:

- هل تعتقد أنَّ موعد المؤتمر القادم قريب؟

- صراحة لا أعلم، فتحديد المكان الملائم والتوقيت المناسب يتطلب الكثير من الوقت، وكذلك تحديد المسار الذي سيكون كل عضو مطالب بالالتزام به حين توجُّهه لموقع المؤتمر يتطلب الحذر والتأني وكثير من التمويه.

- لقد أرسلتُ للهيئة التنظيمية رسالة تُبيّن عنواني، بعدما طلبوا ذلك لمراسلتي، ثم وجدتهم يطلبون مني التحقق من صحة العنوان بعدما وجدوه مطابقًا لعنوانك على ما أعتقد، فعدتُ وأكدتُ لهم على صحته، ووضحت لهم سبب ذلك. لقد نسيتُ إعلامك بذلك.

- هذا ما يُفسر ردهم عليَّ بمعرفتهم بعدما راسلتهم لأعلمهم بذلك. لقد اعتقدتُ أنهم يُراقبونني للوهلة الأولى ولكنني عدتُ واستبعدت ذلك.

- أعتذر لذلك.

- لا داعي لاعتذاركِ يا صديقتي.

هنا شعرت بالاضطراب مجددًا، فلقد كانت لفظة "صديقتي" ثقيلة عليَّ. لماذا استشعرت بثقلها الآن؟ هل أنا أرفضها؟ هل أطالب بلفظة أخرى؟ هل أرفض الصداقة بيننا ولم يمضِ على إعلاني لها إلا القليل؟ هذا مربك يا صديقي. لا، لا أعتقد أنَّ السبب يكمن في أنَّ صداقتي هذه طرفها الآخر امرأة، فلدي

رفيقات أعتبرهن صديقات. أرجو ألا يكون السبب هو ذلك الذي أتخوَّف منه، أرجو أن تكون هناك أسباب أخرى متاحة غيره. أنا في خطر يا صديقي، فأنقذني قبل مداهمة ذلك الذي أتخوف منه، أنقذني قبل أن تصبح المساعدة بلا جدوى، أنقذني فأنا الآن بأمس الحاجة إليك بجانبي، أرجوك هذه ليست لحظة مناسبة للاختفاء، هذه ليست لحظة مناسبة للانشغال، أريد على الأقل نصيحة منك، لا تدعني مُعلَّق، لا تتركني وحيدًا، لا تُعلق آمالًا عليَّ بقدرتي على إيجاد حل، فأنا اليوم عاجز تمامًا.

بعد نزهة طرقنا فيها مواضيع مختلفة كان أبرزها الصمت، وصلنا الشقة، وبينما نحن ندخل وجدتُ صحيفة مُلقاة من فُتحة أسفل الباب فالتقطها، ثم قلت لها مبتسمًا ابتسامة توحي بالقلق:

- المؤتمر القادم قريب كما رغبتِ.

فتفاجأت من قولي، ثم سألت:

- هل الصحيفة التي بيدك سبب تغيير إجابتك؟ لقد سبق وأخبرتني أنك لا تعلم.

- نعم، فهي تحمل الرسالة المُشفَّرة من الهيئة التنظيمية.

دخلنا إلى الصالون ثم جلسنا متجاورين على إحدى المقاعد بعدما طلبتُ منها ذلك، لتعليمها فك شيفرة الرسالة، ثم أخذتُ أقلِّب الصفحات وأفك الرموز وأقوم بتجميع الرسالة التي تحتويها، والتي كانت كالتالي:

"قررت الهيئة التنظيمية عقد المؤتمر الثالث لهذا العام في الثالث والعشرين من اكتوبر في فيلة الرفيق رقم 21 الواقعة في الضاحية الشمالية بلوك رقم 15 شارع الأنوار مبنى رقم 11. سيتعين عليك أيها الرفيق رقم 13 اصطحاب الرفيقة رقم 43 إلى الموقع المُحدد مستعينًا بالمسار والموعد المحددين على الخريطة. نرجو الالتزام بالتعليمات لضمان سلامة الجميع.".

كانت الرسالة يا صديقي مقتضبة كالعادة، تحمل التعليمات والتحذير والمعلومات اللازمة فقط للإيجاز ولضمان سريتها. وكعادتي كنتُ قلقًا بعد قراءتها بالرغم من استشعار ذات الخطر في كل مرة. نعم، لقد كنتُ وما زلت كلما أمسكتُ برسائل الاتحاد أتذكر الرفاق الذين كُشف أمرهم فأعدموا وسجنوا وعذبوا وتم نفيهم، أشعر بالألم والحزن على ما حل بهم، وبالقلق مما سيجري في المستقبل، ولكن هذه المرة مختلفة يا صديقي فخوفي أكبر

وقلقي أعظم، فأنا الآن يقع على عاتقي مسؤولية توفير الحماية للأنسة هيا وضمان سلامتها. كيف سيتاح لي التصرف في حال قُبض علينا؟ كيف سأضمن سلامتها؟ كيف لي التأكد بأنني لستُ مكشوفًا إلى تلك الدرجة التي ستجعلني غير صالح لعمل سري؟ ماذا لو كنتُ أُشكِّل خطر عليها؟ أنا الآن مُطالب بالبحث عن منفذ لها في حال تم اكتشاف أمرنا، أنا الآن مُلزم بتهريبها في حال تمت مطاردتنا. نعم، أنا الآن أشعر بمسؤولية أكبر. هذا شعور لا ينبغي عليَّ الخوف منه فهو ليس حكرًا على الدوافع التي أتخوف من وجودها، أليس كذلك؟ أقصد أنَّ هذا الشعور لا يوحي بخطر يتهددني، أليس هذا صحيح؟ نعم، لا خوف عليَّ من استشعار الخوف عليها، فمشاعر الخوف هذه دافعها الصداقة لا ذلك الدافع الذي أتخوف منه، نعم هذه مشاعر دافعها الشهامة والنبالة، أليس كذلك يا صديقي؟ لا ينبغي عليّ القلق، صحيح؟ ومع ذلك أنا قلق، أنا خائف.

نظرتُ إليها بعد قراءة الرسالة، ثم قلتُ:

- إذًا فلقد منحوكِ الرقم 43. عليكِ من الآن نسيان اسمكِ، وتعريف نفسكِ بهذا الرقم للجميع، حتى ولو تطورت العلاقة بينكِ وبين أحد الرفاق لصداقة.

فسألتْ وكان الجد كعادتها بائن في عينيها:

- كم عدد الأعضاء في الاتحاد؟

- هناك أعضاء غير مُرقمين وهم بعشرات الآلاف، ولكنهم غير مُلمين بقدر كافي بطبيعة عمل الاتحاد الذين هم أعضاء فيه، ولا يعلمون شيئًا عن قراراته ومؤتمراته ولا عن طبيعة عمله وبرنامجه، وهم في الغالب يتبعون لأعضاء الاتحاد المرقمين سواء كانوا أفرادًا أم أحزابًا. كل ذلك بهدف الحفاظ على سرية عمل الاتحاد وتوفير الحماية لأعضائه، وعلى الرغم من ذلك يتم بين الفينة والأخرى بشكل مُتعمَد تسريب -إلى الرفاق غير المرقمين- بعض مخرجات المؤتمرات وبعض المعلومات عن برنامجه الآخذ بالتشكُّل، وخصوصًا تلك التي لها علاقة بالنشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وذلك لتحفيز مختلف الرفاق على الحراك الثوري، ولخلق سمعة جيدة للاتحاد وتعظيم قدرته وقوته في أعين الجماهير، فسمعة القوة قوة. وهناك أعضاء مرقمون نحن منهم أعتقد أنَّ عددهم لا يتجاوز المئة عضو، هم الذين يحيطون بطبيعة عمل الاتحاد وهم الذين يُشاركون في مؤتمراته وفي صياغة برنامجه ونظامه الداخلي.

فسألت وكانت كالمترددة:

- عدم وجودك ضمن أعضاء الهيئة التنظيمية، وعدم ترأسك للاتحاد، تهميش لدورك في التأسيس، أم أنه مجرد انسحاب منك؟

- لا، لا، ليس تهميش، ولربما هو أيضًا ليس انسحاب. صراحة، أنا لا أحوز القدرة على الإدارة والتنظيم بكفاءة، هذا أولًا، أما ثانيًا، فأنا أفضل البقاء في الظل، أما ثالثًا، فما أحوزه من شك يجعلني دائمًا متردد وعاجز عن اتخاذ القرار بسرعة، أما رابعًا، انتمائي للحزب الأسود يجعلني أفضل التركيز على مهمة تطوير أفكاره وبرنامجه، ويجعلني أيضًا راغب بعدم التصادم مع أفكار وتوجهات الأحزاب الأخرى من موقع يتطلب مني الحياد وتقريب وجهات النظر، ولهذا لم أترشح لأُهمَّش ولم أتقدَّم لأنسحب.

- يعجبني أسلوبك غير الصدامي، ولكن أعتقد أنك تبالغ فيه قليلًا.

فقلتُ بعدما كنتُ كمن يحاول استجماع اتزانه بعد لكمة مفاجئة تلقَّاها:

- لقد شعرتُ مؤخرًا بذلك، ولهذا أحاول العمل عليه.

هل هذا نقد جديد منها هذه المرة لشخصيتي يا صديقي؟ هل تبيَّن لها كما تبين لي أنّ شخصيتي لا تصلح لعمل ثوري، وأنني بحاجة لإجراء بعض التعديلات عليها؟ هل هي تلومني وتوبخني على ذلك؟ هل هي تعتقد أنني سأجبن ولربما سأنسحب لحظة اندلاع الثورة؟ هل تعتقد أنه لا ينبغي التعويل عليَّ، وإحالة المهام سواء كانت معقدة أم بسيطة إليّ؟ هل فقدتْ ثقتها فيَّ بهذه السرعة؟ وهل كان لها ثقة بي من قبل؟ لماذا أهتم برأيها إلى هذا الحد؟ لماذا أنا منزعج؟ لماذا أرغب بشدة بأن تُحسن الظن بي؟ هذا مُخيف يا صديقي، نعم هذا دليل على أنني في خطر.

تناولتْ كأس من الماء، لم تشرب منه واكتفتْ بالنظر إليه، ثم سألت:

- علمتُ بأنكَ رُشِّحتَ لرئاسة الاتحاد، فلماذا لم تقبل بذلك، واخترتَ الرفيق رقم 17 ليشغل ذلك المنصب؟

لم أسمع سؤالها هذا، فلقد كنتُ شاردًا ومشغول بالبحث عن سبب التقاطها كأس الماء وعدم إقدامها على الشرب منه. تبادر إلى ذهني في تلك اللحظة أنَّ سبب ذلك أنها متوترة، على الرغم من عدم وجود مؤشرات توحي بذلك. لا أعلم السبب ولكنني تمسَّكتُ بالاعتقاد بأنها متوترة، وذهبتُ أسأل نفسي قائلًا: هل أنا السبب؟ هل وجودي أمامها سبب توترها؟ هل هي خائفة أيضًا

من الوقوع في حبي؟ ولكنني على الفور استبعدتُ ذلك، وذهبتُ للترجيح بأنني فقط أحاول تبرير توتري.

طلبتُ منها تكرار ما قالته بعدما علَّلتُ عدم سماعي له بشرودي الذي ادَّعيتُ بأنَّ رسالة الاتحاد السبب فيه لكي لا تكتشف أنها السبب، وبعدما أعادت سؤالها، أجبتُ قائلًا:

- وجود صراع أيديولوجي بيني وبين الرفيق رقم 17، وانتمائي للحزب الأسود وانتماؤه للحزب الأحمر، وكثير من الاختلافات والخلافات بيننا ليس من النزاهة وليس في صالح الثورة أن تدفعني للتغاضي عن كفاءته على مستوى العمل الإداري والتنظيمي، والتقليل من جهوده في التأسيس والبناء. وبصدق كان أيضًا ترشيحي له رغبة بتخفيف حدة الصراع بين الحزبين وتسهيل الالتقاء والاتفاق على أهداف ومسارات وأدوات مشتركة، وكان أيضًا رغبة مني بتقوية موقف بعض أعضاء الحزب الأحمر الذين كانوا يطالبون بقية رفاقهم في الحزب بضرورة تخفيف حدة الصراع مع الرفاق في حزبنا وضرورة الإبقاء على قنوات التواصل بيننا مفتوحة. لقد أردتُ أن أبين للجميع صدق رسالة الحزب الأسود ونزاهتها وعدالتها، لتخفيف حدة التصادم والمساهمة بإيقاف تهم الخيانة المتبادلة بين الجميع.

- وهل وصلتَ لمرادك؟

هل هذا نقد جديد توجّهه لي أم أنه مجرد سؤال؟ لا أعلم، ولكن ذلك شتتني قليلًا، فأجبتُ بدون ثقة، وبإحساس بالذنب لعدم وجود عائد لقراري:

- لقد تراجعت العداوة وحدة الصراع قليلًا في البداية، ولم يعد أحد يسمع تهم جارحة كالخيانة، ولقد استقطبتُ بعض الأعضاء للحزب الأسود بذلك القرار، ولكن للأسف، عادت حدة الصراع إلى ما كانت عليه.

- هل حاولت التواصل مع الرفيق رقم 17 للتوصُّل لحل لهذه المُعضلة؟

- نعم، ولقد كان هو أيضًا متخوف منها جدًا، وحاول كل منا إيصال رسائل للآخرين مفادها أنَّ الاختلاف يقوّينا وبالتالي يخدم الثورة، ولكنه لم يستجب لي عندما دعوته لتخفيف الحماس في الخطب معتقدًا بذلك أنني أحاول إفقاد حزبه ما يتفوق به.

- هل حاولت ردعه بأن تثبت له أنَّ حماس حزبك بمقدوره التفوق على حماس حزبه لو شئت ذلك.

- لا لم أفعل، فأنا لا أريد له ولحزبه، أن يقوموا بتشكيل أسلوبي وأسلوب حزبي. لا أريد أن أمارس ردود أفعال، نعم أريد أن أفعل فقط. ستكون هنك ردود أفعال على توجهه هذا ولكن لا أريدها أن تكون مني.

هنا يا صديقي ابتسمت ابتسامة مُستنكِرة لتوجُّهي، ثم قالت بهدوء عاصف:

- الطبيعة لا تخجل من قانونها، فلماذا تفعل. "لكل فعل رد فعل"، هذا قانونها إذا كنتَ نسيته. إذا استخدمت أسلوبه وتفوقت عليه في استخدامه، أرجعته إلى استخدام الأسلوب الذي ترتضيه.

- أخاف أن يطول الأمر، ويُصبح أسلوبه عادة لي وللحزب.

- إذًا فلتدع هذه المهمة لي. متى سيكون خطابي الأول.

- أمتأكدة أنكِ ترغبين بفعل ذلك؟ صراحة، أنا لا أفضل قيامكِ به.

- أرغب بذلك وبشدة، فلا تقلق.

- عادةً يُتاح الوقت لكل رفيق لخطبة قصيرة في المؤتمر الأول له، فالمجل دائمًا ما يُترك للأعضاء الجدد لكي يبرهنوا على جدارتهم بعضوية الاتحاد ولعرض ما يتاح لهم عرضه من مقترحات وأفكار. ولهذا أعتقد أنكِ لن تتمكني في هذا الوقت القصير من إعداد خطبة حماسها قادر على منافسة حماس خطبهم. أقترح عليكِ تأجيلها للمؤتمر اللاحق.

- لا تقلق، لدي ما أقوله.

- ولكن ...

- أنت تقلق كثيرًا، وهذا مُضر لك.

لقد قاطعتني بحزم هادئ، أشعرتني به بأنني مُخطئ، بأنني أضايقها وأزعجها، فرغبتُ بالاعتذار ولكنني لم أجرؤ عليه، ثم نهضتُ وعبرتُ لي عن حاجتها للعمل، واعتذرتُ على اضطرارها لتفويت موعد الغداء، وانصرفتُ إلى غرفتها، ثم نهضتُ أنا بدوري وانصرفتُ إلى غرفتي، وجلست أكتب إليك هذه الرسالة، بالرغم من تعبي وإرهاقي وحاجتي للاستلقاء والنوم.

صديقك المُحب

ف.د

23 تشرين الأول (اكتوبر)

صديقي العزيز ل.ت

عجزتُ عن النوم طوال الليلة الماضية يا صديقي من شدة التفكير فيما ستطلع عليه شمس تلك الليلة وفيما ستغيب عليه. كنتُ مضطرب أشد اضطراب، حائر ضائع بين تساؤلات مربكة محبطة مفزعة تبث القلق والاكتئاب والغم والغضب والحزن.

كنتُ أتساءل بلا إرادة قائلًا: أهناك عائد من كل هذا الشقاء؟ أهناك أمل بنجاح الثورة؟ ماذا لو فشلنا؟ ما هو مصيرنا؟ إلى ماذا نتطلع؟ ماذا لو كان ما نصبو إليه ليس هو ما توقعناه؟ ماذا لو كنا نسعى وراء المستحيل؟ ماذا لو كانت جهودنا بلا عائد؟ ماذا لو كنا على خطأ بهذا الرفض والاعتراض؟ ماذا لو كان ينبغي علينا الخضوع؟ ماذا لو لم نعرف ماذا سنفعل وكيف سنتصرف في حال نجحنا؟ إلى أين سنصل؟ أهناك نهاية لطريقنا؟ أهناك راحة أبدية لنا بعد كل هذه التضحية؟ أهناك مسافة تفصل بين البعيد الذي نطمح إليه وبيننا أم أن ذلك البعيد له نقطة بداية لا أمل لنا في الوقوف عليها والانطلاق منها؟ هل هناك وجود للنهايات حقًا؟ بل هل هناك وجود للبدايات؟ ماذا لو لم تكن لنا بداية؟ ماذا لو كانت كل هذه المحاولات والجهود محض مشاركة في هذا العبث الكوني؟ ماذا لو كان وجودنا غير موجود في الحقيقة؟ ماذا لو كنا محض وهم يخلق وهمًا؟ ماذا لو كنا محض شعاع لا يُنير؟ ماذا لو كان طموحنا محض خطوات للعدم؟ ماذا لو لم يكن هناك عودة؟ ماذا لو كانت الراحة كالشقاء لا تمنحنا سوى الفناء؟ ماذا لو لم تكن لحياتنا رسالة؟ ماذا لو كنا مجرد غبار تتلاقفه وتتقاذفه نسمات الهواء هنا وهناك؟ ماذا لو كنا نتوهم القرب والبعد ونحن في الحقيقة خارج الوجود؟ ماذا لو كنا محض وميض اصطدام نجمين متجه إلى الظلمة لا لينيرها بل لتُطفأه؟ ماذا لو كنا ذلك الفراغ الذي لا خارج له ولا داخل؟ ماذا لو كنا وحدنا؟ ماذا لو كنا مهزومين دائمًا؟ ماذا لو لم يكن هناك مكسب ولا خسارة، ونحن فقط ندَّعي أحدهما لكي ندَّعي الوجود؟ ماذا لو كان هذا كله مجرد حلم؟ هل سنُلام على بذل تلك الجهود في حال استيقظنا من حلمنا؟ نعم، إذا كنتُ نائم، فأريد أن

أستيقظ يا صديقي، أريد نهاية لهذه الجهود المبذولة في الوهم، نهاية لذلك الطموح الذي لا يمنح، نهاية لتلك الحيازة التي لم تكن حيازة. هل هناك مكافأة أو عقاب؟ هذا مُخيف يا صديقي. ماذا لو عوقبنا على تلك الجهود؟ هذا سيكون صادم يا صديقي، حتمًا سيكون صادم. ماذا وراء كل هذا؟ لا أحد يعلم، لا أحد يعلم. ومن بمقدوره أن يعلم! يا ليتني من أولئك الحمقى المتيقنين من أنهم يعلمون، الذين يفاخرون بذلك. أنا يا صديقي مضطر بأن أكون أحمق وتصديق أحدهم على الأقل، لكي لا أكون مثلهم مدَّعي، أنا مضطر على الأقل لكي لا أبقى مُعلَّق، لكي لا أبقى قلق، أنا مجبر لكي أتمكن من المواصلة وعدم الاضطرار لقطع الحلم والاستيقاظ في غير الموعد الذي حُدد لي، أنا مُجبر لكي أطمئن بجهل من الجهلين، بحماقة من الحماقتين.

أعلم أنك بقراءة هذه التساؤلات التي أرقتني، تكاد ترفع الراية البيضاء وتعلن أنَّ لا أمل مني، وفي حال فعلت ذلك فالحق سيكون معك بكل تأكيد، فلطالما بذلتَ المحاولات تلو المحاولات لإصلاحي وعلاجي ولكن بدون جدوى. نعم، أعترف يا صديقي بأنني مريض، ولكن يبدو أنَّ مَرَضِي ليس خياري، أنَّ مرضِي فطري، أنَّ مرضِي جزء من طبيعتي، ولهذا أعتقد بأنه لا أمل من علاجي.

أهناك علاج للطبيعة يا صديقي؟! فلماذا لا تيأس مني وتعترف بأنني مريض لا علاج له، مريض لا يلائمه إلا الموت الذي هو قاسي عليه ببعده؟! أرجوك لا تتهمني بالتقصير والإهمال والتهرب من العلاج، فلا أحد يُفضل جحيمه، ومعاناته، وآلامه، نعم لا أحد. لا لستُ كما تصفُني، فأنا عاجز وأرفض التعايش مع بؤسي وشقائي. أنا مُلاحَق يا صديقي دائمًا، فذلك البؤس الذي يُمسك بي بعد كل مطاردة، يعود ليفلتني ليلاحقني مجددًا وذلك ليُبقيني مستشعرًا بوطأة إمساكه بي، ليُبقيني مستشعرًا بمعاناة الفرار، ليُبقيني متذكرًا باستمرار أنَّ لا ملجأ لي، ليجعلني مشاركًا إياه في معاناتي. نعم، عليك أن تدرك يا صديقي أنني مُطارَد بما لا يمكنني الفرار منه حتى بوجود المساعدة. لهذا أرجوك لا تلمني على ما أنا فيه، بل لُمْ ذلك الذي أطلق ذلك البؤس لمطاردتي، لُمْ نفسك على تشجيعي على الفرار ممن يُحسن المطاردة، على عدم إقناعي بالاستسلام واليأس ولربما أيضًا بالانتحار.

كلما أمسك بالقلم أُدرك أنني أحوز آلام أكثر وأفتك، فتبًا لذلك.

نهضتُ من فراشي بعدما استلقيتُ عليه تعبًا وإرهاقًا من المشي طولًا وعرضًا في غرفتي، وتوجهتُ إلى المطبخ بعدما طلع الصباح للانشغال عن قلقي بإعداد وجبة فطور.

لطالما كان المطبخ مكان أنشغل فيه عن همومي وأحزاني وقلقي. نعم، لربما كان ذلك لحاجته لفنان وفن يتطلب تركيزًا عاليًا. نعم، لو لم أكن كاتبًا، لربما لكنتُ على الأرجح طباخًا ماهرًا. سعيد من كان بمقدوره أن يكون طباخ. كيف لا يكون كذلك وهو يتلذذ بحواسه الست؟! نعم، حواسه الست، فالمستقبل مكشوف له بفنِّه مُتشكِّل على هواه ومزاجه. أرأيت يا صديقي السعادة كانت قريبة مني لكي تزيد مأساتي وقهري بقربها. نعم، مهارتي في الطبخ غير المُهذبة أحوزها لكي أدرك أنني لم أكن محظوظ، أحوزها لكي أدرك أنني كنتُ قريب جدًا من أن أكون سعيد. أهناك عدل بوجود كل هذا الاستفزاز في ظل كل هذا البؤس؟! حتمًا، لا وجود لذلك.

وقفتُ في المطبخ بعد دخوله حائر، أبحث عن وجبة لكي أقوم بإعدادها بمتعة تنزع مني وقتي الذي يُعذبني، فخطر لي بعد دقائق إعداد المعجنات والبسكويت، فشمَّرتُ عن ساعِديَّ، وبدأت بالعمل.

بعد ما يقارب الساعة والنصف كنتُ قد انتهيت، فحملت ما أعددته وخرجت به إلى الشُرفة، فلقد كنتُ محتاج إلى السماء للهرب، محتاج إلى صفائها، محتاج إلى النسمات الباردة لكي تشعرني ولو بالقليل من حريتها.

كنتُ يا صديقي أريد الغياب عن هذا العالم القبيح الذي بضجيجه تسبب لي بصمم عاجز معه عن الاستماع للحن الهدوء، صمم تسبب بمزيد من الاضطراب واختلال التوازن.

السماء ملجأ موجود على الدوام لي، مُرحِب بي باستمرار، مُرشِد لي بسهولة إليه، مُحتضِن لي بحنان. نعم أتعجب منها يا صديقي، فكلما لجأتُ إليها هربًا من قبح أشد ازداد جمالها، كلما هربتُ إليها من قيد أكثر تقييدًا ازداد إشعارها لي بالحرية، كلما هربتُ إليها من ضيق أفتك ازداد اتساعها، كلما هربتُ إليها من بؤس أعقد ازدادت سعادتي بها، كلما هربت إليها من قلق أعمق تعاظم بثها للهدوء في نفسي. هل جمالها واتساعها وعطاؤها حقيقة؟ هل هم متواجدون باستقلال عني، أم أنهم متواجدون بي وبقبح وضيق وبؤس عالمي؟ هل العيب بي أنا الضيق الذي لا أتَّسع لكل ذلك العطاء دفعة واحدة، ولهذا أنا بحاجة لتشرُّبه جرعة جرعة؟ أنا أعترض يا صديقي، نعم أعترض على هذه الحياة التي علينا أن نذوق فيها أشد أصناف العذاب لكي يتاح لنا

فيها النعيم، أنا أعترض على هذا التنقل بين النقيضين، أنا أعترض على هذا الوجود الذي لا ننال فيه إلا من الخسارة، ولكن للأسف يا صديقي لا جدوى من اعتراضي، فلماذا أعترض، لماذا أرفض؟ نعم، لماذا وجدتُ معترضًا، لماذا وجدتُ رافضًا طالما لا عائد من ذلك؟ أنا أعترض على اعتراضي، أنا أرفض رفضي، ولكن للأسف حتى هذا غير مُجدي يا صديقي، فلماذا ذلك؟ لا إجابات، فلماذا هذا أيضًا؟ لماذا وجدتْ الأسئلة؟ أفقط لترديدها، والادعاء بأننا نحوز إجابات عليها؟ أريد لهذا الغموض أن ينجلي، أريد للحقيقة أن تُعلن عن نفسها إن كانت موجودة حقًا. هل الحقيقة موجودة؟ بدأت أشك يا صديقي، نعم بدأت أشك. إذا كانت كذلك، فلماذا لا تظهر، لماذا تتركنا بانتظارها؟ لماذا تتركنا للزيف ينهش بعقولنا، لماذا تتركنا ضحايا، لماذا تتركنا امتداد للوهم الذي أصبحنا جزء لا يتجزأ منه، لماذا لا تمنحنا وجودًا حقيقيًا؟ هل يُعقل أنَّ الزمان والمكان لا يتسعان لها؟ هل هي تحل في اللامكان واللازمان؟ كيف لي الوصول إليها؟ كيف لي أن أُخلِّف الزمان والمكان ورائي؟ نعم، لا إجابات، هي محض تساؤلات تتكاثر لا لشيء إلا لتُبقيني في الشقاء والبؤس؟ أريد الاستسلام يا صديقي، نعم أريد ذلك بشدة، ولكن هذا أيضًا لا يتاح لي. نعم، لن يتاح لي شيء مما أريد، ولربما حتى الموت لن يتاح لي إلا عندما أصبح راغبًا بالحياة، لينتزع مني تلك الرغبة المُتحققة، لكي يُذكِّرني باستمرار أنني لن أنال ما أرغب، لكي يذكِّرني دائمًا أنَّ الخسارة وحدها ما ستتاح لي.

كان الطعام بجواري مُغطى كما هو، لم أمسسه، فلقد شغلتني السماء عنه تمامًا، وأيضًا في الحقيقة لم تكن لي رغبة به، فلقد أعددته لإشغالي عن قلقي كما أخبرتك.

وبينما كنتُ جالس شارد الذهن، انتبهت لوقوف الأنسة هيا على الطرف الآخر من الطاولة، بعدما نقرت عليها ثلاث نقرات أيقظتني بها من شرودي، فوقفتُ بسرعة لوجودها، واعتذرت منها لعدم انتباهي وبررت ذلك بشرودي وتفكيري بالمؤتمر بعدما ألقيتُ تحية الصباح عليها، ثم طلبتْ مني الجلوس بعدما جلست.

هذه كانت المرة الأولى التي تخرج فيها للجلوس معي في الصباح، ولهذا كنتُ مرتبكًا، وشعرت بأنني ألتقيها للمرة الأولى.

يا إلهي ما أجملها يا صديقي. نعم، هي جميلة في كل الأوقات، ولكن في الصباح جمالها مُختلف، جمالها أَجَل. لقد كان وجهها متفتِّح أبهى تَفَتُّح، وعيناها فيهما عمق لا يُسبر قاعه، وابتسامتها كمشهد لحمامة بيضاء تحلق

في سماء القدس. لقد ارتدت الصباح فازداد جماله بها وازدادت جمالاً به. نعم، لقد كان يا صديقي ذلك الصباح لي بشروقين بسمائين، بأفقين، فغرقت بالكثير الذي لم يكن بإمكاني أنا الضعيف احتواءه والإحاطة به. بل لقد حظيت يا صديقي بوجودها بصباحي الأول. ها قد عدتُ للتعبير بكلام العشاق. اعذرني يا صديقي، فلربما هو الكلام الوحيد الذي يُعبّر عن الجمل والسعادة والرضى، وكن على ثقة بأنني لم أقع في حبها بعد.

بعدما جلسنا لم أكن مضطر يا صديقي للوقوف مجددًا والذهاب للمطبخ لجلب طبق وكأس لها، فلطالما كنتُ أُهيئ الطاولة لشخصين، واضعًا احتمال خروجها في نطاق الممكن. نعم، لم أكن أتوقع من قبل ظهورها صباحًا، ولكن كنت أتحسَّب لذلك في حال حدوثه، وها أنا أنتفع بتحسُّبي للمرة الأولى في حياتي.

قالت بعدما أخذتْ تنظر إليّ، وأنا أُقدِّم لها المعجنات وأسكب في كأسها عصير البرتقال:

- لا داعي للتوتر.

فاضطربتُ وأخذتُ أتساءل: كيف اكتشفت أنني متوتر؟ هل توتري ظاهر عليَّ؟ ألهذا السبب لا تخرج للجلوس معي إلا في أوقات الطعام وكثيرًا ما تُفوّتُها؟ ألهذا السبب لا تطيل الجلوس معي؟ هل أُشعِرُها أنني متضايق منها، مُستثقِل من حضورها؟ هل أخلفتُ بالعهد الذي قطعته لك؟

حاولتُ أن أنفي ذلك، ولكن لساني كان ملجوم، حاولت أن أهز رأسي نافيًا بعدما أخذتُ أدَّعي بإمساكي للكأس حاجتي للشرب، ولكنني أيضًا عجزت، فقالتْ بعدما وجدتني تائهًا:

- أهكذا تكون كلما وصلتك رسالة من الاتحاد. ألهذه الدرجة تبث رسائله فيك القلق والخوف.

طمأنني توضيحها، فهي لم تكن تدرك أنها السبب، وصدقًا كدتُ أنفجر ضحكًا من سذاجتي بتحليلاتي السابقة وعدم فهمي لمقصدها، ولكنني كبحتُ نفسي، واكتفيت بالابتسام وأنا أرد عليها قائلًا:

- للأسف نعم، ولكن سأهدأ قريبًا فلا تقلقي عليّ.

نعم يا صديقي، لقد كنتُ مضطر للادعاء بأنَّ رسائل الاتحاد هي سبب كل ذلك التوتر، لكي أغطي عن كونها السبب. ولكنني آن ذاك أحسست أن

إجابتي فيها خطأ ما، فأخذت أراجعها وأتفحصها، وبعد لحظات قليلة وجدتُ الخطأ يكمن في دعوتها لعدم القلق عليَّ. نعم، من أنا لكي تقلق عليَّ؟! نعم، لقد كان ينبغي عليَّ دعوتها لعدم القلق فقط. لقد كانت حماقة مني إضافة "عليَّ"، لقد كانت وقاحة مني بأن أعلن أنني ذو أهمية بالنسبة لها، لقد كانت وقاحة أن أُقحم نفسي في نطاق من تهتم لهم، نعم وقاحة أستحق عليها التأنيب والعقاب. كان يحق لها أن ترد عليَّ قائلة بحزم وعنف: "أنا لا أقلق عليك أيها الأحمق، ومن أنت لأقلق عليك، بل أقلق على الثورة والاتحاد ممن هم أمثالك"، ولكنها لم تفعل يا صديقي، وذهبت لتقول:

-أرجو ذلك.

ثم أخذنا بتناول فطورنا. اكتشفتُ حينها يا صديقي أنني أصبحت أهتم مؤخرًا كثيرًا بطعم وشكل الطعام الذي أُعدُّه، فلقد كنتُ أعاتب نفسي على بعض اللمسات التي لم يكن لها داعي، وعلى بعض الأخطاء البسيطة التي لم أكن ألتفت إليها وأحسبها أخطاء، أوبخ نفسي على هفوات بسيطة لطالما سامحت نفسي عليها. لقد اكتشفتُ أنني كنتُ طوال فترة مكوثها كناقد لا يتمنى أي طباخ اقترابه من أطباقه ولا يتمنى أي مطعم استقباله. لقد كدتُ أقرر في تلك اللحظة عدم الطبخ مجددًا، والاعتماد بدلًا من ذلك على الطلب من المطاعم.

لقد كانت قليلة الكلام وأنا لا أجيده، وهذا أصعب ما في وجودها. نعم، لقد أدركتُ في فترة مكوثها نعمة الثرثار الذي لطالما استثقلتُ الوقوف معه. نعم يا صديقي، الوقوف مع قليل الكلام مُربك، وخاصة إذا كانت امرأة. كيف يتمكن الناس من فتح الموضوع تلو الموضوع، والثرثرة فيها لساعات وساعات؟! كيف بإمكانهم إيجادها بسهولة؟ هل أنا الوحيد الذي أعاني من إيجاد المواضيع للحديث فيها؟ ماذا لو اخترتُ موضوع غير ملائم للحديث معها فيه، كيف سيكون موقفي أمامها؟ ماذا لو اخترت موضوع يتداول الحديث فيه السذج والبلهاء، كيف ستكون حينها نظرتها لي؟ ماذا لو وجدتُ موضوع جاد وقررت الحديث فيه ووجدتُ نفسي بلا إحاطة كافية أمامها به، كيف حينها سأجرؤ على الظهور أمامها مجددًا؟ نعم، بوجودها يا صديقي أشعر بأنه لا وجود للمواضيع التي تم اعتياد فتحها للنقاش والحوار. هل هذا عجز أم جبن؟ لا، هو عجز أيها القاسي الذي تتهمني بالجبن باستمرار. لطالما كان هذا موقفي، ولهذا لا تتهمني بالحب، لا تتهمني بأنني أريد لصورتي عندها أن تكون حسنة. وماذا يعني ذلك، أليس جميعنا يريد لصورته أن تكون حسنة لدى الآخر. نعم، أعترف بأنني لم أكن مُكثرت

لذلك قبل التقائي بها، ولكن ما تحاول التغاضي عنه أيها اللئيم لاستفزازي حقيقة أنَّ عودتي لما عليه الجميع طبيعية، لا توحي بشيء، وبأنَّ التزامن محض صدفة.

بينما كنا نتناول فطورنا كسرتْ صمتها، وأبدت لي إعجابها بالطعام الذي أعددته، وشكرتني عليه، وأخذت تطلعني كيف ذكَّرَتها روائحه بروائح مخبوزات جدتها فأخذنا بالضحك، ثم بعد لحظات صمت عادت فسألتني عن أصوات إطلاق النار التي تسمعها كل يوم الساعة الثانية عشر ليلًا، فلما أجبتها بأنها أصوات الإعدامات التي تنفذها عناصر الشرطة لإخافة الشعب، اختفت الابتسامة عن شفتيها، وعبرت لي بتأثر عن ضرورة السعي بسرعة لوضع حد لهذا العنف، ثم أخذتْ تُعبّر لي بعد ذلك عن إعجابها بالروح الثورية للشعب، وبالهتافات الليلة الجماعية لسكان المدينة من نوافذهم اعتراضًا على النظام الحاكم، وعن إعجابها بالإضرابات والمظاهرات العمالية العفوية التي يُنظِّمها العمال اعتراضًا على أوضاعهم المعيشية الصعبة من أجور متدنية وساعات عمل طويلة وأسعار مرتفعة وبطالة وفساد، وذلك كله بالرغم من القمع والإرهاب الوحشي، في حين عبَّرتُ لها بدوري عن قلقي من توقيت هذه الاحتجاجات والمظاهرات والإضرابات، كاشفًا لها عن خوفي من توقيتها على برنامج الاتحاد ونظامه الداخلي، وعلى مواعيد مؤتمراته، وعلى توافق أعضائه وأحزابه، موضحًا كيف أنه قد يندفع الكثيرون في ظل هذه الظروف للمطالبة بتحرك الاتحاد وقيادة الجماهير لإسقاط النظام الحاكم متجاهلين مطالب الأخرين بالتأني وانتظار الفرصة المناسبة، وبالتالي حدوث تصدُّعات في الاتحاد تهدد بتفككه أو تحوُّله لكيان شمولي، وما أن انتهيتُ حتى وجدتها متفهمة لقلقي ولديها نفس مخاوفي، ومؤكدة على ضرورة تكثيف الجهود وتكاثفها في البحث عن حل لهذه المُعضلة، مُلمِّحة إلى تفكيرها بحل بان عليها عدم رغبتها باطلاعي عليه ولهذا لم أتجرأ على الطلب.

طال جلوسها معي على غير العادة بعد الانتهاء من تناول الطعام، فأخذنا نتحدث عن مخاوف أخرى لدينا من ألية عمل الاتحاد وطريقة صياغة برنامجه ونظامه الداخلي وغيرها من القضايا، ولكن طوال حديثنا كنتُ قلقًا عليها، متعجبًا من جلوسها معي بدلًا من العكوف على كتابة خطابها الذي بعد ساعات ستلقيه أمام الرفاق، والذي عزمتْ على أن تجعله حماسي بهدف الردع.

كنتُ أتساءل: هل هي متوترة؟ هل قامت بكتابته بهذه السرعة؟ هل تحاول المماطلة لتأجيله بحجة عدم تمكنها من كتابته في ذلك الوقت الضيق؟ هل تريد التراجع ورغبت بإعلامي بذلك بتلك الطريقة؟ هل حاولتْ وعجزتْ؟ لا، أنا متأكد أنها لم تحاول يا صديقي، فوجهها يقول بأنها حظيتْ بنوم عميق.

ثم أخذتُ بالتساؤل عن سبب جلوسها معي تحديدًا في ذلك اليوم قائلًا: هل تشك بي؟ هل تحاول مراقبتي أنا خاصرتها الأضعف؟ هل تحاول الاطمئنان عليَّ لضمان أمن مسارنا المشترك؟ هل تحاول إيصال رسائل بأنني تحت المراقبة؟ هل تحاول إعلامي بحاجتها لي قويًا أنا الذي تراني ضعيف؟ معها حق يا صديقي إذا كانت فعلًا تريد إعلامي بذلك، واطلاعي على تلك الطلبات والمخاوف، معها حق بالشك بي، معها حق باستشعار الخطر من جهتي، معها حق إذا كانت متضايقة من وجودها معي، معها حق بتوبيخي. نعم يا صديقي، لربما أنت المُلام الوحيد على معاناتها ومعاناتي، نعم لربما أنت كذلك بجمعها بي. الآن لن أقوم بعتابك، فهذا ليس وقت العتاب، ولكنني سأفعل في قادم الأيام فتهيأ، نعم سأفعل في حال حدث لها مكروه. لقد بذلتُ أقصى جهودي، ولكن حدودي هذه ليست كافية، ولهذا الذنب ليس ذنبي، بل ذنبك.

سألتْني عما إذا كنتُ مُحتفظًا ببعض الأفكار التي عدَّدتها لي، والتي سبق لي أن كتبتُ حولها ودافعت عنها وأعلنت تبنيها وحاولت تطويرها وربطها بأفكاري ومشروعي، فأخذتُ أؤكد لها على أنني لا أتحرج من التراجع عن التمسك بتلك الأفكار التي أعلنتُ تمسكي بها، وأنني سبق لي أن تراجعت، وأخذت بطمأنتها بأنني بصدد الانتهاء من بحث في الفلسفة السياسية وفلسفة الأخلاق يُمكِن الانطلاق منه لتدعيم برنامج الحزب الأسود، بحث تخليتُ فيه عن بعض الأفكار التي تبنيتها سابقًا، ولقد أفصحتُ لها عن بعض أفكار هذا البحث وناقشتها معها، وأطلعتها على أسماء بعض الفلاسفة الذين أثَّروا فيَّ بكتاباتهم، سواء بنصوصهم التي أتفق معها أو تلك التي أعارضها، وكشفت لها عن أسماء بعض الكتب التي كان لدراستها تأثير كبير على أفكاري، ولقد وجدتها تشترك معي في كثير من الأفكار وتشاركني الاهتمام بنفس الفلاسفة وبعض الكتب، وبعد هذا العرض عبَّرتْ لي عن إعجابها بالأفكار التي أطلعتها عليها وناقشتها معها، واقترحت لي أسماء بعض الكتب والفلاسفة، فوددتُ في تلك الأثناء أن أفصح لها عن رغبتي بمشاركتها في إعداد بحث ما، ولكنني جبُت، وخفتُ أن تكون تلك وقاحة مني، فتراجعتُ محبطًا حزينًا، ولكنني وجدتها وهي تستعد للانطلاق إلى غرفتها بعدما

وقفتْ، ترجو أن تتاح لنا الفرصة لنتشارك البحث في المستقبل، فارتبكتُ وخفت من شدة نفوذها ومعرفتها لما أفكر وأرغب، وأخذتُ أتساءل عما إذا كنتُ أطلعتها على رغبتي بمشاركتها بدون أن أنتبه أو بشكل لاإرادي، وعلى الرغم من كل ذلك الارتباك والتيه وقفت لوقوفها، وعبرتُ لها عن سعادتي بذلك وتطلعي له، ولقد كان تعبير وجهي بفرحتي برجائها كتعبير وجه طفل بوعد اصطحابه لمدينة الألعاب، ولكنني بسرعة أخذتُ أحاول طرد ذلك الطفل من وجهي مخافة دفعها للندم، وأخذتُ أحاول إسكات ذلك الطفل الذي بداخلي والذي كان يُلح عليَّ بالاستعلام عن موعد ذلك العمل، ولقد نجحت بعناء كبير بذلك، فكنتُ مضطر لتحمل عبء ذلك الفضول الطفولي.

انصرفتْ من أمامي لغرفتها، فلحقتُ بها قبل أن تغلق الباب لأذكرها بموعدنا للانطلاق لحضور المؤتمر الذي كان الساعة الثانية مساءً، فكما تعلم يا صديقي الليل غير مناسب لعقد المؤتمرات لانتشار رجال الأمن ولكون الاشتباه فيه أسرع. لقد كان اختيار الساعة الثانية كموعد للمؤتمر مدروس، نعم فرجال الأمن في تلك الأوقات ينتشرون أمام المصانع والجامعات مخافة الاحتجاجات والمظاهرات والتجمعات التي قد يدعو لها الطلاب والعمال.

بعدما أكدتْ لي أنها ستكون جاهزة على الموعد، انصرفتُ إلى غرفتي، وهناك بدأتُ أشعر بالقلق والتوتر وثقل الوقت من شدة المعاناة، متمنيًا أن ينتهي هذا اليوم لكي أرتاح من هذه المشقة، من هذا العذاب الذي لا عائد منه.

أعلم يا صديقي لماذا ثمن الحرية باهظ إلى هذا الحد. نعم، ذلك لكي لا يدَّعي المُعتدِي أنه دفع ثمنها لنا. ولكن يا صديقي ما أنا عاجز عن فهمه هو لماذا ثمن استردادها باهظ أيضًا. أذلك للإبقاء على رغبتنا بها، حيث لا رغبة إلا في ثمين؟ لماذا يُدافع سارقوها عنها بهذه الهمجية، في حين لا يبذل معظم السارقين جهودًا كبيرة في الدفاع عن سرقاتهم؟ ماذا لو كان لا سارقون للحرية، أكانت ستكون ثمينة بهذا القدر، أم أنها كذلك لوجودهم؟ أنحن ملعونون بمحبة الحرية أم الحرية ملعونة بمحبتنا لها؟ لماذا محبتها تُكبدنا كل هذا الشقاء والعناء؟ لماذا تُبادلنا العداء ونحن نُبادلها الحب؟ لماذا تطالبنا بالكثير وهي تدرك أنَّ ما بحوزتنا هو القليل؟ هل حقًّا هي تبادلنا العداء؟ لا، لا، حتمًا ما هو مُقدَّس بهذا القدر، لا يمكن أن يبادل العداء. نعم، لا ينبغي عليَّ الشك بالحرية، بل ينبغي عليَّ حبها بدون تحفظات بدون شروط وحدود وأسئلة. نعم، السُلطة هي عدونا، السُلطة هي سبب بؤسنا. والسؤال هنا: لماذا يريد البعض السُلطة والحرية في آن واحد؟ لماذا يريدون الجمع بين

النقيضين؟ لماذا قداسة الحرية لا تقف عائقًا أمام رغبات ومطالبات البعض بالسلطة؟ ألا يُقدِّس هؤلاء الحرية بالقدر الكافي؟ لا، ليس هذا هو السبب، فجميعنا نُقدِّس الحرية بنفس القدر، هذا شيء نُقدِم عليه بالفطرة، ولهذا هناك سبب أجهله. هل سننال الحرية حقًا، أم أنه لن تتاح لنا سوى المطاردة؟ هل جهودنا هذه ستتيح يومًا ما لنا الوصول إليها؟ لماذا أسأل مثل هذه الأسئلة يا صديقي؟! هذه الأسئلة لا ينبغي لثائر طرحها، فكيف أدَّعي بأنني ثائر؟ هل أنا يائس؟ أخاف أن أكون كذلك يا صديقي، فأنا بذلك سأتسبب للثورة بضرر كبير. يا إلهي كم هم محظوظون أولئك الرفاق الذي أشغلهم حماسهم المفرط عن بؤس هذه الأسئلة والتساؤلات. هل نحن الثوار حقًا، أم هم؟

يا صديقي لم أعرف قلقًا كالذي عرفته هذا الصباح في تلك اللحظات التي كنتُ أنتظر فيها موعد انطلاقنا. كنتُ أذرع الغرفة طولًا وعرضًا لا أُحسن الاستقرار في بُقعة، أقف بين الفينة والأخرى بجوار النافذة أتابع الشارع من خلف الستارة مخافة وجود جواسيس يحاولون ترصد لحظة خروجنا، أعود لأنظر للساعة كلما رفعتُ عينيَّ عنها محاولًا دفع عقاربها الكسولة للإسراع لتخليصي من هذا العذاب. لقد أمسكتُ في ساعات الانتظار تلك بكتب كثيرة، فكنتُ كلما أمسكتُ بكتاب وقرأتُ بضع سطور من صفحاته، رجعتُ لألقيه من يدي لعدم جذبي كفاية وإشغالي عن ذلك القلق، لأمسك بغيره الذي كان أيضًا عاجزًا، لتتكرر محاولاتي هذه مع كثير من الكتب. لم أكن أقترب من كتب الفلسفة، فأنا أدرك ما تتطلبه من هدوء وراحة للدخول فيها، ولهذا كنتُ أستعين بالروايات وبعد الفشل انتقلت لأستعين بدواوين الشعر، ثم بمجموعات القصص القصيرة لقدرتها على التكثيف والإيجاز وإدخال القارئ بها بسرعة، ولكن هي أيضًا عجزت عن إشغالي عن معاناتي. وقفتُ مرات عديدة أمام المرآة وأخذتُ أردد "أنا قوي"، ولكن صورتي في المرآة كانت تصرخ بوجهي قائلة: أنت كاذب، أنت ضعيف، أنت هش، بإمكان أضعف نسمات الهواء اقتلاعك من جذورك، هذا في حال كان لك جذور، بإمكان الجميع إسقاطك بضربة واحدة. نعم يا صديقي لقد كانت صورتي مُستفزة لأبعد الحدود، فابتعدتُ عن المرآة التي استحالت عدو لي في تلك اللحظات الحرجة بعدما عهدتها حليفة، ابتعدتُ عنها بنية الرجوع حين تتغلب على الشيطان الذي فرَّق بيننا، وأغواها بخيانتي أنا الذي لطالما كنتُ حليفًا لها. لقد كنتُ عاجز عن التنفس، أتصبب عرقًا، نيران في عينيَّ، كل شيء مُضطرب أمامي. لقد فقدتُ السيطرة كليًا على جسدي جراء ذلك القلق، وتكبل عقلي بقيود أفقدته القدرة على التلميح بفكرة قد تُعيدُني وتسترجعني من ذلك الضياع، وكذلك كان حال خيالي الذي كان عاجز عن رسم مستقبل

هادئ فيه نهايات سعيدة تطفئ قلقي وتبعثر خوفي. حاولتُ البحث عن الله ولكن لم يكن هناك إله، فأخذتُ أبحث عن الشيطان ولكن أيضًا لم يكن هناك شيطان، كان هناك فقط قلقي وخوفي. نظرتُ باحثًا عن السماء من نافذتي ولكنني لم أجدها، فلقد كانت مُحتجبة بالغيوم، فأيقنتُ أنَّ تلك مؤامرة لاغتيالي، خيانة للإطاحة لي. كنتُ أتساءل: أين هم حلفائي الذين لطالما كنتُ ألجأ إليهم وأجد لديهم المساعدة والعون؟ مالي لا أجدهم اليوم؟ أتراهم اختاروا عداوتي، أتراهم استغنوا عني بعدما وجدوني غير مُستحِق لصداقتهم، أتراهم يئسوا مني فقرروا التخلي عني؟ الكتب والسماء والنوم و"أنا قوي"، في وقت واحد، نعم هذه مؤامرة. لقد رسم خيالي في ساعات الانتظار تلك كثير من السيناريوهات ذات النهايات البائسة، فكنتُ كلما فكرتُ في إحداها تركتها فزعًا، للتفكير في أخرى لعلي أجدها ألطف، لتفعل فيَّ الأخرى كما فعلت بي سابقتها. كنتُ أتساءل في تلك اللحظات قائلًا: أما من نهايات سعيدة في هذا العالم؟ أما من أمل على الأقل بنهايات سعيدة؟ لماذا فقط هي النهايات البائسة من تلاحقني؟ أتراها تريد تحذيري من خطر ما؟ أتراها تريد إعلامي بأنني أقوم بخطأ ما؟ أتراها تريد مني التراجع والكف عن بذل المحاولات؟ لم أكن أخاف من قبل عند تلقي دعوة من الاتحاد، فلماذا الآن أنا خائف قلق؟ هل أنا خائف عليها؟ غضبتُ مني جدًا يا صديقي، وأردتُ تحطيمي، ولكن كيف يتاح لي ذلك وأنا لا أجد شيء مني لتحطيمه، وأنا مُحطَّم بذلك القدر الذي لا يُبقي شيئًا ليتاح لي الفعل به، وأنا كرماد من كان كوكبًا قبل الاصطدام؟! رأيتُ صورتي في المرآة وأنا على ذلك الغضب بدون قصد، فلكمتها معتقدًا أنها أنا، فتحطمت وتناثرت شظايا على الأرض، فتراجعتُ وخفتُ مني، وبعد دقائق كنتُ فيها جالسًا أتابع حطام المرآة حزنت وندمت على فعلتي التي لم تكن فعلي بل فعل غضبي، فأخذت ألملم شظاياها محاولًا إعادتها إلى هيئتها السابقة ولكن دون جدوى. كانت الجروح قد انتشرت في يديَّ من تلك المحاولات فتدفقت الدماء بغزارة منهما، فأخذتُ أتابع هذا المشهد. يا إلهي كم بث في نفسي من خوف لونها الأحمر، وكم ارتعد جسدي من دفئها، وكم صدمني تدفقها. لقد اشتممت برائحتها رائحة الموت المُفزعة، ورأيتُ بلونها غضب الله، وأحسست بحرارتها نيران الجحيم المُستعرة، وسمعتُ بدبيب اصطدامها بالأرض صوت الفناء. لقد اضطرب عقلي من تلك المشاهد وارتعد قلبي من تلك الأحاسيس، فأخذت أتساءل بتعجب وخوف وحيرة: كيف يجرؤ البشر على قتل بعضهم؟ كيف بإمكانهم احتمال مشهد الدماء وهي تتدفق من الجسد والأنفاس تتباطأ شيئًا فشيئًا؟! كيف بإمكانهم احتمال النظرات المرتبكة في عيني القتيل العاجزة عن فهم ما يجري؟ كيف بإمكانهم احتمال أن يكونوا

آلهة؟ كيف بإمكانهم احتمال ذلك القرار الذي يُنهي وجود موجود؟ كيف بإمكانهم احتمال تساؤل عقولهم عن مواقع قتلاهم؟ يا إلهي كم هذا مخيف، فلماذا هو لهم ليس كذلك؟ نعم، هذه المشاهد هي لعنة على صاحبها.

قاطع تساؤلاتي تلك، طرق على باب غرفتي. نعم، كانت هي من أتت للاطمئنان عليَّ بعد تلك الجلبة. اضطربتُ، وأخذتُ أبحث عما سأفعله كطفل يبحث بذعر على الطريق عن قطعته النقدية ملتفتًا يمينًا ويسارًا، باحثًا عن حل هنا أو هناك. لقد وجدتُ الرد من خلف الباب بدون فتحه وقاحة وتعبير عن قلة احترام، فاضطربتُ أكثر بعدما تبين لي أنني مضطر لفتح الباب والتحدث إليها. كنتُ أتساءل: كيف سيكون موقفي أمامها بعد تعرُّفها على ما جرى؟ كيف ستنظر إليّ بعد مشاهدتها لما أنا عليه؟ كيف سيتاح لي إيقافها عن الحكم؟ كيف ستطمئن على أمن مسارنا وأنا بذلك الحال الذي ستراني عليه؟ كيف ستثق بي؟ ما هو المبرر الذي سيتيح لي تعطيل حكمها؟ كيف أتفادي تعاطفها؟ نعم يا صديقي، لا أريد أن يتعاطف معي أحد.

لم يكن متاح لي الوقت للبحث عن إجابة لتلك التساؤلات وحل لتلك المخاوف، فالتقطتُ شالًا ولففته على يدي، وتركت اليد الأخرى التي قررت إخفائها خلفي مكشوفة، وفتحت الباب.

لاحظتُ بسرعة ولكن بصعوبة من لحظة فتح الباب ووقوع بصرها عليّ تعابير الصدمة على وجهها الذي جماله يُخفي تعابيره، فأدركتُ أنَّ جسدي كله كان يُعبر عما أنا فيه، ثم انتبهتُ إلى أنني نسيت تغيير ملابسي الملطخة بالدماء، فسارعت للقول قبل أن تحكم عليَّ: "لقد كان حادث غير مقصود، أعتذر لإزعاجكِ."، وأعتقد أنها بنباهتها أدركتْ أنني بإسراعي للإنكار قد كذبت، فاستعلمتْ عن مكان حقيبة الإسعافات الأولية بدون أن تسأل عما جرى، وبعدما أحضرتها طلبتْ مني الجلوس على إحدى المقاعد في المطبخ وكشف يدي التي قمتُ بتغطيتها، ثم أخذت تخرج شظايا الزجاج العالقة في يديَّ.

كنتُ في تلك اللحظات أشعر بدونية وسذاجة وحمق لم أشعر بهم في حياتي، لقد كنتُ صغير جدًا جدًا جدًا، أمامها هي الكبيرة جدًا جدًا جدًا. كنتُ أقول محدثًا إياه بدون نطق وهي تجتهد بإخراج شظايا الزجاج: هيا قوليها، هيا انعتيني بالأحمق الساذج الغبي، هيا وبخيني، هيا اغضبي مني، هيا احتقريني، هيا قولي بأن الثورة تخجل بانتساب من هم مثلك إليها، هيا قولي بأنني لست بثائر وإنما مُدَّعِي، هيا قولي بأنني عبء عليكِ، هيا اعترفي بأنه أخطأ بإرسالك للمكوث عندي، هيا ارمقيني على الأقل بنظرات الاستحقار.

ولكنها يا صديقي لم تفعل، وهذا عظَّم عذابي، وزاد من شعوري بالدونية وشعوري بعظمتها. نعم، لم أكن أشعر آن ذاك بالألم المتسببة به تلك الجروح، بل بألم سهام نظراتها المُحقِّرة والمُوبِّخة التي كان ينبغي أن تقذفني بها ولم تفعل. أتراها كانت لا تريد تكليف نفسها عناء تلك النظرات على من هم مثلي، أم أنها كانت تتعاطف معي وتشعر بالحزن عليّ؟ في الحالين هذا مؤلم، مؤذي لي أشد إيذاء، متسبب لي بأكبر ضرر. نعم، لم تقل شيئًا طوال تلك اللحظات وهذا آذاني أكثر. كنتُ أريد منها سؤالي لأكذب، كنتُ أريد منها توبيخي لأدافع، كنتُ أريد تخطِئتي لأبرر، كنتُ أريد نُصحي لأشكر.

بعدما انتهت من إخراج جميع الشظايا، وتعقيم جروحي ولفها بالشاش، أخبرتها بدون أن تسأل أنني أتابع معك حالتي كونك طبيبي النفسي وصديقي، كأنني وددتُ بذلك إعلامها بأنني مريض، وبأنني بحاجة للعلاج، وأنَّ ما حدث كان نتيجة المرض الذي يفتك بي، لا نتيجة سذاجة وحمق، ولكنني ندمتُ على ذلك، فلقد شعرتُ بأنني أدعوها للتعاطف معي ولاحتمالي، فسارعتُ للتأكيد بأنني سأكون أفضل حالًا قريبًا، واعتذرتُ منها على ما جرى، وأكدتُ لها أنَّه لن يتكرر.

جلستْ مقابلي على طرف الطاولة الآخر بعدما أرجعتْ الحقيبة الطبّية إلى مكانها، وقالت بعد صمت طويل بأنني بحاجة إلى المتابعة مع طبيب بإمكاني الالتقاء به والتواصل معه باستمرار بعدما أكَّدتْ على مهارتك لكي لا تجرحني بجرحك، فرددتُ عليها بأنك الوحيد الذي تصلح بأن تكون طبيبي بعدما عددتُ مزاياك، وبعدما أكدتُ لها بأنك الوحيد الذي بإمكاني التداعي أمامه بحرية، والذي بإمكاني الثقة به في الحديث عن الرفاق وعن نشاطنا السري، فعادت لتؤكد أنها تدرك ذلك وبأنها تقصد المتابعة مع آخر في الأحداث اليومية غير مُدركة أنني أيضًا أتابعها معك، فأعلمتها بأنني سأفكر في الموضوع، وذلك لم أكن صادقًا فيه ويبدو أنها أدركتْ ذلك فلم تُلح كعادتها، تلقي مقترحها بدون إلحاح، ثم نهضتْ وطلبتْ مني بعدما نظرتْ للساعة الذهاب والاستعداد للخروج، مُشيرة أنه ينبغي علينا التحرك لكي لا نتأخر، ثم انصرفتْ إلى غرفتها لتهيئ نفسها للخروج.

لماذا بحتُ لها بمرضي وأنا الذي لم أبح به لأحد من قبل؟ لماذا وددت البكاء أمامها وكدتُ أفعل ذلك؟ لماذا أردت منها العطف؟ نعم، لقد أردتُ ذلك، لن أخدع نفسي بإنكار ذلك بعد الآن. لماذا شعرتُ بالراحة والرضى والطمأنينة عند ملامسة يداها يديَّ لتطبيبهما؟ لماذا كان لدي الشعور ونقيضه لأول مرة أمام امرأة؟ هل أذيتُ نفسي مُتعمدًا لكي أقترب منها؟ هل حطمتُ المرآة

لأنني أصبحتُ أطالب بصورتها فقط؟ هل أنا مُتأثِّر إلى هذا الحد بجمالها؟ هل أنا واقع في حبها؟ بدأتُ أشك في ذلك يا صديقي، نعم لن أنكر، لن أدَّعي أنني أعلم بعد الآن. أنت السبب يا صديقي لو حدث ذلك، أنت من جعلتها قريبة مني إلى ذلك الحد وتركتني بدون مسافة بيننا لأراوغ فيها. ها هي دقات قلبي تضطرب وأنا اكتب لك. أنا خائف يا صديقي، فهذا دليل صعب إنكاره والدفاع ضده.

بعدما انتهينا من التجهز، أخذنا بمراجعة المسار الذي ينبغي علينا أن نسلكه، وكان من الصعب حفظه فرسمته على كف يدي بعدما خفت نسيانه في ظروف غير اعتيادية، ثم خرجنا وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشر.

سِرْنَا ما يقارب المئة متر، ثم استقلينا سيارة أجرة حددنا لسائقها وجهتنا قبل ركوبها بناءً على طلبه بعدما عبر لنا عن تخوفه ورفضه التوجه لمناطق الاضطرابات مخافة على حياته وعمله.

في أثناء الطريق تم توقيفنا على العديد من الحواجز طلبًا للمعلومات المُعتادة، كان السائق يتأفف من تلك التوقفات ولكن بدون شتائم وسباب كبقية السائقين، فلقد بان من معالم وجهه المختفية بتنفخه ومن التورمات على جسده أنه خضع لجلسة تعذيب ألزمته الصمت وعدم التذمر، بعدما كان ضحية مُخبِر لا رحمة في قلبه.

ترجَّلنا من السيارة بعد وصولها إلى وجهتنا التي كانت نقطة البداية للمسار الذي سنسلكه، ثم أخذنا نسير ملتزمين بالمسار المُحدد لنا بعدما تبينا التزامنا بالموعد المحدد لنا للبدء.

كان كالعادة يا صديقي، هناك من يراقب تحركاتنا من خلفنا، يتتبعنا من بعيد بحذر. كان هذا الشخص قد تم تعيينه لهذه المهمة من قبل الهيئة التنظيمية لضمان عدم خضوعنا للمراقبة، وكان قد منحنا إشارة منذ بداية مسارنا تدلل على كونه أحد الرفاق لكي يتفادى ارباكنا ويتجنب شكنا بأمره الذي سيكون سبب لعدم المواصلة في مسارنا. لقد كان وجوده خلفنا مطمئنًا، يجعلنا أقل توترًا، فبإشارة منه كنا سندرك أننا قد نكون خاضعين للمراقبة وعليه علينا التراجع والعودة.

كان المسار يُبعدنا عن وجهتنا النهائية في أحيان ويُقرّبنا منها في أحيان أخرى لضمان سلامتنا وعدم خضوعنا للمراقبة، ولهذا مررنا على حواجز عديدة كان معظم الضباط المسؤولين عليها يضعون أكفهم على قلوبهم كلما

رأوْنا، فهذه كانت إشارة توحي بانتمائهم للاتحاد وتدلل على عضويتهم فيه وبالتالي إشارة تُفيد بأنه لا داعي للخوف. نعم يا صديقي، لطالما عملت الهيئة التنظيمية بجد على اختراق الأجهزة الأمنية وتوظيف عناصرها لخدمة الاتحاد.

بعد ما يقارب النصف ساعة من المسير في مسارنا، وصلنا إلى وجهتنا. كانت المنازل في ذلك الحي البرجوازي متباعدة عن بعضها، تفصل بينها الأراضي والحدائق المُحيطة بكل بناء، وكانت هذه المنازل في معظمها تصاميمها تخلط بين ما هو كلاسيكي وحديث، فكان مظهرها الخارجي شديد الإبهار، نعم لقد كانت نتيجة استدعاء لفن الشرق والغرب، لفن الحاضر والماضي، لفن البشر وغيرهم من المخلوقات. كانت الشوارع في ذلك الحي مُتأنقة أعجب تأنق، حتى الأسوار غير المرتفعة فيها تبوح رسوماتها ونحوتها برسائل مُعبّرة جميلة. نعم، لقد كان كل شيء في ذلك الحي مثير للإعجاب بجديده ومظهره، إلا السماء فيه كانت جميلة كما هي من جميع الأحياء. نعم، لقد كان المسير في ذلك الحي بما ينثره من جمال في عيون المارَّة يبث في النفوس سعادة وراحة تُشغل عن مشاعر القلق والخوف، فكنا أقل اضطربًا ونحن نسير معًا فيه، وذلك أيضًا لعدم اضطرارنا للتوقف والإدلاء بالمعلومات لخلوه من الحواجز للنفوذ المالي والسياسي والإعلامي للقاطنين فيه.

دخلنا الفيلة بعد التعريف برقم عضويتنا في الاتحاد، وما أن دفعنا بوابة قاعة الاجتماعات ودخلنا وسرنا بضع خطوات، حتى التف حولي مجموعة من الرفاق المرحبين بعودتي بعد انقطاع والمستفسرين عن سبب تغيبي عن المؤتمر السابق للاتحاد وبعض اجتماعات الحزب، والفرحين بزيف الأخبار التي تم تداولها والتي تفيد بوقوعي في الأسر.

بعد العناق والترحاب والاستفسار قام أحد الرفاق بالاعتذار من الأنسة هيا على انشغالهم عن التعرف عليها وتقديم أنفسهم لها معللًا ذلك بحماسهم وشوقهم للقائي، ثم طَلب مني أحد الرفاق تقديمها إليهم بعدما اعتقد أنها خطيبتي، وما أنْ هممتُ لأقدمها برقمها لهم، حتى وقف خلفي الرفيق رقم 17 رابتًا على كتفي ومقدمًا يده الأخرى للمصافحة، فالتفتُ إليه وصافحته وعبرتُ له عن سعادتي باستئناف الحضور، وعبر هو لي بدوره عن سعادته بعودتي، ثم توجَّه للأنسة هيا ومد يده لمصافحتها ثم أخذ يُعرّفها برقمها على الرفاق، مؤكدًا حيازتها اسم لامع على مستوى النشاط الادبي والفكري والثوري، ثم اصطحبها إلى ركن آخر لإكمال تعريفها على رفاق حزبه

ومختلف الأحزاب، مفاخرًا بأنه هو من دعاها للانضمام، ومُشيدًا بتاريخها الثوري وسمعتها الأدبية والفكرية وذلك بالتأكيد بدون الكشف عن هويتها.

اقتادني بعد ذلك مجموعة من الرفاق والرفيقات الذين كان بيني وبينهم صداقة قديمة، وأخذوا بعدما كانوا مبهورين بجمالها وبعدما حسبوا أنها خطيبتي، بالاستفسار عنها والسؤال عن علاقتي بها وكيفية تعرفي والرفيق رقم 17 عليها، وغيرها من الأسئلة، فأخذتُ أجيبهم بعدما زاد إلحاحهم وأخذت أبدد شكوكهم وظنونهم التي أخذوا استفزازي بها ممازحين، ثم أخذوا بالاعتذار مني على عدم الاطمئنان عليَّ وزيارتي مُعللين ذلك بالأخبار التي انتشرت حولي ومن تخوفهم من احتمال خضوعي للمراقبة، ثم أخذوا بالاستعلام عن الحزب الذي ستنظم إليه بعدما تخوفوا من وقوفها طويلًا مع الرفيق رقم 17، وبعدما أنكرتُ معرفتي بذلك أخذوا باطلاعي على مخرجات المؤتمر السابق ومخرجات اجتماعات الحزب التي تغيَّبتُ عنها، وباطلاعي على أهم الأحداث التي جرت في الآونة الأخيرة، وعلى أهم ما تم التوافق والخلاف عليه، وعلى أهم القرارات والتعليمات التي أُعتمدت.

بينما كانوا يتحدَّثون إليَّ لم يكن معهم سوى بعضي الذي كان يحاول التغطية على شرودي. كنتُ أحاول النظر بين الفينة والأخرى إلى الرفيق رقم 17، بحذر مخافة انتباهه وانتباههم لنظراتي.

لقد وجدته يا صديقي مُخيفًا بوقوفه بجانبها، لا يمكن إيقافه، لا يمكن التغلب عليه، وجدتُه بإمكانه إسقاط خصومه واحدًا تلو الآخر بسهولة. نعم، لقد منحتْه شيئًا مميزًا بوقوفها معه. ماذا لو كانت ستسانده، ماذا لو قُدر له دعمها؟ نعم، حينها ستكون الخسارة حتمية، حينها لن يمكننا مجابهته، حينها سيكون علينا الاستسلام.

لقد شعرتُ أنها ازدادت جمالًا بين الحشود، شعرتُ بجاذبية كبيرة لها، فكنتُ راغبًا بالاستمرار بمتابعتها، راغبًا بعدم إزاغة بصري عنها ولو لثواني، فكدتُ أفشل في التغطية على اهتمامي بها وإخفاء شرودي.

كانت واقفة بين الرفاق والرفيقات بثبات تتحدث إليهم كأنها تفعل ذلك للمرة الألف. تساءلت بتعجب عن مصدر هذه القوة التي تحوزها، وعن مصدر هذه الثقة التي لديها، مُحتقرًا نفسي في كل مرة ادعيتُ فيها حيازة القوة. نعم يا صديقي، لقد علمتُ بها أنني لم أكن قويًا أبدًا من قبل، علمتُ أنني كنتُ مُدعيًا، مُخادعًا، مُضللًا نفسي. أدركتُ برؤيتها معنى كل من القوة والضعف، فأصبحتُ قادر على التمييز، أصبحتُ قادر على القول: "أنا

ضعيف"، بالرغم من انزعاجي وغضبي من ذلك. لماذا حلَّ الله فيها في تلك اللحظات التي كنتُ أنظر فيها إليها؟ هل كانت لله رسائل إليّ؟ لا، لا، كيف يلتفتُ الله لي أنا الحقير؟! ظهورها ذاك كان يُراد به إعلان شيء ما، فماذا كان هذا المُعلَن؟ هل كان ظهورها يُراد به إعلان بدء الثورة أم موتها أم شيء آخر؟ هل البعُد هو سبب عدم وضوح الرؤية أم هو القرب المبالغ فيه؟ هناك مُخطط مجهول يُريد القدر أن يكشف عنه بظهورها؟ لهذا أنا غير مُلام على كل هذا الفضول. نعم، ظهورها ذاك جعل النهايات غامضة، غير متوقعة، مجهولة باستمرار، لا سبيل لتنبئها.

لاحظتُ شيء من التوتر على الرفيق رقم 17، لاحظتُ أنَّ نظراته نظرات افتتان، فهل هو واقع في حبها، أم أنَّ جمالها له سلطة على الجميع، قادر على إرباك الكل. تعابير وجهه كانت توحي بأنه معجب بشدة على الرغم من محاولاته إخفاء ذلك بحماسه المعهود وحيويته الفوضوية. لو كان واقع في حبها حقًّا ورفضتْ مبادلته الحب سيكون وحشًا خطيرًا يفترس بالثورة، نعم لن يرحم أحد، لن يتساهل مع أحد، سينتقم من الجميع، ولكن لو بادلته الحب سيكون بإمكانها تغييره وتشكيله كما تريد، سيكون بإمكانها ترويضه وتهذيب حماسه، سيكون بإمكانها ملئ كل ذلك الفراغ الذي فيه. ما هو السيناريو الذي تخبئه الأيام لنا؟ كيف ستكون الثورة؟ أستقودها وتوجهها الأحقاد ومشاعر العداوة والمصالح الشخصية والحزبية أم ستقودها المهنية والموضوعية والنزاهة والعدالة والتنوير؟ نعم يا صديقي، لربما نحن لسنا مستعدين بعد للثورة، لربما نحن الآن نُشكِّل خطرًا عليها وبها، لربما علينا التراجع والعمل أكثر لتتاح لنا فرصة أخرى للتغيير والتنوير، لربما علينا التراجع لكي لا يكون فشلنا سبب في تراجع المد الثوري، وسبب في تشوه تصورات الشعوب عن الثورة. هل أنا خائف لأننا اقتربنا أكثر منها؟ لماذا أنا متوتر ومُضطرب إلى هذا الحد، هل لأنني غير جاهز بعد، أم لأنني جاهز، أم لأسباب أخرى؟ لطالما كنتُ أستشعر بُعد الثورة، فلماذا بظهور الأنسة هيا بدأتُ أستشعر قربها، بل بدأها؟

بعدما امتلأتْ القاعة وأُعلِن وصول الجميع، تفككت الحلقات التي شكَّلها الرفاق بوقوفهم مع بعضهم، وتوقفتْ تلك الأحاديث التي أثيرت وتم نقاش مواضيع مختلفة فيها، وتموضع الجميع كُلٌ في المكان المُخصص لحزبه، ثم أخذ الرفيق رقم 17 يُرحِّب بالرفاق جميعًا من على المنصة بصفته رئيسًا للاتحاد، ثم انتقل بعد ذلك للتذكير ببعض مخرجات المؤتمرات السابقة وبأبرز نقاط الخلاف التي تتطلب من الجميع السعي لحلها وبأبرز التوجهات التي ينبغي التفاوض عليها وينبغي تقريب وتوحيد المواقف حولها، ثم أخذ

بالتذكير ببعض التحديات التي تواجه الاتحاد، وبالتأكيد على ضرورة الإسراع في تبني برنامج للاتحاد متوافق عليه ونظام داخل عملي مُحكم خالي من العيوب، ثم انتقل لتسليط الضوء على الأحوال المعيشية للشعب، وعلى المشاكل التي تعصف بالناس، داعيًا الجميع لتحمل مسؤولياتهم، مُلمحًا بذلك إلى موقف حزبه الذي يدفع ويُشجع ويسعى لاستغلال السخط الجماهيري، وإعلان الثورة.

لقد كان مُتلألئ وحماسي كعادته بطريقة إلقائه لخطبته وبألفاظها الجزلة وبجملها الفصيحة وبحركات جسده المتناسقة مع ما تعبر عنه كلمات خطبته، وبأبيات الشعر التي كان يرددها بين الفينة والأخرى لإشعال الحماس في نفوس الرفاق.

لا أبالغ إذا قلتُ أنَّ الجميع يتأثر بتلك الافتتاحيات والخطب التي يُلقيها على مسامعنا، حتى أنا أتأثر بها، ولكن قلة يا صديقي من تعوُد لتفحُّص ذلك الحماس والنظر فيما إذا كان نافع أم ضار، وذلك بالأسئلة التي تحمل إجابات تولِّد الخوف والحذر. نعم أعترف، لفصاحته وحماسه وطريقة تعبيره جاذبية يعجز عن مقاومتها أشد العقلاء، لها تأثير ونفوذ إلى أكثر القلوب تحجرًا وأشد العقول بلادة.

لقد أتاح له الظهور الدائم على المنصة لافتتاح الجلسة، الترويج بشكل مباشر وأحيانًا غير مباشر لبعض أفكار وتوجهات حزبه، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الحزب الأحمر الأكثر جاذبية والحزب الأكبر من حيث عدد المنتسبين إليه. صحيح يا صديقي أنَّ حزبنا يتخلَّف عن حزبهم هنا ويأتي في المركز الثاني، ولكنه يتفوق في مؤشر الولاء لأفكاره والثبات عليها، والتمسك والعمل بها. نعم يا صديقي، حزبهم أسرع انتشارًا لأنه يستهدف الجماعة ويُهمِّش الفرد، أما حزبنا فيستهدف الفرد بدون أن يكون ذلك على حساب الجماعة، ولهذا تفوقهم ليس تفوق وتخلفنا ليس تخلُّف، ولهذا إذا لم تكن الثورة القادمة ثورتنا، حتمًا ثورتنا ستخلِف ثورتهم.

بعدما أنجز الرفيق رقم 17 كافة مهام منصبه الرئيسية، أخذ بمهمة تقديم الرفاق الجدد والترحيب بهم والتعريف بإنجازاتهم سواء كانت فكرية أم أدبية أم ثورية أم فنية أم علمية بدون أن يوصل ذلك أحد لمعرفة هوية الرفاق، وما إن انتهى حتى أخذ باستدعاء الرفيق الجديد رقم 54 إلى المنصة لإلقاء خطبته، التي كانت كالتالي:

"أيها الرفاق لطالما كنتُ أتساءل: أنحن من نطلب الثورة أم الثورة هي من تطلبنا؟، ولقد كنتُ وما زلتُ أجد متفاجئًا في كل مرة أنها هي من تطلبنا. نعم، لقد كانت جهودي غير كافية لدفعي لادعاء أنني أنا من أطلبها.

أيها الرفاق إنني أتعجب من أولئك الذين لا يزالون يعتقدون بأن الشعوب يُحرّكها وعيها، أليس هذا غباء؟! نعم أيها الرفاق، لا تتعجبوا، الشعوب دائمًا وأبدًا تُحرّكها حاجاتها ورغباتها المادية غير المُشبعة. الشعوب لا تُقدِم على ثوراتها بشعارات فيها مطالبة بالعدل والحرية، بل بشعارات فيها مطالبة بالخبز والدفء والعمل والمأوى. أيها الرفاق لتتحقق ثورتنا ينبغي علينا تعظيم مادية الشعوب. تكلموا طوال اليوم عن الحرية والعدالة والإخاء وستجدون من يستمع إليكم ولكن لن تجدوا من يتحرك معكم، تكلموا عن الخبز وساعات العمل والبطالة وستجدون من يستمع إليكم ولكن أيضًا ستجدون ذلك المستمِع مندفع معكم، يشارك في حراككم، يُعلن عدوكم عدوه وحليفكم حليفه، وحربكم حربه. نعم أيها الرفاق، المادية وحدها من تشعل فتيل الثورة.

أعلِم جارك بأنه سيتحصل على رغيفين من الثورة بدلًا من ذلك الرغيف الذي لا يسد جوعه، وستجده في الصفوف الأمامية، أعلمه بأن الحرية ستكون عائده من الثورة ولن تجده فقط غير مشارك بل سيطلب حينها منك أيضًا التوقف عن إزعاجه.

نحن البشر ماديون إلى أقصى الحدود، نحن أيها الرفاق بالمادة وحدها نتحرك ونتقدم. نعم أيها الرفاق، لن يكون بمقدوركم دفع الجميع للثورة ما لم تذكِّروهم باستمرار بالعائد المادي.

أخبروا الفلاح أنه سيجني عائد أكبر من محصوله، أخبروا العامل أنه سيجني عائدًا أكبر على ساعة عمله، أخبروا العاطل بأن العمل سيكون بانتظاره، وستجدونهم جميعًا في ثورتكم، يحملون شُعلتها ويهتفون بشعاراتها ويتقدمون صفوفها وينالون من خصومها.

نعم أيها الرفاق، آن الأوان لنعترف بدون خجل أنه بالمادة وحدها ينال الإنسان ثورته.

إذا لم أكن أنا وأنت وهو المجتمع، فمن يكون ذلك الذي تُسلب منا حقوقنا بداعي حمايته.

هناك صنف من البشر أيها الرفاق ينبغي عدم اختبار صبرهم، لأنهم بالكاد يتمكنون من كبح الحيوان الذي يقبع بداخلهم، وأعتقد أنني منهم. نعم، هناك وحش في داخلي يترقب، يتحين الفرصة للإفلات، لا سبيل وأمل بقتله أو نفيه إلى ركن بعيد، نعم هو قريب قرب الأشخاص المُستغلين لإنساني الذي أفضِّل التمسك به.

أعترف أمامكم أيها الرفاق بدون خجل، أنا لا أستطيع التفاوض بشكل مُتحضِّر وفي أحيان سلمي مع ذلك الذي يعتقد بأنَّ له الحق في الوقوف بوجه مسعاي في تحقيق ما أعتقد أنني خُلقتُ لأجله. وأنا أيها الرفاق، خُلقتُ لطلب الحياة الحيَّة، خُلقتُ للثورة، وجدتُ لأكون حرًا.

قرأتُ لروائية تقول على لسان أحد شخصيات روايتها: "أنا لستُ شاعر بالأسف على ردود أفعالي لأن الطبيعة لا تفعل ذلك، نعم لأن الطبيعة لا تشعر بالأسف من قانونها"، إذا نسيتم ذلك القانون أيها الرفاق دعوني أذكركم به: لكل فعل رد فعل. عليكم استيعاب ذلك وتقبله أيها الرفاق.

رائحة البارود أيها الرفاق تنتزع من أنوف المارَّة ما يتسلل إليها من رائحة الحياة، لتذكرهم باستمرار أنَّ الموت موجود ويلاحقهم أينما ذهبوا وارتحلوا. لقد سئمت من هذا الوضع أيها الرفاق، ولهذا أريد منكم ردًا بالمثل على ذلك.

هناك أحداث في هذا العالم أيها الرفاق لا يُطالبنا القدر ولا تُطالبنا الطبيعة إلا بالاستسلام لها والمشاركة فيها. نعم، العنف ينبغي أن يُجابه بالعنف. على المرء أن يُصدر ضجيجًا لكي يُسمع أيها الرفاق، فهل أنتم مستعدون لذلك، أأنتم مستعدون للتخلي عن هذه السلبية؟

لن تبدأ الثورة إلا ببدء الكفاح المُسلَّح، فالثورة ليست محض رسومات أو مقالات أو تعبير بتراث أو إضرابات أو هتافات. هذه اللباقة والوداعة واللطافة ينبغي أن تتوقف. العنف هو وسيلتنا للتغيير. ينبغي علينا الإطاحة بجميع تلك الطبقات التي تعيش على ظهر الطبقة الكادحة. هيا أيها الرفاق نُنشئ جيشنا الخاص لنُسقط به كل من يقف في وجه ثورتنا.

الحرية أيها الرفاق تُنتزع بقدر الطلب، والطلب يكون بقدر الثمن، والثمن يوضع بقدر تسلط الحاجب ومهابته، وبقدر خضوع المحجوب عنه وهمالته. أضرموا النيران أيها الرفاق بأجسادكم وأرواحكم، فالمُسترشد الضرير لديه حواس أخرى، نعم سيستشعر الدفء الصادر عن اشتعالكم. ما هي جدوى

حياتنا طالما لا تحتوي إلا على صرخات استنجاد نعجز عن تقديم المساعدة لمُطلقها، أو على الأقل إغلاق أذاننا لتفاديها وتجاهلها.

لقد قال معلمي لي ذات يوم: إذا كنتَ قادر على إسقاط خصمك بضربة وعدم السقوط بضربة، فأنت قادر على إسقاط خصمين. لقد تلقينا أيها الرفاق كثير من الضربات وما زلنا واقفين، ولهذا بإمكاننا إسقاط كثير من الخصوم، فهيا معًا نبدأ بإسقاطهم، وكفى تأجيلًا وإضاعة للوقت بالتخطيط. لا تدعوا المجد يُطيل الانتظار وإلا نفذ صبره وانصرف. إننا نستمطر لعنات التاريخ علينا بجبننا وتراخينا وترددنا.

أيها الرفاق، أن تتجرؤوا يعني أن تملكوا، وأن تحذروا يعني أن تضيعوا متعة ماسوف تملكوا،وأن تتقاعسوا وتجبنوا يعني أن تخسروا. فلندع قلوبنا أيها الرفاق تخترقها رصاصة البلادة، فلا ألم يثنيها ولا لذة تُلهيها.

أيها الرفاق، أولئك الأوغاد، فوق الطاولة يلعبون دور من بيده زمام الأمور أمام من لا يخشون منه فعلًا ولا يأملون منه كسبًا، وتحت الطاولة يلعبون دور المُستضعف الذي لا حول له ولا قوة، دور المظلوم أمام من ينتظرون منه كسبًا ونفعًا ويخشون منه فقدًا، فماذا لو سحبنا الطاولة من أمامهم، باعتقادكم أي دور سيتقمصون؟! دعونا أيها الرفاق نُسقطهم جميعًا، دعونا نستهدفهم في حصونهم التي لطالما خدعونا بأنها مُحصَّنة جيدًا، بأننا ليس بمقدورنا اختراقها واستهدافهم، دعونا نفعل أيها الرفاق، فقلم التاريخ يستعد لتسطير خطواتنا وتضحياتنا للأجيال القادمة.

فلتستعد السماء أيها الرفاق لتتزين بنجوم ثورتنا العالمية، فلتستعد تلك الظلمة التي لم يحالفها شعاع لشعاع ثورتنا، فليستعد الآن لدخول جنته ذلك الذي حلم بها بعد الموت.

فلتحيا ثورتنا العالمية الأبدية."

وما إن انتهى يا صديقي،حتى حظِيَ بتصفيق حار قلَّما تجد نظيره، وهتافات مديح مبهرة، كتلك التي كانت تتكرر كثيرًا عند انتهائه من كل جملة من خطبته.

لقد أشعلتْ خطبته الحماس في نفوس الثوار، حتى أنا تأثرتُ وشعرتُ بالحماس بها. يا لها من خطبة!

يا إلهي ما أخطرها هذه الخطب على الثورة والثوار. إنَّ لها أثر يُسهم بتغييب العقل تمامًا، يُسهم بالاندفاع بدون حساب للعواقب. لقد طرح فكرة إنشاء جيش للاتحاد وهذا ما كنت على الدوام متخوف منه. يا إلهي كم هي الخسائر التي سنتكبدها في حال تم تحصيل أغلبية لهذه الفكرة.

بعد إعلان انضمامه للحزب الأحمر، رأيتُ الخوف في عيون الرفاق من الأحزاب الأخرى، نعم لقد كانت ثورية هذا الرفيق خطر على جانبية الأحزاب الأخرى.

كان لا بد أن ينطفئ ذلك الحماس الذي أشعله ذلك الرفيق، لضمان عدم خروج المؤتمر بقرارات يتبناها ويدعو إليها الحزب الأحمر، لضمان عدم المُصادقة عليها بأغلبية ساحقة لا تنفع معها معارضة حزبنا مهما قدَّمت من حجج وبراهين.

بعدما انهال الرفيق رقم 17 على الرفيق رقم 54 بالمديح على خطبته ومقترحاته التي وافقت هواه وتوجهاته، أخذ بتقديم الأنسة هيا ثم استدعاها للمنصة لإلقاء خطبتها التي كانت كالتالي:

" بعدما ملأنا الرفيق رقم 54 حماسًا بخطبته، نجد أنفسنا مطالبين بالتساؤل: هل الحماس كافي؟

لطالما اعتقدتُ أيها الرفاق أنه لا ينبغي للحماس أن يمنعنا من التزود بإجابات عن أسئلة تزيد من حذرنا وترفع من جهوزيتنا الثورية، وبأنه لا ينبغي للأسئلة أن تقلل من حماسنا الذي به نخترق حصون السلطة. نعم، يمكن توصيف الأسئلة على أنها دفاعية والحماس على أنه هجومي، ولهذا نقول بأنه لا ينبغي أن نهمل السؤال ولا نبعثر الحماس لكي لا نضر بالدفاع والهجوم. هذه إحدى الدروس التي يُعلمنا إياها الشطرنج.

أيها الرفاق غالبًا ما يكون تحفيز الانفعالات مساهمًا في إعاقة تعبيد طريق للأفكار، ولهذا نحن بحاجة إلى تقليل اعتمادنا على هذا الأسلوب. أيها الرفاق هناك من يدرس اهتماماتنا وانفعالاتنا وما يُثيرنا ويؤثر فينا، نعم هناك من يدرس ما يزعجنا وما يفرحنا وما يغضبنا وما يحزننا، ولهذا علينا الحذر من التفاعل مع كثير من الأحداث حولنا. إنهم يحاولون التحكم بقدرتنا نحن خصومهم لكي تتاح لهم قدرة على فعل ما يشاؤون بنا. نعم، ينبغي علينا الحذر أيها الرفاق من الشعور الذي يحاول عدونا إلباسنا إياه، سواء كان ذلك الشعور هو النصر أم الهزيمة، فبالأول يُراد الإبقاء على هزيمتنا غير

المُستشعَرة، وبالثاني يراد المحافظة على غضبنا الذي تسهل به توقع ردود أفعالنا وخطواتنا التالية. إنَّ عدونا يحاول تركنا لغضب يلتهم بشراهة وشراسة ما في عقولنا من تعقُّل، لغضب يفتك بقيود لطالما سهر إنساننا على صنعها لنا. أيها الرفاق لا ينبغي علينا خوض حرب يُحدد عدونا لنا توقيتها. يا إلهي كم كلفنا الانفعال من خسارة عندما قرر أن يخلق لنا أهداف.

العالم أيها الرفاق لم يعد يحتمل مزيد من الحماقات الجماعية والفردية، ولهذا علينا أن نكون أكثر اتزانًا في عصرنا المضطرب هذا. ما أحاول إيصاله أيها الرفاق أننا لسنا جاهزين بعد، وأنَّ هناك كثير مما ينقصنا، وأنَّ هناك محاولات يُراد منها إشعارنا بأننا جاهزون لكي يتم اصطيادنا.

عملية نيل الحرية هي عملية لا يمكن أن تتم من خلال تحول أيديولوجي فحسب، أو من خلال ثورة انفعالية عاطفية، وإنما هي عملية تكون نتيجة تحولات عديدة متنوعة تتراكم فيها الخبرة، وتتنوع فيها الوسيلة، ويتوحد فيها الهدف، وتصبح فيها النفوس أشد جَلَدًا على تحمُّل تبعات هذه التحولات، ولهذا لا ينبغي أن يكون المسير وسيلة وإنما غاية بحد ذاتها.

بؤسنا أيها الرفاق ليس المتسبب به وجود خصم قوي، بل اعتقادنا بأن خصمنا يحوز قوة تلزمنا بعدم بذل محاولات في مجابهته لانعدام الجدوى، وفي أحيان أكثر التخلي عن وسائل دفاعنا الشرعية في مجابهته للاستعانة بوسائل غير شرعية.

أيها الرفاق، في كثير من الأحيان ما يتم إشغال الناس في البحث عن كيفية إشباع حاجاتهم لإسقاط مطالبهم في قضاياهم المُقدَّسة، ولهذا ينبغي علينا أن ندرك أن تحفيزهم على الثورة بوعود الإشباع هو استمرار بإشغالهم عن تلك القضايا المقدسة، هو استمرار بخداعهم مهما كان مُطلق تلك الوعود صادق.

أيها الرفاق، إنَّ مادية الثورة تجعل الشعوب ضحية وعاجزة عن قراءة المشهد بمعزل عن أي استقطاب سياسي أو أيديولوجي أو اقتصادي، إلخ.

أيها الرفاق، إذا كانت هناك لحظة مادية للثورة، فبالضرورة سيكون هناك لحظة مادية للثورة المُضادة والهيمنة، ولهذا من الخطأ الإشارة للحظة المادية للثورة كلحظة مُشكِّلة للذوات ومنتزعة للحقوق ومُوجِدة للتغيير.

ستستمر ثورات الخبز في الظهور، وللأسف ستستمر بالفشل في انتزاع المطلوب، وفي ذات الوقت لن تتوقف إلا في حال بدأت ثورة الأنوار. ولهذا

نرى أنَّ الميل لهذا أو ذاك في الثورات المادية هو ميل خاسر ولن يُجدي إلا في تعظيم الخسارة.

نحن بحاجة إلى نقابات واتحادات عمالية هدفها وعي الجماهير. نحن بحاجة إلى من يقف مخاطبًا الجماهير، قائلًا: لا تقدِّسوا أحد حتى لا يتهمكم أحد بالتقصير بالعبادة، ولا ترفعوا أحد حتى لا تخونكم قوة عضلاتكم فيسقط على رؤوسكم مُحطمًا إياها، ولا تنتموا لأحد حتى لا يتهمكم أحد بالخيانة. للأسف، لا يزال إحساس الفرد بقومه وحزبه ووطنه أشد وأبعث للعاطفة من إحساسه بإنسانه.

أيها الرفاق يجب أن ننفث في عقولنا الحياة لكي تنفث في حياتنا الحياة. أيها الرفاق، لا مستقبل بلا معارضة، ولا معارضة بلا وعي، ولا وعي بدون مطالعة. فلنشجّع الشعوب على المطالعة، دعونا نؤكد لهم أنها الحل لمشكلاتهم. الشعوب ليست بحاجة لذلك الذي يضع الزيت في مصابيحها لتتمكن من قراءة واقعها، بل بحاجة لذلك الذي يُعلِّمها ذلك حتى لا تكون التبعية والارتهان. إن انعتقوا من العبودية يفقدون آخر عيوبهم لا آخر مزاياهم كما حاول نيتشه أن يصوِّر.

أيها الرفاق التربية لا تكون بالترويض بل بالتنوير، فدعونا لا نؤجل مهمة التنوير بحجة أنَّ الوقت غير مناسب، لأن الحقيقة تقول أنَّ الوقت مناسب دائمًا لهذه المهمة. أيها الرفاق نحن بحاجة لتأييد العقول لا القلوب، فالعقول من طبعها الثبات أما القلوب من طبعها التقلب والتبدل. أيها الرفاق اليأس لا يتمثل بفقدان الأمل في انفلاق البذرة لتخرج نبتة ملوّحة لشعاع الشمس، وإنما يتمثل في التوقف عن نثر البذور.

كون البعض أيها الرفاق يُجيد استمالة الجماهير لا يلزم ذلك أن تكون الحقيقة مُتضمنة لما يحاولوا استمالة الناس إليه، ولهذا نحن بحاجة لفن الإقناع.

في الثورات تمثل النظرية الموسيقى ويمثل التطبيق الرقص، فإذا كان الرقص بلا موسيقى كانت الفوضى. نعم أيها الرفاق، نحن بحاجة إلى أن نُحسن شد أوتارنا وخلق أنغامنا حتى نُحسن خلق رقصاتنا.

سمعنا كثيرًا أنَّ على المرء أن يُصدر ضجة لكي يُسمع، ولكننا قليلًا ما نسمع أنَّ عليه أن يعزف الموسيقى لكي يُسمع. أيها الرفاق، عندما يفقد الهادمون الإبداع في هدمهم، لا يتركون مجالًا للبنائين للإبداع في بنائهم.

أيها الرفاق، نجد البعض يقولون أنَّ الشعوب ليست ناضجة بعد للحرية، غافلين بذلك عن الحقيقة التي مفادها أنَّ الحرية هي التي تُقدِّم النضوج للشعوب لا العكس.

أيها الرفاق إذا ضاقت الأرض بالإنسان فإنها بحريته تتسع، وإذا لم تتسع، فإن الإنسان بها سيكون قادر على الوقوف في وجه الثقوب السوداء الآخذة بابتلاع كونه. نعم أيها الرفاق، الحرية تجعل من أشد الأماكن قسوة مضيافة ومعطاءة، فتلك الصحاري الفقيرة ستكون غنية في حال نال الإنسان حريته، وتلك النجوم الزائدة ستكون موطئ قدم له فهو سيكون بمقدوره بحريته إطفائها. يا إلهي ما أعظمها تلك القدرة التي تمنحها الحرية للإنسان!

هوية المجتمعات أيها الرفاق تبرز في ظل أجواء من الحرية، لأنَّ خيار التمسك بها والحفاظ عليها يكون شخصي، والخيار الشخصي فيه حماس وفعالية وجهد وصدق وفخر أكبر، ولهذا دعونا نحارب من أجل الحرية وذلك من خلال الحفاظ على التنوع.

هل ينبغي أن يكون العنف خيار كرد فعل على العنف الذي نُجابه به؟ لا، لا ينبغي أن يكون ذلك. في حال عاملناهم بما يستحقون، فإننا لن نكون قادرين على أن نكون نحن، بل إننا سنكون هم، سنكون أولئك الذي انتقدناهم وغضبنا منهم وثورنا عليهم، سنكون أولئك الذين لم يعجبنا أسلوبهم. نعم، إننا عاجزون، لأننا نعتقد أنَّ العنف هو الوسيلة الوحيد المتاحة للتغيير، لأننا لم نبذل جهودًا أكبر، ولأننا ربما لم نرضَ بما نحن عليه وقبلنا لأنفسنا بما عليه الآخر. ينبغي علينا أيها الرفاق أن نصرخ في وجوههم قائلين: مهما بلغت قسوتكم، فإننا لن نتغير لنكون أنتم، سنبقى نحن رغمًا عنكم.

أعلم أيها الرفاق أنه لو استُنطق الحاضر ونطق لكان عوقب بقطع ما نطق به، ولهذا السبب لا ينبغي أن نلجأ للعنف، فالعنف خيار أولئك الذين يوشكون على الخسارة، أولئك المتخبطون الخائفون، أولئك الذين فرضوا القيود وظلموا الشعوب.

إنهم يحاولون ستر قيمة الإنسانية بظلمة لا يخترقها أشد شروق سطوعًا، ولكنهم سيفشلون. لنجعل وعينا أشد تمسكًا بحريتنا من تمسك جهل من حولنا بقيدهم. أيها الرفاق، الذين يسعون لجعل العنف وسيلتهم لإحلال الأمن والسلام كعمال البناء الذين يستمرون بالبناء على الرغم من أنهم لم يعودوا يتذكرون لكمْ طابق تم هندسة قدرة أساس بنائهم. في طلب القوة الحدود مجهولة، وهذا ما يجعلها مرغوبة وبالتالي الرغبة تتطلب فضول والفضول

يقود للطمع بالمعرفة، ولكن للأسف هذه المعرفة لا تكون إلا بعد السقوط، ولأن ذاكرة الإنسان ضعيفة في استرجاع معارفها فالسقوط سيكون حتمي إذا تكرر طلب القوة. نعم أيها الرفاق، طالبو القوة لا يُسقطهم سوى الطلب.

يقولون أيها الرفاق: لا تضرب وأنت ضعيف، لأنك حتمًا ستتلقى ضربة لن يحتملها ضعفك، أما أنا فأقول في حال كان من يسمعني نفعي: لا تضرب وأنت قوي لأنك حتمًا ستتلقى ضربة في ذلك اليوم الذي ستكون فيه ضعيف، أما في حال كان مستمعي كانطَيًا فسأكتفي بالقول: لا تضرب. أيها الرفاق لا ينبغي علينا الدفاع عن أنفسنا كالنحل، في سبيل النجاة نستخدم وسيلة اللانجاة. قد يراني البعض أنني بشيرة تراخي وجمود لأنني أنهاكم عن الإقدام على ثورتكم التي تطمحون لاستخدام العنف فيها كوسيلة، ولكنني أؤكد لكم أيها الرفاق أنني لست كذلك.

أجد البعض أيها الرفاق يُردد قول فوكو: "باسم العدالة الأنقى ننتقد عمل العدالة"، وباعتقادي هذا سقوط في فخ فوكو. نعم، هذه محاولة تضليلية من فوكو هدفها الإشارة لعمل السلطة كعمل عادل. أيها الرفاق ليس هناك عدالة أنقى وعدالة أقل نقاوة، هناك عدالة فحسب. إنَّ التخلص من الظلم الأكثر ضررًا وإحلال الظلم الأقل ضررًا، لا يُدخل العمل في نطاق العدالة. أيها الرفاق، العمل العادل ينتفي منه القياس النفعي أما العمل الظالم ففيه قياس نفعي، أي ما أقصده لا يوجد عدالة أدنى وعدالة أكبر وأنقى، في حين يوجد ظلم أكبر وظلم أصغر. ولهذا علينا أن نكون راديكاليين. سئُتهم بالتطرف ولكن دائمًا سيكون بمقدورنا لو عملنا بصدق تبيان أننا راديكاليون. ولأنني اخترت أن أكون راديكالية فأنا أعلن انضمامي للحزب الأسود على أمل أن يسهم الحزب أكثر في عمل الاتحاد.

أيها الرفاق جميعنا لا نعلم، ولهذا دعونا نتجرد من تبجحنا بأننا نعلم، لكي لا نغتال أنفسنا بفخ الشعور بقدرتنا على حكم غيرنا والسيادة عليه. لا يسعى لنصر بالسلطة إلا ذلك الذي تتربص به الهزيمة، نعم وحده من لا يسعى للنصر بالسلطة لا هزيمة ستتربص به.

يجب أن نرتقي بالوعي البشري إلى حد يُمكن به محاربة الدولة ككيان بدل من محاربتها كأنظمة حكم ونخب وأحزاب سياسية. ينبغي أن نخاطب الثائر قائلين له: خن وطنك إذا كانت الخيانة في قاموسه حب أوطان الآخرين والتضامن مع شعوبها ومساعدتهم.

في الختام أيها الرفاق وددتُ أن أوصي وأُنبّه أولًا على أننا غير مستعدين بعد للظهور. نعم أيها الرفاق، لن يكون بإمكاننا العودة للاختفاء في حال فشلنا، نعم كل من عمل في حراك ثوري بشكل علني يفقد صلاحيته للعمل في حراك ثوري بشكل سري، للعديد من الأسباب أهمها أنَّ جهوده يُحتكر جزء كبير منها للتخفي والهرب بدل من توفيرها للعمل الفكري والتنظيمي. أما ثانيًا فوددت التوصية والتأكيد على ضرورة التزام الاتحاد بالثبات في خططه على المدى البعيد والمرونة في خططه على المدى القريب، وضرورة العمل على أن يخطو للهدف البعيد ثلاث خطوات وأن يخطو للهدف القريب خطوة واحدة.

أيها الرفاق متى ظمأت النفوس عملًا شربت أعظم الأهداف، فدعونا نعمل.

فلتحيا ثورتنا المجيدة"

وما أن انتهت من خطبتها حتى حظيت بتصفيق طويل من بعض الرفاق الذين لم يتوقفوا عن التصفيق والهتاف لها طوال الخطبة.

نعم، لقد كانت هناك ردود أفعال متباينة على خطبتها، فهناك من رأى أنها خطبة رائعة قدَّمت مقترحات تخدم الاتحاد وتزيد من فعالية نشاطه، وهناك من رأى أنها خطبة تقف من الثورة موقفًا رجعيًا، وأنها تحاول إماتة الحراك الثوري وذلك ببث الخوف والتردد في نفوس الثوار، وأنها تستهدف القضاء على حماسهم بالإيحاء أنَّ الهدف بعيد.

صعد الرفيق رقم 17 على المنصة بوجه مُكفهر مرسومة عليه ابتسامة مُستثقلة تكاد لا تكون ابتسامة، يحاول بها إخفاء غضبه وندمه على دعوته لها، وبنظرات فيها خوف من أثر خطبتها ومن انضمامها لحزبنا، ثم أخذ بإعلان بدء جلسة المؤتمر مُتفاديًا الإشادة بخطبتها ومتجاهلًا إعادة الترحيب بها كما كان يفعل مع كل عضو جديد.

بينما كنتُ أتابعها وهي متوجهة إلى زاوية حزبنا، وجدتها هادئة هدوء لم يسبق أن رأيته على أحد من الرفاق بعد إلقاء خطبته، هدوء لم تبعثره رهبة الوقوف على المنصة للمرة الأولى، وجدتها متزنة اتزان غير متأثر بهتاف وتصفيق بعض الرفاق واعتراضات واحتجاجات البعض الآخر، وجدتها متواضعة بدون انكسار واثقة بدون كبرياء شجاعة بدون تهور، فأيقنت حينها أنها الملائمة، وبأن الوقت حان لتراجعي.

يا إلهي كم هي جميلة يا صديقي! لقد خفتُ يا صديقي في تلك اللحظات، وشعرت لوهلة بأنني تعجَّلتُ بإعلان صداقتنا، وشعرت بالندم، فأخذت أحاول التماسك من شدة خوفي من شعوري ذاك، وأخذت أؤكد لي بأن قراري صائب، وبأنَّ توقيته مثالي، فلولا ذلك لكنتُ وقعت في حبها، ولكن كان هناك تمرد ومحاولات لإفشال محاولاتي تلك للتماسك، فأحسست بالخيانة، وشعرتُ بأنني مشارك فيها، بل شعرت بأنني الوحيد القائم بها. نعم، شعرت بأنني لستُ لي، بأنني متآمر عليّ، بأنني أنا والعالم أجمع ضدي، فأحسستُ بالإحباط واليأس وتجرعت هزيمة كادت تقتلني مرارتها.

أخذتُ أتساءل: كيف يقع في الحب من أعلن صداقته؟! هل يمكن التراجع عن الصداقة؟! أليس التراجع خيانة، في حال كان مُتاح؟ كيف سيكون موقفي أمامها في حال أعلنتُ تراجعي؟ هل ستراني شخص مُتقلِّب المزاج، مخادع، غير مؤتمن، لعوب، خائن؟ لماذا أهتم بصورتي عندها؟ هل يهتم العاشق بصورته عند معشوقته؟ أفي مقدوري حبها بدون إعلان ذلك؟ أفي مقدوري الاستمرار بادعاء الصداقة؟ أسيتاح لي لو أحببتها عدم حيازة رغبة بإعلان حبي لها، متفاديًا بعدم الإعلان المطالبة بحبها؟ أفي مقدوري الصمود بعدم إعلان حبي لو وجد؟ بل أفي مقدوري إعلان حبي لو وجد؟ ألن يكون ذلك الإعلان وقاحة مني أنا الضعيف؟ نعم، حتى في حال وقعتُ في حبها، فلن يكون بمقدوري إعلان ذلك، سأبقى مُتظاهِر بالصداقة. أسيبقى للصداقة قداسة في حال كان ذلك ممكنًا؟ كم نحن ممتنون لمشاعر الصداقة يا صديقي، فحتى في حال ادِّعاء حيازتها تنقذنا من مشاعر الحب، تنقذنا من تلك المسافات القصيرة المُفزعة، تنقذنا من تبادل إعلان الضعف، تنقذنا من أطماعنا التي لا نستحق نحن الجشعون الوصول إليها.

لماذا كانت كل تلك التساؤلات يا صديقي؟ أأُخطط لحبها، أم أنني وقعت في حبها وانتهى الأمر، وما كنتُ أحاول فعله ما هو سوى تبرير لذلك. هل أنا خائف؟ نعم، أنا كذلك أكثر من أي وقت مضى. ماذا يحدث لي يا صديقي أنا الذي لطالما قدَّستُ الصداقة، وكنتُ من لحظة الإعلان عنها بليدًا كبلادة صخرة صامدة في وجه أمواج عاتية؟ مالي اليوم مُتصدِّع أكاد أتفتت وأتناثر بحيث لا يُعلم لي وجود؟ هل أعلنتُ صداقتي بعد فوات الأوان، فكانت باطلة؟ هل كنتُ طوال هذا الوقت أدَّعي أنني صديق لها وأنا عاشق في الحقيقة؟ ولكن كيف يمكن أن تختلط عليَّ مشاعر الحب ومشاعر الصداقة، أنا الذي لطالما كنتُ قادرًا على التمييز بينهما بجهل الأولى ومعرفة الثانية حق المعرفة؟ هل هناك تشابه بين مشاعر الحب ومشاعر الصداقة لدرجة قد تجعلني عاجز عن التمييز بينهما؟ لا، لا أعتقد ذلك يا صديقي. مشاعر

الصداقة تُسهّل على صاحبها التداعي والاعتراف بالضعف، ولكن مشاعر الحب تُعقِّد ذلك رغم كونها تجعل الاعتراف أصدق والتداعي أعمق، مشاعر الصداقة تمنح صاحبها الهدوء والاستقرار أما مشاعر الحب فتمنحه التوتر والاضطراب، مشاعر الصداقة تمنح رغبة بالبقاء، أما مشاعر الحب فتمنح رغبة بالبقاء والهرب في آن واحد، مشاعر الصداقة تمنح الأنا أناه، أما مشاعر الحب فتنزع من الأنا أناه لتُبقيه فارغًا تتدافعه وتتقاذفه أضعف نسمة. مالي أُحدِّثك عن مشاعر الحب حديث العارف لها، حديث الحائز عليها؟ أنا خائف يا صديقي، هل أنا واقع في حبها؟

بعدما أحيطتْ بالرفاق المهنئين على خطبتها الموفَّقة والمُؤثِّرة، والمشيدين بانضمامها لحزبنا، والمرحبين بها في الاتحاد، تقدَّمتُ إليها وعبرتُ لها عن إعجابي بخطبتها، وسارعتُ لإعلان التنحي عن رئاسة الحزب وترشيحها لخلافتي، وسرعان ما وجدتُ إجماع من الرفاق عليها لتولي ذاك المنصب الإداري الذي لطالما كنتُ أشعر بأنه لا يُناسبني وبأنني لا أناسبه، والذي لطالما كانت لدي الرغبة بالتنازل عنه وعدم الاكتراث والالتفات لإلحاح الرفاق عليَّ بشُغله. وافقتْ على مضض بعد إلحاح الرفاق واشترطتْ لقبول ذلك بأن أكون مساعدها، فاضطررت للموافقة بعد إلحاح أيضًا وبعدما شعرتُ بأنني تسرعتُ بإلقاء ذلك العبء الثقيل على كاهلها المُثقل بأبحاث فلسفية وأعمال أدبية وخطط تحوطية.

وبينما كنتُ أرافقها إلى زاويتنا على طاولة الاجتماع والرفيق رقم 26 أمين سر الحزب والمُوثِّق لكل ما يدور في اجتماعات الاتحاد والحزب، وجدتُ صدفة الرفيق رقم 17 من بعيد يرمقني بنظرات فيها وميض رصاصات خارجة من فوهتها إلى الهدف، نظرات توحي بغضب شديد، نظرات شاعر بالغدر والخيانة وراغب بالانتقام، نظرات مُترقب لأقرب فرصة لإيقاع الضرر. حزنتُ لذلك يا صديقي، وشعرتُ بالأسف، فحقده وغضبه سيجعل الثورة تسير في مسارات ليست مساراتها في حال استمرا. سارع إلى إخفاء نظراته بعدما لاحظ انتباهي لها، لربما رغبة منه بتفادي إشعاري بالهزيمة التي لحقت به بانضمامها لحزبنا، ولربما رغبة منه بإيهامي بعدم الاكتراث لما جرى، متناسيًا بذلك أنه لطالما كان غير آبه باكتشافي لها رغبة بالتحدي. لقد شعرتُ باضطرابه للمرة الأولى، وكنتُ أدرك أنها بقرارها الانضمام لحزبنا السبب بذلك، غير متفاجئ باهتمامه الشديد بها، مُدرك أنها تُشكِّل خطر على مشاريعه وخططه وأهدافه المستقبلية.

هل شعر بالغضب لأنها انضمت للحزب الذي أنا فيه، أم لأنها بذلك تُشكِّل خطر على جاذبية حزبه؟ هل كان غاضبًا لأنني أسير بجوارها أم لأن حزبنا بات أقوى؟ يا إلهي كم أود معرفة السبب الحقيقي. إذا كنتُ السبب أود الانسحاب أود الابتعاد، لكي يتاح للثورة مسارها الصحيح.

هل يُعقل أن يكون واقع في حبها؟ هل يُعقل أنه يعتقد أنها باختيار حزبنا اختارتني؟ هل يعتقد بأنني قمتُ بتضليلها؟ هل يعتقد بأنني كنتُ أنافسه على حبها، ونجحت في التغلب عليه؟ هل يعتقد هو أيضًا أنني واقع في حبها؟ أعتقد أنّ كلاكما على خطأ على صديقي، نعم أرجّح أنني بعد لم أقع في حبها. زماننا هذا زمن غير ملائم للحب، زماننا هذا زمن ثورة فقط. هل يتسع وقتنا للحب؟ لا، لا يتسع، يجب أن تدرك ذلك يا صديقي. كيف سيتاح توضيح ذلك له في حال صدقتْ ظنوني؟ كيف سأُعلمه أنها مجرد صديقة بالنسبة لي؟ بل كيف سيتاح له تصديقي وأنا قريب منها بهذا القدر؟ لا، لن تُجدي محاولاتي مهما حاولت، لن يُصدّقني حتى ولو قدَّمتُ له الدليل تلو الدليل، لن يراني نزيهًا هذه المرة هو الذي لطالما شهد بنزاهتي.

جلسنا على مقاعدنا المُخصصة منتظرين جلوس ممثلي باقي الأحزاب. وفي تلك الأثناء لاحظتها أخذتْ تطوي تلك الأوراق التي نزلتْ عن المنصة بها، والتي حسبتها أوراق خطبتها. سقطت من يدها ثلاث ورقات على الأرض، فسارعتُ لالتقاطهم، وفي تلك اللحظة صدمت. كانت تلك الأوراق فارغة، وبالتالي خطبتها مُرتجلة. أخذت أتساءل: كيف يتاح لأحد تقديم خطبة بهذه الجودة بدون تخطيط؟ زاد إعجابي بها يا صديقي. وفي أثناء تسليمي تلك الأوراق لها، لمحتُ بدون قصد وتطفل، بأنه كُتب في منتصفها بخط لا هو صغير ولا كبير "أنا ض....". نعم، يا صديقي لم تكن أجزاء ثانية تلك اللمحة كافية لاقتناص تلك الكلمة.

بعدما ناولتها الأوراق، ادَّعيتُ بصمتي وبنظري في الأوراق التي بحوزتي انشغالي وعدم انتباهي، فأعفيتُ نفسي من تبرير خطئي غير المقصود ومن الحاجة للاعتذار، وأعفيتها من التوضيح والتبرير. ثم أخذت أتساءل: لماذا تحمل تلك الأوراق طالما أرادت الارتجال؟ لماذا أرادت الادعاء بأنَّ خطبتها كانت جاهزة ومُعدَّة مسبقًا؟ هل لأنها أرادت تفادي التقليل من خطبتها كونها مُرتجلة، أم أنها أرادت الإيحاء بأنها غير متهورة بالصعود على المنصة بدون خطبة مكتوبة، أم أنها أرادت عدم التقليل من الرفيق رقم 54 الذي استعان بالورق لإلقاء خطبته، أم أنها أرادت تفادي شعور الرفاق أنها تقلل من شأنهم بعدم صعودها بخطبة جاهزة، أم أنها أرادت عدم لفت الأنظار

إليها وتوجهها إلى خطبتها سواء كانت تلك الأنظار مُعجَبة أو مُقلِّلة؟ ماذا كتبتْ على تلك الأوراق التي حملَتها؟ هل شعار ما، أم جُملَة تحفيزية، أم محض كلمات عبثية لا دلالة لها؟ يا إلهي، كم كان يا صديقي فضولي لمعرفة باقي حروف تلك الكلمة التي لم أستطع إكمالها. أخذتُ أُقدِّر عدد الحروف التي لم ألتقطها، وأحاول إحلال حروف محلها تمنحني كلمة ذات مدلول، فتوصلت لكثير من الكلمات جعلتني حائرًا تائهًا رغم استبعادي الكثير أيضًا، فاضطررت للاستسلام.

لو قُدِّر لي معرفة تلك الكلمة التي لم ألتقط كامل حروفها، لربما كان في مقدوري التعرُّف على جانب من شخصيتها، لربما كان بمقدوري تحييد غموضها وفهمه، ولربما لتمكنت من الوصول إلى سر قوتها، والولوج إلى أعماق نفسها. هي محض لمحة أخرى، هي محض أجزاء من ثانية، هي محض حروف قليلة ما كنتُ بحاجة إليها، ولكن للأسف هذا لم يُتح لي. نعم هناك أسرار ليس مُقدّر لنا كشفها، أسرار مُحتم عليها البقاء حبيسة في الخفاء، وهذا ما يُهوّن عليَّ فشلي في الوصول.

لحظات وجلس جميع ممثلي الأحزاب على مقاعدهم المُخصصة، معلنين بذلك بدء الحدث الرئيسي للمؤتمر، ومضيفين بذلك جولة جديدة من المفاوضات وسلسة من التفاهمات والتوافقات والاختلافات.

أخذ ممثلو كل حزب بتقديم مقترحاتهم الجديدة لبرنامج الاتحاد ولنظامه الداخلي، والتي كانت في معظمها تمثل جزء من برامج وأنظمة أحزابهم، محاولين بالحجج التي يُقدمونها والبراهين ونتائج الدراسات والأبحاث التي أعدوها والإحصاءات التي أخذوا يسترشدون بها، إقناع ممثلي الأحزاب الأخرى وتحصيل أصوات كافية لاعتمادها ضمن برنامج الاتحاد ونظامه الداخلي.

كان من ضمن المقترحات التي تم عرضها ومناقشتها طويلًا والالحاح عليها كثيرًا، مُقترح إنشاء جيش مُسلَّح للاتحاد، ولكن هذا المُقترح كان كالعادة لا ينجح بحصد الأصوات الكافية، لوقوف حزبنا وتحالفاته ضده. ولكن هذه المرة واجهتنا صعوبة كبيرة في إسقاطه، فلقد كان يبدو أنَّ الرفاق في الحزب الأحمر تمكنوا من استمالة بعض الرفاق في الأحزاب الأخرى الذين كانوا يمتنعوا عن التصويت، وبذلك نجحوا في تشكيل الخطر. صراحة يا صديقي، لقد كان لخطبة الأنسة هيا فضل في نجاحنا، فتلك القلة التي تمكنتْ من تقدير أهميتها وتفهم مطالبها ووعي مقترحاتها والاستجابة لمخاوفها، هي التي منحتْ الأصوات التي حسمت التصويت لصالح قرارنا.

وكان أيضًا هناك مقترح خطير جدًا تفاجأنا به، تقدم به للمرة الأولى ممثلو الحزب الأحمر، والذي تبادر إلى مسامعي سابقًا أنَّ مقربين من الرفيق رقم 17 يحاولون استمالة ممثلي الأحزاب الأخرى إليه وانتزاع موافقتهم عليه. هذا المقترح مفاده تعليق عضوية بعض الأحزاب والرفاق الذين يتم الإجماع على أنهم يقفون موقفًا رجعيًا من الثورة، ويُعيقون جهود مختلف الرفاق الرامية إلى تشكيل برنامج للاتحاد متناسب مع حماس الرفاق وغضب الجماهير، أو انتزاع عضويتهم وطردهم من الاتحاد. ولكن هذا المقترح لاقى هجومًا عنيفًا من الأنسة هيا التي أخذتْ تُحذِّر من تداعياته ومخاطره وتخوّف من نوايا مقترحيه التي أشارت إليهم بأسلوب غير مباشر بأنهم أصحاب نزعة شمولية تهدد الاختلاف والتنوع والعمل الديمقراطي، وتحذر من سيطرة حزب واحد على الاتحاد في حال تم تمريره وبالتالي انعدام المنافسة والنتيجة الركود والجمود على مستوى النظرية والتطبيق، ونجحت بذلك الهجوم الشرس بصعوبة من إيقاف تمريره، وفي تلك اللحظة التي صدرتْ فيها نتيجة التصويت لاحظتُ ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتي الرفيق رقم 17، بان منها سعادته بتلك النتيجة، فأدركتُ حينها بأنه تعرض لضغط كبير لتمرير وتقديم ذلك المُقترح.

يبدو أنَّ مجموعة من الرفاق قد خططوا لوقت طويل وقرروا تجميع كامل قوتهم وتوجيه ضربة قاضية لحزبنا بهذا المقترح في هذا المؤتمر. نعم، لقد كانت جميع الظروف مُهيأة لأن تكون تلك الضربة قاضية، والدليل على ذلك أنَّ نتيجة التصويت التي حُسم فيها القرار كانت متقاربة جدًا. يا إلهي، كيف كنتُ غائب عن كل ما يجري حولي، كيف لم أنتبه وأحتاط لمثل هذا التحرك الخبيث؟! نعم يا صديقي، لا بد أنَّ الرفيق رقم 17 انتبه لتقصيري وإهمالي وجهلي وحماقتي، ولهذا دعمني بدعوة الأنسة هيا التي حال وجودها دون أن تكون الضربة قاتلة. نعم، هو لم يكن راضي على ما يجري، وفي ذات الوقت عاجز، ولهذا أراد من حزبنا إسقاط هذا المُخطط الخطير، أراد دَعمَنا لا لدَعمِنا بل لدعم الثورة. أرأيت يا صديقي لماذا أوليه كل هذا الاحترام، وأرى رأيك فيه غير منصف. يا لسذاجتي عندما اعتقدتُ أنَّ دعوته لها خطأ سيندم عليه كثيرًا. نعم يا صديقي، لقد كانت طوق نجاتنا الذي لا نستحقه على تقاعسنا وعدم انتباهنا لنشاط تلك المجموعة السري الذي صدَّع تحالفاتنا وكاد يفككها.

بعد جولة مفاوضات طويلة ومشاورات كثيفة، تم التوافق على مجموعة من الاقتراحات أُدخلت في برنامج الاتحاد ونظامه الداخلي، وتم اعتماد مجموعة من وسائل الاحتجاج لتقوم الهيئات المُختصة للاتحاد باقتراحها على ممثلي

العمال في مختلف النقابات والاتحادات العمالية والمصانع ولجان العمل، وعلى ممثلي الفلاحين في مختلف أراضي البلاد، وعلى ممثلي الجنود وعناصر الشرطة في مختلف الجبهات والقواعد، وعلى ممثلي الطلاب في مختلف الاتحادات الطلابية والجامعات، وتم فيها مراعاة ظروف كل فئة وقدراتها وإمكانياتها، وأيضًا تم اعتماد مجموعة من الخطب لتوزع على الثوار في مختلف أرجاء البلاد، وأيضًا أعتمد مقترح دعم الصحف والمجلات ودور النشر التي تتبنى الفكر الثوري والعمل التنويري، وتوسيع نطاق عملها، وأيضًا أعتمدت مقترحات تقدمت بآليات ووسائل لتهريب أكبر قدر ممكن من الرفاق من السجون، وإنقاذ من صدرت في حقه أحكام الإعدام، وتقديم المساعدة للرفاق الذين تم نفيهم في نشر أفكار وطموحات الاتحاد في منفاهم لتسهيل خيار تصدير الثورة لاحقًا.

انحلت الجلسة بعدما وصلت إلى الموعد الذي حددته لها الهيئة التنظيمية لاعتبارات أمنية، فاختلط جميع الرفاق من مختلف الأحزاب ببعضهم البعض مُحيدين اختلافاتهم الأيديولوجية وخلافاتهم الحزبية، متحدثين في قضايا ومواضيع مختلفة بعضها جاد وبعضها هزل، ثم أخذوا بعد ذلك بتناول طعامهم، وما أن انتهوا حتى أخذوا بالاستماع للفرقة الموسيقية التي أخذت تعزف سوناتا كرويتزر لبتهوفن وغيرها من الألحان.

كان كل منا ينتظر أثناء الاستماع لتوقيت المغادرة الذي حددته له الهيئة التنظيمية، فكان الحضور يتناقصون شيئًا فشيئًا، منسحبين بهدوء لعدم التشويش على المستمعين.

نهضنا للمغادرة أنا والآنسة هيا التي كانت منسجمة مع الموسيقى بعدما لفتُّ انتباهها لحلول موعدنا، وأخذنا بالخروج إلى أن أوقفني الرفيق رقم 25، وسلمني ورقة لكي لا يشوش على المستمعين أعلمني بها نيته هو والرفيق رقم 19 والرفيقة رقم 23 والرفيقة رقم 28 زيارتي في شقتي في الثامن والعشرين من اكتوبر الساعة التاسعة صباحًا، فأومأت له برأسي موافقًا ومرحبًا، وأكملت المسير والآنسة هيا.

كما تعلم يا صديقي، لقد كانت زياراتهم الدورية لي فيما مضى رغبة بالاطمئنان عليَّ، لتخوفهم من أجواء العزلة القاسية التي أحيط نفسي بها، وأيضًا لإحاطتي بآخر الأخبار، وذلك للصداقة التي بيننا التي كانت سابقة في وجودها لوجود الاتحاد. هذه المرة أنا متأكد أنَّ هدفهم من زيارتي ليس

أنا بل الأنسة هيا التي لا بد أنهم يتشوقون للتعرُّف عليها وإجراء النقاشات والحوارات معها والاطلاع على منطلقاتها.

عندما خرجنا كانت الشمس تستعد للغروب، مُعلنة اقتراب الخطر على المتجولين في شوارع مدينتنا البائسة ببؤس سكانها. فكما تعلم يا صديقي، ساعة النهار الأخيرة هي الساعة الأسرع لمعظم سكان المدينة، ففيها الجميع يكونون على عَجَل، متوترين، يحاولون تذكر جميع احتياجاتهم ومستلزماتهم لعدم الاضطرار للخروج في الليل الذي لا يكف مُحتكروه عن اتهام من يطمع بمشاركتهم إياه أو إزعاجهم فيه بالخيانة وزعزعة أمن واستقرار الدولة التي لم تجلب يومًا الأمن والاستقرار لمواطنيها، ولهذا يا صديقي كانت هي الساعة التي رأت الهيئة التنظيمية بأنها الأنسب لخروجنا، للاضطراب الذي تكون عليه الشوارع والذي يُشكِّل تغطية على اضطرابنا في حال وجد.

كان مسار عودتنا مختلف عن مسار ذهابنا، وكان أيضًا من تحديد الهيئة التنظيمية، لضمان سلامتنا والتغطية على مكان اجتماعنا في حال اضطررنا للاجتماع فيه لاحقًا، ولكنه كان مسار أقصر لانعدم الحاجة للابتعاد والاقتراب كثيرًا من وجهتنا النهائية للتضليل.

بعدما قطعنا المسافة التي خُطط لنا العودة فيها مشيًا، وصلنا إلى النقطة التي سُمح لنا فيها إيقاف سيارة أجرة، فأوقفنا واحدة وصعدنا فيها.

كانت نظرات السائق مُريبة، فكان علينا التحدث في موضوع ما هزلي أو على الأقل غير جاد، وذلك للتمويه وضمان سلامتنا في حال كان السائق أحد ضباط الأمن المتخفين أو أحد العملاء، فأخذنا تحدي بعضنا البعض باقتباس أبيات الشعر الأكثر رومانسية، فلقد كانت أحاديث الحب والجنس هي الأحاديث التي تُشجع السلطات الناس على الحديث فيها وذلك من خلال وسائل إعلامها التي تتبنى كل ما هو هزل ومنحط لإشغال الناس عن قضاياهم ومعاناتهم وحقوقهم ولإفقاد الخطابات والأحاديث الثورية جاذبيتها، فكان اختيارنا ذلك لضمان عدم الاشتباه بنا، وكان هو الخيار الذي يكفل عدم انحطاطنا للحديث في موضوع مُقزز أو موضوع يُظهر تصنعنا، أو موضوع يحتاج قدر من السذاجة نحن لا نحوزها.

لا لن أخفي عنك ما شعرت به آن ذاك. لا أعلم السبب، ولكنني كنتُ جادًا يا صديقي. لقد كنتُ رومانسيًا باختياراتي وبإلقائي وبمشاعري، كأنني كنتُ أنا كاتب الأبيات، وصاحب تجارب العشق، كأنني أنا المحب والمُتعذب

بالليل المُغيّب للمحبوب، والهارب بلبه بكأس الخمر من ضغوط الحب ومآسيه، والمُشهر سلاحه في وجه جيوش القبائل الواقفة بينه وبين محبوبته، كأنني أنا قيس وهي ليلى، كأنني أنا يزيد وهي العامرية، كأنني أنا عنتر وهي عبلة، كأنني أنا فيرتر وهي شارلوت، كأنني أنا روميو وهي جولييت. لقد كان خفقان قلبي شديد ومضطرب لا انتظام له، وروحي شاعرة بحرية لم أكن يومًا أتوقع بأنها ستستشعرها، وعقلي محجوب ومتروك بلا أدنى فرصة للحضور والتحذير، وأحزاني ومبائسي وآلامي مُختفية تائهة عني.

لقد شعرتُ براحة لأول مرة أشعر بها في حياتي، ومع ذلك لم أشعر بالخيانة، وبأنني أفسد نفسي بها، نعم لقد أحسست بلذة متلذذة بكل جوارحي. أعلم أنَّ ذلك لا يكون سوى للمُتحدِّث مع محبوبته في أمور الحب مغازلًا، وهذا ما يُخيفني. هل أصبحتُ عاشقًا؟ هل وقعت في الفخ؟ نعم، فخ يا صديقي. ألا نقول: "وقع في الحب". نعم لا يوصف العشاق بالساقطين إلا لأن العشق فخ. ولكنني لطالما كنتُ مُحترسًا، فهل الاحتراس لا يُجدي، هل يقع في هذا الفخ المُحترس وغير المحترس؟ أسئلتي هذه تدلل على أنني بدأت أُرجح وقوعي في الحب، أليس كذلك؟ هل أنا واقع في حبها وأعلم ذلك، ولكنني أحاول الادِّعاء بأنني لا أعلم، لأنني لم أرد ذلك، ولأنني لم أتجهز له بعد، ولأنني أرى بأن هذا زمن ثورة لا حب؟ هل جميعنا نريد الوقوع في الحب، حتى في تلك اللحظات التي ندَّعي فيها بأننا لا نريد ذلك؟ هل جميعنا جاهزون للحب ومتهيؤون له؟ هل زمن الثورة يتسع للحب؟ هل بإمكان الثائر أن يكون عاشقًا؟ لماذا يا صديقي بدأتُ أشك في جميع معارفي ورغباتي وطلباتي؟ لماذا لم أعد أتعرَّف على ما أريده حقًا؟ لماذا لا أحوز اليقين؟ هل فعلًا بإمكاننا حيازة اليقين، بعد كل هذا العجز الذي نتسم به، وبعد كل هذه المعارف التي استسلمنا لعدم صوابها بعد تمسك ودفاع عن صحتها؟

إذا كنتُ واقعًا في حبها حقًا، فأنا أريد أن أبقى جاهلًا بذلك، لكي يتاح لي باستمرار البقاء بعيدًا عن تصرفات العشاق والتنازلات التي تُطلب منهم ويطلبونها من الآخر، لكي تُتاح لي تلك اللحظات التي لا أكون فيها عاشقًا، لكي تتاح لي باستمرار المسافات التي أناور فيها، لكي أتصرف تصرف غير المُكترث اللامبالي البليد البارد، لكي يُتاح لنبضات قلبي انتظامها. ولكن كيف يكون لي ذلك ممكنًا يا صديقي، وقد بت في كل يوم أميل لكوني واقع في حبها. نعم يا صديقي، أشعر بأنه قريب ذلك اليوم الذي سأصرح فيه لك بأنني واقع في حبها، قريب ذلك اليوم الذي سأكتب لك فيه عن بؤس العشق وآلامه.

لقد حذَّرتني من الوقوع في حبها، ولكنك أيها الخبيث كنتَ تدفعني لذلك. نعم، لو أحببتها يا صديقي، أنت ستكون المُلام، أنت ستكون السبب. لا، ليس القدر، فلا أحد سواك يعرف نقاط ضعفي. نعم، كف عن اتهام القدر فهو يجهلني، ومن يجهلني لن يتمكن من هزيمتي.

لقد عَرَفتني ضعيف بالقرب وقوي بوجود المسافات، ولهذا جعلتها قريبة. توقف أرجوك عن الدفاع بترديد جملتك المعهودة التي لا تتوقف عن ترديدها: "الحب يقع فيه الضعفاء ليتعرفوا به على ضعفهم، ويقع فيه الأقوياء ليفعل بهم كما فعل بالضعفاء."، أرجوك كف عن استفزازي. نعم، لطالما كنتَ تفعل ذلك، بأخذك هذه الأمور معي باستخفاف وبساطة وبالمزاح والهزل، لهذا متأكد أنني لا أظلمك الآن. ها أنت تضحك أيها الخبيث أعلم ذلك، وتتركني أتعذب وأتألم مُعلَّق بدون حلول. لا بد لي أن أقاطعك يومًا ما على ما تفعله بي، وعلى استغلال حاجتي للكتابة إليك وطلب مساعدتك باستمرار. نعم يا صديقي، أنت استغلالي وتستحق العقاب. كم أرجو أن لو كان بمقدوري عقابك على ما تفعله معي. لا تقلق، يومًا ما ستقع لي، واعلم أنني لن أرحمك كما لم ترحمني. ها أنا أهددك بما لن أستطيع فعله، وأنت تعلم ذلك أيها الخبيث ولهذا تستمر بذلك معي. ينبغي عليك أن تشعر بالخوف يا صديقي لا مني، بل من تلك الأيام التي ستنتقم لي بإرسال من يذيقك ما أذقتني إياه، ولم أقوَ على رده لك أيها اللعوب.

لقد كانت تُجيد دور العاشقة، ولكنني لم أكن أصدّقها، فهل ذلك لأنني أعرفها، أم لأنني أعرف قدْري وقدْرها؟ لقد اختارتْ أبيات شعر تنبت الورود على أشد القلوب تحجرًا، أبيات شعر سمت بأصحابها إلى أقصى درجات الجنون، أبيات شعر لم تكن نهايات قصص حب أصاحبها إلا حزينة، وهذا ما يُحيرني. كيف لمن لها هذا الذوق الرفيع في انتقاء مثل هذه الأبيات، أن لا تكون عاشقة، ألا تكون مرَّتْ بتجربة عشق نهاياتها حزينة أو سعيدة؟ كيف لها أن تكون بهذا الاطلاع على قصص الحب وأوصافه المُغرية ولا تكون عاشقة؟ كيف كان بمقدورها أن تكون مُتمردة بهذا القدر؟ ألم أقل لك بأنها غامضة، بأنها تخفي الكثير، بأنها مُغلقة.

هل هي غاضبة بالقدر الذي لا يتيح لها الوقوع في الحب؟ هل هي مُستشعرة للإهانة الموجَّهة للإنسان بقدر يجعلها بكل هذا التمرد الذي يُلزمها ويدفعها لتقديم كل هذه التضحية؟ هل هناك حقًا بشر بهذه المقدرة على السيطرة على قلوبهم؟ هل بإمكان أحد الصمود أمام الحب؟ هل هي تحب وتخفي ذلك؟ هل بمقدور أحد إخفاء حبه لأحدهم بهذا القدر الذي لا يتيح لأحد ملاحظته؟ هناك

لحظة ضعف تتاح للبشر، فلماذا لا تتاح لها؟! هل سيتاح لي معرفة سر قوتها يومًا ما؟ هل سيتاح لي التعلُّم منها بالقدر الكافي؟

لم تطل رحلة عودتنا بالسيارة، فلقد كانت الشوارع خالية من كثير من الحواجز، وذلك لتسهيل وتسريع عودة الناس إلى منازلهم قبل حلول الليل، ولكنني لأول مرة تمنيت أن تطول رفقتي لها، ولأنني تمنيت ذلك عاقبتني الحياة بالحرمان. نعم، من طبع الحياة معي انعدام الحظوظ. لا، لم أكن يومًا أطمع بالكثير، فلماذا أستشعر بهذه الحياة التي تعاندي أنني عبء، أنني زيادة لا عائد منها. هل الحياة مُمتلئة بذلك القدر الذي لا يُتيح لي الدخول فيها، هل حظوظها كلها موزعة، أما من حظ تائه، أما من حظ مُهمل هنا أو هناك، أما من وجود لأولئك الذين ملو طعم حظوظهم فقرروا تركها لغيرهم؟! أنا غاضب يا صديقي من كل هذا الشقاء، من كل هذا الإهمال، من كل هذا الحرمان.

بعدما دخلنا الشقة، كان كل منا قد توقف عن أداء دوره في مسلسل الهروب والتضليل، وعاد لشخصيته الحقيقية.

جلسنا في الصالون لفترة وجيزة، أخذتْ فيها بلومي وعتابي والتعبير عن عدم رضاها عن تنازلي لها عن رئاسة الحزب، وأخذتُ أنا بدوري أبرر لها قراري وفجائيته التي جعلتها عاجزة عن الرفض تحت ضغط الرفاق، مشيرًا بذلك لما تسببت به رئاستي للحزب من فوضوية على المستوى الإداري والتنظيمي، وبتراجع جاذبيته، ومشيرًا للمخاطر والتحديات التي سيواجهها الحزب في الفترة القادمة، ومشيرًا لعزلتي التي سأحتاجها لكتاباتي وأبحاثي وغيرها من الدوافع والمخاوف التي بررت لي فعل ذلك، ثم تهرَّبتُ من هذا الحديث منتقلًا للإشادة بخطبتها ولمناقشة المخاوف التي عرضتها فيها، ثم أخذنا بالحديث عن خطورة الفترة المقبلة والتي قد تحمل مطالب ثورية يقود إليها الحماس المفرط، وبمناقشة بعض التحديات التي ستواجه حزبنا في ظل تنامي نفوذ الحزب الأحمر، وبتحليل بعض سُبل المواجهة التي قد تتاح لنا، وبعد ذلك استأذنتْ مني للانصراف إلى غرفتها، فنهضتُ أنا أيضًا متوجهًا إلى غرفتي، وأخذتُ أكتب إليك هذه الرسالة التي أرهقتني وأراحتني في ذات الوقت، متمنيًا منك إيجاد الوقت للكتابة لي، فلقد اشتقتُ لرسائلك.

صديقك المُشتاق

ف.د

28 تشرين الأول (اكتوبر)

صديقي العزيز ل.ت

وقفت هذا الصباح يا صديقي أمام مرآتي الجديدة، وأخذتُ أردد "أنا قوي" عملًا بنصيحتك التي وعدتك بالالتزام بها. صحيح، أعتذر منك لتركك تقلق كل هذه المدة، فلقد نسيت إعلامك بنيتي اقتناء مرآة جديدة بديلة لتلك التي حطَّمتها. لم يكن هناك داعي لقلقك يا صديقي، فأنا سأبقى مخلصًا ل"أنا قوي"، فلطالما ساعدتني ووجدتها بجانبي في أمس لحظات حاجتي للمساعدة.

بعدما شعرت أنني رددتها بالقدر الكافي -ولقد ساعدتني مرآتي الجديدة بذلك بإظهاري أقوى مما أنا عليه في الحقيقة-، خرجتُ إلى المطبخ، وأخذت بإعداد وجبة الفطور والتجهيز لوجبة الغداء، وما أن انتهيت حتى تذكرتُ أنني نسيت إعلام الأنسة هيا بنية الأصدقاء القدوم، فارتبكت، فلقد كان خيار الطرق على بابها وإعلامها غير متاح لي مخافة مقاطعتها في لحظة مهمة، ولكنني هدأت بسرعة بعدما خطر لي كتابة ذلك على ورقة وتمريرها من أسفل باب غرفتها، ثم انصرفت إلى غرفتي لتهيئة نفسي لوصول الأصدقاء، وبعدما فرغت خرجت للجلوس في الصالون أكمل مطالعة إحدى روايات الأنسة هيا منتظرًا قدومهم.

عبقريتها الروائية آسرة يا صديقي، فتلك الرواية التي كنتُ أطالعها كنتُ في الحقيقة قد أنهيت مطالعتها مرتين وعلى الرغم من ذلك عدتُ لأطالعها مجددًا. لا تتعجب من ذلك يا صديقي، صحيح أنني لم أقرأ كتابًا لأكثر من مرة واحدة لاعتقادي بأن ذلك يعيق قراءة كتاب آخر في حياتنا القصيرة التي لا تتسع لكثير من الكتب المُلِحَّة، ولكن سحر كتابتها جعلني مستكفي غير طامع بالكثير. أعرف أيها الخبيث أنك الآن تقلل من شأن كتاباتها بادعاء أنَّ سبب إقدامي على ذلك حملي لمشاعر الحب تجاهها ولكونها قريبة وتحظى بإعجابي، ولكنك مخطئ يا صديقي، نعم مخطئ. إنك بهذا تتهمني باللاموضوعية وبعدم النزاهة والحيادية. نعم، أنا أحترم الأعمال الخالدة حتى لو لم أكرر مطالعتها ولكنني أيضًا قارئ نزيه يا صديقي ولهذا أجيد إنصاف الأعمال التي لم تحظَ بحقها من الاهتمام. ألم تكن يومًا منصفًا لعمل ما؟! إذًا أرجوك كف عن اتهامي بتهم لا أساس لها من الصحة.

بعدما قلَّبتُ بضع صفحات قاطعتني بخروجها من غرفتها، فوقفت ثم أخذتُ أعتذر منها على نسياني إعلامها بنية الأصدقاء زيارتنا، وأعتذر

لاضطراري تمرير الورقة من أسفل باب غرفتها، فتقبلتْ اعتذاري بسرعة ثم عرضتْ عليَّ مساعدتها في التحضير لاستقبالهم، ولكنها سرعان ما أدركت أنها تأخرت بروائح الطعام، فأخذت تعتذر ولكنني سارعت لمقاطعتها بالتأكيد على أنني أجد راحتي في المطبخ، وممازحًا إياها باتهامها أنها بعرضها المساعدة تنوي إفساد طعامي.

بعد جلوسنا الذي انتبهت فيه لروايتها بيدي، سألت عن سر إعجابي وتفضيلي لها على الرغم من أنها أقل رواياتها نجاحًا على مستوى المبيعات، فأجبتها بأن ذلك راجع لقدرتها المخيفة فيها على ربط الحدث والفكرة والانطباع بحيث لا تترك مساحات يضيع ويتوه فيها القارئ، ولقدرتها عن إشغالي عن الركض خلف النهاية التي يخدع بها كثير من الروائيين القراء، وقبل أن تعطي رأيها بإجابتي قاطعنا طرق على الباب.

نهضتُ لفتح الباب وأخذتُ أرحب بالأصدقاء معبرًا عن سعادتي بلقائهم بعد انقطاع طويل، ثم أخذتُ أعرّفهم بالأنسة هيا برقمها وأُعرّفهم إليها بأرقامهم، مُعربًا للجميع عن أسفي لعدم تقديمهم بأسمائهم التزامًا بتعليمات الهيئة التنظيمية.

بعدما جلسنا أخذ بعض الأصدقاء بتوجيه بعض الأسئلة غير المهمة والتي أزعجتني -لشعوري بأنهم يحاصرونني بها-، هدفوا منها الاطمئنان عليَّ والاستعلام عن أسباب تغيُّبي وتحذيري من تكراره، ثم توجَّه الرفيق رقم 19 إلى الأنسة هيا سائلًا إياها عن انطباعها الأول عن الاتحاد وأعضائه، راغبًا بذلك كسر صمتها وإتاحة الفرصة للتعرُّف عليها أكثر، فأخذتْ تبدي له إعجابها بفكرته، وتعدد عوائد العمل من خلاله وتعرض التهديدات التي قد تواجه مختلف الأحزاب في ظل العمل في كيان له كل هذا النفوذ الذي قد يُساء استخدامه، معربة بذلك عن تخوفها من الحزب الأحمر على مسار الاتحاد وذلك للمقترحات التي يُقدِّمها لبرنامجه ونظامه الداخلي، فأشاد بقراءتها البعض وخالفها البعض الآخر منتقدين نظرتها التي وصفوها بالتشاؤمية والسلبية، ومؤكدين لها أنَّ المؤتمرات القادمة ستصحح وتصوب قراءتها، وأخذ الأصدقاء بالاختلاف والجدال حول ذلك إلى أن قاطعتهم بطلبي من الرفيق رقم 19 والرفيق رقم 25 مرافقتي إلى المطبخ لمساعدتي في نقل الفطور.

شعر الجميع آن ذاك أن لفظة "صديق" لا يلائمها الالتصاق برقم، ولهذا رأوا -بدون الحاجة للتصريح بذلك- أنه من المناسب الاستعانة بلفظة

"رفيق"، وبالرغم من ذلك اندمج الجميع بالحوارات التي دارت، وكانوا يتصرفون بعفوية بخلاف الأنسة هيا التي أبقت على الرسمية التي لم تكن مُصطنعة بل جزء لا يتجزأ من شخصيتها، والتي لم تخفِها حتى الصداقة المُعلنة بيني وبينها.

يا إلهي يا صديقي كم هي قوية! هل قوتها هذه مصدرها جمالها، أم هي جميلة لأنها قوية؟ أنت رأيتها من قبل وهي تحاور وتناقش، ولهذا أنت مُتفهم لإعجابي الشديد، أليس كذلك؟ هدوؤها، نظراتها الغامضة التي لا يحسن لأحد قراءة أفكارها منها، ركوزها،ثقافتها، حججها ومبرراتها،نبرة صوتها العذبة، ابتسامتها المُسالمة التي تتجلى بين الحين والآخر، جلستها، سرعة بديهتها، تأنيها وتجانس حركاتها مع ما تعبر عنه، والكثير الكثير الذي لن يتاح لي الانتهاء في حال أخذتُ بذكره. لا بد أن يكون هناك سر وراء كل هذا. لماذا الله منحها الكثير؟ هل ليوقعني في حبها، أم ليزيد بها بؤسي ومعاناتي في مقاومة الوقوع في الحب؟ الله إذا منح الكثير أخذ الكثير، فماذا أخذ منها؟ هل حقًا أخذ منها وهي بكل هذا الكمال؟! ألا يخاف على قلوب خلقه منها، ألا يخاف أن تنافسه بحيازتها، ألا يخاف أن تُحَب أكثر منه؟ ألا يغار الله عليّ؟ لا، لن يكون الشيطان سبب ضلالي في حال أحببتها أكثر من الله. نعم، عطاء الله لها هو من سيفعل ذلك. ولكن هل في الحب ضلال؟ لا، ليس هناك ضلال، فكيف يكون ذلك، ونحن بدون قدرة على منع أنفسنا من الحب؟! كيف نكون مُضللين ونحن هنا بدون خيار؟! المُضلل وحده من كان قادر على الاختيار وانساق لاختيار الآخر له، المُضلل ذلك الذي امتلك القدرة على الاختيار والقدرة على التمييز. نعم، تلك الشجرة التي عُوقب آدم على تناوله ثمارها، ليست الشجرة المانحة للمعرفة وللقدرة على التمييز بين الشر والخير، وإلا لما كان آدم يستحق العقاب. نعم، كيف يُعاقب الجاهل عما لا يعرفه وعما لا سبيل له لمعرفته؟! نعم، لن يعاقبني الله على حبها أكثر منه، لن يُنزل بيَّ غضبه، هو يعرف أنَّ قلوبنا ليست بأيدينا، نعم هو أراد لي حبها أكثر منه.

ما هذا الذي أُحدِّث به؟! لماذا أفترض أنني سأقع في حبها؟ لماذا لم أعد أستبعد ذلك؟ هل لأنني واقع في حبها، وأحاول تهيئة نفسي لتقبل ذلك شيئًا فشيئًا؟ هل فترة الجفاف العاطفي الطويلة هي المُتسببة بهذا؟ هل أنا واقع في حبها وخائف من الاعتراف بذلك لي أو لك على الأقل؟ هل نحن بهذه القسوة التي تبرر هذا الخوف؟ هل المسافة التي تفصلنا هي المتسببة في وجود خلل في التداعي الحُر الذي عاهدتك عليه؟ لماذا أشعر أنني أخفي شيئًا؟ لماذا أشعر أنَّ هناك في أعماق لاوعيي سر يزعزعني، يُشتتني، يجعلني

مضطرب باستمرار؟ أوصلتَ إليه يا صديقي من خلال أحلامي وزلاتي وهفواتي وما ترفض ذاكرتي استحضاره ونكاتي، وتحاول إخفائه عني لعدم مقدرتي على تحمله بعد؟ ألم تجد في كل ذلك معنى؟ حتمًا وجدتْ، ولكن تحاول عدم البوح به أيها اللئيم، نعم لربما أنت تحاول نقله إلى نطاق ما قبل الوعي. نعم،حُق لك الإخفاء عني، فأنا ضعيف. أرجوك يا صديقي لا تحاول إعلامي أبدًا، فأنا لن يتاح لي قدرة على التعامل مع أعداء أكثر، مع مزيد من المشاكل، مع مزيد من المعرفة. نعم، أنا بحاجة إلى أن أصبح أقوى أولًا، أنا بحاجة من "أنا قوي" المزيد؟ هل من وسيلة أخرى للمزيد؟ ما هي وسيلتها؟ يا إلهي كم أرغب بسؤالها عن ذلك! نعم، أرغب بذلك ولكن لن أجرؤ يومًا على تحقيق رغبتي هذه التي هي نتيجة وقاحة مني.

بعدما دخلنا المطبخ، أخذ الرفيق رقم 25 يقول موجهًا حديثه لي وهو يرمقني بنظرات متفاجئة حائرة تتفحصني من أسفل إلى أعلى:

- لاحظ جميعنا مؤخرًا تغيرك. نظراتك، مظهرك، بعض اهتماماتك، ولربما لو أتيح لنا وقت أطول للاحظنا المزيد، فما السر الذي تخفيه؟

تفاجأتُ بسؤاله واضطربت، فلم أكن أتصور أنها أحلَّت فيَّ ذلك الاختلاف الذي يمكن ملاحظته، وتساءلتُ عما إذا كان يُلمِّح لشيء ما بخصوصها، ولكنني استبعدت ذلك، ورجَّحتُ أنه يقصد تأثير بعض الأفكار الجديدة عليّ والتي كنتُ قد أعلنتُ عن بعضها في مقال لصحيفة داخلية للحزب: فرددتُ عليه بابتسامة محاولًا إخفاء توتري:

- الغياب الطويل هو ما يوحى بذلك.

- مظهرك يوحي أنك تقف أمام المرآة طويلًا. انظر لنفسك، منذ متى وأنت تهتم بتصفيف شعرك وانتقاء ملابسك؟!

- أنت تبالغ، ولكن سأجاريك. أليس من حقي الاهتمام بمظهري؟ ولكن توقف: إنك تصورني أيها الخبيث بأنني كنتُ فوضويًا ومهملًا بدرجة كبيرة، وهذا ظلم منك. أليس كذلك؟

أخذنا بالضحك، ثم عاد الرفيق رقم 19 يقول:

- لا تحاول خداعنا، أنت تدرك ما يقصده. لماذا في هذا التوقيت بالتحديد؟

- ماذا تقصدان؟

ثم أخذا بالنظر إلى الأنسة هيا، فأسرعتُ إلى تفنيد مزاعمهم وظنونهم، والتأكيد لهما على أنني لا أملك الوقت للوقوع في الحب، مُذكرًا إياهم برهاناتهم الخاسرة عليَّ في هذا الموضوع،ثم أخذتُ بنبرة جادة أطالبهما باحترامها بعدم الحديث عنها بكلام غير جاد، راجيًا منهم الالفات إلى المسافات الكبيرة التي بيني وبينها.

نعم يا صديقي، من الظلم أن يعتقد الجميع بما فيهم أنت أنني واقع في حبها. ينبغي عليكم احترام الصداقة التي بيننا، ينبغي عليكم معرفة مقدار بُعدها عني لكي توقِفوا ظنونكم واتهاماتكم الجارحة. لماذا تعتقدون أنني بتلك الوقاحة التي تدفعني إلى حبها ثم إلى مطالبتها بحبي؟ أنتم جميعًا تسيئون الحكم عليَّ.

بعدما طالبتهم بالتوقف، حَمَلَ كل منا ما كان مطالب بحمله وتوجه به إلى الصالون. أخذنا بتناول فطورنا وكالعادة انهالت الانتقادات المُستحسنة والتعليقات الإيجابية والتقييمات الجيدة.

بعدما فرغنا من تناول فطورنا أثير موضوع الانتخابات التي توافقت أحزاب اليمين واليسار في بعض البلدان المجاورة على إجرائها قبل موعدها لتهدئة الشعب واستمالته إليهم، وإبعاده عن الأحزاب الثورية، فسأل الرفيق رقم 19 بعد صمت خيَّم على الجلسة:

- لماذا يُعلن بعض اللاسلطويين أنفسهم كيسار وذلك بالمشاركة في العملية الانتخابية سواء كناخبين أو مرشحين؟

أجابتْ الرفيقة رقم 23 مُبررة فعلهم:

- الحد من الضرر، هذه حجتي.

فوافقتها الرفيقة رقم 28 قائلة:

- نعم،فباختيار اليسار نتفادى ضرر اليمين الذي لطالما كان أشد فتكًا وأوسع نطاقًا.

- هذه وجهة نظري. باختصار، طالما بقيَّ اليسار أقل ضررًا من اليمين ولو بنسبة قليلة لا تتجاوز 1%، فسأكون على استعداد للانحياز إليه، إلى حين تحقق ثورتنا.

- لا أعتقد أن التصويت والمشاركة الانتخابية يُعد تدنيس للمقدسات وانتهاك للمحرمات في هذه الظروف.

نظر الرفاق إلى الأنسة هيا مطالبين برأيها، فقالت:

- باعتقادي هناك ظروف تدفع اليسار لجعل الشعوب تتطلع لليمين، وكذلك هناك ظروف تدفع اليمين لجعل الشعوب تتطلع لليسار، ولهذا باعتقادي وجود الأسوأ مرتبط بوجود الأقل سوء وبقبولنا به كبديل. وبصراحة، أرى أنه في أحيان يكون هناك تحالف بين القطبين أسميه دكتاتورية متخفية.

وهنا وافقتها قائلًا:

- عندما نقبل بوجود الحد الأدنى من الضرر، فإننا في الواقع نقبل بوجود الجماعة المضطهِدة والجماعة المضطهَدة. أعتقد أنه من مسؤوليتنا رفض عملية التخيير المُستبعِدة لخيارات معينة. نعم، عملية التخيير المتاحة خياراتها جميعًا مُندرجة تحت الخيار السلطوي، ولهذا إذا استمرينا بالاختيار استمرينا باستبعاد الخيار اللاسلطوي.

فردت الرفيقة رقم 23 قائلة:

- أوافق على أنَّ أحزاب اليمين واليسار أكثر تشابهًا وتوافقًا مما نعتقد ومما يبدو، ولكنني أعتقد بأنَّ عدم التصويت يمكن في ظروف مُعينة أن يكون أكثرًا ضررًا من التصويت، هذا أولًا، أما ثانيًا فأُقر أنَّ معظم سياسي القطبين سيئون بطريقتهم الخاصة، ولهذا أجد أنه لا ينبغي التغاضي عن خلافاتهم واختلافاتهم ليُتاح استغلالها في تقليل الضرر، وثالثًا أعتقد أنَّ هناك فرق بين القبول بالحد الأدنى من الضرر ومحاولة تقليل الضرر متى وأينما أتيح لنا ذلك، ورابعًا وأخيرًا أجد أنه طالما نحن قادرون على المفاضلة بينهم، فهذا يدل على وجود مسؤولية تقع على عاتقنا تتمثل باختيار الأقل ضررًا.

فَرَدَّت الأنسة هيا مُتسائلة:

- ماذا لو كانت خلافاتهم واختلافاتهم العلنية هدفها توجيهنا لما يخططون له، أو إشغالنا عن معركتنا الحقيقية، أو جعلنا دائمًا مُكتفين بالقليل الذي انتزعناه؟

ثم عادت لتقول بعدما جالت بنظرها على جميع الرفاق:

- أتفق معكِ بأن هناك فرق بين القبول بالحد الأدنى من الضرر، وبين محاولة تقليل الضرر متى وأينما نستطيع، ولكن بالمشاركة الانتخابية هناك شرط مفروض علينا للسماح لنا بالمشاركة، وهو القبول بذلك القدر من الضرر الذي ستخرج لنا به العملية الانتخابية، وهنا سؤالي: هل من العدل لتقليل الضرر القبول بالحد الأدنى منه؟ أو هل من العدل لتقليل الضرر القبول به لقلة؟ باعتقادي أيها الرفاق، أنَّ تمسكنا بأن نكون أناركيين بحق، وتمسكنا براديكاليتنا، يضع ضغط أكبر بكثير على كل من أحزاب اليسار واليمين. نعم، الاستمرار بتهديدهم بسحب السلطة منهم، مع العمل على ذلك شيئًا فشيئًا، يدفعهم للتراجع عن العديد من سياساتهم وتوجهاتهم غير العادلة في حق الأقليات والغالبية. نعم، أن تكون أناركي لا يعني أبدًا أن تكون سلبي، ولا يعني أبدًا أنك لا تملك وسائل دفاع وهجوم. يمكننا تحصيل الكثير، لحين وصولنا للهدف، ولهذا أعتقد أنه فقط ماينقصنا هو الإيمان أيها الرفاق.

فقالت الرفيقة رقم 23 وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تعبر عن رضى بالإجابة:

- الآن هذه أفضل حجة سمعتها تدعم التوجُّه القائل بلاشرعية المشاركة. شكرًا لكِ.

ووافقتها الرفيقة رقم 28 قائلة:

- فعلًا حجة مُقنِعة. ولكن أرجو السماح لي بمواصلة الحوار. يبدو أنَّ اليمين مُحصَّن دائمًا من أي انتقاد على توجهاته العنصرية في أحيان، وعلى توجهاته تلك التي تقف عائقًا أمام التوسع الليبرالي في أحيان أخرى. تتحدث الجماهير باستمرار عن استخدام تكتيكات متنوعة للمواجهة، ولهذا ألا يمكن تطويع التصويت بالإضافة إلى الضغط الذي تطالبين به لإعاقة اليمين وتوجهاته؟

فأجابت الأنسة هيا قائلة:

- لسوء الحظ العملية الانتخابية ليست عديمة الجدوى فحسب، بل إنها بجانب ذلك ضارة في أحيان كثيرة. تُفسد السلطة الطامعين بها والحائزين عليها في جميع الظروف، ولهذا من الخطأ التنبؤ بأنَّ شخصًا ذا سمعة طيبة يمكنه تقليل الضرر.

وافقتها على ذلك، ثم قلتُ:

- نحن لسنا بحاجة إلى النظام الديمقراطي السلطوي، لأنه عاجز عن استيعاب المزيد من التوسع الليبرالي، نحن لسنا بحاجة إلى نظام اقصائي. ما نحن بحاجته هو القبول بالجميع مهما كانت اختلافاتهم وهذا لا سبيل لتحقيقه إلا في ظل نظام لاسلطوي.

فعادت الرفيقة رقم 28 لتسأل:

- ولكن أليس خطر اليمين على الأقليات يمكن صده باختيار اليسار؟ ألا تريا أن اللاسلطوي لن يستطيع تحمل تبعات كونه لاسلطويًا في ظل حكومة يمين؟

فأجابت الأنسة هيا بابتسامة خفيفة مرتسمة على شفتيها:

- أتفق معكِ على أنَّ سياسات اليسار وتوجهاته أقل ضررًا من سياسات اليمين وتوجهاته، ولكنني أعتقد أنَّ الهدف من ذلك هو إفراغ الجماهير من الغضب الناجم عن الضرر الكبير لسياسات اليمين وتوجُّهاته، فكل من اليمين واليسار يدركون أنَّ سياسة ونهج الضغط المتواصل يتسبب بثورات تنزع السلطة من الجميع سواء كانوا يسارًا أم يمينًا، هذا أولًا، أما ثانيًا فأعتقد أنه في ظل نظام ذي قوة هائلة يمكن أن يترجم الحد الأدنى من الضرر الذي تم تفضيله أو القبول بإحلاله على فئة مُعينة، إلى نتائج ومخرجات كبيرة تكون فاتكة بالمجتمع ككل.

فوافقتها قائلًا:

- كل من اليسار واليمين بالكاد يسمحان لنا بالتقاط أنفاسنا حتى يستمروا في خنقنا. نعم، بالاختيار من بينهم نحن نشارك في اضطهاد الأقليات التي ينتمي كل فرد منا إليها من خلال التمسك بمعتقد أو الانتماء إلى مجموعة. إنَّ كل من أحزاب اليمين واليسار تحاول إشعارنا بالانتصار للإبقاء على هزيمتنا.

- التهديد بانتخاب المنافس لم يعد يُسهم في إحداث تغيير ملحوظ، أو في إحداث التغيير المطلوب والمرغوب. في أحيان كثيرة أحزاب اليمين واليسار في جميع البلدان يتبادلون ويتداولون السلطة باتفاق خفي. يجب أن ندرك الحيلة المعهودة، نتاج سياسة اليسار يدفعنا لاختيار اليمين ونتاج سياسة اليمين يدفعنا لاختيار اليسار. كلاهما يدفعنا للقبول بوجود الآخر، سواء كان ذلك من خلال أثر السياسات الاقتصادية أو من خلال أثر التوجهات الليبرالية. يجب أن ندرك أنَّ اغراءات اختيار الخيار الأقل ضررًا تهدف لتشتيت انتباهنا عن اتخاذ خطوة تجاه اختيار ما هو مفيد، ما هو ضروري،

ما هو عادل. نعم، دفعنا للاختيار من بين خيارات سيئة يهدف إلى إشغالنا عن وجود خيار فيه كل الخير، فيه كل النفع للجميع بدون استثناء.

- هل يتسبب كِلا القطبين في نفس القدر من الضرر؟ إجابتي هي نعم. ذلك لأن محاولة تسكين غضب الشعوب الناجم عن سرقة حقوقهم، بمنحهم القليل منها، هو فعل متسبب بضرر أكبر مما نتخيل. ما هو الحل؟ كيف يمكننا إحداث تغيير كبير وسريع؟ إجابتي هي: بأن نكون لاسلطويين بالقدر الكافي.

- ويجدر بنا الإشارة هنا بأنه يجب أن نتصالح مع حقيقة أننا لن نكون قادرين على أن نكون لاسلطويين تمامًا في ظل مجتمع سلطوي. قولي هذا لا يبرر الفعل السلطوي ولكن يُحيله إلى ظروفه. أي ما أود قوله هو أنَّ إقدامنا بالخطأ وبدون قصد على الفعل السلطوي في أوقات معينة لا ينبغي أن يدفعنا للاستسلام واليأس والإحباط، بل ينبغي أن يُحفزنا على مزيد من التحدي والمقاومة والصمود. نعم أيها الرفاق، لا ينبغي علينا مطالبة الجماهير باجتياز اختبار النقاء الأيديولوجي قبل دعم تمتعهم بحقوقهم الأساسية والتأكد من حيازتهم لها.

بعدما أخذت الرفيقة رقم 28 بالتصفيق إعجابًا، قالت:

- لن أراوغ وأعاند، أعتقد أنكما أقنعتماني. هذا منطقي تمامًا. لدي الكثير للتفكير فيه. إنني أتطلع لقراءة مقالاتكم، وأرجو منكما صراحة التشارك في إعداد كتاب حول هذا الموضوع، فلديكما معًا قدرة على الإقناع عجيبة.

هنا يا صديقي اضطربتْ، فموضوع الشراكة هذا لم أفكر به من قبل. إنني بالكاد أستطيع تحمل تبعات الشراكة المكانية. نعم، لا قدرة لي على احتمال مزيد من المشاركة معها. هي خطيرة جدًا، ولهذا أفضِّل الابتعاد. نظرتُ إليها في تلك اللحظات، فوجدتها شاردة، فهل كانت يا صديقي تفكر بجدية في ذلك المُقترح؟ ماذا سأفعل لو تقدمتْ يومًا ما بطلب ذلك؟ هل سيكون بمقدوري حينها تنفيذ ذلك بدون الوقوع في حبها؟ لا، لا، هذه وقاحة مني أن أتصور أنها ستحتاج يومًا ما لذلك. كيف سيمكنني مجاراتها أنا الفقير؟ لا، هي لن تُقدم على ذلك وهي بذلك الغنى المعرفي، هي لن تفعل، فماذا بمقدور من هم مثلي الإضافة إليها؟!

لشرودها اضطررتُ للرد، فقلتُ محاولًا تفادي مقترح الرفيقة رقم 28:

- شكرًا لتفهمكِ وصراحتكِ. صحيح أنه سيكون هناك عوائد قد لا تُرضينا، وبطء في التحرك قد يدفعنا لليأس، ولكن بالرغم من ذلك علينا المواصلة والكفاح، وحتمًا ستتدفق المكتسبات التي لم تعهدها البشرية.

ثم قالت الأنسة هيا بعد عودة من شرودها:

- وجهة نظرنا هذه سيتم التقاطها بشكل أفضل من خلال المقالات التي أعتزم نشرها.

قالت الرفيقة رقم 28 ونظرتها توحي أنها ما زالت مُتخوفة:

- أعترف أنني الآن أقل تخوفًا من أن يكون النظام السياسي أكثر سوداوية بالانسحاب من العملية الانتخابية، ولكن ألا تعتقدان أنَّ تمسك اللالسلطويين بمقاربة من نوع "كل شيء أو لا شيء" أضرَّ بالحراك اللاسلطوي. إننا نجد هذا المُشكل الفلسفي حول التناقض بين الإصلاح والثورة في جميع الأحداث السياسية الراديكالية.

- الحرية يا رفيقتي لا تتجزأ، ولهذا إما أن تكون مُستردة أو تكون مسلوبة. ثم إنَّ راديكالية اللاسلطوي وتمسكه بانتزاع كامل الحقوق، هي المُتسبب الرئيسي بانتزاع واقع أقل ضرر بدون تقديم تنازلات. كما سبق وأشرنا، وجود اللاسلطوي يُشكِّل ضغط على اليسار واليمين وخاصة براديكاليته، فوجوده هو الذي يدفعهم لتقديم تنازلات للشعوب غير مشروطة. وعليه يتمسك اللاسلطوي بمقاربة من نوع "كل شيء أو كل شيء" لا بمقاربة من نوع "كل شيء أو لا شيء"، لأنه بالرغم من محاولات تغييبه عن المشهد وإخفاء جهوده ووجوده إلا أنه موجود ويؤثر باستمرار ويحقق مكاسب للشعوب على الدوام. يا رفيقتي الشعوب الآن آخذة بنوع المقاربة التي يتبناها اللاسلطوي. نعم، العالم في طور التحول للنظام اللاسلطوي. إنَّ الحركات النسوية والمنظمات البيئية والحركات العمالية ومختلف منظمات حماية الأقليات تمثل بتوجهاتها في الأساس رفض للسلطة، وبالتالي هي شكل من أشكال الحراك اللاسلطوي. إنَّ راديكالية اللاسلطوي ليست تصادمية، بل تنويرية، ولهذا نوع مقاربته "كل شيء أو كل شيء". هناك مكتسبات للنشاط اللاسلطوي الحالي، نعترف أنها قليلة، ولكنها موجودة، وستتعاظم بتنوير الشعوب، وتسليط الضوء على الخيار اللاسلطوي المحجوب والمحظور إعلاميًا. أما فيما يخص ادعاء وجود تناقض بين الإصلاح والثورة في كافة الأحداث السياسية الراديكالية، فهو ادِّعاء يحاول تسويقه السلطويون لاستهداف اللاسلطويين الذين يؤكدون على أنَّ الإصلاح لا يكون للنظام

السلطوي الذي يرونه أساس لكل الشرور، بل للنظام الذي نسميه ما بعد سلطوي والذي يكون فيه المجتمع ما زال يعاني بعد من ارتدادات وتبعات النظام السلطوي. وعليه فالثورة والإصلاح لا تعارض بينهما بالنسبة للراديكالي. اللاسلطوي بوجوده ثائر ومُصلِح، ثائر بانتزاع نطاقات لا سلطة فيها لأحد، ومُصلِح بدفع أثر وجود السلطة لوقت طويل في هذه النطاقات. ولهذا نرى أنه من الخطأ القول بأنَّ وجود اللاسلطوي ونشاطه في الوقت الحالي يُمثل الإصلاح، وغدًا وجوده ونشاطه سيمثل الثورة، فهذا تضليل للإبقاء على النشاط السلطوي. نعم أيها الرفاق، لا ينبغي على اللاسلطوي التخلي عن راديكاليته، مهما بان له أنها غير مفيدة. حتمًا اللاسلطوي براديكاليته سيغير العالم، تذكروا هذا جيدًا.

بعد كل هذه الحجج المُقنِعة عادت الرفيقة رقم 28 للسؤال:

- أتفق معكم يا رفاق في كثير مما طرحتموه، وأتفق أننا نعرف لعبتهم هذه، ولكن ألا يُعلِّمنا الشطرنج استعمال كافة القطع المتاحة، ألا يُعلِّمنا استغلال تحركات الخصم للهجوم المُفقِرة لدفاعه ضده؟

شعرتُ بالاستفزاز من مواصلتها السؤال، ولكنني عاتبت نفسي على ذلك، فمن حق الجميع السؤال والاستعلام بعد كل هذه التضليل السلطوي، وأجبتها بسرعة محاولًا إراحة الأنسة هيا:

- أُفضِّل بدء لعبة ذات احتمالية أكبر للفوز بدلًا من المجازفة والخسارة، أو على الأقل بدء لعبة ذات احتمالية متساوية للفوز والخسارة. بالاختيار بين اليمين واليسار، فإن الخطوة الأولى تكون لهم لا لي، وأيضًا بالاختيار مراوغاتي وحركاتي سهل التنبؤ بها، وأيضًا بالاختيار ليس نحن من نختار أعداءنا كما نظن بل هم من يختارونا. أريد يا رفيقتي أن أبدأ لعبة جديدة، لقد مللتُ من قول "كش ملك" وآن الأوان لقول "ملك مات".

ثم عادتْ الأنسة هيا تقول بأسلوبها الذي يُدلل على عبقريتها:

- أُقدر يا رفاق حبكم لتقديم المساعدة العاجلة للشعوب، وحماسكم وصدقكم وإخلاصكم، لكن هذا كله غير كافٍ للأسف لخدمة غرضنا. يلزمنا أن نعي خطواتنا والتأكد ما إذا كانت خطواتنا حقًا أم خطوات اختارها لنا الآخر لخدمة مصالحه. إنَّ أعظم مساعدة باعتقادي يمكن أن نقدِّمها للشعوب هي أن نكون لاسلطويين، وأن نُبيّن للشعوب ماهية اللاسلطوية، ونكشف لهم عن هذا الخيار غير المُدرج في عملية التخيير المُتاحة لهم. نعم، تمسكنا بأن

نكون لاسلطويين يضع ضغط على كل من أحزاب اليمين واليسار لا يمكنهم احتماله.

- نعم، نحن لسنا بحاجة إلى هذا النظام الديمقراطي السلطوي الإقصائي، العاجز عن استيعاب المزيد من التوسع الليبرالي.

- بالتأكيد. أنا متفائلة يا رفاق، فالانتخابات في العديد من الدول إحصاءاتها تُشير إلى فقدان الشعوب الثقة بجدوى العملية الانتخابية. نعم، العزوف عن المشاركة الانتخابية هو دليل على فقدان الثقة بأحزاب اليمين واليسار.

- نعم، أخيرًا بدأت الشعوب تدرك عدم جدوى العملية الانتخابية. أعتقد أنَّ هذا سيُمهّد لو قام اللاسلطويون باستغلاله جيدًا إلى اقتراب الثورة اللاسلطوية. لذلك يقع على عاتقنا مسؤولية تجديد الفكر والخطاب اللاسلطوي، واستغلال هذه الصحوة الجماهيرية. وأيضًا هناك أسباب أخرى ستُمهّد لهذا التحول، منها وجود سعي عنيف للحصول على السلطة في بعض الدول من قِبل جميع الأطراف، نتج عنه دمار جعل الشعوب تتحرك لرفض الجميع. نعترف أنه في بعض البلدان هناك تأخر في العزوف عن العملية الانتخابية بسبب خبث الأحزاب الدافع لهم للاستعانة بمرشحين مثيري للجدل أو من الوسط الفني ممن هم مفضلون لفنهم. نعم، هذه الأحزاب تستغل الفن لإغراء الشعوب وجذبها للمشاركة بالعملية الانتخابية، ولكن يومًا ما ستدرك الشعوب هذه الحيلة، وستقاطع العملية الانتخابية.

- المجتمع اللاسلطوي أقرب مما نعتقد، ولهذا نحن بحاجة للإيمان، نحن بحاجة للعمل، نحن بحاجة للفت الانتباه لهذا الخيار. الخيار اللاسلطوي مجهول ولهذا هو بحاجة لتعرُّف الشعوب عليه ليكون خيارها، نعم وحده الجهل بوجود هذا الخيار هو ما يُعيق اختياره. السؤال هنا: هل المتمسكون بالأيدلوجيا اللاسلطوية قادرون على استرداد يقينهم بأن العالم بحاجة إليهم، واسترداد ثقتهم بأن ثورتهم حتمية، وبأن التاريخ بات على بُعد خطوتين من تدوين أولى انتصاراتهم؟

اعتدل الرفيق رقم 25 في جلسته، وقال ونظرات الخوف في عينيه، بعدما اقتنع الجميع بعدم جدوى العملية الانتخابية:

- عندما نكون مكبلين بسلاسل وأقفال صدئة وبحلقات تلتف حول رقابنا، مشحونين بالقطارات إلى معسكرات الإعدام أو التجنيد أو الحرق أو السجن،

أتعتقدون حينها بأنه سيكون من المُجدي تذكيركم أنني أكدتُ لكم على أهمية العملية الانتخابية؟

فردَّتْ عليه الأنسة هيا بهدوء:

- خيالك يُحسن الرسم، ولكن رسوماته لا تحسن التنبؤ والتوقع. إنَّ الاستمرار بالمشاركة بالعملية الانتخابية وحده من سيُحيل خيالك لواقع، فتراجع العوائد الامبريالية التي تحمي النظام الديمقراطي الحالي لبعض البلدان، هو ما سيُعيد الدكتاتوريات الكلاسيكية. إنَّ التاريخ يؤكد على صحة كلامي، فوصول أبشع الشموليين لم يكن إلا من خلال العملية الانتخابية. نعم، البشرية أمام خيارين، إما العودة لعصر الدكتاتوريات الشمولية وإما الانتقال للمجتمع اللاسلطوي. هناك أيها الرفيق من يؤمن بالعنف خيار للتحول كالحزب الأحمر، وهناك من يؤمن بالعملية الانتخابية كالمخدوعين بالدعاية السلطوية، وهناك من يؤمن بالتنوير وهؤلاء هم نحن اللاسلطويون، ولهذا يقع على عاتقك الاختيار، ولكن قبل التسرع أنصحك بمطالعة التاريخ، وأنا متأكدة أنك ستحسن الاختيار. أيها الرفاق، كل من يسعى للسلطة سيكون متخوف من قدرة الشعوب على التفكير ولهذا ينبغي علينا السعي لإتاحة الفرصة للجميع للتفكير.

قالت الرفيقة رقم 28 وهي تحك رأسها:

- سبق لي أن صرَّحتُ أنني أؤيد المشاركة في العملية الانتخابية للحد من الضرر، ولكنني الآن غير متأكدة من موقفي، مُتشككة من صحته. هذه محاورة مفيدة جدًا، نعم أعتقد أنني بحاجة إلى التفكير أكثر والشك أكثر في جدوى العملية الانتخابية.

وبهذا الاعتراف يا صديقي انتهى الحوار، فتناولنا رقعة الشطرنج، وأخذنا بالتنافس. حددنا لكل مباراة دقائق عشر لكل لاعب، ولهذا السبب كنتُ دائمًا أخسر بالوقت بالرغم من تفوقي على الرقعة. نعم يا صديقي، لطالما كنتُ أحب أخذ كامل الوقت في حساب خطواتي والتخطيط للهجوم والدفاع، نعم لطالما كنتُ أفقد القدرة على الفعل والمنافسة تحت الضغط، حتى في أبسط شؤون حياتي. لا شيء يُخيفني ويُفقدني تركيزي أكثر من التقيد بجدول زمني. أنا يا صديقي بتجاهل الزمن فقط أتمكن من مواصلة العيش، ولهذا أنا دائمًا خاسر في تلك الظروف التي لا تتيح لي أي فرصة لتجاهل الزمن. ولكن لأكون صادق، وحدها الأنسة هيا من كنتُ متأخر عنها بالوقت والأحجار، ولهذا بت أدرك أنها تحسن التعامل مع ضغط الوقت، تحسن

إدارة شؤونها وفق جدول زمني، بخلافي تمامًا تُحسن التخطيط للهجوم والدفاع في إطار زمني، ولهذا أنا على يقين أنها ستحسن التعامل مع ضغوط رئاسة الحزب، ومتيقن من قدرتها على إدارة الخلافات والاختلافات في وجهات النظر والتوجهات مع الحزب الأحمر، وواثق من قدرتها على التعامل مع الجماهير المتحمسة والمتأهبة للتحرك والمُطالِبة بالتغيير الفوري، ومع تلك الجماهير المطالبة بالعنف كخيار، ولهذا أنا على يقين من أنني أصبت بقرار التنازل لها عن رئاسة الحزب. نعم، هي أكفأ مني على جميع الأصعدة، هي أكثر ثقافة، هي أعمق فكرًا، هي أجرأ تحركًا، هي أكثر جاذبية، هي أكثر هدوء.

بينما كانتْ تنافس الآخرين، كنتُ أتابعها باهتمام شديد. يا إلهي ما أجملها يا صديقي وهي مُنغمسة في التفكير. هذه هي المرة الأولى التي أراها فيها على هذا الحال. كانت هادئة كعادتها في جميع الأحوال، في تقدُّمها وتأخرها، في جلستها، في تحريك القطع على الرقعة، في تنفسها، في تركيزها. كيف يمكن لإنسان أن يكون بهذا القدر من الهدوء في عالمنا المضطرب؟! نعم يا صديقي، أنا معجب جدًا بها.

نهضنا بعدما فرغنا من الشطرنج لتناول وجبة الغداء، وكالعادة عند كل وجبة دارت أحاديث متنوعة غير جدّية، غالبًا لا أتذكرها ولا أجدها تستحق عناء التذكر لاطلاعك عليها، ولكن بعد الانتهاء دار حوار لا تقل أهميته عن الحوار الذي ذكرته لك سابقًا، حوار قدَّم إليَّ الكثير، بدأه الرفيق رقم 25 بالسؤال:

- هل ينبغي توحيد الخطاب لكافة الجماهير أم ينبغي تنويعه؟

هنا جميعنا يا صديقي ذهب إلى ضرورة تنويعه وتوجيهه، حتى أولئك الذين اعتقدوا في البداية أنَّ التنويع منطلقه تقسيم طبقي، وذلك بعدما أدركوا أن هذا التقسيم ليس نتاج التوجيه بل نتاج ظروف الجماهير، وهنا سألتُ قائلًا:

- طالما جميعنا يُقر بضرورة تنويعه، فجميعنا يذهب إلى أنَّ هناك أنواع مختلفة من الجماهير، وهنا سؤالي: ما هو الأساس الذي ينبغي أن نعتمد عليه في تصنيف الجماهير، وما هي أنواع هذه الجماهير المستنبطة من هذا الأساس؟

أجابت الأنسة هيا على سؤالي قائلة:

- لطالما أرَّقني هذا السؤال، وشكل أخطر هواجسي، ولكنني مؤخرًا بعد بحث معمق وطويل، توصلتُ إلى أنَّ "استشعار الإهانة" هو الأساس الذي ينبغي تصنيف الجماهير عليه.

كانت إجابتها غير مفهومة غامضة للجميع، ولهذا طالبتها بالتوضيح، فأخذتْ بذلك قائلة:

- هناك جماهير مُستشعِرة بالقدر الكافي للإهانة الموجَّهة إليها من الحكومات والسلطات، هذه الجماهير يناسبها خطاب يخاطب عقولها، هدفه الإقناع لا الاستمالة، فهي إذا شعرت أنَّ الخطاب يحاول جذبها عاطفيًا تعزف بسرعة عن الاستماع إليه وتتجاهله ولا توليه أي اهتمام. وهناك جماهير تُغالي في استشعار الإهانة الموجَّهة إليها، وهذا يجعلها جماهير ساخطة، ولهذا هي بحاجة إلى خطاب يسهم بتهدئتها، بحاجة إلى خطاب يُخيفها ويجعلها ملتفتة لعواقب الحماس المفرط، بحاجة لخطاب يُحسن التنبؤ بالمستقبل وقراءة الماضي وعرضهما بأسلوب متَّزن يُحسن الإبقاء على الحماس الكافي والملائم للتغيير، وذلك لأنَّ السخط يسبب للحراك الفوضوية. أما الصنف الأخير من الجماهير، فيتمثل بالجماهير التي مُنعتْ من التفاعل مع الإهانة التي تستشعرها لقوة الردع والقمع والإرهاب السلطوي، وهذه الجماهير يتسبب لها العجز عن التفاعل مع الظروف المُحيطة بالسذاجة، ولهذا أُسميها الجماهير الساذجة. هذه الجماهير من وجهة نظري تُشكِّل خطر على الجميع سواء كانوا ثورًا أم حكامًا، سواء كان ذلك على الحراك الموالي للسلطة أو الحراك المناهض لها، وذلك لسهولة استمالتها ومرونة تحركها وعدم القدرة على التنبؤ بتحركاتها وتوجهاتها وانتماءاتها، ولسهولة استقطابها واستمالتها. الجماهير الساذجة هي الجماهير المقموعة أكثر من غيرها. نعم، هذا القمع الواقع عليها، هو المتسبب بسذاجتها، وهو الذي يدفعها للمطالبة بالكثير لا بسبب القليل بل بسبب حرمانها من القليل الذي تسبب بانحراف رغباتها ومطالبها وتشوه تصوراتها للحياة السعيدة والخيّرة. ولهذا هذه الجماهير بحاجة إلى مخاطبتها باستمرار ومتابعتها على الدوام، وجعل الخطاب المُوجَّه إليها بسيط جدًا، وجعله معتمد على الاستمالة لا على الإقناع، وجعله مُعتمد على الترهيب والترغيب، جعله مُحفِّز بالمكافئة ورادع ومُخيف بالعقاب والعواقب، وذلك إلى حين جعلها مُستعدة للتعبير عن رغباتها ومطالبها الحقيقية، ومتعافية من أثر القسر والقهر والإرهاب الذي مُورس عليها.

كنتُ مصعوقًا كالجميع بإجابتها التي دلت على عبقرية قراءتها السيكولوجية للجماهير. بإجابتها اكتشفتُ أنها مهتمة بعلم النفس، ولهذا يا صديقي سأبدأ بالاهتمام به وسأخصص بعض من وقتي له. هو عِلم لم أكن مُلتفت لأهميته بالقدر الكافي، ولم أكن مُحيط بجوانب استخدامه.

سألتْ الرفيقة رقم 23 بعدما أشادت بتحليلها وعبقرية تصنيفها:

- كيف ينبغي التعامل في حال تم الوقوف أمام هذه الأصناف الثلاث في آن واحد وفي مكان واحد؟ ما هو نوع الخطاب المُلائم هنا؟

ردتْ الأنسة هيا بسرعة كأنها كانت متوقعة لهذا السؤال:

- هنا ينبغي تنويع فقرات الخطاب، ومنح كل جمهور حقَّه من الخطبة. هذه مهمة تتطلب خطيب مجتهد بارع قادر على التعامل مع الجميع، قادر على التنقل بسلاسة وسرعة ومرونة بين فقرات خطابه للمحافظة على جاذبيته، قادر على الوصول للجميع بأفكار خطابه بسرعة وإيجاز. ولهذا أجد أنه ينبغي على الاتحاد أو على الأقل على كل حزب التكفل بتأهيل خطبائه الذين يُمثلونه، فوظيفة الخطيب باعتقادي وظيفة عظيمة الأهمية وصعبة جدًا.

- هل تقترحين إنشاء قسم خاص لتأهيل الخطباء، أي فصل مهمة المفكر عن الخطيب؟

- نعم، فباعتقادي إبقاء المفكر لمهمته يُحسّن من جودة بحوثه وأفكاره، وإبقاء الخطيب لمهمته يُسرّع من وصول أفكار وتوجيهات المفكر للجمهور. المفكر في أحيان كثيرة يُعامل الجمهور بمنطلقات ومسلمات تخفى عن الجماهير، ولهذا ينبغي أن تكون مهمة الخطابة للخطيب.

- أي ما تقصدينه أنَّ مهمة الخطيب هي إيصال الأفكار، وبالتالي هو حلقة الوصل بين المفكر والجمهور.

- بالضبط. وأيضًا، هذا يوفر الحماية للمفكر ولأفكاره، ويضمن استمرار تدفقها، فالوقوف في الظل يحميه من المطاردة وبالتالي لا تكون هناك حاجة للهرب والمراوغة والتخفي، وبهذا تتوفر الجهود والوقت للبحوث ولعملية التفكير.

- هذا مُقترح سيخدم الثورة، أرجو أن تتقدَّمي به للاتحاد.

- سأفعل قريبًا.

بعد إشادات بمقترحاتها وأفكارها، بدأتْ الأحاديث الجانبية والفردية. في تلك الأثناء لاحظتُ الأنسة هيا انفردت بالرفيقة رقم 28 لما يقارب الساعة تحدثها بجدية، وكأنها تُخطط معها لشيء ما، وهذا ما دللتْ عليه تعابير الرفيقة رقم 28، إلى أن قاطعتهما رغبة الرفاق بالانصراف، وقد تأكدتْ ظنوني بعدما اتفقتا على موعد ومكان للالتقاء.

بعد مغادرة الجميع انصرفتْ إلى غرفتها، وانصرفتُ إلى غرفتي وأخذتُ بالكتابة إليك.

صديقك المحب

ف.د

2 تشرين الثاني (نوفمبر)

صديقي العزيز ل.ت

يا إلهي كم أحبها. نعم يا صديقي، لقد حدث ما حذرتني منه، أنا واقع في حبها الآن، بل منذ وجودي، وحتى فنائي. نعم، لطالما كانت هي تلك الصورة التي يحملها قلبي بدون أن يُريني ملامحها، لطالما كانت تلك المتواجدة في أحلامي والتي لطالما تمنيت التفاتها للتعرُّف عليها، لطالما كانت روحها تلك الروح التي تستشعر بها روحي أعظم حرية، لطالما كان عقلها ذاك العقل الذي لطالما أحب عقلي الالتقاء به والاستئناس بحديثه.

لمن ينتمي حضورها الذي ينتزع كل هذا القدر من الاحترام والتقدير، لمن ينتمي جمالها الذي يعود للنفس بعوائد استشعار الجليل، لمن ينتمي غموضها الذي يبعث في النفس أعظم فضول، لمن تنتمي حججها التي تترك العقل بلا قدرة على المقاومة، لمن ينتمي هدوؤها الذي يبعث في النفس أعظم اضطراب، لمن ينتمي ذلك البُعد والعمق وتلك القداسة التي هي عليها؟! هل وجودها بشري؟!

يا لها من خسارة تلك التي منيتُ بها بقدرتي على الإحاطة بكل هذا التجلّي! كيف سيتاح لي بعد هذه النظرة الاعتراف لها بحبي؟! كيف سيُتاح لي الطمع

وأنا مُدرك لذلك البُعد الذي يفصلها عني؟! نحن البشر يا صديقي لا نستطيع الطمع بذلك البعيد جدًا، لا نستطيع البقاء بدون عائد أو وصول أو حيازة، ولهذا نطمع بالقريب لقدرتنا على احتمال زمن الوصول إليه. لربما لو لم تتح لي معرفتها جيدًا لكنتُ قادر على الطمع بها، ولكن الآن هذ غير متاح لي. لو كانت الحياة عادلة يا صديقي لمنحتني تلك النظرة والمعرفة بعد الطمع والطلب، ولكن لأنها ليست كذلك منحتي إياهما قبل ذلك. أظالمة الحياة لي وحدي أم لآخرين أيضًا؟ لماذا لا أستشعر وجودهم؟ نعم، أريد أن أستأنس بوجودهم، أما من أنيس في الجحيم حتى؟ يا إلهي ما أشد سعير نيران ذلك الجحيم الذي يستشعر به الإنسان أنه وحيد! نعم، مُعذَّب أشد عذاب ذلك المُستشعر بوحدته في الحياة الظالمة. كيف كان للعشاق التقاء واعتراف وغزل متبادل؟ ألم يستشعر أحد منهم البعد قبل الطمع؟ أيُعقل أنَّ جميعهم استشعروا البُعد بعد الطمع فانتفت المسافات؟ كيف كان للعشاق مكان وزمن قادران على احتوائهم وهم بذلك العشق؟ أكان وجودهم زائف، مجرد وهم اختلقته عقولنا لكي تبقينا متفائلين؟ أكان وجودهم الزائف مُجرد تغطية على تاريخ العشاق السوداوي، المُظلم، البائس، ذو النهايات الحزينة؟ نعم يا صديقي، كان وجودهم الزائف مجرد تغطية على الخسارة التي ابتليت بها البشرية. نعم، الحب لا يوصل، الجمال يجعلنا بدون وقاحة تدفعنا للتقدم خطوة، البُعد يجعلنا بدون استحقاق وبالتالي بدون طمع، فماهية هذا الذي يُسمى "حب"، والذي لطالما ادعينا معرفته؟ أهو انجذاب بدون طمع، أم سعي بدون وصول؟ أقداسة هذه المشاعر هي التي تُشعرنا بالانحطاط والدونية وعدم استحقاق الوصول وتدفعنا لعدم الطلب؟ إذا كانت مشاعر الحب هي ما تُعيقنا من الوصول، فلماذا نحب؟ ما أشد حماقتي، أقول: "لماذا نحب؟"، كأنَّ الحب اختيارنا. أقصد يا صديقي إذا كانت مشاعر الحب هي ما تعيق وصولنا، فلماذا يتم إسقاطنا في الحب؟ أيُعقل أن يكون الحب مجرد عقوبة على ذنب ارتكبناه؟ ولكن لماذا تكون هذه العقوبة بالرغم من قسوتها مُستلذَّة؟ أيُعقل أنَّ تلذذنا أيضًا عقوبة؟ أيُعقل أن تكون اللذة كالألم عقوبة، مجرد طلبها يكون لملل أصابنا من العقوبة الأخرى؟ أيُعقل أن يكون هناك وجود لخيارات أخرى غير اللذة والألم؟ أيُعقل أن يكون لنا رغبات وطلبات نجهلها، ليست من تلك الرغبات والطلبات التي نعتقد أننا لا نحوز سواها؟

نعم يا صديقي، هناك من يهرب بالخيال من واقعه ليتساوى مع من يحب، ليتغاضى عن عجزه، ليدَّعي جدارته، فلماذا أنا بدون خيال؟ أيُعقل أنني استنفذتُ قدرتي على التخيل في صغرى بحيث لم أُبقِ منها شيء لحاضري.؟ نعم، أنا عاجز عن التخيل، لهذا أنا ضعيف، لهذا أنا غير

مُستحق. لا أنكر أنه تسرب شيء من الخيال لواقعي فحسَّنه، ولكن هناك مساحة كبيرة من واقعي مهما تسرَّب الخيال لها فلن يكون قادرًا على إصلاحها، أو تجميلها في نظري على الأقل.

أحبها جدًا وجدًا يا صديقي، ولكنني أريد مع ذلك التوقف عن حبها والاستمرار بحبها في ذات الوقت، فكيف ذلك؟! لماذا أحوز الرغبة ونقضيها؟ هل أنا من يريد حقًا، أم أنَّ هناك من يريد لي؟ نعم، لا يُفسِّر ذلك إلا وجود أكثر من مُريد، فهل أنا منهم، أم أنني غير مشارك؟ إذا كنتُ غير مشارك، فلماذا أتحمل أنا وحدي عذاب وشقاء ذلك؟ لا، لا عدل في حياة تعاقب من لا مشاركة له في الجرائم التي ترتكب، وتترك المشاركين بها يتنعمون بتلك المشاركة.

أخاطب الحياة قائلًا: لن أجرؤ على طلب قلب لا يعرف الحب منكِ، ولكنني أطمع بقلب لا يعرف البؤس والحزن، أهذا ممكن؟ فأجدها تجيبني بازدراء: أيها الجاهل الأحمق، أهناك خالق بدون خلق لكي تطلب حب بدون حزن وبؤس؟! اطلب ليجاب لك ولا تتمنى فتُترك مهملًا ومهمشًا؟ فأرد معاتبًا إياها: فلماذا كتبتِ أن يكون لي قلبًا رقيقًا مُستشعرًا للجمال متأثر به، قلبًا كثير الإلحاح للحيازة والوصول، لا يرضى بالقليل ولا يستكفي بالكثير، لماذا قسوتكِ أرادت لي هذه الرقة، لماذا لم تمنحينني شيئًا منكِ لأستعين به عليكِ، لماذا لم تمنحينني ما أجابهكِ به، وأقف أمامكِ به مستبسلًا؟ لماذا منحتني أشرعة لا تعرف الرياح منها صدًا؟ لماذا قسوتي عليَّ بكل هذا الضعف والرقة؟ فأجدتها تعود لترد بازدراء مجددًا: كم أنت مثير للشفقة! أتعتقد أنك المُستهدف الوحيد بقسوتي؟! أفِق، فجميعكم أشقياء باختياراتكم، أنتم الراغبون بقسوتي، أنتم من رجوتموني لكي أفيض عليكم بها. إن كنتَ ترفض بصدق، فأنا لستُ عائق أمام رفضك، بل أنت العائق الوحيد أمامه، نعم أنت من ترفض الاستغناء عما تدَّعي أنك تريد الاستغناء عنه. أنا أيها الشقِي أعطي بناءً على الطلب، وفي ذات الوقت عاجزة عن السلب سواء كان ذلك بالطلب أو بدونه. أنتم البشر وحدكم من تستطيعون السلب من أنفسكم، فإذا عجزتهم عن ذلك، فذلك يكون لعدم صدقكم ولرغبتكم في التمسك بما تدَّعون أنكم تريدون الاستغناء عنه. فتجدني يا صديقي أرجوها التوقف عن التوضيح الذي يزيد معاناتي.

هل نحن حقًا يا صديقي كما صورتنا الحياة؟ هل نحن دائمًا نرغب بالمزيد الذي لا نتسع له نحن الضيقون؟ هل نرغب بالمزيد من الشيء ونقيضه؟ هل نطلب لمجرد المراكمة؟ أنحن عاجزون عن الاستكفاء؟ هل نحن أعداء

لأنفسنا بالفطرة؟ هناك أجوبة يا صديقي، ولكن هل سيتاح لنا يومًا استيعابها واحتمال الحقيقة فيها؟

لماذا "أحبها" لا تُعبِّر كفاية عما يعتمل في داخلي تجاهها؟ لماذا الألفاظ مدلولاتها ضعيفة، غير مُعبِّرة؟ هل جميع اللغات فقيرة للعاشق؟ نعم يا صديقي، ليس هناك لغة للحب.

هل كلما كان الوصول مستحيلًا كان الحب أعظم؟ لا، لا يا صديقي، ليس الوصول المستحيل هو من يُعظِّم الحب، بل الحب هو من يجعل الوصول مستحيلًا. سيكون الوصول متاحًا للجميع بدون حب، فالحب وحده من يُسلِّط الضوء على المسافات الفاصلة، من يجعلنا بدون بدايات. لقد كنتُ أحبها منذ القدم، منذ قال الله كن، ولهذا لم يتح ولن يتاح لي الوصول. نعم، لم يمهلني الله ولو لحظات، لأحاول فيها، ولهذا أبقاني وسيُبقيني بدون وصول.

لم يكن لقائي الأول بها إلا تجسُّدًا لذلك الكيان الذي لم تستطيع مخيلتي الكشف عنه، إلا إبانة عن ملامح تلك الصورة التي طاردتني بأحلامي، إلا تجليًا لتلك الروح التي طاردتها روحي في أقصى الآفاق. نعم، ظهورها أوقف البحث والمطاردة، ولكنه لم يوقف العناء والشقاء بل عظَّمهما.

كيف ومتى سيتاح لي البوح لها عن مشاعري نحوها؟ هل أنا مُلزم بفعل ذلك؟ نعم، أجد نفسي أرجّح ذلك. ولكن هل أنا أرجّح ذلك لأنني أطمع بشيء ما بعد الاعتراف؟ ماذا سيتبع الاعتراف لو حزت الجرأة على الإقدام عليه؟ كيف ستتعامل مع اعترافي؟ كيف ستكون ردود فعلها؟ يحق لها اتهامي بالخيانة للتضحية بصداقتنا. كيف ستُصدِّق أنني لم أكن صديقًا لها يومًا وإنما عاشقًا دومًا؟ كيف ستُصدِّق أنني لم أعلن صداقتنا إلا للتغطية على مشاعر حبي لها؟ كيف ستنظر إليَّ وأنا أتعامل مع مشاعر الصداقة كوسيلة، كيف ستنظر إليَّ وأنا مُدَّعي للصداقة؟ نعم، يحق لها اتهامي بأنني أتعامل باستخفاف مع هذه المشاعر المُقدَّسة. يحق لها اتهامي أنني سأتعامل كذلك مع مشاعر الحب أيضًا؟ كيف سأكون صادقًا ونزيهًا في نظرها بعدما ستكتشف كذبي؟ كيف يمكنها تصديق أنني كنتُ أيضًا ضحية نفسي وضعفي، كيف يُمكنها تصديق ومراعاة ما كنتُ عليه؟ نعم يا صديقي، لربما الاعتراف ليس هو الخيار الأفضل، لربما استمرار الادعاء أسلم لي على الأقل في نظرها أنا المُشوَّه في نظري.

أخاف أن تبتعد يا صديقي بالاعتراف، فأنا بدأت الاعتياد على وجودها بل في الحقيقة أدمنته. لا، لن أستطيع احتمال كل ذلك الفراغ الذي سيُخلِّفه

رحيلها، لن أستطيع احتمال كل ذلك الألم، لن أستطيع مداواة كل ذلك الجرح. لا أحد بإمكانه تحمُّل فقدان أنس المؤنسين، ليس أنا من بإمكانه التعامل مع الوحدة التي ستستشعرها روحي في حال رحيلها. نعم يا صديقي، لقد أفسدتني بتعريفي عليها، بل أصلحتني وجعلتني كالبشر لا أحتمل الوحدة.

عهدتُ الحب يوقف احتساب العقل للعواقب، فلماذا هو عاجز معي، لماذا ألتفت للعواقب باستمرار بالرغم من هذه المشاعر والعواطف الجياشة المتمردة التي لا لجام يلجمها؟ لماذا هناك خوف وتردد وحيرة وعذاب، ألا يصحب مشاعر الحب الشجاعة والإقدام والحزم والإصرار والطلب؟ لماذا عقلي يعمل في ظل عمل قلبي؟! نعم، لماذا قوتا الجذب هاتين متساويتان لدي؟ لماذا لا أخضع، لماذا أنا مُعلَّق، فلا أنا منحاز للقلب، ولا أنا منحاز للعقل؟ تردد يدفعني للوقوف أحيانًا وللوراء أحيانًا أخرى، وإقدام كذلك يفعل، فما الحل يا صديقي؟ أنا بعيد حتى عن أقرب البدايات معها، فما هي نصيحتك؟ أنا لا أحسن التصرُّف في هذه المواقف، فأرجوك ساعدني، اكتب لي، لا تستغني عني في أشد لحظات حاجتي إليك. لا تقل أنني سأتصرف، وبأنني سأجد الحل المناسب، لا تقل بأن هذا هو الوقت المناسب لأعتمد فيه على نفسي. لم تتركني أبدًا لأكثر من أسبوع بدون أن تكتب إليَّ، فلماذا تفعل هذا الآن؟ نعم، لقد تعمَّدتَ أيها الخبيث الاستغناء عني في أمس أوقات حاجتي إليك. لقد علمتَ أنني سأحتاج إليك ولكن بالرغم من ذلك قررت التخلي عني. تجاهلك هذا خيانة لن أغفرها لك ما حييت. ستلاحقك دعواتي ومسباتي ولعناتي وستطاردك أينما حللت. أسمع ضحكاتك الشامتة الساخرة غير المُكترثة لمعاناتي، وأعلم بأنه لا سبيل لي لإيقافها، ولكن فلتعلم أيها الخائن أنني لن أرحمك حين تقع، سأنتظر أيامك السوداء بفارغ الصبر لكي أذيقكَ ما أذقتني إياه.

لقد بقيَ حبها في لاوعيي لعجزي عن التعامل معه، فلماذا خرج؟! لا، لا، أنا من أخرجته، أنا المتآمر عليَّ. نعم، أنا أستحق خائن مثلك بعدما خنتُ نفسي.

هل أحبها بالقدر الكافي؟ هل أنا منصف لها؟ يا إلهي كم أنا تائه! أنا بحاجة إلى عقلي في هذا الوقت الحرج لإنهاء بحثي، فكيف بمقدوري استعادته، وأنا عاجز كل العجز عن كبح هذه المشاعر، وإيقاف هذه التساؤلات، وأنا عاجز عن استعادة الهدوء الذي تتطلبه عملية التفكير؟ أتوسل إليك، إذا كان لديك حل فأعلمني به. أنا الآن بحاجة إلى عقلي أكثر من أي وقت مضى، الأحداث حولي آخذة حدَّتها بالتصاعد، والجماهير آخذة بالتحرك، والحزب

الأحمر آخذ بالانتشار وتوسيع نشاطاته. الثورة باتت قريبة جدًا، وأنا لست جاهز بعد لها. أرجوك ساعدني، فلا أحد لي غيرك ألجأ إليه. لا، أنا لا أتحجج بالثورة لتساعدني، أنا صادق يا صديقي. لك الحق بالتحقق من صدقي من أي مصدر ترغب به، ولكن أرجوك لا تتسرع وتصدر الأحكام المُجحفة، لا تتهمني بالكذب وباستغلال الثورة.

بالمناسبة ما زلتُ أردد أمام مرآتي "أنا قوي"، ولكنها تكاد تكون غير مُجدية، ولربما أنا أتوهم ذلك لطمعي بالكثير منها لحمايتي من ارتدادات وقوعي في الحب.

صديقك إلى الأبد

ف.د

3 كانون الثاني (يناير)

صديقي العزيز ل.ت

لا يا صديقي لم أكن طوال هذه الفترة التي لم أراسلك فيها أعاقبك على عدم إيجاد حل لمشاكلي العاطفية، ولم أكن أحاول التأقلم على الوضع الراهن والبحث عن حل، وإنما ما شغلني عن مراسلتك ما طرأ واستجد من أحداث في الفترة الأخيرة تتعلق بالثورة والرفاق وبعمل الاتحاد ونشاط الحزب الأحمر، وبالأبحاث التي أخذتُ لا أترك فرصة تتاح لي للعمل عليها إلا استغليتها للإسراع لمواكبة التطورات الأخيرة.

أنا على يقين أنك لا تعلم بما جرى في الشهرين الماضيين هنا، لأنني مُتأكد أنَّ هناك تعتيم إعلامي على ما جرى ويجري في بلادنا، من قبل سلطات مدينتك التي تتخوف من العدوى.

الوضع كان خطير للغاية خلال الشهرين الماضيين. الأحداث أخذت تتسارع وتتوالى وفقدنا السيطرة عليها تمامًا، فالشعب والسلطات والرفاق في الحزب الأحمر وتحالفاته جميعهم أخذوا يحاولون لعب دور أكثر شراسة وجرأة

وفعالية، أخذ كل طرف يحاول استباق الفعل وتعظيم دوره والرد بقسوة والتحرك بعنف والمجابهة بأسلوب انتحاري يُهدد المطالب الحقيقية للثورة ومسارها المُستهدف.

قبل نحو شهر ونصف عُقد المؤتمر السابع عشر للاتحاد والرابع هذا العام، وكان هذا المؤتمر كما كان متوقع هو بداية تبلور مسار الاتحاد، ففيه تمكن الحزب الأحمر وتحالفه من تشكيل برنامج للاتحاد متوافق تمامًا مع توجهاتهم الحزبية، وإدخال تعديلات على النظام الداخلي للاتحاد كنا نحن في الحزب الأسود نرفضها أشد رفض، وبذلك بدأت سياسة الاستبعاد ونزع العضوية، وأخذت تطلعات الحزب الأحمر بتشكيل جناح مُسلَّح للحزب تتحقق، وبذلك بات الاتحاد غير مناسب لحزبنا للعمل من خلاله وتحت وصايته.

ارتأت الأنسة هيا بصفتها رئيسة للحزب البقاء والعمل من خلال الاتحاد على الرغم من تشكيلنا أقلية فيه وعلى الرغم من تناقض برنامجه ونظامه الداخلي مع برنامج حزبنا ونظامه الداخلي، مُعللة ذلك بخوفها على الثورة من الانشقاقات والانقسامات التي قد يستغلها النظام الحاكم لإخماد الثورة والقضاء على الروح الثورية للشعب، وبعد تقديم المزيد والمزيد من الحجج التي دعمت وجهة نظرها وموقفها وافقت اللجنة المركزية للحزب على قرار البقاء وذلك بشروط، ولأن الأخبار تنتشر سريعًا، سارع الرفيق رقم 17 بعدما علم بموقفها إلى شكرها عليه وتثمين جهودها والإشادة بتضحيتها الحزبية في سبيل الثورة، ومحاولة ضمها لحزبه.

كنتُ في تلك اللحظات يا صديقي أشعر بوجود أسباب أخرى لقرارها ذاك، ولكنني كنتُ أجهل ماهية تلك الأسباب وطبيعتها. نعم، شعرتُ أنها تُخطط لعمل ما، وزاد شكوكي خروجها المتواصل وشبه اليومي مع الرفيقة رقم 28 من أول النهار إلى آخر الليل. نعم، لقد كنتُ أشعر بأن هناك ما تخفيه وخصوصًا عنِّي أنا الضعيف الذي قد أفسد خططها وأفضحها.

توارد إلى مسامعي تلك الفترة أنَّ الرفيق رقم 17 قد بارك قرار اللجنة المركزية لحزبه إيقاف تأجيل الانتفاضة إلى حين اكتمال الاستعداد والحشد والبناء والتخطيط، وتعامل بنجاح مع المعارضة داخل حزبه على هذا القرار، ونجح في استمالتهم لتأييد القرار بعدما قدَّم ضمانات طمأنتهم.

في المؤتمر اللاحق للاتحاد والذي عُقد بعد نحو أسبوعين من آخر مؤتمر، والذي عجَّله سلسلة المظاهرات العمالية العفوية والتي قُمعت بعنف شديد،

تقدَّم الرفيق رقم 17 باقتراح مفاده خروج الاتحاد للعلن، والدعوة إلى مظاهرة حاشدة استجابة للاستياء والغضب الجماهيري والرغبة بالتحرك التي يبديها الشعب ضد النظام الحاكم، ولقد حاز مُقترحه على موافقة الأغلبية التي حضَّر لها طويلًا.

كان حزبنا الذي خسر تحالفه وفقد غالبيته الائتلافية، قد اشترط بقيادة الأنسة هيا لعدم الانسحاب من الاتحاد عدم الكشف عن أسماء أعضائه، والاستمرار باستخدام الأرقام للتعريف بهم لضمان توفير الحماية لهم، ولقد وافق الحزب الأحمر على هذا الشرط على مضض، متخوفين من تأثير الانقسامات داخل الحزب على نفسية الثوار وعلى روح الثورة.

كانت مجموعة من أعضاء اللجنة التنظيمية قد أبدت تخوفها من الخروج للعلن، وعرضتْ العديد من العوائق الأمنية التي قد تنجم عن هذا القرار، والتي قد تؤثر على قدرتها على توفير الحماية لكافة الأعضاء وتأمين الاجتماعات وعقد المؤتمرات، ولكن ساهمت مجموعة من ممثلي الجناح العسكري -الحديث العهد- بتبديد المخاوف وتقديم الوعود بتوفير الحماية من خلال حسم المعارك بسرعة، ولقد ساهمت حجج البعض بحاجة الثورة لرموز وقادة وأسماء إلى امتثال الجميع للقرار بدون اعتراض.

كان يبدو أنَّ الحزب الأحمر قد أعدَّ لهذه المرحلة طويلًا، فبعد ثلاث أيام فقط من عقد المؤتمر والموافقة على المقترح، تقدَّم بخطته التي قام بإعدادها لإنجاح المظاهرة وتوسيعها، وكان الجميع مبهورين من دقتها ونفوذها وشموليتها، فتم الموافقة عليها مع إدخال بعض التعديلات عليها، وعلى الفور أُخذ العمل بها بحماس وسرّية وسرعة بعدما وفَّر الرفاق في اللجان المالية التمويل الكافي لتغطية نفقات جميع النشاطات.

كان الأسبوع الذي حُدد لإنجاز ما خطط له، مزدحم بأحداث تشغل السلطات عن الانتباه لتحركاتنا التي تطلَّب منا الجدول الزمني الضيق لها التخلي عن بعض التحوطات والاستغناء عن بعض الإجراءات الأمنية التي كانت دائمًا ما تبطئ تحركنا.

عكف مجموعة من الرفاق في هذا الأسبوع على إعداد الأناشيد الثورية وانتقاء الشعارات وتجهيز العرائض والملصقات والرايات، وتوزيعها بشكل غاية في السرية على الخلايا النائمة التي تنتسب للاتحاد والتي كان سبق له أن زرعها في مختلف المصانع والجامعات والاتحادات العمالية والنقابات والمؤسسات الدينية، وفي مختلف المدن والقرى، وذلك لنشرها بسرعة في

الموعد الذي يُحدده المؤتمر، لضمان انتشارها في آن واحد، وضمان وصول الرسالة للجميع، وضمان عدم ترك مساحة للسلطات للمناورة فيها، ولترك انطباع لدى النظام الحاكم بقوة الاتحاد واتساع رقعة نفوذه وحربه، والأهم من ذلك كله بالنسبة لحزبنا هو ضمان سلامة الرفاق في كل مكان، والحفاظ على قدرتهم على التحرك بالحفاظ على تخفيهم وسرية تحركاتهم.

وأيضًا عكف مجموعة من الرفاق على إعداد التقارير والمقالات الثورية لضمان نشرها في الموعد المُحدد في مختلف الصحف والمجلات والقنوات الإعلامية المُعارضة، التي أُخذ بتهيئتها للحدث بشكل سري.

أخذت مجموعة من الرفاق على عاتقها مهمة شراء السلاح وتهريبه وتوزيعه على السرايا والخلايا النائمة التي أوكل إليها مهمة تأمين الجماهير والقيام بالعمليات العسكرية المختلفة والتي كان أبرزها السيطرة على المقار الأمنية والعسكرية في مختلف أنحاء البلاد، والتي فشلت معارضة حزبنا إيقاف تشكُّلها، والتي من أجل تقليل الأضرار أخذ الحزب بوضع العراقيل لتحركها ونشاطها، وشروط قاسية وصعبة للموافقة على السماح لها بالتحرك.

وأخذت مجموعة أخرى من الرفاق على عاتقها مهمة التأثير على النظام الحاكم وهزيمته نفسيًا، وإضعاف تحصيناته أثناء الحراك، وذلك من خلال إعداد الخطط لاختراقه أمنيًا وعسكريًا وإعلاميًا واستخباراتيا، وذلك لتعظيم خسائره وتحجيم قدراته على الفعل ورد الفعل، ولتزويد الثوار بالمعلومات اللازمة ولتقليل الخسائر بين صفوف الثوار.

وأخذت الهيئة التنظيمية على عاتقها إعداد مزيد من الخطط وابتكار مزيد من الوسائل والآليات لتأمين المؤتمرات ومجلس الثورة والرفاق، وتأمين أماكن الاجتماعات، ومحاولة تفادي العوائق التي ستنجم عن خروج معظم الرفاق للعلن وكشفهم لهوياتهم بعدما قرروا التخلي عن أرقامهم والحماية التي توفرها لهم.

بعدما فرغتْ كل مجموعة من القيام بالمهام الموكلة إليها، خرج الرفيق رقم 17 بهويته الحقيقية مُعلنًا بدء الثورة بصفته رئيسًا للاتحاد، وداعيًا إلى مظاهرة حاشدة تنطلق من مدينتنا بعد يومين من إعلانه، هادفًا من ذلك عدم إتاحة الفرصة للسلطات للتخطيط، وضمان عدم حيازتها الوقت لاتخاذ الخطوات التي قد تُعرقل الحراك الجماهيري، وتزامنًا مع إعلانه كانت جميع الشوارع والمصانع والجامعات والنقابات غارقة بشعارات الثورة

والملصقات والرايات والعرائض، ومختلف الصحف والمجلات والقنوات الإعلامية تنشر التقارير والمقالات التي تحمل خبر الثورة والحراك الجماهيري الذي تمت الدعوة إليه.

لقد كان صباح ذلك اليوم الذي أُعلن فيه بدء الثورة صباحًا صاخبًا جدًا، فجميع السكان في مختلف المدن خرجوا إلى الشوارع يحتفلون بذلك الإعلان، ويهتفون بشعارات الثورة ويرفعون أعلام الاتحاد، وكانت مختلف المصانع قد تعطلت عن العمل احتفالًا بذلك الإعلان، ومختلف شرائح الشعب أخذت بإنشاد نشيد الثورة الذي انتشر بسرعة كالنار في الهشيم.

كان النظام الحاكم في ذلك الصباح قد تعرض لصدمة عنيفة لم يفق منها إلا الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم والتي فيها أصدر بيان حظر فيه التجول في مختلف أرجاء البلاد، بيان هدد فيه الشعب من الانجرار وراء التخريبيين قاصدًا جميع الرفاق، متوعدًا بأقصى عقاب وأشد أنواع التعذيب لمن تثبت عضويته في الاتحاد، ومصدرًا فيه أوامر لعناصر شرطته وجيشه بالانتشار في الشوارع ونصب الحواجز وقطع الطرق الرئيسية الرابطة بين المدن وإعاقة حركة السكان، معلنًا في ذلك البيان عن مكافئات مغرية لكل من يُدلي بمعلومات عن مختلف الرفاق في الاتحاد وعلى رأسهم الرفيق رقم 17، مُطلقًا العنان بعد ذلك البيان لوحشيته في الملاحقة والاعتقال والإعدام والنفي والتعذيب.

كانت ليلة ذلك اليوم الذي صدر فيه إعلان الثورة مرعبة ودموية إلى أقصى الحدود، هدف منها النظام الحاكم إلى ردع الشعب وبث الخوف والرعب في نفوس الجماهير. كانت المداهمات الليلة لبيوت من يُشتبه بهم على أنهم على صلة بالاتحاد ويشجعون على الثورة تكاد لا تخلو من شارع من شوارع المدينة لبث الخوف، وصوت الرصاص الذي كان يخترق أجساد الثوار يكاد يصُم الآذان لإيصال رسالة مفادها أن لا سبيل لنجاح الثورة، وبأن مصير أي تحرك لإسقاط النظام الفشل.

كان صباح اليوم التالي هادئًا، فاعتقد النظام الحاكم أنه نجح بإخماد حماس الجماهير وإطفاء غضبها وإحلال الخوف مكانه، فأصدر أوامر بالتراجع عن بعض إجراءاته التحرزية وذلك لإتاحة الفرصة للمصانع للعودة للعمل، ولكنه كان مخطئًا فليل ذلك اليوم، لم تكن فيه نافذة من نوافذ منازل جميع مدن البلاد لم يصدر منها هتافًا مناصرًا للثورة، ودعوة للمشاركة في مظاهرة اليوم التالي.

في اليوم المنتظر، خرج جميع سكان المدينة من رجال ونساء وأطفال وشيوخ إلى الشوارع بحيث لم يتبقَ أحد في منزله، فتشكلت مظاهرة حاشدة، أغلقت معظم شوارع المدينة وملأت مختلف الميادين، وذلك بالرغم من إجراءات وتحوطات عناصر الشرطة والجيش، وبالرغم من تهديدات النظام الحاكم.

تجرأ نتيجة حماس الجماهير وغضبهم وأعدادهم الكبيرة من تبقى من قيادات الحزب الأحمر والأحزاب المتحالفة معه والذين فضلوا البقاء متخفين، من الخروج للعلن مستغنين بذلك عن أرقامهم، ومنطلقين بذلك إلى المواجهة المباشرة مع النظام الحاكم ومعلنين عزمهم على إسقاطه.

لقد كان هذا الحراك الجماهيري استعراضًا لقوة الاتحاد ونفوذه، ولقدرته على قيادة الجماهير، وأيضًا من خلال هذا الحرك عبَّر الشعب عن مزاجه الحقيقي.

كانت الجماهير في هذه المظاهرة تصدح بشعارات الثورة التي منها: "كل السلطة للمجالس"، "يسقط النظام"، وغيرها من الشعارات، وكانت راغبة بأكثر مما كان مخطط له، مطالبة بالخروج عن السلمية، ولقد شعر مختلف الرفاق الذين كانوا في الميدان بتلك الاندفاعية التي لدى الجماهير، فراسلوا مجلس الثورة الذي كان يقوده الرفيق رقم 17، مطالبين إياه باستغلال الاستياء الجماهيري المتنامي بصورة مُضطردة وعفويًا، وتلبية طموح الجماهير واستغلال استعدادهم للفعل والتحرك بغض النظر عن المخاطر والعواقب.

اطلع مجلس الثورة على التقارير المرفوعة إليه من الرفاق في الميدان باهتمام وحذر شديد، ثم أصدر بسرعة بيان دعا فيه الجماهير -بمساعدة قادة الحراك الميدانيين- إلى اقتحام المقار الحكومية والسيطرة على الهيئات الإعلامية الموالية للنظام، والسيطرة على مختلف المصانع والأراضي الزراعية في المدينة، وإغلاق جميع مداخل ومخارج المدينة لضمان عدم وصول دعم لعناصر الشرطة والجيش المتواجدين في المدينة، والسيطرة على كافة السجون وإطلاق سراح جميع السجناء، مطالبًا بحمل السلاح، وداعيًا عناصر الشرطة والجيش للتمرد على النظام الحاكم والوقوف بجانب الشعب وتلبية إرادته، ومطالبًا الجماهير بعدم إفراغ الشوارع والميادين لتوفير الحماية والتغطية للثوار.

كان النظام الحاكم في البداية متخوف من إصدار أوامر بقمع المظاهرة بعنف وبسرعة وذلك لكونها حاشدة، وخوفًا من إخراجها عن سلميتها والانتفاض ضده باندفاع لا يمكن التعامل معه، وخوفًا من انشقاق عناصر الشرطة والجيش في حال مطالبتهم باستهداف جميع المتظاهرين الذين كان بينهم أقارب لهم وجيران، آمل بذلك تراجع الجماهير مع حلول الليل، فكان النظام الحاكم متخبط جدًا في تعليماته وبياناته التي كان في أحيان يُقدِّم فيها وعود بالإصلاح وفي أحيان أخرى تهديدات بأشد عقاب، ولقد لاحظ مجلس الثورة ذلك واستغله أحسن استغلال.

ولكن بعد بيان مجلس الثورة الأخير والذي طالب الاتحاد فيه الجماهير بالكفاح المسلح وبالسيطرة على مختلف المقار والمنشآت الحكومية، فقد النظام الحاكم صوابه، وأصدر أوامر وتعليماته لعناصر الشرطة والجيش بالتحرك وقمع الجماهير بأقصى درجات العنف وتطهير الشوارع، واعتقال قادة المظاهرات وإعدامهم على الفور ميدانيًا، وإغلاق مختلف الصحف والمجلات المعارضة، وتسريح عناصر الشرطة والجيش المتساهلين في ردع المتظاهرين، واستعادة جميع المقار والمنشآت الحكومية التي سقطت بأيدي الثوار.

ثم أخذ النظام الحاكم من خلال وسائل إعلامه بنشر الشائعات حول قادة الثورة لتشويه سمعتهم، وبإصدار العديد من التهم في حقهم أبرزها الخيانة والتبعية لأجهزة استخبارات الدول المعادية، وأخذ بتشويه أيديولوجيا الأحزاب المعارضة، محذرًا الشعب في حال اختيارها بحياة أشد بؤسًا وأكثر فقرًا، حياة فيها الجوع والفقر والقيد والتعذيب والموت.

ولكن على الرغم من كل هذه المحاولات، صُدم النظام الحاكم بفشله، فهو لم يكن يتوقع استسلام جميع عناصر شرطته وجيشه في المدينة لجيش الثورة الذي تحرك بخفة وسرية وسرعة بأوامر من مجلس الثورة قبل صدور بيانه. لقد واجه جيش الثورة صعوبات فقط في الناحية الشمالية من المدينة، ولكن مع توفير الدعم للثوار هناك، تمكنوا من تحييد جيش النظام الذي أعلن استسلامه بعدما حوصر.

بعدما أعلن مجلس الثورة سيطرته على جميع أنحاء المدينة بمرافقها ومصانعها وشوارعها وسمائها وأرضها، انتشرت أخبار هذا الانتصار في كافة مدن البلاد.

أوجدت هذه المظاهرة وهذا النجاح فكرة فحواها أن تغيير ما يوشك على الحدوث، فتولَّدت آمال لدى الشعوب بأن هناك الجديد، فكان كل شيء يُنبئ بمد ثوري كبير.

انفجرت بعد انتشار أخبار الانتصار الذي تحقق سلسلة من المظاهرات عمت كافة أرجاء البلاد في مختلف المدن وسرت موجة من الإضرابات، أخذ مجلس الثورة بتحفيزها ببياناته التي كان يُصدرها، وبإدارتها بعبقرية فذة وذلك عن طريق مختلف الرفاق المنتشرين في الميادين والمصانع والجامعات والاتحادات العمالية.

أعطى النظام الحاكم الأوامر بإنزال جميع الآليات العسكرية الثقيلة إلى الشوارع، وأمر بقمع الجماهير بعنف شديد، ونجح بذلك باستعادة السيطرة على بعض المدن التي سقطت، وسقط نتيجة ذلك عدد كبير من القتلى يُقدَّر بالمئات بين صفوف المتظاهرين والرفاق، ولكنه فشل باستعادة السيطرة في بعض المدن بعدما اشتعلت فيها حرب شوارع أجبرت قوات الجيش والشرطة على التراجع وكبدتها خسائر كبيرة، رفعت من معنويات الثوار وحفزت الجماهير على الكفاح المُسلح.

شهدت هذه الفترة يا صديقي عودة لمعظم أعضاء اللجان المركزية لكافة الأحزاب من منفاهم، وأخذوا بالقيام بأدوارهم الثورية التي حُددت لهم كلٌ حسب قدراته وإمكانياته. وتم العمل في هذه الفترة في المناطق التي نجح الثوار في السيطرة عليها على تعيين الرفاق الأقدم والأقدر والأكثر إحاطة بأيديولوجيا الحزب لإدارتها، ولضمان عودة المصانع للعمل لتوفير احتياجات السكان لتفادي تذمرهم في حال طال أمد الثورة.

في البداية كان هناك تضارب بين أوامر بعض اللجان العسكرية، وأوامر بعض المجالس والاتحادات النقابية العالمية، ولكن مجلس الثورة سارع إلى التوفيق بين مطالب الجميع لتفادي الانقسام والخلاف والاقتتال الداخلي.

كان أيضًا في هذه الفترة مجلس الثورة قد أصدر عفو عام، وذلك لاستمالة الجميع للثورة والعمل المسلح، فأفرغت جميع السجون التي كانت تحت سيطرة الثوار. كان الرفاق الذين كانوا في السجون بالرغم من محاولات كسر عزيمتهم وإحباط معنوياتهم وإذلالهم بالتعذيب الذي تعرضوا له، مؤمنين بحتمية الثورة وبالهبة الشعبية التي كانوا يتوقعون قربها وبانتصار قضية الشعب، ولهذا كانوا ينظِّمون أنفسهم داخل السجون ويخططون لخطواتهم خارجها، يوكلون المهام لبعضهم البعض، ويوزعونها على أساس

الكفاءة، ولهذا عندما انطلقت الثورة وتم تحرريهم خرجوا كأفواج منظمة وشاركوا في المعارك بكفاءة عالية.

كان مجلس الثورة قد توجه خلال تلك الفترة ببيان لعناصر الشرطة والجيش للانتقال إلى صف الثورة وتأييدها والوقوف بجانب الشعب، ولقد نجح البيان بتشجيع فيالق ووحدات كاملة للانضمام إلى صفوف الثوار، ومن تحييد آخرين اختاروا البقاء في منازلهم وعدم الميل لأحد.

كان آن ذاك قد تشكَّل للثورة جيش مُنظَّم كامل العدة والعتاد، أُطلق عليه اسم الجيش الأحمر، وكان له انتشار واسع وسيطرة مُحكمة على معظم أرجاء البلاد، كان يتلقى تعليماته مباشرة من مجلس الثورة الذي حرص على أن يكون له مهمات دفاعية وهجومية.

كان في تلك الفترة قد تقرر إنشاء لجنة إدارية، عُهد إليها تنظيم العمل بالمصانع والأراضي الزراعية ومختلف الشركات، ولجنة تموينية عُهد إليها تنظيم التوزيع، وضمان إمداد السكان والثوار بالمواد الغذائية، بهدف إفشل مخطط النظام الحاكم الذي كان يهدف لتجويع السكان في المدن التي سقطت لدفعهم للتراجع وإفشال الثورة، وتقرر أيضًا إنشاء مكتب إعلامي ضخم واسع الانتشار وصحيفة تكون هي لسان الثورة.

حاول النظام الحاكم خلال هذه الفترة تشويه الثورة وذلك بارتكاب مجازر ومذابح أحالها للجيش الأحمر، ولكن كانت سمعة جيش النظام الحاكم تُكذِّبه، وتدفع الناس لتصديق الثوار.

شيئًا فشيئًا أخذ بعض داعمي النظام الحاكم وخصوصًا من البرجوازيين بالتخلي عن دعمه بعد تحقيق الثوار انتصارات توحي بقدرتهم على إسقاطه، وبعدما شعر البعض بالخوف على استثماراتهم وممتلكاتهم وتجارتهم في حال استمروا بدعمه، وبعد طمع البعض منهم بالسيطرة على السلطة بعد إسقاطه واحتكارها وتطويعها لخدمة مصالحهم، وأيضًا بعدما عجز البعض منهم عن تحمل تبعيات وتداعيات الإضرابات التي تسببت بشل مصانعهم وتعطُّل تدفق الأرباح.

ولهذا يا صديقي كان اصطفاف كثير من البرجوازيين بجانب الثورة ودعمهم لها مشروط، ولكن كان مجلس الثورة مجبر على القبول بتلك الشروط التي قبلها على مضض آملًا التخلص من النظام الحاكم بأسرع وقت بعدما أخذ

حماس الثوار بالفتور نتيجة الخسائر الكبيرة التي تكبدوها بعدما تلقى النظام الحاكم الدعم من تلك الدول التي تخوفت من مد ثوري يطالها.

بعد تحالف مجلس الثورة مع البرجوازيين ازداد احتقان السكان في مناطق سيطرة النظام الحاكم، مما دفعهم للمشاركة بالثورة، وبهذا كان يومًا عن يوم تزداد مساحة سيطرة مجلس الثورة وتحالفه البرجوازي.

لقد كان فجر كل يوم جديد لا يطلع إلا على انتصار جديد للثوار، إلى أن تم إسقاط النظام الحاكم وهروب معظم ممثليه إلى خارج البلاد، وإلقاء من فشل في الهرب في السجون، وذلك في الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر)، الذي عُدَّ تاريخ أعظم ثورة قامت بها البشرية، تاريخ لثورة ستغير مجرى التاريخ، تاريخ لثورة كونية، تاريخ لثورة ستجتاح العالم بأكمله.

قبل سقوط النظام الحاكم كان هناك تحالف نشأ في السر بين مجموعة من الرفاق من مختلف أحزاب الاتحاد وبعض البرجوازيين، هدفه السيطرة على السلطة بسرعة وخفة في لحظة سقوط النظام الحاكم وهذا ما حدث.

كانت الطبقة البرجوازية تترقب الأحداث وتحاول استباقها، فلقد كانت متخوفة من البقاء على عداء مع البروليتاريا ولهذا حاولت تقديم تنازلات لإرضائها في أحيان معتقدة بذلك أنه سيتاح لها في حال نجاح الثورة التنافس بحرية وعدالة مع الطبقة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية، وعلى الرغم من ذلك كانت متخوفة من اليساريين، وغير متقبلة لاحتمال سيطرتهم على الحكم، فكانت تدعم النظام الحاكم لحاجتها إلى قوته البوليسية التي بإمكانها توفير الحماية لملكيتها من اليساريين المطالبين بتأميم مختلف المرافق والمنشآت، ولهذا كانت الطبقة البرجوازية منقسمة، فالطامعة كانت تقف بجانب بعض الرفاق غير المحسوبين على أقصى اليسار والذين منحوهم وعود وضمانات تكفل عدم المساس بملكيتهم، أما المُستكفية فكانت تقف بجانب الطبقة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية لحماية ملكيتها من رفاق أقصى اليسار الذين كانوا يدركون أنَّ قطار الأعمال الثورية قد فات الطبقة البرجوازية.

حدثت خلافات حادة بين الرفاق في مختلف الأحزاب في آخر اجتماع بسبب هذا التحالف السري كادت تتطور لعراك بالأيدي، خلافات عادت معها تهم كالخيانة والطمع بالسلطة والجشع وغيرها من التهم. فتسبب هذا التحالف بين البرجوازيين وبعض الرفاق في حدوث انشقاقات وتصدعات في الاتحاد أدَّت إلى تفككه وانهياره.

كان الرفاق الذين تحالفوا مع البرجوازيين يبررون تحالفهم بافتقارهم إلى الخبرة في إدارة البلاد، ويتحججون بقدرة البرجوازيين الكبيرة على الإدارة والقيام بمهام لا يستطيع غيرهم القيام بها، وبخوفهم من غرق البلاد باقتتال داخلي يغرق البلاد بحرب أهلية يطمع ويسعى فيها الجميع لشغل الكراسي الفارغة.

لقد كان الجميع مصعوقًا يا صديقي من هذا التحالف شاعرين بالخيانة والإهانة. لقد كان معظم الرفاق وخاصة أولئك المنتسبين للحزب الأحمر يكشفون للرفاق الذين تحالفوا مع البرجوازيين عما يدلل ويؤكد على قدرتهم على إدارة البلاد، ويقدمون الأدلة على ما يشير على عدم نزاهة البرجوازيين في دعمهم للثورة، وعلى ما يؤكد على أنهم لم يدعموها إلا لتعظيم أرباحهم وسرقة الشعب.

لم تكن تلك الجدالات ذات جدوى ونفع، فلقد كان قد حسم أمر من سيحكم البلاد، وذلك بتراجع الجماهير بعدما شعرت بأنها أنهت ثورتها بإسقاط النظام الحاكم، وبخوف الرفيق رقم 17 ومعظم أعضاء مجلس الثورة من فقدان شعبيتهم بالضغط على الجماهير، وبخوفهم أيضًا من إشعال فتنة داخلية يؤسف بنتائجها على نتائج فترة النظام الحاكم.

انسحب الرفيق رقم 17 وحزبه بهدوء، ولكنه كان يدرك أنَّ هذا التحالف الذي قاده البرجوازيون سيتيح بنتائج حكمه الفرصة للجماهير لإدراك أن الثورة لم تنتهِ بإسقاط النظام الحاكم، بل إنها بدأت بذلك، ولهذا كان يعمل ويخطط لمرحلة ما بعد التحالف البرجوازي، يخطط ويهيئ لمرحلة حكم الحزب الأحمر.

نعم، لقد أدرك الرفيق رقم 17 أنَّ فشل التحالف البرجوازي لن يبقي للجماهير سوى خيار واحد متاح لهم، وبالتالي هذا سيزيد من شعبية الحزب الأحمر وسيعظم من قدرته على التأثير على الجماهير، نعم لقد أدرك أنَّ التراجع سيخلق للحزب الأحمر صورة الحزب الوفي المخلص النزيه، صورة الحزب الذي لم يساوم على حقوق الشعب، صورة الحزب الذي لا يريد غير العدالة والمساواة والحرية للشعب، لقد أدرك أنَّ فشل التحالف البرجوازي سيكشف حقيقته وتجعل أيديولوجيا حزبه هي الأيديولوجيا المرغوبة شعبيًا، لقد أدرك أنَّ فشل التحالف البرجوازي سيدفع الشعب لإدراك حقيقة أنَّ هناك التفاف على الثورة ومحاولة لسرقتها.

أعترف يا صديقي، لقد أدار الرفيق رقم 17 الحراك الجماهيري بحنكة فريدة، وكذلك أدار الانسحاب الذي حتمًا سيكون له ما بعده، ولهذا أعتقد أنه سيتمكن حتمًا من إدارة الحراك الذي يهدف إليه بذات جودة الإدارة السابقة. أنا معجب به جدًا. لقد كان بخطط لكل شيء ويراقب وضع البلاد عن كثب ويزود الثوار بالبيانات والخطب الثورية التي لها القدرة على التوجيه واستنهاض الهمم ما ليس لغيرها. له نظرة سياسية لا تقارب الصواب بل تصيبه، وله قدرة على الإدارة تكاد تحسب بمتابعتها أنه إله، له القدرة على توقع ما سيكون وما يُخطط له. إنه عبقري، لا يدَّعي ضعفه في أحيان إلا للكشف عن أعدائه الذين تخفوا بثوب الصداقة، ولا يدَّعي العداوة مع البعض إلا للكشف عن تلك العداوات التي تخفى عنه. يا لها من عبقرية هذه التي يحوزها.

تراجع الحزب الأحمر في هذه الفترة إلى إعداد الكوادر التي يضطلع بعضها بالعمل التنظيمي والبعض بالعمل العسكري والبعض بالعمل الإعلامي والبعض بالعمل التوعوي، وبتكوين التعاونيات والمجالس وتحفيزها للحراك القادم.

بالرغم من كشف الحزب الأحمر عن قوته في هذا الحراك وعن قياداته، إلا أنه ما زال من الصعوبة تقدير عدد المنتسبين إليه وعدد النقابات والمجالس واللجان التابعة له، والتي تنتشر في أكثر من مئتين مدينة. لقد تمثلت قوة هذا الحزب الهائلة والمخيفة بصلته المباشرة والدائمة بالجماهير وبالوحدة النظرية وبالتكاثف التنظيمي وبالبرنامج المشترك وبالالتزام بنظام داخلي صارم.

ستسألني بعد كل هذا العرض: ما هو دور حزبنا طوال هذه الفترة؟ صدقني لم أنْسَ، فلقد كنتُ سأطلعك على ذلك، ولكنني كنتُ أحاول تأجيل ذلك لعدم رضاي عن الدور الذي حددته له الظروف، لطمعي بدور أكبر لم تكن الظروف مهيأة لنا للعبه، لعدم رضاي عن هدف الحراك الجماهيري، لعدم رضاي عن تداعيات هذا الحراك على الحزب.

لقد كانت هذه الفترة عصيبة على الحزب يا صديقي، لقد كادت تُفتته وتتركه بلا أدنى فرصة للحياة من جديد. لقد تسببت هذه الثورة بانقسامات وخلافات داخل الحزب على أثرها انسحب منه بعض الرفاق وفضلوا الانتماء إلى أحزاب أخرى، وانبثقت تيارات داخل الحزب تهدد مبادئه وتكاد تعلن عدم

جدواها وسلبيتها، وأخذ على أثرها بعض الرفاق في الحزب بالفعل بدون التزام بمبادئ الحزب وتوجيهات قيادته.

ذلك كله سببه يا صديقي موقف قيادة الحزب وعلى رأسهم الأنسة هيا من الثورة الحالية. في بداية الثورة كانت تجري الاجتماعات بين الرفاق في الحزب طوال الليل والنهار في مختلف الأماكن والأزمنة لتبني موقف مجمع عليه -متوافق مع مبادئ الحزب- من الثورة الحالية، وكانت النقاشات والمجادلات الحامية تستمر بدون أن تخلص الاجتماعات إلى تبني موقف موحَّد يُرضي جميع الرفاق. هناك من كان يرى أنَّ لا جدوى من المشاركة في هذه الثورة السلطوية وأنَّ المشاركة فيها خيانة لمبادئ الحزب، بينما الطرف الآخر كان يشعر بالخيانة لعدم المشاركة في الحراك الثوري، ويرغب جدًا بمشاركة الحزب فيه وقيادة الجماهير.

لقد كان دور الأنسة هيا في إدارة هذه النقاشات والتفاهمات والجدالات دور بنَّاء ساهم في تقليل الضرر وضمان عدم تفكك الحزب لأحزاب عديدة. لقد استطاعت أن تمنح الغالبية لرأيها الداعي إلى عدم المشاركة في الثورة كمطالبين بالسلطة أو بتغيير شاغليها كما تفعل الجماهير ومختلف الأحزاب وذلك حفاظًا على الالتزام بمبادئ الحزب وهدفه، واقتصار مشاركتنا فيها على تقليل الخسائر في صفوف الجماهير المندفعة بصفتنا حزب من أحزاب الاتحاد.

أخذت الأقلية التي لم توافق على موقف الحزب من الثورة بقيادة الجماهير في بعض المدن، ونجحت بالسيطرة عليها وطرد ممثلي النظام الحاكم منها بدون عنف ملتزمين بمبادئ الحزب، ولكن سرعان ما حدث ما حذرت منه الأنسة هيا وهو الاضطرار إلى التخلي عن أهم مبادئ الحزب للدفاع عن المدن التي سقطت بأيدي الجماهير، فأخذت الأقلية بالكفاح المسلح للدفاع عن المدن التي سيطرت عليها وللحفاظ على مكتسباتهم من أطماع الأخرين، وسرعان ما أعلنوا أنفسهم حكامًا لها متخلين بذلك عن مبدأ اللاعنف ومبدأ اللاسلطة. لقد تعرضت تلك الأقلية لهجوم عنيف جدًا دفعها للرد بنفس درجة العنف التي حوربت بها، فاستغل النظام الحاكم ذلك وشوَّه صورة الحزب وأعضائه وجعلهم غير مرغوبين ومطاردين دائمًا وغير ملتفت لأيديولوجيتهم، وبذلك بات الحزب الأحمر هو الحزب الأكثر شعبية، وبات حزبنا مجرد أقلية. لا، لم يُشكك أحد في صدق ونزاهة تلك الأقلية التي تسببت للحزب بهذه السمعة، ولكن عُيب عليهم حماسهم المفرط ورغبتهم

بالتغيير بسرعة وعدم اطِّلاعهم بقدر كافي على مسار وظروف الثورات في التاريخ، عُيب عليهم نقص خبرتهم وتجاربهم واندفاعهم الانتحاري.

منذ بداية الثورة، أصدرت الأنسة هيا بصفتها رئيسة الحزب قرار بإيقاف جميع نشاطات الحزب التوعوية والتنويرية، وبالرغم من عدم رضى الجميع عن هذا القرار في البداية واعتراضهم عليه أشد معارضة، إلا أنَّ الجميع امتثل له. نعم يا صديقي، لقد كان قرارها هذا يدل على عبقريتها، لا ينم إلا عن شخصية لها نظرة سياسية عميقة لا تجانب الصواب. نعم، كيف سيتاح للشعوب الإدراك وهم في هذه الظروف وهم ما عليه من حماس أننا لا نحاول إقناعهم بالعدول عن الطريق الثوري، بل بالعدول عن الطريق الثوري السلطوي المندفع الذي لا يُحل تغيير ولا يُقدِّم خدمة والذي كان دائمًا ما يبث اليأس والإحباط في نفوس الثوار ويتسبب بعزوفهم لوقت طويل عن المسار الثوري؟! كيف سيتاح للشعوب أن تدرك في هذه الظروف وبحماسها وباندفاعها الانتحاري أنّ الثورات المضادة التي تغرق الدول بالدماء والانهيار الاقتصادي والخراب تترصد هذه الثورات السلطوية للانقضاض على نتائجها وتحطيم غرور مُحركيها وكسر عزيمة الجماهير وتبريد حماسهم؟! كيف سيتاح للشعوب عدم اتهام حزبنا بالسلبية والخيانة وهي خيارها العنف كوسيلة لرد العنف؟! نعم يا صديقي، لقد أبقى قرارها فرصة للحزب للوجود والعودة من جديد.

يا إلهي يا صديقي كم حذرت الاتحاد وكم كانت متخوفة من استغلال الجماهير ودفعها للتحرك بتعظيم توقعاتهم للعوائد، بدلًا من تصويب قناعاتها والأيديولوجيا التي تحملها. يا إلهي كم حذرت من أنَّ هذا التوجه يتسبب في حال فشل الثورة بتحقيق هذه الوعود وتلبية هذه التوقعات بإحباط الجماهير ويأسها وبالتالي عدم تحركها لإيقاف الثورات المضادة التي ستكون ما دامت الثورة موجودة. لقد أدركتْ يا صديقي أنَّ التهرب من الوعود وتدهور الوضع الاقتصادي والقمع هي الأسباب التي دفعت الجماهير للتحرك متأسفة أنه لم يكن تحركها نتيجة تنامي الوعي السياسي لدى الجماهير أو لأيديولوجيا تحملها، متخوفة بذلك من خطر هذه الدوافع على الثورة ومكتسباتها.

على الرغم من تلك الأدوار التي لم نكن راضين عنها تمامًا، وعلى الرغم من التصدعات والانقسامات داخل الحزب إلا أننا حصَّلنا خبرة من هذه التجارب القاسية، ستمنحنا قدرة على التصرف بشكل أصوب في قادم الثورات، وأيضًا يا صديقي تمكَّنا في ظل هذه الظروف من الاضطلاع

بعمل كبير على المستوى الفكري والتنظيمي للحزب، فلقد تمكنتُ أنا والعديد من الرفاق بتزويد الحزب بتقارير وأبحاث عن سيكولوجيا الجماهير والنظام الحاكم والأحزاب ستسهم بتوقع كثير من خطواتهم في الثورات المستقبلية.

هذا معظم ما جرى خلال هذه الفترة التي لم أراسلك بها.

قبل نحو يومين، خرجت أنا والأنسة هيا للتجول في الشوارع لتفقد أحوال الناس، وكانت هذه هي المرة الأولى لي معها بعد انقطاع طوال الشهرين الماضيين لانشغالها بالثورة وإدارة شؤون الحزب، ولخروجها المتواصل مع الرفيقة رقم 28 الذي ما زلتُ أشك بأن هناك هدف له متعلق بالحزب.

كان الجو غائمًا، شديد البرودة تفوح في الهواء رائحة المطر الذي تنبأت به الأرصاد الجوية، وكانت الشوارع ما زال فيها شيء من أجواء الاحتفالات بمناسبة إسقاط النظام الحاكم، وما زال فيها بعض التجمعات هنا وهناك والتي يفاخر فيها المحاربون بإنجازاتهم والعمال بإضرابهم والفلاحين بتمردهم، والتي ما زال بعض الثوار فيها محتفظين بحماسهم وبخطبهم الثورية، والبعض يرددون أناشيد الثورة وشعارتها.

بينما كنا نسير ونقف لمتابعة الأجواء الاحتفالية لهذه التجمعات، سمعنا فجأة صوت الرفيق رقم 17 ينبعث من إحدى المقاهي يخطب بمجموعة من رفاق حزبه وبالجماهير، فدخلنا المقهى وأخذنا نستمع لما تبقى من خطبته وكان هذا الجزء المتبقي منها حماسيًا جدًا، كما هو الحال في جميع خواتم خطبه، وكان كالتالي:

"لوحوا بأشرعتكم للرياح أيها الرفاق لكي تجتاز بكم ما في هذه الحياة من كدر العيش وتنقلكم من جحيمها إلى نعيمها. أيها الرفاق اصعدوا إلى السماء بأعالي الأرض لكي تتلقف أيديكم الماء العذب الذي لن تستطيع أيديهم القصيرة وانحطاطهم تدنيسه. أيها الرفاق ابنوا بيوتكم عند ينابيع الأنهار فلا يهم الشارب منها دناسة مصباتها. هؤلاء الأوغاد أيها الرفاق النار التي يشعلونها لتدفئتهم أو لإطعامهم سريعة الاشتعال حارقة، تحاول إيصال رسائل شوقها إليهم. نعم أيها الرفاق، أنا اليوم متقمص دور الثائر الواعظ والمرشد لكم لا الشاتم، فإذا لم يكن دور المرشد والناصح كافيًا، فلن تجدونني إلا مرتديًا ثوب الشاتم لعلي أجد به مستمعًا ومتحركًا.

ساعدوا الرياح باقتلاع أوراق الخريف أيها الرفاق، فلربما تجدوا ثمرة متخفية من أيدي الصيف.

أيها الرفاق بدون معرفة بأيديولوجيا الحزب وبدون مطالعة ما نحن سوى لحوم طازجة على شوَّاية في يوم تداعب به نسمات الهواء المُحمَّلة بروائحنا أنوف الطامعين. كيف لنا أيها الرفاق أن نصد الطامعين وقد بعثت الرياح بروائح سذاجتنا إليهم.

نعم أيها الرفاق، إنكم تتنفسون بحشرجة المختنق، أما آن لكم أن تطلبوا تلك الميتة التي تدع لغيركم مجالًا للعيش، تدع لتلك الأجيال المستقبلية الحياة التي لا تُتهم بالتقصير بتصديرها إليهم.

عالمنا هذا ما زال يتجاوز حدوده معنا، لأننا لم نُعرّفه بها بعد، لأننا لم نقف أمامه متمردين ثائرين، صارخين في وجهه بغضب، لأننا بعد لم نملك تلك الجرأة التي تدفعنا للتمرد عليه قائلين: قف! أنت مخطئ في حقنا.

أيها الرفاق الحزب هو الوحيد القادر على توفير المستقبل الذي نطمح إليه ونطمع به، فهيا معًا لخدمة الحزب لكي يتاح له خدمتنا جميعًا.

اشعروا بالإهانة الموجهة إليكم بالقدر الكافي لكي يتاح لكم النهوض والانتفاض مجددًا، اشعروا بعدم الاحترام لكي يتاح لكم المطالبة به.".

وما أن انتهى حتى أخذ جميع الرفاق في المقهى بالتصفيق وبالهتاف: "كل السلطة للمجالس."

رآنا بعدما نزل من فوق الطاولة التي كان يُلقي خطبته عليها، فأسرع متوجهًا نحونا وأخذ بالترحيب بنا بحرارة كبيرة ومهنئًا إيانا بالنجاح بإسقاط النظام الحاكم.

أعرب عن رغبته بالمغادرة للحديث على انفراد وبعيدًا عن الضجيج فاصطحبنا بعدما استأذن من بعض رفاق حزبه إلى منزل لا يبعد كثيرًا عن المقهى الذي كان يلقي خطبته فيه، كان يبدو أنه استأجره للتخفي فيه وللبقاء قريب من الجماهير، وما أن وصلنا وجلسنا حتى قدَّم إلينا القهوة وصنف من أصناف الحلويات الدسمة.

بعدما جلس وانتهى نائبه في الحزب الأحمر من إلقاء بعض النكات ومن سرد بعض القصص المضحكة التي حدثت معه في الآونة الأخيرة، سأل الأنسة هيا عن رأيها بالحراك الذي أسقط النظام الحاكم، فأخذتْ تُعبّر له عن رضاها عن بعض النتائج والأحداث وعن عدم رضاها عن بعضها، وأيضًا أخذت تعرب له عن تخوفها ممايحمله المستقبل، ثم توجه بسؤاله لي فعبَّرتُ

بدوري له عن خوفي من استباق الحكم، مؤكدًا له على أنَّ عواقب الأحداث ونتائجها لم يكتمل ظهورها بعد، فانطلق من إجابتي بعد إعجابه بها للتأكيد على أنَّ الحراك لم ينتهِ بعد وبأنه سيستكمل مسيره تجاه أهدافه في أقرب فرصة تتاح له.

قال نائبه بحماس:

- نحن الآن بصدد التحضير لحراك جماهيري عريض يتم القضاء به على كافة التناقضات في المجتمع بالقضاء على كل تقسيم طبقي.

فقالت الأنسة هيا:

- كل شيء يُنبئ بنجاح حراككم القادم، فاندفاع البرجوازيين لاستغلال السلطة لتحقيق أكبر استفادة شخصية لهم بسرعة قبل تدعيم حكمهم ينبئ بذلك، وتخلي معظم اليمينيين واليسريين عن عدد من المسلمات التي طبعت الموقف التقليدي لليمين واليسار أيضًا ينبئ بذلك، والبعد المادي للثورة أيضًا يؤكد على ذلك، وانسحابكم من عملية محاصصة السلطة الذي زاد شعبية حزبكم ينبئ بذلك، والخطاب الحماسي لحزبكم أيضًا ينبئ بذلك. نعم، كثيرة هي الأسباب التي تمهد لذلك، سيطول حديثي في حال عدَّدتها، ولهذا أكتفي بما ذكرته.

فسأل النائب بتعجب:

- طالما تدركين ذلك، فلماذا لا تلبين دعوتنا للانضمام للحزب، أو على الأقل لماذا لا تساعدوننا في التحضير للحراك القادم وتشاركوننا التطلعات، لماذا لا نُعيد تشكيل اتحادنا، لماذا لا نسمح للاتحاد الأحمر والأسود أن يعود ليُهدد جميع الأنظمة الحاكمة، لماذا نُبقي على استمرار انقسام الأحمر والأسود، لماذا هذه السلبية.

- أنا أأسف لذلك حقًا، ولكن يجب أن ندرك أيها الرفاق أنه طالما بيننا كل هذه الانقسامات والاختلافات، فإن اتحادنا مجددًا لن يكون إلا مُعرقلًا لكلينا. لا يمكن للاتحاد أن يكون له توجه إلا إذا كان معرقلًا لتوجه أحد الحزبين، ولهذا من الأفضل عدم عودته. ستتاح لكم ثورتكم، ولكن أيضًا ستتاح لنا ثورتنا التي ستكون بعد وقت قصير ولربما طويل من فشل ثورتكم في تحقيق أهدافها ومطالب الشعوب منها. أنتم الآن لستم بحاجتنا، فلديكم الظروف التي ستكفل نجاح ثورتكم على تحالف البرجوازيين بدون مساعدة منا. ستكون مقاليد البلاد في أيديكم بمدة أعتقد أنها لن تزيد عن سنة.

- إذًا فأنتم تعوّلون على فشلنا.

- بل نعول على عدالة مبادئ حزبنا، وعلى حتمية ثورتنا.

قال الرفيق رقم 17:

- دائمًا ما كان موقفكم من الثورة رجعيًا. نعم، إنَّ أهدافكم لا ترقى إلى مستوى المشاكل الواقعية للعصر، فأرجوكم كفى عزاءً بالخيال يا رفاق.

فردَتُ عليه بهدوء:

- اتهامك هذا يا رفيق ستسحبه في المستقبل القريب، أنا متأكدة من ذلك، فعقلك الفذ سيجبرك على فعل ذلك. نعم، كما قالت الرفيقة ستتمكنون من الوصول إلى الحكم وتطبيق أيديولوجيا حزبكم، ولكن عجز حزبكم عن الإيفاء بمطالب الشعب سيقوده إلى الوقوف مع مناهضيكم وبالتالي سيقوده إلى الوقوف ضد أفكاركم وفلسفة حزبكم. إنَّ التبعية الاقتصادية تتسبب دائمًا بعدم استقرار الولاء. إنَّ التمسك بقيم كالحرية والعدالة هو ما يدفع لاستقرار الولاء ولمحاربة البديل المنافس حتى لو كانت العوائد المادية لوعوده أكبر.

ثم أكملت الأنسة هيا:

- إنَّ الدولة التي تعجز ثورة شعبها عن إحداث ثورة اقتصادية وتعظيم العوائد المادية، ثورة تدفع إلى تنصيب إمبراطور له أهداف امبريالية اقصائية عنصرية، يهدف إلى الالتفاف على ثورات الشعوب الأخرى واستغلالها لتحقق الرفاه لشعبه أو على الأقل المطالب الاقتصادية المطلوبة. ولهذا لا يمكن التعويل على الدولة لحماية الثورة وأيضًا لا يمكن التعويل على العوائد الاقتصادية لتحقيق ذلك. نعم، التنوير والقضاء على الدولة ونشر الفكر اللاسلطوي هو ما يكفل للشعوب كافة حقوقها وإشباع رغباتها وسلامة وعيها وثقافتها. نعم أيها الرفاق، إنَّ ثورتنا نحن في الحزب الأسود عالمية، تستهدف جميع أنظمة الحكم في آن واحد. نعم سيكتفي العالم من دفع السلطة بالسلطة وسيتاح المجتمع اللاسلطوي.

- بالمختصر، نريد تقليص تأثير المصالح الاقتصادية إلى أدنى حد ممكن لتتاح المطالبة بالحرية في كل زمان ومكان. البعد المادي لأيديولوجيا حزبكم لم نعد نستطيع التسامح معه، فتسامحنا معه يُعطِّل ثورتنا، ولكننا سنمنحه الفرصة ليكون خيارًا للشعوب لأننا على يقين من فشله. أعتذر فلسنا نحن من نمنحه الفرصة بل سيرورة التاريخ.

رد الرفيق رقم 17 بهدوء:

- لماذا إلى الآن أنتم عاجزون عن إدراك حقيقة أنَّ البعد المادي هو البعد المحرك للتاريخ؟! لقد قدَّمتُ صياغات عدة تأويلية للصراع البشري في مؤلفاتي، أبرزها الصيغة التي تعتبر أنَّ تاريخ كافة المجتمعات إلى الآن إنما هو تاريخ للصراع الطبقي، أنصحكم بالاستفادة منها ومطالعتها مجددًا، فأنا على يقين أنكم طالعتموها.

ردت الأنسة هيا:

- البعد المادي قاصر وعاجز عن تفسير حتى نفسه، أتعجب كيف تفسرون به التاريخ! إنَّ أبرز ما تجهلونه إلى الآن حقيقة أنَّ الصراع لا يمكن إرجاعه إلى وجود الطبقة بل إلى وجود السلطة. نعم، لا يمكننا القبول بفلسفة تطرح حل طبقة لمشكلة الصراع الطبقي، بحجة قدرة هذا الخيار على خلق المجتمع اللاطبقي، أو بحجة مساهمة هذا الخيار بتعظيم العائد وبالتالي نيل الجميع حصص أكبر، أو بحجة أنَّ هذا الخيار يُتيح للجميع الحياة العادلة. ما تجهلونه، حقيقة أنَّ السلطة باحتكارها طبقة ما هي السبب بوجود الصراع، ما تجهلونه أنَّ السلطة هي المُوجدة للصراع بخلقها للمركز، ما تجهلونه حقيقة أنَّ لا سبيل لتحقيق العدالة والحرية والمساواة بالسلطة. أيها الرفاق، لا تتحقق المساواة بإلغاء وجود طبقة ما بل بمنح الجميع القدرة على الانتماء لأي طبقة، وذلك بمحاربة سلطة الجميع. الوجود الطبقي حتمي لا مفر منه، ولهذا لا يمكن محاربة الصراع الطبقي بمكافحة وجود الطبقة. إنَّ خيار إلغاء وجود طبقة ما، يتيح الفرصة لكثيرين بالمطالبة بخيار إلغاء الوجود كحل لما يتم توصيفه من قبلهم كمشكلة، وبالتالي سيسبب هذا الحل الذي يقدِّمه حزبكم بظلم الأقليات العرقية والدينية والأيديولوجية وغيرها لدواعي عنصرية لدى البعض مثل نقاء العرق، ومكافحة الرغبات الانفصالية وغيرها من الحجج التي لها أبعاد عنصرية.

ثم تدخلت فقلت:

- إنَّ نزعتكم المادية في تفسير التاريخ، تسهم بتحريفه وعدم فهمه. للأسف، إنَّ اعتقادكم أنَّ البنية الفوقية القانونية والسياسية في المجتمع هي التي تعمل على تثبيت وترسيخ هيكله الاقتصادي، هو دافعكم للمطالبة بالسلطة بدلًا من رفضكم لها، متجاهلين بذلك حقيقة أنَّ اعتراضكم على التوجهات الاقتصادية السلطوية هو في حقيقة الأمر اعتراض على السلطة بحد ذاتها التي في حال حيازتكم لها ستنال توجهاتكم الاقتصادية ذات الاعتراض الذي كنتم تقدمونه

قبل حيازتها. نعم، ما تجهلونه أنَّ التغيير لا يحل بالسلطة بل بنقيضها. إنَّ تمسككم -الذي لا يستطيع أحد التشكيك بنزاهته- بإحلال المساواة يُبدد الحرية، في حين تمسكنا بالحرية للجميع لا يمس بطموحنا لإحلال المساواة. يستحضرني هنا قول لتوكفيل: "لم أعد أعتقد أنَّ الحب الحقيقي للحرية ينشأ من مجرد أفق المنافع المادية التي تجلبها، لأنَّ هذا الأفق ينتهي في كثير من الأحيان إلى الإظلام". إنكم تخلطون بين المنافسة والصراع، ولهذا تحاربون المنافسة وبالتالي تحاربون دافع من دوافع التطور والتقدم. نعم، هناك أسباب كثيرة لرفضنا أيديولوجيتكم.

- إن ادعاء وجود ضرورة في تبني أشكال شمولية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أي الحاجة إلى التخطيط الجماعي الشمولي بعيدًا عن الفردية والاستقلال، ادعاء يساهم بتمهيد عودة للخلف، بالتمهيد للرجعية، يسهم بإضاعة الجهود التي قدَّمتها البشرية وبصرف النظر عن التضحيات التي بذلت في سبيل إحراز تقدم يخدم البشرية. نعم، تحاول النزعة الشمولية الإبقاء على المجتمع المغلق الذي نحاول اختراقه للانتقال للمجتمع المفتوح. وعليه يا رفاق، موقفنا هو موقف تقدمي لا رجعي كما تدَّعون. نعم، من الآن فصاعدًا لن نشارك في أي ثورة سلطوية، لأننا بتنا ندرك أنها ستقوي من دعائم الدولة.

انتفض نائب الرفيق رقم 17 واقفًا والتقط معطفه، وأخذ يقول بغضب بعدما استشعر بأننا نهين توجهه الأيديولوجي ومرجعياته الفكرية:

- إنكم توغلون في النقد بشكل مقزز. لقد قال أحد الرفاق ذات يوم: "النقد يلتهم كل ما هو موجود، وعندما لا يبقى شيئًا يلتهم نفسه"، ولا أحسبه قالها إلا لأناس أمثالكم موغلة في النقد لكي لا تُبقي لأحد عملًا ولا فعلًا. إنكم سلبيون لدرجة أعجز أمامها عن احتمالكم.

ثم التقط معطفه وخرج غاضبًا وشاعرًا بالإهانة.

اعتذر الرفيق رقم 17 من تصرف نائبه، وأخذ بتبريره بدافع التماس الأعذار له، ثم قال وابتسامة على شفتيه محاولًا إكمال حديثنا وإنهائه:

- سأفكر بتمعن بأفكاركم وحججكم كما فعلت دائمًا، ولكن أيضًا أطالبكم بود ومحبة وبحق النضال المشترك التفكير بالإمكانيات الثورية لهذه الأفكار، والتمعن فيما إذا كانت تميت كل حراك ثوري أو تحييه، والنظر فيما إذا كانت تفصل المُنظِّر عن الثوري، والنظر فيما إذا كانت ممكنة حقًا أم هي

مجرد أهداف وأحلام طوباوية. أعلم أنكم تدركون أنَّ هدفكم يحتاج للكثير من العمل، وبحاجة للوقت، ولهذا أريد منكم النظر لثورتنا على أنها مرحلة لا بد منها قبل حلول ثورتكم التي أعتقد بولائكم هذا لأفكاركم وتمسككم بها سيتاح وقتها يومًا ما.

لطالما يا صديقي كان بارعًا في إنهاء الأحاديث التي لا يحسن لأطرافها الالتقاء أو تقريب وجهات نظرهم بها. انظر كيف يحاول تشكيكنا في أفكارنا واستمالتنا إلى أفكاره، انظر كيف يدفعنا للتعاطف معه، انظر كيف يحاول دفعنا للمشاركة في ثورته، انظر كيف يحاول بذكائه التلاعب بنا، انظر كيف يذمنا ويمدحنا في ذات الوقت. إنه خطير جدًا يا صديقي، ينبغي لكل من يستمع إليه الحذر من فخاخه التي ينصبها بكلماته. ولكنني بالرغم من أساليبه هذه إلا أنني ما زلت أراه صادقًا كل الصدق في مساعيه لخدمة الإنسان، ولا أعتقد أنني يومًا ما سأجرؤ على التشكيك بها. نعم يا صديقي، أنا أحد معجبيه بالرغم من كل هذا الاختلاف الذي بيننا.

بعدما ملأ فنجان قهوته مجددًا، سأل الأنسة هيا قائلًا:

كيف هو نشاطكِ الأدبي، أما من عمل قريب؟

- صراحة، بالرغم من إنشغالي بالعمل على مستوى الحزب، إلا أنني أخصص وقت لرواية أكاد أوشك على الانتهاء من إعدادها. ولكن أعترف أنها ستكون أقل أعمالي جودة لعدم نيلها الوقت الكافي.

- لا أعتقد ذلك. دائمًا تلك الأعمال الأدبية التي لا يرضى عنها أصحابها تكون الأكثر جذبًا. نعم، أنتم الأدباء تعجزون دائمًا عن توقع ردود الأفعل على أعمالكم وتسيئون تقديرها.

- لربما ذلك لأننا نحسن الظن بالقراء.

هنا انفجرنا بالضحك، متناسين بذلك جميع خلافاتنا واختلافاتنا. لقد كانت لحظات حميمية حيَّدنا فيها جميع ظروفنا التي تدفعنا لنقيضها.

سأل الرفيق رقم 17 بنبرة فيها ألم ومناجاة وتذمر بعض الشيء:

- ألا تشتاقان للحياة الهادئة؟ يا إلهي كم أشتاق إليها؟ أنا مرهق من هذه الحياة التي تستنفذنا وتشعرنا بالندم على ذلك بالرغم من أننا أبرياء. هل نحن أبرياء حقًا يا رفيقيَّ، أم أننا مذنبون ونستحق اللوم والندم وجلد أنفسنا؟ هل نفعل يا رفيقيَّ بإرادتنا أم بإرادة الحياة؟ إلى ماذا نزاحم بعضنا في هذه

الحياة؟ إلى أين سنصل؟ ولكن في البداية من أين ننطلق؟ أتشاركاني هذا التيه أم أنا فيه وحدي؟ يا إلهي كم تمنيت أن أكون محض فلاح بسيط بعيد عن كل هذه المعاناة، يقف بأرضه من الصباح حتى المساء بدون أن يترك تعبه له فرصة للتفكير في مشاكل هذا العالم.

فرددتُ عليه ولقد اعتراني بؤس قاتم:

- جميعنا في هذا التيه الذي أنت فيه يا رفيق. نعم، هذا التيه مكتوب استشعاره على أقل الناس حظًا والذين للأسف نحن منهم. وأيضًا من منا يا رفيق لا يشتاق للحياة الهادئة؟! نعم، سيبقى شوقنا لها يتعاظم وسنبقى بدون قدرة على إطفائه. كيف لمثل هذه الحياة أن تتقبلنا وتحتوينا ونحن بما نحن عليه من ضجيج. الحياة الهادئة تتاح لمن لم يهدرها، تتاح مجددًا لأولئك القادرين على التلذذ والتمتع بها، لا لأولئك المغلقين أمثالنا.

قاطعت لحظة تعبيرنا عن ضعفنا ومعاناتنا الأنسة هيا قائلة للرفيق رقم 17:

- ستكون مهمتك التي تتمثل باختيار زمن الحراك القادم شديدة التعقيد، فأي تأخير سيُفشِل تحركك لأن التحالف البرجوازي سيكون حين ذاك قد دعَّم نظام حكمه، وأي تسرُّع وتعجُّل سيفشله أيضًا لاحتمال عدم خروج الشعب للمشاركة، أو لاحتمال تعوُّد الشعب على الخروج ضد الأنظمة الحاكمة بدون منحهم الفرصة لتقديم وتنفيذ خططهم ومقترحاتهم.

- هذا في حال افترضنا جدية التحالف البرجوازي في التغيير، ولهذا أعتقد أنني لستُ أنا من سيحدد موعد الحراك بل هذا التحالف الذي تقوده أطماعه وصراع تقاسم الحصص إلى إثارة الشعب.

- صراحة، أجدك تستهين بقوة هذا التحالف. عليك أن تدرك أنَّ هذا التحالف لكونه برجوازي سيكون له امتداد عالمي وحلفاء في كل مكان، سيُعقِّدون من مهمتكم. إنَّ مصالح الطبقة البرجوازية في حال تم تهديدها، يُستعان دائمًا لحمايتها بإشعال الحروب العالمية أو الإقليمية، ولهذا أنا متخوفة من مثل هذه الحروب لا على ثورتكم فحسب بل على الإنسان في كل مكان. إنَّ النزعة الوطنية والقومية غالبًا ما تُسهم في إطفاء شكوى وأنين وحماس الشعوب الغاضبة من أنظمتها، وذلك بمساعدتها بتفريغ هذه المشاعر في الشعوب والأنظمة الأخرى.

- هذه ملاحظة مهمة جدًا. أأدركت الآن ما سر رغبتنا الشديدة بضمكِ إلى حزبنا.

ثم أمسك قلم وورقة، وأخذ يدون بعض الملاحظات، وبعدما انتهي عاد فقال:

- ها أنتِ الآن تعترفين بضرر وخطر هذه الطبقة، ومع ذلك ما زلت تأكدين على شرعية وجودها.

فرددتُ عليه بسرعة ولقد كنتُ متوقع لتعليقه هذا:

- هي اعترفت لا بخطر الطبقة بل بخطر السلطة التي تحوزها أي طبقة، ولذلك هي لا تطالب كحل للصراع الطبقي بإلغاء طبقة ما كما أسلفنا بل تطالب بالقضاء على سلطة كل طبقة.

- بالضبط هذا ما عنيته.

- يا رفيقيَّ، لقد اعتادتْ البشرية على دفع الفعل السلطوي بالفعل السلطوي لا بالفعل اللاسلطوي، ولهذا تجداننى أستعين به. صدقاني، إنني أتمنى من كل قلبي لكم النجاح بكسر هذه العادة البشرية التي أعترف بمرارتها وقسوتها، ولكن إلى حين ذلك الوقت الذي ستتمكنان فيه من كسر هذه العادة، أنا مضطر إلى الانغماس فيها أشد انغماس.

- يا رفيق، ذلك الوقت الذي ستتمكن فيه من كسر العادة لن يتاح لنا بدون استحقاق، بدون سعي منا جميعًا إليه، بدون شعور منا جميعًا أننا لسنا مضطرين للانغماس في تلك العادة. حقًا مؤلم أن يكون جلاء هذه الحقيقة للجميع بعد فشل مساعيهم السلطوية، وبعد فشل جميع أنظمة الحكم. لربما صَدَقَ بعض اللاسلطويين الذين يعتقدون أنَّ حلول المجتمع اللاسلطوي مرتهن بفشل جميع الأيديولوجيات السلطوية، نعم لربما صدقوا باعتقادهم أنَّ الفشل السلطوي هو السبيل للنجاح اللاسلطوي، لربما صَدَقُوا بالاعتقاد بأن الدليل اللاسلطوي القاطع غير كافٍ وبحاجة إلى مرارة الفشل السلطوي.

فقال الرفيق رقم 17 بنبرة المعترف بخطئه وبنظرات العاجز المدفوع لمسارات غير مساراته:

- نعم، لربما أنا وهذا العالم بحاجة إلى مرارة الفشل لإدراك ذلك. أعدكم أن أبذل قصارى جهدي للنجاح، ليتاح لي أن أستشعر أعظم استشعار بمرارة الفشل.

لقد كان صادقًا يا صديقي في كلماته الماضية، نعم كل شيء كان يوحي بذلك. هل موقفه هذا لأنها كانت بجانبي، لأنها كانت على الطرف الآخر، لأنها كانت بذلك القدر من الجمال؟ يا إلهي كم أشفقت عليه آن ذاك! ماذا لو

كنتُ أنا في موقعه، كيف كان سيكون موقفي، أكان سيكون مغاير لموقفه؟ نعم يا صديقي، أنا محظوظ لأنها بجانبي، ولكني لست كذلك بحبي لها. تبًا، بعدها وقربها مؤذيان لي.

نهضت الأنسة هيا للانصراف بعدما تعذَّرت بارتباطها بموعد مع إحدى الرفيقات رجَّحتُ أنها الرفيقة رقم 28، فنهضتُ معها مُعلِلًا ذلك بانشغالي بإحدى أبحاثي، فأخذ الرفيق رقم 17 بمصافحتنا بحرارة معبرًا عن سعادته بلقائنا ومتأملًا بلقاءات قريبة.

في الطريق عادت لتذكيري بما أوصتني به سابقًا، وهو إعادة دراسة كتب مجموعة من الفلاسفة من ضمنهم كانط وشميت ورولز وفوكو وغيرهم، وأخذتُ بدوري أؤكد لها أنني أقوم بذلك، وأستفسر منها عن سبب ذلك، وكما في المرة السابقة طلبت مني عدم الإلحاح عليها لأنها ستخبرني في الوقت المناسب، فسألتُ عما إذا كان لهذا علاقة بالوقت الذي تمضيه مع الرفيقة رقم 28، فأجابتني بالإيجاب، وأخذتْ تؤكد لي أنها ستُعزز مكانة الحزب على الصعيد الدولي بدون توضيح مقصد كلامها، إلى أن افترقنا كل منا إلى وجهته.

هذا أبرز ما جرى في الشهرين الماضيين، أرجو منك أن تعذرني فأنا لم أجد الوقت المناسب لمراسلتك. لا تقلق أنا بخير.

ملاحظة: - أعلمك أنني ما زلت محافظًا على ترديد "أنا قوي" بالرغم من عدم جدواها معي.

صديقك المحب

ف.د

15 كانون الثاني (يناير)

صديقي العزيز ل.ت

بالرغم من إمضائي هذه الأيام بالقراءة والكتابة، إلا أنني مشتت، لا أحوز ذلك الصنف من التركيز الذي لطالما كنتُ أحوزه، فكري يهرب للانشغال

بقضايا غير القضايا التي لطالما شغلت بالي، خيالي ينساق لرسم صور أمامي لمستقبل لم ألتفت إليه يومًا، مشاعري وعواطفي تعمل مُعيقة عمل عقلي، بتُّ في الآونة الأخيرة أحلم بأحلام لم تباغتني في نومي من قبل، أحلام تتركني مضطرب أشد اضطراب، وفي أحيان تتركني أعيش فيها وأكملها بخيالي حتى بعد الاستيقاظ، باتت لي اهتمامات لم أتصور يومًا أن تكون موضع اهتمامي، باتت السماء بالرغم من شدة اتساعها ضيقة، أأنت قادر على تصور ما أنا فيه، أيعقل أن تكون السماء ليست السماء لي أنا، أرأيت يا صديقي ماذا فعل بي الحب، أرأيت ماذا فعل بي وجود من أهتم لها وأحرص على أن تكون نظرتها إليَّ فيها شيء من الإعجاب. نعم يا صديقي، لم أعد أنا أنا، بتُّ غيري، بتُّ ذلك الذي لم أشأ يومًا أن أكونه، بتُّ ذاك الشخص غير المُستكفي، الطامع باستمرار. يا إلهي كم أمقت ما أنا عليه الآن. نعم، هذا كله أنت المتسبب به أيها الخبيث.

لماذا في كل مرة تراني هي فيها، أرغب بشدة برؤيتها لي مرة أخرى، لماذا لدي كل هذا الحرص على صورتي في عينيها، لماذا تجرحني تلك الهفوات والأخطاء التي تبدو في مظهري بالرغم من اعتنائي به. نعم، أريد دائمًا لها أن تراني مجددًا، لكي أظهر لها بصورة أفضل، وهذا يؤلمني يا صديقي، يعذبني بقسوة. لماذا استحالت اهتماماتي إلى هذا الحد من السذاجة، لماذا بتُّ أنظر لنفسي كمن نظرتُ إليهم بعنف وقسوة وتقزز وهم يُعبّرون بسذاجة عن مشاعرهم وعواطفهم، لماذا استحالت صورتي مؤذية لي إلى هذا الحد؟ لماذا يؤلمني أنَّ لها عينين لا ترياننى إلا عندما أرغب بشدة أن تراني، وترياننى عندما لا أريد ذلك. لماذا كلما تراني أشعر أنَّ تلك الحظوظ السعيدة ليس لي فيها نصيب. يا إلهي يا صديقي كم أخاف من صورتي تلك المنعكسة في عينيها اللامعتين باستمرار. لماذا أرغب بشدة في محوها وإزالتها منهما، لماذا أريد لتلك العينين التجرد من كل الصور، ولكن الأجدر بي السؤال عن لماذا كل تلك الصور موجودة بالرغم من وجود كل ذلك العمق؟! نعم، أدرك يا صديقي أنَّ الانعكاس يأتي من السطح لا من القاع، ولكن ما لا أدركه ولا أستطيع استيعابه وجود عمق بلا سطح! فسر لي هذا يا صديقي. نعم، لن تستطيع، فلا أحد بإمكانه تقديم تفسير منطقي لذلك.

يا إلهي ما أشده من عذاب الوقوع في قاع لا سطح له، التوغل في عمق لا سبيل للخروج منه. نعم يا صديقي، السطوح للأمل، للعمل، للتفاؤل، للنجاة، ولهذا لا سطح لعينيها، فقط عمق لا بداية له ولا نهاية. نعم، لقد ابتليتُ بعينين لهما عمق لا يوصل لقاع ولا لسطح، فكيف يكون لي منفذ؟!

نعم، أنت تدرك أنَّ قلمي يتراقص بيدي، فخطي المرتعش دليل على ذلك. اعذرني يا صديقي، فأنا مضطرب وبحاجة للكتابة لك لكي أستطيع احتوائي. نعم، خطي يوصل المعاني التي قد لا توصلها الجمل المُرتبكة والمبعثرة وغير المفهومة والتي لا سبيل لقراءتها. على الرغم من ذلك سأواصل الكتابة، فاعذرني أرجوك، فلا سبيل آخر لي لإطفاء كل هذه الحرائق التي تشتعل في داخلي. أنا بحاجة للكتابة لك لكي أتمكن من مواصلة أبحاثي التي أناجي أيامي لتطول لكي أحوز مزيد من الوقت لها.

هل سيُقدَّر لي ذات يوم اصطحابها إلى شاطئ البحر ورؤية الشمس فيما هي تجنح نحو الأفق تبعث بشعاعها لتقبيل وجنتيها، هل سيُقدَّر لي المسير معها وأيدينا متشابكة تحت أشجار مزهرة، هل سيُقدَّر لي يومًا الالتصاق بها تحت مظلة في يوم ماطر، هل سيُقدَّر لي مرافقتها في رحلة صيفية للتخييم في إحدى الغابات، هل سيُقدَّر لي فتح عينيَّ على وجهها في صباح يومًا ما، هل سيُقدَّر لي مشاركتها في رقصة ألحانها من تأليف دقات قلبينا، هل سيُقدَّر لي الاستلقاء بجوارها فوق تلَّة خضراء سمائها زرقاء ونسائمها باردة، هل ستُقدَّر لي نظرة غير نظرة الرسام الجامدة التي أحوزها، هل سيُقدَّر لي معجزة تخفي وجود كل تلك المسافات التي بيننا، هل سيُقدَّر لي لحظات أنظر فيها لعينيها بطمأنينة بدون حاجة لاستراق النظر، هل سيُقدَّر لي نظرة إليها لا أتصف بها بالوقاحة، نظرة أقول بعدها أنني نلتُ حظ عظيم في هذه الحياة، هل سيُقدَّر لي جرأة تمكنني من قول "أنا أحبك"، هل سيُقدَّر لي أن أحظى بلحظة تمر فيها أناملها بين خصلات شعري مصففة لها، هل سيُقدَّر لي الكشف عما يختلج في نفسي تجاهها بدون أن أشعر بالحرج وبوجود قيود تكبلني، هل سيُقدَّر لي تناول الفطور معها على ضفاف إحدى الأنهار، هل سيُقدَّر لي مشاركتها الحديث أثناء الجلوس بجوارها على رصيف إحدى الموانئ وأقدامنا متدلية في الماء، هل سيُقدَّر لي أن أتحلى بالعفوية أمامها وأن أتخلى عن الرسميات، هل سيُقدَّر لي أن أكون أنا الذي أجهله أمامها، هل ما أراه بعيد يا صديقي، هل ما أراه مجرد حلم يُلوّح منه المستحيل كاشفًا عن وجوده لي؟

لماذا أجد نفسي صابرًا على ما لم أحط به علمًا، ساعيًا بحزم وثبات لتعظيم معرفتي بجهلي، ولا أجد نفسي كذلك في احتمال اضطراباتي العاطفية ورغبتي التي أخجل منها وأشعر بأنني مذنب بها؟ نعم يا صديقي، رغبتي بأن تبادلني الحب هذه خطيئة كبيرة، فالحياة العاطفية لا تناسب امرأة مثلها، طموحها لا يكف عن جرفها وسحبها لدرك أعمق، أملًا بإيصالها للعالم

الآخر الذي ترنو لرؤيته واقعًا. نعم، ينبغي أن تكون درجة الجزم والحزم في لائِها مرعبة مطفأة لجشع الطامعين.

لقد سبق وذكرتَ لي أنَّ انعدام المقدرة على الصبر في نطاقات وحقول معينة يكون لفقدان آلية للدفاع خارج النطاق الذي تم اعتياد الدفاع فيه وبأنه نتيجة بحث عن آلية جديدة للدفاع، وبأنني لذلك بحاجة لحيازة ألِيات دفاع مختلفة لأنه سيُقدَّر لي التنقل في نطاقات وحقول تتطلب مني ذلك. لماذا يا صديقي بالرغم من طول فترة مكوثي في نطاق الحياة العاطفية لا أجد وسيلة للدفاع لكي أعتاد على الدفاع بها، لماذا إلى الآن أتلقَّى اللكمات والركلات العنيفة. ألا يجدر بالوقت أن يمنحني آلية دفاع، فلماذا لا يفعل. هل العيب فيَّ، أم في هذا النطاق الذي لربما لا يتسع لاحتواء آلية دفاع؟ هل هذا النطاق لا يسمح لطارقي أبوابه بحيازة آليات دفاع فيه؟ لماذا فشلي بالوصول إلى آلية دفاع لا يدفعني للانسحاب من هذا النطاق كما يفعل في كل نطاق غيره، لماذا أستلذ بلائي فيه، لماذا أواصل رغم رغبتي وطلبي بالانسحاب والهرب، لماذا أواصل بإرادتي وبنقيضها، أما من خلاص، أما من منقذ؟

بدأتُ أفقد قدرتي على لملمتي يا صديقي، جاذبية الاتجاهات الأربعة آخذة في تفكيكي، آخذة بالانتصار عليَّ، آخذة بمحاصصتي وتقاسمي، لم أعد أحوز قطعي، أنا متناثر في كل ركن، مبعثر في كل زاوية ضيقة، متقانف بأضعف نسمات الهواء، متكسر بأهون الضربات.

لطالما يا صديقي كنتُ رافضًا ومرفوضًا بعجزي عن تقديم التنازلات، ولطالما كانت أمنيتي أن أُمنح القدرة على تقديم التنازلات، ولكنني الآن أحوز القدرة على ذلك ولكن للأسف بلا قدرة على التجرؤ والقيام بذلك، فمهما عظمت تنازلاتي لن تليق بها. كيف لي أنا الضعيف أمامها هي القوية أن أستشعر بأن تنازلاتي تمنحها، بأن تنازلاتي تفقدني وتكسبها. كم سأكون أحمق لو استشعرت في لحظة ما أنني أعطيها، أنني أزيد حيازتها، أنني أمنحها مزيد من القوة وأنا بما أنا عليه وهي بما هي عليه. نعم يا صديقي، إنني أواصل التساؤل عن كيف سيُلتفت لتنازلاتي وهي بلا إضافة لها، لكي أرسم لنفسي الحدود التي تمنعني من ارتكاب أي حماقة. أرجوك توقف يا صديقي عن ادعاء أنَّ التنازلات في سبيل الحب لا يُلتفت إليها من المحبوب بقدر إضافتها له وإنما بقدر خسارة المحب بتقديمها، فأنا لستُ أنانيًا إلى هذا الحد. نعم، أنا لست أنانيًا إلى هذا الحد الذي يدفعني لعدم المبالاة بالخسارة التي تتكبدها وبالعائد الذي يعود عليَّ من تنازلاتها.

نعم، أعترف أنها عنيفة هذه الوحدة التي تحاول تأليهي بالرغم من محاولاتي التمسك بإنساني، ولكن يا صديقي هذا هو قدري الذي لا سبيل لي للفرار منه، هذا قدري المفروض عليَّ، نعم أنا برئ، أنا لستُ مشارك في هذه المأساة، أنا لست مذنب، ولهذا أنا خاضع ومُسلِّم، ولهذا السبب كان تذمري مغفور ومراعى من أقسى القلوب إلا قلبك الذي بلغت قسوته درجة مُقززة.

لقد بدأت أعالج نفسي مؤخرًا بخبث وخداع المحترفين، وهناك عوائد من هذا ولكنها بعد غير كافية بتاتًا.

بدأتُ أدَّعي أنَّ هناك حدود للراحة التي أطلبها أخاف تجاوزها، بدأتُ أدَّعي أنني أخاف تجاوز ذلك الحد الذي وضعته لنفسي في الطلب، لأنني أريد ذلك القدر المرغوب في حياة أخرى، غير هذه الحياة التي نكاد نتعفن ونفسد فيها من ذلك المقدار الذي نرغب به ونطلبه فيها. نعم، بدأت أدَّعي لنفسي أنني أريد حياة أخرى أستطيع فيها تحمُّل تبعات السعي وراء كل رغبة، السعي وراء كل ما هو أبعد وأجمل. وبهذا بدأت أفلت أحيانًا لبضع لحظات من عذاب حبي لها، من عذاب قربها وبعدها مني. بدأتُ أدَّعي أنني أريد القليل لأنني عاجز عن احتمال الكثير في هذه الحياة. نعم، بدأت أقتنع أنني أريد الكثير في الحياة الأخرى لا في هذه الحياة التي أنا فيها عاجز عن الاحتواء، عاجز عن الوصول، عاجز عن التقييم بدقة، عاجز عن رؤية ما هو قيّم في الحقيقة وما هو ليس كذلك، عاجز عن أنَّ أكون عادل ومنصف مع نفسي، عاجز عن الكف عن الطمع. لا، لا، لستُ متأكد من وصفي، فلربما هذا ليس خداع، لربما هذه هي الحقيقة التي أحاول إيصالها لي أنا المغلق. نعم يا صديقي، لربما هذه الحقيقة التي تريد الحياة إيصالها لي، وها هي تمكنت من ذلك بها هي التي حازت كل الكثير. نعم، أنا مدين لها، وكيف لا أكون كذلك وهي بجمالها أوقفت طمعي وطلبي وفضولي لكل ما يحل في سواها، كيف لا أكون مدين لها وأنا بما عليه من اتزان واستقرار واكتفاء، كيف لا أكون مدين لها وأنا مُنحتُ بها أناي.

نعم يا صديقي، تناسبنا هي وأنا الحياة الأخرى لا هذه الحياة. نعم، ستحتمل أفئدتنا حبنا إذا التقينا حيث اللالقاء، فالغياب واللقاء هما لمن أشد منا قوة وأكثر صلابة. العُشَّاق في هذه الحياة ينتقون الحزن ولكنهم يفضلون التوهم أنهم سعداء، ولذلك أريدها في حياة أخرى، حياة نستطيع أن نكون عشاق وسعداء في آن واحد، حياة لا خسارة فيها لكلينا، لا عائد لأحدنا على حساب الآخر. سأكون في هذه الحياة دائمًا ممن يخشون المبادرة، سأكون ملعون بعزلتي التي محاولاتي للخروج منها أُبقيها محض تخيلات وأحلام وأوهام.

كنتُ جالسًا مؤخرًا في المتنزه، وكان يجلس بجوار مقعدي عاشقان كان يبدو عليهما من حديثهما أنهما واقعان في العشق حديثًا، تبادر إلى مسامعي في أثناء جلوسي جزء من حديثهم، كان أحدهم يتساءل متعجبًا: لماذا ينبغي أن تكون للرجل الخطوة الأولى في الاعتراف بحبه وإبداء إعجابه؟ فأجابه الآخر قائلًا: لكي يتاح للمرأة الفرصة لرفضه، نعم لعلَّها هذه المشقة الملقاة على عاتقنا نستحق آلامها للتجربة المريرة التي مرت بها المرأة، للرفض المستمر الذي عانت منه في مجتمعاتنا في كافة المجالات بسببنا. كانا يضحكان، ولا أعرف السبب. لعل تلك الإجابة كانت مضحكة ولكنني لم أجدها كذلك.

أنا الآن أشعر بالتحسن قليلًا بعدما تمكنتُ من الكتابة لك. ممنون لك يا صديقي على تحمُّلي، وعلى إتاحة هذه الفرصة لي للتفريغ. لا تقلق ما زلت أردد "أنا قوي".

المخلص لك

ف.د

23 كانون الثاني (يناير)

صديقي العزيز ل.ت

استيقظت في صباح هذا اليوم بعد نوم طويل وعميق كافأتُ به نفسي على انتهائي من بحث مرهق كانت قد كلفتني به الأنسة هيا.

بقيتُ في فراشي لوقت طويل أتأمل سقف غرفتي، لم أكن أفكر في شيء مخالفًا عادتي، كنتُ منطفئ كانطفاء نجم، غائب كغياب الموت. يا إلهي كم هي مريحة تلك اللحظات التي لا تتاح إلا نادرًا. نعم، مستشعرة ألذ راحة تلك العقول التي لم تجد قضايا تعمل عليها، تلك العقول التي مُنحت وقت غير محدود للتأمل والتنعم بالجمال المتناثر هنا وهناك.

نهضت من فراشي بعدما أحسست أن عقلي بدأ يناور ويتحايل لإيجاد قضية يعمل عليها، ووقفت أمام المرآة كعادتي وأخذتُ أردد "أنا قوي" حتى امتلأتُ

قناعة بذلك، ثم جلستُ إلى مكتبي آخذًا بترتيب الأفكار والاعتناء بتسلسلها، وإعادة صياغة جملها لتكون بصورة أجمل وأوضح وأبسط.

تفاجأت بعد ما يقارب الساعة من جلوسي إلى مكتبي بطرق على باب غرفتي. تفاجأت لأنني تعودتُ على خروجها من الشقة كل يوم من الصباح الباكر إلى آخر الليل للعمل على مخططها الذي لم تطلعني عليه.

طلبت مني بعدما فتحتُ الباب الخروج للجلوس معها في الصالون، فأخذ قلبي بطلبها هذا الذي لم يسبق أن طلبته يخفق بشدة فاضطربت، وأحببت في تلك اللحظة الانفراد بنفسي ولو للحظات لكي أحاول السيطرة عليَّ، فكدتُ أطلب منها انتظاري لدقائق لحين انتهائي من عمل كنتُ سأدَّعي حاجته لي، ولكنني لم أتجرأ وشعرت بأن هذه وقاحة وقلة ذوق مني، فخرجت للجلوس معها بدون فرصة لتطبيب الانكسارات والانهيارات التي تسبب بها طلبها.

لقد كان عقلي في تلك اللحظات عاجز عن تقديم تفسير لطلبها، عاجز عن تصور أنه صادر منها وموجه لي أنا الضعيف، موجه لي أنا الذي لا أستحق كل هذا التنعم، موجه لي أنا الذي ينبغي أن تكون له رغبة منها هي التي لا يجدر أن تكون لها رغبة، لأن وجود الرغبة وجود لوقت تحققها الذي ليس من العدل وجوده لمن هي مثلها.

كنتُ مضطرب في جلوسي معها كاضطرابي في أول لقاء لي بها، لا بل أكثر فأنا في ذلك اللقاء كنتُ أطبب نفسي بادعاء الصداقة أما الآن فأنا أحترق بمعرفتي بأنني واقع في حبها. كم هم حمقى الناس بخوفهم على الحب بينهم، كم هم حمقى بعدم إدراكهم أنه الأجدر بهم الخوف على أنفسهم من الحب. نعم يا صديقي، الآن بت أدرك أنَّ الحب هو جحيم البشر. نعم، عليه أن يراجع حساباته من ابتُليَّ بالحب، عليه أن يدرك أنه أغضب الإله، عليه أن يدرك أنه مذنب بعمل أو نية غير مغفورة، عليه أن يدرك أنَّ التكفير لا يمنحه الخلاص، عليه أن يدرك أنَّ الموت لربما يكون حليفه الوحيد.

نعم يا صديقي، لقد بت أدرك حجم الخسارة التي يتكبدها الإنسان بتلك اللحظات التي ينشغل بها بمطالعة كتاب مُلح في حضرة امرأة جميلة. يا إلهي ما أعظمها وأعنفها من خسارة! لا، لا يستحق أي كتاب اعتذار مني على إهماله في حضورها سواء كان ذلك أمامي أو في خيالي.

يا إلهي كم كانت جميلة هذا الصباح. ها أنا أخطئ في حق كل صباح ومساء، فاعذر لي ذلك. نعم يا صديقي، هي جميلة في كل صباح ومساء. هي الليل إذا أخفى وهي النهار إذا أظهر، هي الكل لا النصف.

ابتسامتها التي تحمل سلام لا مثيل له تجعل دقات قلبي تتخلى عن انتظامها. هناك أفق في عينيها لا أستطيع لمسه، يجعلني أتطلع لمزيد من الوقت للنظر، ولكن حدود اللباقة والذوق والأدب تلزمني بالتقيد بالوقت المسموح لي به. لا يا صديقي، ليس بمقدور من يراها أن يدَّعي الزهد.

سألتني عن صحتي النفسية عندما جلسنا، وكنتُ متعجبًا من سؤالها لكثرة القضايا التي تشغلها وكثرة مهامها التي كان ينبغي لها أن تنسيها معاناتي وما أنا عليه من بؤس، فطمأنتها بأنني أفضل حالًا، ثم بادرتْ إلى سؤالي عما إذا كنتُ ما زلت أراسلك، فأجبتها بالإيجاب، فاستحسنت ذلك، ثم سارعت بعد ذلك للتعبير عن جمال الشتاء، فلقد كان الجو ماطرًا وشديد البرودة، فسايرتها وأخذت أبدي إعجابي به مع أنني لست من معجبيه، وفي تلك اللحظات شعرت أنها على وشك أن تطلعني على سرها وخططها، فهذه المقدمات ما هي إلا لتلطيف وتمهيد الأجواء لذلك، وقد صح توقعي، فبعدما سألتني عما إذا كنتُ أنجزتُ البحث الذي كلفتني به وأعلمتها بأنني قمت بذلك وبأنني سأسلمها إياه وقتما تشاء، أخذتْ تطلعني على خططها التي أخفتها عني وتسرد لي الأحداث التي مرت بها طوال هذه الفترة والتي أثرت على مختلف قرارتها الحزبية بصفتها رئيسة الحزب.

أيها اللئيم، نعم لقد أخبرتني أنك كنتَ تعلم طوال هذا الوقت بما كانت تخطط له، وبأنك قدَّمتَ لها المساعدة في كثير من الأوقات. نعم، لولا شفاعتها لك وتبريرها لفعلك الشنيع لما غفرتُ لك أبدًا. نعم، ينبغي عليك شكرها، فلقد أنقذتك مني.

أن تضم أعضاء للحزب من جميع بقاع العالم وأن تؤسس مكاتب للحزب في جميع أنحاء العالم، وأن تنقل الحزب هذه النقلة على المستوى الفكري والإداري، بالرغم من التباينات والتصدعات والانشقاقات التي حدثت في الحزب على المستوى المحلي جراء الحراك الثوري الأخير، هذا عمل تستحق منا تنزيهها عليه. يا إلهي كم تستحق الإعجاب!

أعلمتِني أيضًا أيها اللئيم باستخدامها لمنزلك مقرًا لاجتماعات أعضاء الحزب، وباستغلال غرفه كقاعات للمحاضرات التي يعقدها الرفاق للنهوض بالحزب على المستوى الفكري، والارتقاء بالحجة والدعاية اللاسلطوية إلى

مستوى رفيع. نعم، لقد أدركتُ أيها اللئيم السبب الحقيقي لإلحاحك على مكوثها معي في شقتي.

بعد كل هذا العرض أخذتْ تطالبني بالاستعداد للموعد الذي سيكون عليّ مشاركتها فيه بالمحاضرات التي ستقدمها، بعدما أعلمتني باختياري كشريك لها، بعدما اختار كل رفيق شريكه. أدركتُ حينها مغزى البحث الذي طالبتني بإنجازه وسر توجيهها لي لإعادة مطالعة أعمال عدد من الفلاسفة أبرزهم كانط وشميت ورولز وفوكو وغيرهم.

كنتُ متفاجئًا جدًا ومصدومًا، فمن بين جميع الرفاق لم يقع اختيارها إلا عليَّ أنا! ما زلت إلى الآن مصدومًا من هذا. لماذا اختارتني أنا؟ اضطربتُ بعدما هدأتُ من اضطرابي الأول، وكدتُ أنتفض وأعترض كاعتراض إبليس على خيار الله، ولكن لحسن حظي لم تكن وقاحتي بقدر وقاحة إبليس، فسألتها بهدوء سؤال استعلام لا سؤال اعتراض، سؤال كسؤال الملائكة لا كسؤال إبليس، عن سر اختيارها لي، ثم ذهبتُ لأبين لها أنني سأقلل من جودة محاضراتها بمشاركتي لها، وأبين لها كيف أنني سأكون عاجز عن مجاراتها وكيف أنني لن يكون بمقدوري الإضافة لها والتعديل عليها، ولكنني وجدتها تبتسم ابتسامة تستنكر بها سؤالي، ابتسامة توحي بنجاحها بتوقع ردودي وأسئلتي، ثم وجدتها تقول: "أرأيت لهذا أيضًا أبقيتُك بدون علم بما كنت أخطط له. نعم، أنت بارع في الحط من شأن نفسك، بارع في إساءة تقديرها والآخرين، أما أنا فبخلافك بارعة في تقييم الآخرين، ولهذا اخترتك. اعتمد تقييمي لك ولا تلتفت لتقييمك لنفسك، فأنا أمهر منك في ذلك."، ثم أخذتْ تضحك ضحكات خفيفة وتقول: لقد نجحتُ في قراءتك"، ثم أخذتْ تقول بنبرة جادة: "أنت بالكاد تستطيع الاحتفاظ بتركيزك عند العمل على قضية واحدة، أبسط الأحداث قادرة على تشتيتك، ولهذا السبب أخفيتُ عنك ما كنتُ أخطط له، وآثرتُ العمل بدون علمك. نعم، لقد فضَّلتُ أن أبقيك لهذه المهمة لأنني أدرك أهميتك على مستوى العمل الفكري.".

لقد صدمتُ من معرفتها لي بهذه الإحاطة يا صديقي. هل أنا مكشوف إلى هذا الحد أم هي بارعة بكل هذا القدر؟ لا، لا، لستُ أنا المكشوف، بل هي البارعة، وهذا يُخيفني يا صديقي. هل اكتشفتْ أنني واقع في حبها، أم لم تُتَح لها الفرصة بعد لملاحظة ذلك؟ يا إلهي كم أخاف من معرفتها لذلك! تصور أن تحسبني أنا الضعيف أطالبها بمبادلتي الحب، بمبادلتي الضعف. أي كارثة ستحل لو اكتشفتْ ذلك وأنا الذي منحتها الأمان بإعلان الصداقة؟! نعم، أنا خائن، ولكن أقسم أنني لم أختر الخيانة، فكيف ستُصدِّق ذلك؟! كيف

سيُتاح لها معرفة أنني خائن لا بحبها بل بصداقتها، نعم كيف ستُصدِّق أنني كنتُ واقع في حبها -بدون أن أدرك ذلك- قبل إعلان صداقتنا؟! نعم، أنا في مأزق خطير يا صديقي وأحتاج مساندتك. لم أكن متوتر وقلق يومًا في حياتي كما أنا قلق ومتوتر اليوم. هذا عذاب لا أستحقه يا صديقي. أنا برئ، ولكن كيف ستُصدِّق ذلك؟ نعم، المشكلة في براءتي لا في اتهامها في حال وجد. لو لم أكن بريئًا لكان سيكون حكمها عليَّ ليس بذلك العنف الذي أستشعره الآن. كيف سأحتمل أن تكون مُخطئة في حقي أنا؟! نعم يا صديقي، كيف سأحتمل رؤيتها مُخطئة ولو لمرة واحدة، كيف سأحتمل أن أكون أنا التافه سبب في أن تكون مخطئة؟ نعم، هذا لا يمكنني احتماله.

أخذتْ بعد ذلك بإعلامي أنها طوال الأسبوع القادم ستضم بحثها إلى بحثي، وبأنها ستشاركني المشاورات ووجهات النظر والمعلومات والآراء لكي نكون جاهزين للأيام الخمسة التي سنُلقي فيها محاضراتنا المشتركة أمام مجموعة من الرفاق لتحويلها لكتاب يُترجم للغات عديدة ويوزع على الرفاق في مختلف بقاع العالم، كما حدث مع محاضرات الرفاق الذين سبقونا.

يا إلهي كم تعذبني لفظة "هي وأنا" التي بتُ أكررها كثيرًا. نعم، تعذبني مشاركتها لي أنا الضعيف. مشاركتها مؤلمة، وكيف لا تكون كذلك وهي بمساواتي بها تقرّبني منها، وتجعلني ندًا لها. هذا ظلم كبير لها لا أحتمله، عاجز عن التعايش معه، لا سبيل لي لتقبله. هذه تضحية تطلبها ثورتنا اللاسلطوية لا أستطيع بذلها، تضحية روحي تأبي تقديمها مهما تعاظم حبي للإنسان.

جميع محاولاتي للفت انتباهها للخسارة التي ستبتلى بها باختياري بائت بالفشل، فلقد كانتْ مُصممة على أنني سأكون قادر على مجاراتها، ولهذا لم يكن لي خيار إلا الانصياع لطلبها الذي سأبقى أعاتب نفسي على إقدامها عليه ما حييت. لقد كانت تحثني على تقبُّل ذلك مُدَّعية أنني سأفهمها لاحقًا، وكنتُ في كل مرة تكرر لي ذلك أتعجب منها وأتساءل قائلًا: كيف يكون فهمي لها ناقص وكلها يُحسن التعبير.

بعدما أعلمتني بكل ما كان يجري، وانتزعت موافقتي على طلبها، طلبت مني التجهُّز للخروج معها للقاء مجموعة من الرفاق لتعريفي عليهم وتعريفهم بي، وللتجهز للأسبوع الذي سنعتزل فيه أنا وهي العالم تحضيرًا للمحاضرات.

تجهزتُ بسرعة لكي لا أتركها تنتظرني طويلًا، ثم انطلقنا إلى وجهتنا. كنتُ غائبًا طوال الطريق وشاردًا بالتفكير في مهمتي الثقيلة. ما أن وصلنا إلى منزلك ودخلنا حتى صدمتُ، فلقد وجدتُ ما يقارب الثلاثين رفيقًا لم أتعرف على أحد منهم بان أنهم من بلدان مختلفة. نعم، لقد صنعت ثورة في الحزب وأحيته بدماء جديدة من كافة بقاع العالم.

تعرَّفتُ على بعض الرفاق بعدما عرَّفوا أنفسهم، فلقد كنتُ قد طالعت كتبهم وأعجبتُ بكثير من أفكارهم، وتعرَّفتُ على بعض الرفاق الذين داع صيتهم بقيادتهم لتحركات ثورية ناجحة في بلدانهم، فأعجبتُ كثيرًا باختياراتها.

جلستُ معها مع مجموعة من الرفاق لمدة قصيرة بررتها لي عند الانسحاب بأنها لا تريد التشويش عليَّ قبل فترة الإعداد للمحاضرات بأفكارهم ونقاشاتهم، ثم انطلقنا عائدين إلى الشقة، وما أن وصلنا حتى انصرف كل منا إلى غرفته بعد تحديد الساعة السابعة صباحًا، موعدًا لبدء المناقشات والتحضير للمحاضرات.

ولهذا يا صديقي لا تقلق عليَّ، فطوال هذه الفترة القادمة لن أراسلك فيها لأنني سأنشغل معها بالتحضير للمحاضرات التي سأرسلها لك كل واحدة على حدة بعد إلقائها لتزودنا برأيك فيها.

صديقك الوفي

ف.د

1 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

المحاضرة الأولى

الأخلاق الكانطية وأولية الحق على الخير

- قبل البدء بتقديم محاضرتنا الأولى نرجو من جميع الرفاق الحذر طوال فترة عرض محاضراتنا في التمييز بين ما هو امبريالي وما هو عالمي، لكي نتفادى جميعًا الخلط والالتباس.

- إنَّ محاولة وصف كثير من الفلسفات والعلوم والأيديولوجيات بأنها غربية أو شرقية كثيرًا ما مهدت إلى نبذها بحجة عدم توافقها مع النزعة الشرقية أو الغربية. نعم، كثيرًا ما كان التخلِّي عن الخطوات الحضارية وعدم الأخذ بشروط التقدم والتطور التي بُنيت على شراكة عالمية وجهود شرقية وغربية دافعه إحالة الجهود لنزعة شرقية أو غربية.

- لطالما كان التخلف نتيجة عدم الإيمان بجهود الآخر وتجاهلها، وعدم النظر إلى هذه الجهود كجهود عالمية ينبغي أن يستفيد منها الجميع. للأسف في الوقت الحاضر الشرق لا يُحسن البناء على ما قام الغرب ببنائه، وكذلك الغرب لا يُحسن الاستفادة من بناء الشرق، وذلك لدواعي الخصوصية التي يتبجح بها كل قطب، لدواعي الخلط بين ما هو امبريالي وما هو عالمي، ولدواعي الحفاظ على الموروث.

- إنَّ النظر من كِلا القطبين لحيازة الآخر على أنها حيازة أهدافها امبريالية ساهم بتجاهل صفة العالمية لهذه الحيازة التي هي في الحقيقة لا تنتمي لأي قطب بل لجميع الأقطاب، ولم تكن نتيجة جهود قطب بل نتيجة جهود جميع الأقطاب، سواء كانت هذه جهود تنتمي للماضي أو الحاضر أو المستقبل.

- نعم، لقد خلط كِلا القطبين بين ما هو امبريالي وما هو عالمي، ولهذا كان الرفض، لهذا كان العداء.

- نسأل: هل القيم الليبرالية -على سبيل المثال- أهدافها امبريالية أم أنَّ صفتها عالمية؟ نعم، سنجد كل من الشرق والغرب يتهم هذه القيم بأنها امبريالية بطرق مختلفة.

- إنَّ القضية التي تعكر صفو هذا العالم تتمثل في اتهام كل قطب ثقافة القطب الآخر بأنها توسعية وذلك فقط لمصدرها، وهذا ما يُعرقل الالتفات للصفة العالمية.

- نعم، إنَّ أكثر ما يُعيق صفة العالمية من الظهور والتجلي هي الدولة، التي في ذات الوقت تمنح الهدف الامبريالي وجودًا أكبر من وجوده وظهورًا أكبر من حجمه وظهوره. نعم، ينبغي علينا جميعًا أن نعترف أنَّ هناك خلط بين ما هو امبريالي وما هو عالمي.

- لا سبيل لنجاح ثورتنا وحراكنا إذا لم تُمنح الصفة العالمية ظهورها الكافي، والهدف الامبريالي وجوده الحقيقي.

- بوجود الدولة لا سبيل لأي قيم ليبرالية للانتشار بدون عداء، بدون عراقيل، بدون تعثر طويل الأمد في أحيان وقصير في أحيان أخرى، وبهذا لا بد من إسقاط الدولة، لإسقاط جميع محاولات تصوير بقعة ما على أنها مركز.

- نعم، لقد ساهم تصوير بعض المناطق على أنها مركز بالخلط بين ما هو امبريالي وما هو عالمي.

- باعتقادي، إنَّ محاولة استغلال عوائد القيم العالمية مثل الليبرالية في إنتاج الوسائل التي تُسهّل سلب بعض الدول ثروات دول أخرى، وفرض حصص سوقية مؤذية وغير عادلة ومرهقة، أسهم باتهام القيم العالمية بأنها قيم أهدافها امبريالية، هدفها القضاء على الموروث الثقافي للدول، هدفها القضاء على خصوصية الدولة والشعب.

- إنَّ محاولة تشويه أنظمة الحكم الدكتاتورية والشمولية عن طريق سرقة ثروات الدول الخاضعة لهذه الأنظمة، لإيجاد مقارنة تبرز الديمقراطية الليبرالية كنظام حكم أكثر كفاءة وفعالية في إيجاد الحلول الاقتصادية والتنموية، هي محاولة تسهم بتراجع جاذبية نظام الحكم الديمقراطي، وتسهم بخلق عداء للقيم الليبرالية.

- كثير من ثقافات الشرق والغرب مجروحة في الوقت الحالي في كرامتها، لتخلي كثير من مثقفيها عن اعتزازهم بها نتيجة سطوة بعض الثقافات التي كانت لها أفضلية لدواعي امبريالية لا عالمية، ولهذا انطوائية هذه الثقافات وانكفاؤها إلى الداخل له أبعاده السيكولوجية.

- نعم، لقد تأثرت القيم العالمية التي ساهمت جهود الشرق والغرب بالكشف عنها بهذا البُعد السيكولوجي.

- أيها الرفاق، عالمنا بشرقه وغربه بحاجة إلى التوقف عن الخلط بين ما هو امبريالي وما هو عالمي، عليه التراجع ليوفر لنفسه مساحة لوقفة مع الذات.

- نحن على علم بآثار الماضي المؤلمة إلى الآن، والتي تركت ندوب وجروح بالكاد يستطيع الوقت تطبيبها، ولهذا نُراعي المخاوف، ولكن لا نجد مبرر لعدم المحاولة.

- ولهذا نرى أنَّ للجميع الحق بالانطواء، ولكن ينبغي ألا تدفع هذه الانطوائية أحد للرفض، ينبغي علينا جميعًا القبول بوجود الآخر وبثقافته وقيمه وعاداته، لكي يُتاح لنا عدم الوقوف أمام تلك القيم ذات البُعد العالمي، التي يكون الجميع خسارى باعتراضها ورفضها.

- هذا ما نود منكم أيها الرفاق الحذر منه كون منكم شرقيين وغربيين.

- الآن دعونا نبدأ بمحاضرتنا التي سنناقش فيها منطلقات كل من الليبراليين والجماعتيين، ونوضح فيها أسباب تمسكنا بحيادية النظام السياسي وذلك بمبدأ أولية الحق على الخير، والتي أيضًا سنعرض فيها أهمية الأخلاق الكانطية وأثرها العميق على سلوكياتنا، آملين بذلك إرجاع الليبرالية لطابعها اللاسلطوي.

- هل طريقتنا -نحن المؤمنون بأخلاق الواجب- في تصور الخير مُفقرة له، وهي بالضرورة تقودنا للتصريح بأولية الحق على الخير؟ بالتأكيد الإجابة هي: لا. إنَّ طريقتنا في تصور الخير مُحيّدة للسلطة وبالتالي مُسهمة بإيجاد بيئة تكفل تنوع تصورات الخير وبالتالي تكفل حرية التنقل والاختيار.

- إنَّ يقين النفعي بصواب تصوره للخير، يوجد لديه رغبة بالسلطة تدفعه للوقوف في وجه التصورات الأخرى، وخاصة تلك الدينية منها، وبالتالي هذا يُؤثِّر على سلمية التنازل وسلمية المطالبة.

- الأفراد ينزعون إلى التنازل عن أولية حقوقهم في كثير من الأحيان لصالح الخير العام من منطلقات ذاتية لا من منطلقات الجماعة والأغلبية، وفي حالات فردية لا بالتعميم (أي بالإبقاء على قدرتهم في الاحتفاظ بأولية الحق على الخير في تلك الحالات التي يريدون فيها الاحتفاظ بحقهم بعدم التنازل)، وبالتالي فالأخلاق الكانطية لا تقف في وجه التنازل الطوعي للأفراد عن أولية حقوقهم في الحالات التي يريدون فيها التنازل، بل تقف في وجه آليات الإحلال القسري لأولية الخير على الحق.

- وبالتالي لا تلتفت الأخلاق الكانطية لتصورنا للحياة الخيرة ولا تُؤثِّر عليه بل تؤثر على السلطة وعلى توهمنا بحاجتها.

- إنَّ المذهب النفعي يستبعد طوعية التوافق والتنازل -وهذا لمحدودية ثقته بالإنسان-، ولهذا نجده يذهب إلى ادعاء الحاجة لوجود السلطة لإرساء التوافق والتنازل الالزامي القسري.

- ولهذا نجد أنّ المذهب النفعي ينزع إلى القضاء على التصورات المختلفة للخير لتعميم تصور واحد، ولهذا نجد هذا المذهب له نزعة شمولية رافضة للاختلاف والتنوع وبالتالي رافضة للحرية.

- وبهذا نجد أنَّ المذهب النفعي طريقته هي المُفقرة لتصورنا للحياة الخيرة بشموليته، فالحرب التي تشن على التصورات المختلفة تفقد تصور الأغلبية القدرة على الاستفادة والاسترشاد بالصواب الموجود في تصورات الأقليات، وبالتالي فقدان التنافس بين التصورات هو إفقار لها.

- وعليه، كانت أولية الحق على الخير لدي الكانطيين مُثرية لتصورات الناس عن الحياة الخيّرة لا مُفقرة كما يحاول تصويرها البعض، وذلك بإلغائها المركز الذي أتاحه المذهب النفعي والذي تسبب بصراعات وجودية بين التصورات أفقرتها جميعًا.

- إنَّ الأخلاق الكانطية توجد تنافس غير مركزي بين التصورات، بينما المذهب النفعي يوجد صراع مركزي بينها.

- وانطلاقًا من الاعتبارات سابقة الذكر، نستنتج أنَّ القائلين بأولية الحق على الخير لا يُحيلون أي إساءة إلى أي تصور للخير كما يفعل النفعيون، وبالتالي هم يحفظون للأفراد حرية الانتقاء والتفضيل بين التصورات بدون أن تكون هذه التفضيلات مُقوّضة لمبادئ العدالة، على عكس ما يفعله النفعيون.

- إنَّ ثقة اللاسلطوي المؤمن بالأخلاق الكانطية بجاذبية التصور الأصح، تدفعه للإيمان بأهمية الإبقاء على جميع التصورات وحماية حرية الانتقاء منها، بينما السلطوي النفعي يذهب بانعدام ثقته بجاذبية التصور الأصح، وبانعدام ثقته بصلاح طبع الإنسان، إلى عداء كثير من التصورات، وبالضرورة محاربة وجودها وبالتالي اعتراضه ووقوفه بوجه حرية الإنسان في حيازة تصوره الخاص عن الحياة الخيرة.

- وهنا يتجلى بوضوح أنَّ هدف الليبرالي من الإصرار على تمسك النظام السياسي بمبدأ أولية الحق على الخير، وبالقيم الأخلاقية، واستبعاد أي قيم قد تكون محل خلاف، هو ليس تنزيه ومنح أهمية أو سيادة لقيم على حساب أخرى، وتصورات على حساب تصورات أخرى، وإنما هدفه إيجاد ساحة للمنافسة العادلة والسلمية بين القيم والتصورات للمفاضلة بينها، بدون أن يكون التفضيل وسيلة لنفي وعدم القبول بوجود قيم وتصورات أخرى.

- وبالتالي حيادية الليبرالي توجد الاختلاف، والاختلاف يوجد الخيار، والخيار يوجد التنوع، والتنوع بيئة الحرية. نعم، إنَّ حيادية الليبرالي تُوجد ساحة للوجود، توجد ساحة مُصححة لمسار التاريخ السلبي الذي تمرَّس النفي ورفض الوجود.

- إنَّ الليبرالي يقول للآخرين: عبروا عن انتماءاتكم، ولكن بدون المطالبة باستخدام النظام السياسي في هذا التعبير، فأي مطالبة من هذا القبيل ستفتح المجال أمام صراع وجودي، ستفتح المجال أمام أشكال تعبير غير مرغوب بها، الجميع خاسر بوجودها.

- ولهذا يذهب الليبرالي للقول بأنَّ تجاهل النظام السياسي لتصورات البشر للحياة الخيرة احترام لها، لا تقليل من قدرها كما حاول البعض التصوير.

- يذهب كثيرون ومنهم ساندل أنَّ هذا التجاهل يُفقر التصورات ويُمثِّل عدم احترام لها، ولهذا نجده يذهب للمطالبة بالاحترام من خلال تداول ونقاش وأخذ النظام السياسي بهذه التصورات للحياة الخيرة. ولكننا كليبراليين نُعارض طرحه ورؤيته، لأنَّ هذا الاحترام الذي يطالب به من التداول، يكفل لبعض التصورات للحياة الخيرة السيطرة على النظام السياسي الذي يتحول إلى مركز تتصارع من حوله التصورات، يكفل للنظام السياسي الفشل في حياده، وهذا الفشل سيسهم بتوليد النزعات العنصرية.

- إنَّ ضيق العقل العمومي الليبرالي سمة وليس عيب، كمال وليس نقص. نعم، بالتجاهل وحده يكون الاحترام.

- قد نُتهم هنا أننا نُسهم بركود الحوار والنقاش بين أصحاب التصورات، والحقيقة خلاف ذلك، فساحة التداول السلمي التي يوفرها التجاهل تسهم بتعزيز الحوار والنقاش وبالتالي بإثراء التصورات عن الحياة الخيرة.

- إنَّ تفادي النزاع الاجتماعي هو هدف الليبرالية من تحديدها الحياد كوظيفة للنظام السياسي. كل سياسة سلطوية تتراجع في ظل زيادة الالتزام بالحياد.

- إنَّ هذا الحياد يوقفنا عن اللجوء إلى الحجج المُقدَّمة لمعارضة فعل ما والمرتكز على سبيل المثال على اعتبارات دينية، يوقفنا عن الاستشهاد بها لدعم توجه النظام السياسي، وذلك لعدم عموميتها.

- إنَّ الليبرالية بالحياد الذي اختارته وظيفة للنظام السياسي، تضع حاجزًا أمام الشعوب يكفل عدم إدراج قناعاتهم الدينية على سبيل المثال في الخطاب السياسي، وخاصة في مسائل تتعلق وتتصل بالحق.

- إنَّ تسوية القضايا الاجتماعية لا تكون بالنظام السياسي نتيجة الحياد، وهذا ما جعل القضايا السياسية معدودة ومحدودة وواضحة للجميع.

- ولكن كلاسلطويين نؤمن بأنه في ظل الدولة سيكون لهذا الحياد حدوده، لأنَّ السلطة في ظل الدولة ستبقى موجودة. إنَّ الوظيفة الليبرالية للنظام السياسي في ظل الدولة غير مُنجزة بكفاءة، لأنَّ إنجازها بكفاءة يقضي على كل سلطة موجودة، وهذا ما لن تسمح به الدولة طالما هي بقيت موجودة.

- ولهذا نحن نُقر ساندل في بعض ما ذهب إليه في اعتراضه السوسيولوجي الذي قدَّمه ضد الليبرالية، والذي يدَّعي فيه أنَّ الحياد الذي تتطلبه منا الليبرالية مستحيل لأنه لا يمكن عزلنا تمامًا عن محيطنا وقيمه وعاداته وتقاليده ومعتقداته، منطلقًا للقول بأنه لا بد لكل نظام سياسي أنَّ يحمل قيم مجموعة ما، ولهذا كان لا مفر حسب اعتقاده من السؤال: "قيم من هي التي تسود؟ ومن الرابح ومن هو الخاسر تبعًا لذلك؟"، مؤكدًا بذلك أنَّ هذا مجرد وهم ليبرالي. نعم، نقر بذلك، فنحن كلاسلطويين نرى أنه لا بد في ظل وجود السلطة ووجود ليبراليين يذهبون لادعاء وجود ضرورة للحفاظ عليها، لا بد أن تعجز الليبرالية عن انتزاع الحياد بالقدر العادل والكافي. في مجتمع لاسلطوي فقط تنجح الليبرالية في انتزاع الحياد، لأنَّ سؤال ساندل هذا: "قيم من هي التي تسود؟" يصبح لا داعي له ومن الحمق طرحه.

- إنَّ الصراع بين الأقليات والأكثريات في نطاق الدولة لا يمكن السيطرة عليه، ولهذا دائمًا ما ينتهي بسيطرة فئة على أخرى، وبالتالي انتشار تصور للحياة الخيرة على حساب التصورات الأخرى.

- في بعض الأحيان تحاول بعض الأنظمة السياسية السيطرة على آثار هذه المعضلة،بمنح الأقليات أو الأكثريات التي عجزت عن السيطرة على النظام السياسي المجال للتعبير عن جزء من تصوراتها من خلاله بهدف تسكين غضب الآخر وكبح أطماعه. وبالرغم من أنَّ هذا الحل قد يُقلل الضرر في أحيان قليلة، إلا أنه يُسهم بإهمال النظام السياسي لوظيفته التي أوكلته بها الليبرالية.

- إنَّ النظام السياسي الذي يمنح بعض الأقليات الفرصة لفرض قناعات تتعارض مع توجهات دينية -على سبيل المثال- لأشخاص، هو بالتأكيد نظام سياسي أيضًا مُتخلي عن الوظيفة التي أوكلته بها الليبرالية أي الحياد، بالرغم من سمو الهدف.

- إنَّ منح القبول لأقليات لا تسمح الليبرالية به إذا كان من خلال وسائل تتيح لهذه الأقليات فرض قناعاتها على الآخر، أو من خلال وسائل تتيح لهذه الأقليات الترويج لقناعاتها باستخدام النظام السياسي، أو من خلال وسائل تساهم في محو التصنيف الذي يحتفظ به الأفراد لتصرفات وأفعال هذه الأقليات والمُستنبَط من مرجعيات دينية أو عرقية أو وطنية أو ثقافية أو غيرها من المرجعيات.

- وباعتقادي فشل النظام السياسي في أداء مهمته الليبرالية، راجع للسلطة التي يحوزها هذا النظام -من خلال وجود الدولة- والتي لا سبيل لإيقاف جاذبيتها لجميع الأقطاب -كوسيلة دفاعية سرعان ما تتحول لوسيلة هجومية- إلا بالقضاء على الدولة.

- المجتمع الديمقراطي السلطوي يُوجد مركز يتسبب بنزاع وصراع عنيف بين التصورات المختلفة للحياة الخيرة، ولهذا باعتقادي التوجهات الديمقراطية تُعيق التوجهات الليبرالية. عدائية التصور الشاغل للمركز تُحيله إلى محاربة كافة التصورات الأخرى. وعليه فالصورة الليبرالية التي ينسبها رولز للمجتمعات الديمقراطية غير متضمنة في ثقافتها السياسية.

- ولهذا كانت اللاسلطوية معالجة لقصور التوجه الليبرالي الذي يكفل للنظام السياسي السلطة. إنَّ تأليه الليبرالي السلطوي للنظام السياسي السلطوي لم يجعل من هذا النظام إلهًا، فهذا النظام ما زال مليء بالعيوب والثغرات، وبما أنه كذلك، كان لا بد من نزع السلطة منه أيضًا، ليكون الحياد بهذا الانتزاع وظيفة الجميع بالرغم من انتماءاتهم.

- طالما كان هناك اعتراف بأنَّ نزع السلطة من الجميع واحتكارها للنظام السياسي أقل ضررًا، فإننا على يقين بأننا لن نعجز عن انتزاع اعتراف بأن نزع السلطة حتى من النظام السياسي ستكون نتائجه أكثر نفعية وإيجابية. طالما كان الفرد عاجز وفاسد بالسلطة، فكذلك النظام السياسي سيكون عاجز وفاسد بها أيضًا.

- لا حياد بوجود السلطة، لا قبول للآخر بوجود السلطة، لا جاذبية للقانون الأخلاقي بوجود السلطة، وبالتالي لا شرعية لا لسلطة الفرد ولا لسلطة النظام السياسي.

- مهمة الليبرالي للنظام السياسي ستتحقق فقط بإعلان نفسه لاسلطويًا.

- ومن هنا، ننطلق للقول بأنَّ مبادئ العدالة ليست بحاجة إلى الاتفاق عليها، لأنها مبادئ موجودة لدى كل فرد بشكل مستقل، لأنها مبادئ مُدمجة في تكوين كل شخص، وعليه كون وجودها لا يحتاج إلى اتفاق يقودنا إلى التأكيد على أنَّ ادعاء وجود عقد اجتماعي هدفه إيجاد تبرير للوجود السلطوي، وذلك بادعاء احتمالية وجود مقياس مُستقل مختلف لدى كل فرد يمكن الانطلاق منه للفعل. ولهذا لا نقر رولز فيما ذهب إليه بقوله: "العدالة كإنصاف، بوصفها نظرية تعاقدية، تعتبر أنَّ مبادئ الاختيار الاجتماعي ومنها مبادئ العدالة ذاتها موضوع اتفاق أصلي"، ونذهب بذلك لرفض نظريته.

- إنَّ افتراض وجود عقد اجتماعي يُوقع الفرد في فخ الاعتقاد بأنَّ فعله ينبغي أن يكون استحقاق شخصي لأولئك الذين يبادلونه فعله، لا استحقاق عام، وبالتالي يصبح فعل الفرد ليس غاية وإنما وسيلة، وبالتالي يصبح فعله نفعي لا أخلاقي.

- إننا نستنتج من قول رولز: " فالعدالة الإجرائية الخالصة تسود عندما لا يكون هناك أي مقياس مستقل يقع الحكم به على صحة النتائج ..."، بأنه يُقيم مبادئ العدالة على أساس الاتفاق بين الأفراد، وبكون الاتفاق شرط نجد أن الفعل يكون بالضرورة وسيلة لا غاية.

- يُقيم رولز مبادئ العدالة على أساس قبلي (العقد الاجتماعي)، ولكن أساسه القبلي هذا مختلف عن أساس كانط (مملكة الغايات)، فهو أساس مشروط، أي أساس يجعل فعل الفرد مرتهن بفعل الآخر، أما أساس كانط غير مشروط، ففعل الفرد غير مرتهن بفعل الآخر، بل ذاتي، مُنطلق إليه من الواجب لا من التزام الآخر.

- إنَّ افتراض وجود العقد، يوجد حالة يصبح الفعل فيها ليس غاية، وبالتالي يُوجد بيئة يكون الفعل العادل فيها مخصوص وليس عام، وبالتالي تتوفر بيئة يُطالب فيه بوجود سلطة تحمي هذا الفعل غير العام، وبالتالي بيئة لا

يكون فيها حماية للفرد من ظروفه القاسية، بل حماية للظروف القاسية من تمرد الفرد وإعلانه عن معاناته.

- إنَّ رولز لم يذهب لاستبدال مملكة الغايات بالعقد الاجتماعي إلا لتبرير السلطة وحمايتها وادعاء ضروريتها. بالنسبة لكانط لا أهمية لنظرية العقد بالنسبة لأخلاق الواجب، أي الثانية ليست مشروطة بالأولى، ولكن عند رولز الثانية مشروطة بالأولى.

- هذا الاشتراط عند رولز هدفه تبرير السلطة وتشريعها. عند كانط عدم ارتباط أخلاق الواجب بالعقد، يقودنا لنزع الشرعية عن السلطة بدون تناقض، يجعلنا نعلن أنفسنا كلاسلطويين بكل ثقة وطمأنينة بكون إعلاننا هذا أخلاقي.

- اعتبار رولز بأنَّ مملكة الغايات (العالم المتعالي) والذات المتعالية فكرتان غير مُرضيتان لاتخاذهما قاعدة للعدالة البشرية، كون هاتان الفكرتان لا تخصان الكائن البشري إلا في ظل تخليه عن طبيعته البشرية، نجده غير صحيح وغير مُقنِع. لقد ذهب رولز للاعتقاد بأنَّ كانط حقَّر الطبيعة البشرية وذلك بادعائه أنَّ كانط بيَّن أنَّ التصرف وفق القانون الأخلاقي تعالي على الطبيعة البشرية، في حين أنَّ التصرف وفق مبادئ مناقضة للقانون هو تصرف وفق الطبيعة البشرية. وهنا نجد رولز مخطئ في فهم كانط، فكانط عندما أحال للطبيعة البشرية القدرة على المرور من مملكة الغايات هو في الحقيقة لم يُحقِّرها وإنما نزَّهها وأبان عن قدرها الحقيقي. نعم، لقد كانت ثقة كانط بالإنسان ونظرته المليئة بالاحترام للطبيعة البشرية نموذج يُحتدى به.

- نعم، كانط لم يُشر بتاتًا إلى أنَّ الخروج من مملكة الغايات هو نتيجة انصياع للطبيعة البشرية، أو إلى أنَّ الدخول فيما نتيجة انحراف أو تمرد ورفض للطبيعة البشرية، نعم كانط لم يُألِّه الإنسان كما فعل من سبقه، ولم يُحقِّره كما فعل من خلفه، وإنما نظر إليه نظرة المكتفي به، نظرة الباحث عنه لنفسه وللآخرين.

- اعتقاد كانط بقدرة الإنسان على الوصول إلى عالم المثال، يجعلنا نتفاءل ونثق بأنَّ عالمه سيخرج من نطاق القبح إلى نطاق الجمال ومن نطاق الجمل لنطاق المثال.

- صحيح أنَّ تصور كانط للقانون الأخلاقي ولمملكة الغايات يَظهر كعدم اعتراف بالشروط البشرية للعدالة، ولكن ما يغفل عنه الكثيرون هو أنَّ

المرور من مملكة الغايات (الالتزام بالواجب) جزء من طبيعتنا البشرية التي يحاولون حصرها في الفعل غير المُتضمَن في مملكة الغايات، للفعل غير الصادر عن الالتزام بالواجب، وهذه الغفلة في أحيان تكون بريئة، وفي أحيان لا تكون كذلك لأهداف تشويهية، ولإحالة تهمة لكانط مفادها أنه يُحقِّر الطبيعة البشرية.

- إنَّ عدم الاعتراف بوجود شروط بشرية للعدالة، لا ينبغي أن يقود للاتهام بتهمة التجريد غير القابل لوصله والانطلاق منه للتجسيد، لا ينبغي أن يقود إلى الاتهام بتهمة السعي لتأليه الإنسان بمطالبته بعزل مُحيطه وعدم التأثُّر بظروفه، أو إلى الاتهام بتحقيره بعدم الاعتراف بشروطه كشروط تقود لفعل حيادي موضوعي أخلاقي عالمي.

- وعليه، تضمين الفعلين الأخلاقي وغير الأخلاقي ضمن أفعال الطبيعة البشرية، يقودنا لإسقاط جميع التهم المُوجَّهة ضد أخلاق الواجب.

- نعم، واعترافنا بعزلة مملكة الغايات، يقودنا للتصريح بأنَّ المرور منها ليس تأله وإنما هو فعل من أفعال الطبيعة البشرية التي لم تشارك هي ولا ظروفها بإيجادها (أقصد مملكة الغايات).

- يشرح رولز في كتابه نظرية في العدالة، الفكرة المركزية لمبدأ الإنصاف، وهي أنَّ انخراط عدد من الأشخاص في مشروع تعاوني تبادلي في الإفادة طبقًا لقوانين، يُقيد حرية هؤلاء المنخرطين بطرق ضرورة لتوليد النفع والعائد للجميع، وبناءً عليه يكون على المستفيدين من خضوع الخاضعين للتقييدات والقيود واجب الخضوع لذات التقييدات والقيود التي استفادوا منها، فحسب رولز لا يكون لأحد عائد من العمل التعاوني، ما لم يحمل كل فرد حصَّته على محمل الإنصاف. وبالتالي حسب رولز يُلزم العقد بالطاعة بذريعة الإنصاف، وهو يُسميها طاعة طبيعية أو واجب العدالة الاجتماعية.

- ومن هنا نعتقد بأنَّ رولز يحاول تبرير السلطة بالعمل التعاوني وعوائده، بل نجده يحاول تقديم السلطة كشرط لإمكانية العمل التعاوني.

- إنَّ هذا التبرير للسلطة بالعمل التعاوني، يُحيلنا للقول بأنَّ رولز قد يكون ينكر وجود عائد للعمل الفردي، أو يحاول تجاهل وجوده، لأنَّ هذا العمل لا يخدمه في تبريره للسلطة بالعمل التعاوني. إنَّ رولز بهذا التبرير للسلطة لا يحفظ للفرد استقلاليته وفردانيته، وأيضًا يتعارض هذا التبرير مع ذهابه للقول بأولية الحق على الخير.

- إنَّ استفادة الجماعة من الفرد يحاول رولز تجاهلها لكي يُبقي على جدوى تبريره للخضوع، لكي يُبقي على الانتفاع من العمل الجماعي كمبرر للخضوع وللقيود.

- بالتأكيد، فيما أنَّ انتفاع الجماعة بعائد العمل الفردي ليس بمبرر لخضوعها للقيود الذي أُلزم بها الفرد نفسه لتحصيل هذا العائد، فكذلك انتفاع الفرد بعائد العمل الجماعي لا ينبغي أن يُلزمه بالخضوع للقيود الملتزمة بها الجماعة.

- نعم، إنَّ التزامي بقيود مُحددة شخصية غير نابعة من إلزام خارجي، التزام شخصي لا ينبغي تعميمه بخلق إلزام خارجي، فمعتقداتي وقيود برامجي الخاصة تصنع الحدود لي وليس للآخر، حتى في حال كان الآخر مُستفيد من التزامي، وحتى لو كان عائده من التزامي أكبر من عائدي.

- ما تغاضى عنه رولز، هو أنَّ الانتفاع لا يُبرر تعميم الإلزام على من هم لا يدينون بمعتقداتي ولا يشاركون في برامجي وأهدافي. الانتفاع لا يبرر وجود السلطة، لا يبرر خضوعي القسري.

- إنَّ حق الانتفاع لا يوجب الطاعة ولا يبرر السلطة والقيود. جميع محاولات احتكار عائد العمل للعامل -سواء كان فرد أم جماعة- ظالمة وهدفها تبرير السلطة، سواء كان هذا العمل أخلاقي أو اقتصادي أو اجتماعي، إلخ.

- نعم، لا بد لنا ألا نَمُنَّ على أنفسنا -سواء كنا أفراد أم جماعات- وعلى الآخرين التزامنا بما هو أخلاقي وشرعي وتعاوني وفردي، وذلك باحتكار عوائد هذا الالتزام لنا نحن الملتزمون وحظرها عن غير الملتزمين، لكي لا يتسنى لنا أولًا الاستكثار ثم نجد أنفسنا نشرع بتقليل التزامنا بما ندين به أو الاستغناء عنه، وثانيًا لكيلا نجد أنفسنا نحاول فرض قناعاتنا ومعتقداتنا وانتماءاتنا على الآخر.

- نعم، ما هو ملزم لي ليس ملزم لغيري، لأنَّ انطلاقي لإلزام نفسي كان انطلاق من معتقداتي وتوجهاتي الفكرية، وعليه فمحاولة إلزام الآخر هي محاولة لرفض قناعاته ومعتقداته وتوجهاته الفكرية، وبالتالي هي حرب على حرية المعتقد والتوجه الفكري.

- ولهذا الإشارة للفرد على أنه كيان غير مكتمل إلا بالاتحاد الجماعي، بمثابة منح تصريح لهذا الاتحاد بمطالبة الفرد بحُصة -في أحيان تكون كبيرة وفي أخرى صغيرة- من حيازته الطبيعية أو المُصطنَعة، ومن هنا يتم إسقاط

أولية الحق على الخير، ومن هنا يُصبح الضغط على الفرد أكبر، وبالتالي تعثره أكثر، ومن هنا تتولد مبررات القيد، ومن هنا تتولد مبررات سلب حرية الأفراد، ومن هنا كان جحيم الاختيار والتنقل بين أنظمة الحكم.

- نعم، لا سبيل لتحوُّل لاسلطوي إلا بالاعتراف بأولية الحق على الخير بدون استثناءات. إنَّ ما يجهله السلطويون هو أنَّ حيازة الفرد ستبقى جماعية بعائدها في ظل المجتمع اللاسلطوي مهما أوغل الفرد في فردانيته، ولهذا ملاحقة حيازة الفرد هي بعثرة وإهدار وتضييع للعائد ذو الطابع الجماعي.

- الفرد بفردانيته لن يستطيع نقل ملكيته إلى عالم آخر، عالم يكون له وحده، قادر على استيعاب جميع حيازته، واحتكار فائدتها له وحده. نعم، الفرد ضيق جدًا حتى بمكانه الخاص، وهذا ما يجعل ملكيته خارج نطاقه، أي ملكيته متمركزة بجزئها الأكبر في نطاق الجماعة، ولهذا التمركز عائده على الفرد كما على الجماعة. ولهذا نجد حجج البعض المُقدَّمة لإسقاط أولية الحق على الخير، غير مُقنعة وضعيفة، هدفها تبرير وجود السلطة لا إيجاد خير الجماعة.

- إنَّ فردانية الإنسان توجد عائد للجماعة أكثر من جماعيته.

- ولهذا القول بأن أخلاق الواجب تدعو للتنصل مما صُنِّف على أنه واجبات اجتماعية (محيط، حزب، عائلة، وطن، دين، إلخ) غير صحيح، فأخلاق الواجب لا تدعو للتنصل من هذه الواجبات، وإنما تدعو لجعلها في إطار لا يتعارض مع عالمية المبدأ، وبالتالي فالامتثال للواجب الاجتماعي مكفول في أخلاق الواجب ومتاح بشرط عدم وقوفه في وجه عالمية المبدأ.

- فعلى سبيل المثال، قاعدة "لا تسرق عالميتها تدفع إلى إيقاف تشريع السرقة من الغير وتحريمها وحظرها فقط في المحيط، وعليه فالروابط الاجتماعية غير مُحيّدة بأخلاق الواجب بل مكفولة بما يكفل للفعل من العالمية.

- عدم مشاركة هذه الروابط في بناء المبدأ، لا يعني إهمالها وتحييدها، بل يعني قبول لعملها وفق المبدأ القَبْلِي، وعليه كان التجريد هو من يكفل للمبدأ عالميته.

- العالمية قد تكون مطلوبة بكثير من التوجهات، ولكنها حتمًا لن تكون مُنالة ومتحققة إلا باتباع الأخلاق الكانطية، التي فيها غايتنا ليس العالمية وإنما الامتثال للواجب الذي بالضرورة يمنح فعلنا بُعده العالمي.

- ولهذا باعتقادي المُنطلِق من أخلاق الواجب، يمنح كثير من أفعاله غير الأخلاقية الصائبة (أي تلك التي منطلقها دافع نفعي، كتلك الدينية والثقافية وغيرها) بُعدًا لانفعيًا، أي يصبح انطلاقه إليها كغاية.

- على سبيل المثال، الكرم (مثل دفع الحساب عن صديق)، نتوقف عن الانطلاق إليه لدوافع نفعية، أي رغبة بدفع الآخر ليكون كريمًا معنا، وعليه أخلاق الواجب تجعلنا نعي أنَّ أفعالنا الأخلاقية أو الصائبة غير مشروطة بأفعال الآخر وغير مُلزمة له بفعل فعلنا، نعم تصبح أفعالنا استحقاق ليس شخصي بل استحقاق عام حتى مع من نصفهم كأعداء.

- ولهذا أخلاق الواجب لا تدفع للتخلي عن الأفعال الصائبة بل تحث وتشجع على الالتزام بها والتمسك بممارستها حتى في ظل تلك الظروف التي تدفعنا للاستغناء عنها.

- بأخلاق الواجب نُدرك أنَّ فعل الآخر لا ينبغي أن يدفعنا لنقيس به استحقاقه لفعلنا الأخلاقي أو الصائب.

- الانطلاق للفعل بدافع الالتزام بالواجب بدون التفات لاعتبارات الجماعة، ليس بالضرورة كما يحاول النفعيون تصويره على أنه انطلاق ضد الجماعة.

- إننا نذهب ككانطيين بجرأة للاعتراف بأن الانطلاق للفعل بدافع الالتزام بالواجب هو خدمة للجماعة بدون أن تكون هذه الخدمة هدف للفعل.

- بالتأكيد، فقدرة أخلاق الواجب على استبدال النطاق الضيق الذي يخلقه الانتماء للعائلة أو الدين أو الوطن أو الحزب إلخ، بالنطاق الواسع الذي يتمثل بانتماء الإنسان لإنسانه، يدعونا للتصريح بثقة بصحة قولنا الذي مفاده أنَّ الفعل ذو المنطلق الفردي ذو طابع جماعي أكثر من الفعل ذو المطلق الجماعي.

- وانطلاقًا من هذه الاعتبارات سالفة الذكر، نقول بأنَّ العدالة بالضرورة أولية بالطريقة التي تطرحها أخلاق الواجب.

- إنَّ القائل بوجود شروط تجريبية مُسبقة للعدالة، بالضرورة لن يكون بإمكانه تأييد أولية الحق كما يفعل المؤمن بأخلاق الواجب. نعم، لا يمكن تأسيس فكرة أولية الحق على البُعد التجريبي.

- عدم إيماننا بوجود شروط تجريبية مُسبقة تستمد منها العدالة فضيلتها، يدفعنا للإيمان بأوليتها غير المشروطة. استشعارنا لما هو عادل موجود

حتى في حال كان محيطنا يخلو من كل ما هو عادل، وهذا لأن الشروط التي تستمد منها العدالة فضيلتها قبْلية.

- إنَّ الأولوية لا تتأثر ولا يتوقف استشعار الفرد بها حتى في ظل الظروف الحياتية القاسية والصعبة. نعم، على الرغم من تأثير الظرف على سلوك الفرد إلا أنَّ هذه الأولوية غير المشروطة تبقى حاضرة لديه.

- إن قول البعض "ظروف العدالة" يُحيل كثيرين إلى تصور وجود شروط تجريبية للعدالة، ولهذا نحن نرفض استخدامه. إنَّ العدالة كما أوضحنا لا تنتزع فضيلتها من شروط تجريبية بل من كيان تساءل عنه كانط بتعجب واندهاش دون معرفته.

- يسأل كانط بفخر واعتزاز وبإحساس بالعظمة مخاطبًا الواجب: "أي مصدر يكون أهلًا لك؟ وأين يمكن أن نجد أصل نسبك النبيل الرافض لأي قرابة مع الهوى؟".

- ولهذا نظرًا للشروط الصارمة التي تُميز الأخلاق الكانطية ومبادئ العدالة، لن نجد مصدر لهما ذو بعد وأساس تجريبي، لن نجد أي أساس مادي يُسقط هذه الأولية.

- إنَّ استشعار الفرد بأناه المتعالية يَبقى حاضرًا حتى في ظل سلوكه المنحرف غير المُقوَّم بخضوعه للواجب، وهذا يُفسر شعور المخطئ بخطئه مهما انغمس وتمادى في تكرار سلوكه الخاطئ.

- إنَّ الفرصة للارتداد نحو السلوك الأخلاقي تبقى قائمة لدى الجميع، لأنَّ ما هو أخلاقي كما سبق وذكرنا، لا يستمد فضيلته من بعض الشروط التجريبية التي حال افترضنا وجودها تشترط بغيابها غياب استشعار أخلاقية الفعل لدى الفرد، وبالتالي تسقط أولية الفعل الأخلاقي لديه.

- إنَّ افتراض وجود شرط تجريبي للفعل الأخلاقي هو مُحيلنا إلى تجريم الإنسان وعدم التسامح معه، وهو مصدر العنصرية ووصف الإنسان بالوحشية والبربرية.

- الذات المُتعالية للفرد لا تمنحُها حياة الفرد، بل توجد لدى الفرد بالتزامن مع وجوده، ولهذا استشعارها لا تُعطِّله الظروف الحياتية والمعيشية القاسية، ممايقودنا لحصر تأثير هذه الظروف على السلوك لا على القانون الأخلاقي.

نرجو بهذا العرض أن نكون نجحنا بإيجاد نقطة أرخميدس، أي نجحنا بإيجاد ذلك الذي يتيح التوفيق بين الذات التي كلها تجريد والذات التي كلها تجسيد.

- وعلى ما سبق يتبين أنَّ رفضنا للموقف التجريبي، هو نتيجة تسببه بدفعنا للاعتقاد بأنَّ شروط ودوافع البشر قادرة على أن تمدنا بمعايير عقلية للسلوك. ونستنتج أيضًا مما سبق أنَّ ما هو أخلاقي تجريبيًا إذا لم تنطلق أخلاقيته من مبادئ ومعايير أخلاقية مُجرَّدة، كان لا بد علينا من مراجعة حكمنا عليه بالأخلاقية، مهما بدت النتائج تشير إلى أخلاقيته وتُؤكدها.

- بالتأكيد، إنَّ التوازن الانعكاسي أي ذلك التوازن الذي يظهر كأثر للسلوك، لا ينبغي علينا الانطلاق منه للتسليم بصحة المنطلَق وتوازنه، لأنَّ الانطلاق من التوازن الانعكاسي للتسليم بصحة المُنطلَق يضع الحدود أمام تصورنا لمفهوم التوازن، وبالتالي يدفعنا للاكتفاء، وبالنتيجة التوقف عن السعي نحو أفضل تصور للتوازن.

- ثم إننا نجد أيضًا أنَّ الانطلاق من التوازن الانعكاسي للتسليم بصحة مُنطلَق، يتسبب للمُنطلَق بالذاتية وعدم الموضوعية وبالتالي يُفقده عالميته. نعم، بهذا يكون تصورنا للتوازن الانعكاسي تصور غير مُعترَف به من قبل الآخر الذي هو خارج مُحيطنا الضيق.

- ومن هنا ننطلق للقول بأنَّ ذهاب الجماعتيين للقول بأنَّ الحقوق مرهونة في تبريرها بالأهمية الأخلاقية للغايات التي تخدمها، يُسقطهم في إخراج المعرفة بالحق عن كونها معرفة أخلاقية (لأن ما عقلي بالضرورة متسق مع ما هو أخلاقي الذي هو بالضرورة عقلي)، وبالتالي إخراجهم الحق عن الانتماء العقلي هو بالضرورة ذهاب للقول بنسبية الخير والحق، وبالتالي هو انطلاق من نفع الجماعة لتحديد ما هو حق، وهذا ما سمح بتعدي الجماعة على الفرد.

- وبالتالي نستنتج أنَّ الحقوق ليست مرهونة بالخير، وأيضًا ليست مرهونة بالنتيجة الأخلاقية، بل هي تسير بخط متوازي مع ما هو أخلاقي، وعليه التمسك بالحق عدالته لا تنتفي بنتيجته، أي على سبيل المثال، تمسكي ببيتي في ظل إعاقته لمشروع يخدم الجماعة، عدالته لا تنتفي بالضرر الواقع على الجماعة من هذه الإعاقة، ولهذا نقول بأنَّ محاولة محاربة فعل عادل لن تكون إلا بفعل غير أخلاقي، والفعل غير الأخلاقي حتمًا نفعيته لن تحمي المجتمع من التفكك والانهيار، لأنه مبني على اضطهاد الفرد.

- دعونا نُقدِّم مثال آخر، إنَّ تمسكنا بحقنا بالحفاظ على حياتنا في ظل تهديد شخص بسلبها في حال امتنعنا عن تقديم معلومات عن مكان عدوه لينتقم منه، عادل، وعدالته هذه لا تنتفي بنتيجة فعلنا، أي لا تنتفي بإرشادنا له إلى مكان عدوه، ففعل مهدد حياتنا هو الذي تسبب بأن تكون نتيجة فعلنا غير نافعة، وليس تمسكنا بحقنا بالاحتفاظ بحياتنا هو المتسبب بذلك.

- إنَّ مبادئ العدالة التي ترتكز عليها حقوق الأفراد غير مرتبطة أو مرهونة بأي تصور للحياة الخيرة، ولهذا للحق دائمًا أولية على الخير.

- ولهذا لا يوجد أهمية أخلاقية للغايات التي تخدمها الحقوق، بل هناك أهمية نفعية، لأنَّ الحقوق بحد ذاتها عقلية، تسير بالتوازي مع ما هو عقلي أيضًا كالأخلاق، وبالتالي كل من يبحث عن أهمية نفعية للغايات التي تخدمها الحقوق هو يستخدم التبرير النفعي لخدمة الجماعة على حساب الفرد.

- إن حماية الحق ينبغي أن تكون غير مرهونة بالنتيجة، ولهذا ينبغي أن تكون كغاية لا كوسيلة.

- إنَّ كل إعاقة لما هو عقلي (كالتمسك بالحق)، يتسبب بإعاقة لما هو عقلي آخر (كالفعل الأخلاقي)، ولهذا تكون دائمًا أولية الحق مساهمة بانتشار الفعل الأخلاقي في المجتمع، بينما أولية الخير تسهم بانحصاره.

- إنَّ كل ما هو عقلي يسير بالضرورة في خطوط متوازية، أما كل ما هو نفعي يسير في خطوط متقاطعة.

- وعليه، لا يمكن الإشارة إلى نتيجة التمسك بالحق كنتيجة أخلاقية أو غير أخلاقية، لأنَّ التمسك بالحق عقلي، ولهذا يُشار إليها كنتيجة نفعية أو غير نفعية. ولهذا مقولة ساندل: "الحقوق مرهونة في تبريرها بالأهمية الأخلاقية للغايات التي تخدمها" نراها خاطئة، وعليه وجدنا أنه كان ينبغي عليه القول: "الحقوق مرهونة في تبريرها بالأهمية النفعية للغايات التي تخدمها"، وبالرغم من ذلك، نجده في المقولتين نفعي.

- نتبين هنا أنَّ النظرية النفعية لا تأخذ بعين الاعتبار وبصورة جادة تمايزنا كأفراد، وانطلاق النفعيون من قولنا هذا لمهاجمة نظرية الواجب بالقول بأنها لا تأخذ بعين الاعتبار وبصورة جادة طابعنا الجماعاتي، هدفه تشويهي، وقد بيَّنا كيف أنَّ لا أساس لهذه التهمة من الصحة.

- إنَّ عدم جواز استخدام البعض كأدوات لخدمة غايات الغير شرط مركزي عند كانط للفعل الأخلاقي.

- النزاع بين الهدف الاجتماعي والحق الفردي ينبغي الانتهاء منه بنصر الحق الفردي للقضاء على كل سلطة. لا يمكن تبرير سياسة اجتماعية مهما تعاظمت منفعتها، في حال قامت على حساب الحقوق الفردية.

- إنَّ ليبرالية أولية الحق على الخير (التي كرَّستها نظرية أخلاق الواجب) تتجلى كمعارضة لسلطوية التصورات النفعية عن الخير لدى النفعيين.

- ومن هنا ننطلق للتأكيد على أهمية الأديان، التي تهدف لتقديم تصورات للحياة الخيرة أكثر توافقًا وتماشيًا مع مبادئ العدالة، تصورات ليست مشروطة بالتعدي على مبادئ العدالة، وإنما تصورات طوعية تتراجع برفض الأشخاص لها. ولهذا نجد المكافأة الأخروية مُحفزّة على قبولها بدون أن تكون هناك عقوبة أخروية على عدم القبول بهدف انتزاع أولية للخير على الحق.

- إنَّ التقسيم الديني لحياة الأفراد على أساس أخروي ودنيوي، هدفه دعم تصورات الحياة الخيرة، بدون تعدِّي على مبادئ العدالة، هدفه انتزاع قبول من الأفراد طوعي لا على أساس ترهيبي بل على أساس ترغيبي. إنَّ ضيق الحياة الدنيوية واتساع الحياة الأخروية يجعل الأفراد متقبلين للتنازل الطوعي عن بعض حقوقهم في سبيل خدمة التصورات التي تُقدِّمها الأديان عن الحياة الخيرة والاستفادة منها، وكذلك تُشكِّل أبدية العائد الأخروي ومحدودية زمن عائد الدنيا حافز للأفراد على تقديم تنازلات تخدم الجميع أفراد وجماعات.

- إنَّ الأديان تُحفِّز انتشار العديد من الفضائل مثل الإيثار والكرم والجود والتسامح وغيرها من الفضائل ذات المردود الذي يخدم الجماعة ماديًا والفرد نفسيًا وروحانيًا.

- وبهذا نكتشف أنَّ للأديان مهمة لا يمكن الاستغناء عنها، ولهذا محاربتها يتسبب بصدام وصراع عنيف بين الفرد والجماعة.

- ولهذا محاولات إحلال سياسة التمييز الإيجابي (اللامساواة الإيجابية)، كبديل عن الأديان لا عائد منها، بل إنَّ لها ضرر كبير سيكون من الصعب جدًا تفاديه.

- نعم، إنَّ سياسات التمييز الإيجابي هدفها لا إخراج -على سبيل المثال- العرق من عبوديته وإنما الإبقاء عليه في ظروفه القاسية، ولهذا تجد منا الرفض، لأننا اخترنا دخول العرق في ظروف العرق المُحتكِر للظروف المريحة.

- إنَّ سياسات التمييز الإيجابي هدفها أقلمة وتكييف الأقليات والفئات الأكثر اضطهادًا والأقل حظًا في ظروفهم القاسية لا إخراجهم منها. ولهذا باعتقادنا لا يوجد تمييز إيجابي عادل ونافع، وإنما هناك دائمًا تمييز هدفه الإبقاء على الظروف المتفاوتة في قسوتها وصعوبتها.

- بالتأكيد، ستكون دائمًا سياسات التمييز الإيجابي هدفها الإبقاء على الوضع الراهن.

- ومن هنا كان رفضنا للمساواة الديمقراطية ناجم عن تأييدنا ومطالبتنا بالمساواة الليبرالية.

- يعتقد البعض أنَّ المساواة الليبرالية اصطناعية، والهدف من اصطناعها تعويض لاعدالة الحرية الطبيعية المولِّدة للامساواة في توزيع الفرص والمُتيحة للتفاوت الاجتماعي حسب زعمهم، وهذا خاطئ باعتقادنا، فالمساواة الليبرالية طبيعية، وبالتالي إشارتهم إلى الحرية الطبيعية على أنها ليست عادلة خاطئة أيضًا. إنَّ الحرية الطبيعية عادلة في جميع أحوالها.

- ولهذا ذهاب البعض للتصريح بأنَّ لا أحد يستحق نصيبه من توزيع المواهب الطبيعية، يُحيلنا لفهم نزعهم لهذا الاستحقاق على أنه تمهيد لشرعنة نزع الحيازة، وبالتالي القول بأولية الخير على الحق. وعليه نجد أنَّ الجميع يستحق مكانته الأولى التي تعوْد إليه في المجتمع، هذه المكانة التي تُقدِّمه كإنسان، كفرد، ككيان ليس امتداد لأحد.

- الحديث عن ضبط الحرية من قبل المحافظين وبعض الليبراليين، بالضرورة هو حديث عن خلق القيود، هو بالضرورة حديث عن سلب الحرية. إنَّ الدفاع عن الحرية يتطلب إيمان مُطلق بخيرها بمعزل عن ضرر الخيارات.

- واتهامنا نحن المؤمنين بالأخلاق الكانطية بأننا نسلب الحرية من الإنسان بإيماننا بالقانون الأخلاقي المُطلق، تهمة لا أساس لها من الصحة. ففي حال كانت إرادتي مشروطة برغبتي، يغدو كل خيار لي مشروطًا بالرغبة فيه، وبالتالي غير مستقل، وبهذا تكون رغبتي هي العلة الأولى وليست إرادتي،

أي يصبح قراري نتيجة خارج أنا متأثر به، لا نتيجة داخل أنا مُنطلِق به، وبهذا تكون حريتي مُنتفية لكوني كائنًا تجريبيًا تمامًا. إنَّ العنصر القبْلي المتاح مع العنصر التجريبي، يجعلنا كائنات حرة، فعملية التخيير فيها خياران، أحدهما أخلاقي والآخر غير أخلاقي (متضمن الفعل الصائب وغير الصائب).

- وهذا ما يجعلنا نرفض وجودية سارتر، فوجوديته تنكر الطبيعة البشرية، فوفقًا لقوله: "وهكذا لا يكون للإنسانية شيء اسمه الطبيعة البشرية، لأنه لا يوجد الرب الذي تمثَّل وجود هذه الطبيعة وحققها لكل فرد طبقًا للفكرة المسبقة لديه عن كل...". نعم بتقديم وجود الإنسان على ماهيته (الصفات والشكل والاستخدام والهدف)، كان هناك إنكار لوجود قانون أخلاقي قبلي لدى الإنسان، وإنكار لوجود مبادئ عدالة ترتكز عليها حقوق الأفراد غير مرتبطة بأي تصور للحياة الخيرة، أي مبادئ عدالة قبْلية مُستشعَرة فطريًا.

- إنَّ سارتر في وجوديته يُقيم القانون الأخلاقي ومبادئ العدالة التي ترتكز عليها حقوق الأفراد على أساس تجريبي، وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلًا.

- إنَّ ذهابه لإنكار الطبيعة البشرية هو ذهاب لإنكار إنسانية الإنسان، وفي أحيان نعتقد أنه ذهاب إلى القول بأنَّ هذه الإنسانية مُكتسَبة لا فطرية.

- وهذا التفكير باعتقادنا يُشكِّل تهديد خطير على الإنسان، لأنه يُمهِّد لادعاء البعض الحق بنزع صفة الإنسان عن الإنسان، أي اتهامه بالوحشية والبربرية وغيرها من الصفات التي مهدَّت للعنصرية والعبودية والإبادات الجماعية.

- نُقر بأن محاولة سارتر نفي وجود الطبيعة البشرية، هي محاولة منه للتأكيد على حرية الإرادة، ونحن نتفق معه بأن الإنسان حر الإرادة، ولكن نرفض تدليله الخاطئ على ذلك. فالطبيعة البشرية غير سالبة لحرية الإنسان، بل واهبة لها كما سبق وبيَّنا. إنَّ صراعي وحيرتي في الاختيار بين أحد الفعلين (الأخلاقي والصائب) يُدلل على حرية إرادتي لا على العكس.

- وأيضًا نجد سارتر في ذات المحاضرة يقول: "إن اختيارنا لنمط معين من أنماط الوجود، هو تأكيد لقيمة ما نختار وإعلاء لشأنه، وكأننا نقول لكل الناس: اختاروا مثلما اخترنا، فنحن لا يمكن أن نختار الشر بأنفسنا، وما نختاره دائمًا خير لنا، ومن ثم فهو خير لكل الناس.". هنا نجده يذهب للتأكيد على أهمية العمل الفردي لصون وحماية فردانية الإنسان، ولكن نجد أسلوبه

خاطئ بوجوديته، فهو لا يميز بين الخيار الأخلاقي والخيار الصائب اللذين باختيار أحد منهما لا نكون مريدين للشر بل للخير، وبالتالي هذا الاختيار الذي نحث الناس على القيام به مُنطلقه تجريبي، وما هو تجريبي هو بالضرورة نسبي، فاختيار اليوم قد لا يكون اختيار الأمس، وهذا يقودنا للقول بأنَّ فردانية سارتر خطيرة جدًا، فهي تمهد لوجود دكتاتور يسعى لتعميم تصوره لما هو خير انطلاقًا من تجربته الذاتية، وبالتالي نجد فردانيته تدفع الفرد ليقول بدلًا من: "اختاروا مثلما اخترت"، تدفعه للقول: "يجب عليكم اختيار ما قمت باختياره، فاختياري لنفسي اختيار لكم".

- إنَّ الفردانية التي لا تنطلق من أساس قبْلي تُشكِّل خطورة كبيرة على الفرد والجماعة، ولهذا فردانيتنا نحن المؤمنين بأخلاق الواجب آمِنة.

- من الخطأ تعميم فعل نفعي بخيره لأنَّ هذا يقود للقضاء على كثير من المعتقدات والتصورات، في حين أنه ليس هناك ضرر من تعميم فعل أخلاقي بخيره لأنَّ أخلاقية هذا الفعل قبْلية.

- يُريد سارتر لوجوديته أن تسهم باستشعار الإنسان بفعله الفردي أنَّ على عاتقه اختيار فعل للبشر جميعًا، وبهذا نجده يثقل كاهل الفرد بمسؤولية تكريس فعل ذو بعد عالمي. ولهذا نجد أنَّ هذه المسؤولية التي يبتغيها سارتر للفرد، يفشل الفرد في تحمُّلها لثقلها، لأنَّ الأساس التجريبي عاجز عن تقديم فعل ذو بعد عالمي، ووحده الأساس القبْلي هو القادر على ذلك، ولهذا فردانية سارتر تسهم بإثقال كاهل الفرد بعبء لا يستطيع أحد تحمله، عبء ليس باستطاعة أحد احتمال تبعاته القاسية.

- نعم، يذهب سارتر بوجوديته إلى تقديم نصيحة للأفراد مفادها أن يقوموا بصنع أخلاقهم الخاصة بهم، لأنه ليس هناك -كما يعتقد- أخلاقيات جاهزة يمكن أن يسترشد الجميع بها ويمكن أن تصلُح للجميع، وهذا باعتقادي يُظهر سذاجة سارتر في التعامل مع الفعل الأخلاقي.

- وهذا ما دفعه للإشارة إلى الأخلاق الكانطية على أنها أخلاق تعتمد مبادئ شديدة التجريد تخفق في تحديد العمل. وهذا ما جعله أيضًا يجهل أنَّ البُعد العالمي للفعل لا يكون إلا في حال كان أخلاقي في كل مكان وزمان وعند كل فرد.

- في ختام محاضرتنا، نود الإشارة للسياق التاريخي للجهود التي ساهمت بالكشف عن حقيقة الأخلاق. إنَّ الأخلاق بالحرب التي شُنت على المؤسسات

الدينية والأديان بان استقلالها للمتفحص لا تعارضها كما يحاول أن يروج البعض لاستهدف الأديان. ومع أننا لا نبرر الوسيلة، إلا أننا نعترف بأن تلك الحقبة التاريخية انتزعت من رجال الدين تفردهم في تشكيل الفعل ووصفه بالأخلاقية أو غير الأخلاقية، مما أتاح مرونة أكبر للمؤمنين بقبول الآخر، وأتاح مساحة أكبر لغير المؤمنين للنشاط بدون أن تلاحقهم الوسائل القمعية التي كانت للمؤسسات الدينية، وبالتالي أتاح هذا الكشف عن حقيقة الأخلاق مساحة للمؤمن وغير المؤمن للنشاط وبالتالي للتعايش بدون حروب.

- ولكننا نعترف أيضًا أنَّ هذه الوسيلة منحت التوجهات العلمانية سلطة كان لا بد بها أن تصبح دكتاتورية كالدكتاتورية التي كانت عليها المؤسسات الدينية. نعم، لقد أصبح المؤمنون مستهدفين بالدولة التي أخذت على عاتقها تشويه صورة الأديان، ولهذا ساهمت هذه الآلية في الانتقال بأن يحوز السلطة طرف آخر كان لا بد له أن يَظلِم بها.

- ولكن بتنا نلاحظ أنَّ الإنسان بدأ يدرك أنَّ نهاية هذه الحرب لن تكون باختيار من يحوز السلطة، بل بمحاربة السلطة بحد ذاتها.

- إنَّ استقلالية مصادر الأخلاق وعزلتها عن المصادر النفعية ستوفِّر الأمن للمؤمن فيصبح غير مُستهدَف بإيمانه وكذلك لغير المؤمن فيصبح هو أيضًا غير مُستهدَف بعدم إيمانه.

- وهذا ما أراده شتيرنر بعدميته للأخلاق، فهو ليس ضد الأخلاق المستقلة (كالأخلاق الكانطية)، بل ضد ما يُسمى بالأخلاق الدينية، أي ضد النواهي والأوامر الدينية التي تمثلت بلباس أخلاقي. وهذا التوجه لشتيرنر يهدف منه إلى أن تكون الأخلاق مُطلقة وليست نسبية، عالمية وليست دينية، إنسانية وليست إلهية، عقلية وليست تجريبية نفعية.

- بالتأكيد، نشعر أنَّ هذه هي إرادة شتيرنر في كثير من نصوصه. نعم، هو يهدف إلى تفكيك أي إلزام خارجي لإحلال وتفعيل كل إلزام داخلي. لقد أراد شتيرنر تطهير الأخلاق لكي يتيح للإنسان التغلب على الأثر السلبي لانتماءاته الدينية أو المكانية أو الوطنية إلخ، ولكي يضمن أن لا يكون تحديدها حكرًا لأحد، وليُبقي على استشعار الفرد لما هو أخلاقي بمعزل عن محيطه، وبالتالي يحفظ له استقلاليته وحريته.

- إنَّ شتيرنر بحفاظه على استقلالية الفرد، ساهم في عدم حيازة أي توجه وانتماء للأفراد سلطة تسهم في تحويل أصحاب هذه التوجهات والانتماءات

إلى استبداديين، وبالتالي هو بالضرورة أتاح لهذه الانتماءات والتوجهات الدينية والفلسفية والوطنية وغيرها الفرصة لتحتفظ بجاذبيتها التي كانت نتيجة تكفُّلها لروادها بحرية الدخول والخروج منها.

- إن شتيرنر يُريد للأخلاق أن "تغادر مرتبتها الثانوية"، وأن "تكتمل"، وأن "تتملق"، وتصبح "دينًا" للجميع بجانب أديانهم.

- هنا نصل أيها الرفاق إلى ختام محاضرتنا، وكلنا رجاء وأمل بأن نكون قدمنا ردود على كثير من الاعتراضات على أخلاق الواجب وعلى أولية الحق على الخير، وآملين بأن نكون وضَّحنا مجموعة من النقاط، منها أنَّ تصور الحياة الخيرة لا يكون ضرره بالتباين والاختلاف بين المتصورين، بل بمحاولة فرض تصور معين على الجميع، ومنها بأن مبادئ العدالة التي ترتكز عليها حقوق الأفراد غير مرتبطة أو مرهونة بأي تصور للحياة الخيرة، ومنها أنه بالنسبة لأخلاق الواجب، تصورات الناس للحياة الخيرة هي مجرد تصورات خاصة شخصية، ولهذا لا يمكن لمجرد تفضيل عاجز عن ادعاء صحته من منطلق حيادي أن يقوّض مبادئ العدالة، ومنها أنَّ إحالة انحراف سلوكي إلى مقياس مستقل لا إلى ظرف قاهر هي إحالة هدفها الإبقاء على الظرف القاهر، ودفع الأفراد إلى إيجاد آليات التكيف مع هذا الظلم وتقبله، ومنها أنَّ السياسة الليبرالية التي استنبطت من أخلاق الواجب لا تُوقع في حرج ميتافيزيقي، ومنها كيف أنه لا ينبغي لتفضيلنا إحدى تصورات الحياة الخيرة أن يُبطل مقتضيات العدالة، وأن يكون مبررًا لاستغنائنا عما هو أخلاقي، ومنها كيف أنَّ لكل فرد الحق بالاحتفاظ بتصور ما عن الحياة الخيرة، بدون أن يكون له الحق بتعميم تصوره من مُنطلق أنَّ كل تصور آخر غير لازم، ولا يُفترض وجوده، ومنها كيف أنَّ الليبرالية تُقدِّم إسهامات كبيرة في النقاش السياسي، ومنها كيف فشل رولز بنزع الليبرالية من بُعدها وأساسها الأخلاقي، ومنها كيف أنَّ مبدأ أولية الحق على الخير يوفِّر قاعدة للتعاون الاجتماعي بين أطراف ذات مرجعيات وقناعات دينية وفلسفية متعارضة، ومنها كيف أنَّ ديمقراطية روسو تُشكِّل عقبة امام التحول الليبرالي، وكيف روسوية كثير من الدول تجعلها انتقائية اقصائية عنصرية، وكيف أنَّ مفهوم "القبول الضِمنِي" الذي ابتدعه فلاسفة العقد يحاول إرساء أولية للخير على الحق، ومنها أيضًا كيف أنَّ الشعب الليبرالي ليس لديه تصور شامل وعام عن الحياة الخيرة، وكيف أنَّ الديمقراطية تبعثر إمكانيات هذا الشعب، ومنها كيف أنّ جميع مُنطلقات تبرير السلطة تصدر عن مؤمنين بعدم قطعية الفعل الأخلاقي لدى الجميع، ولهذا هم مؤمنون بوجود تفاوت في إدراك الفعل الأخلاقي، وبالتالي إيمانهم بالتفاوت إيمان

بالطبقية، إيمان بفوقية البعض ودونية البعض الآخر، مبينين بذلك كيف أنه وحده المؤمن بقطعية الفعل الأخلاقي لدى جميع البشر هو المؤمن بتساوي البشر، وبالتالي هو المؤمن بعدم شرعية وضرورة السلطة، ومنها أيضًا كيف أنَّ الفعل السلطوي فعل يُشكِّل عائقًا أمام ظهور الفعل الأخلاقي والفعل الصائب، وبالتالي أمام الفعل العقلي، والفعل الذي يكفل التنوع، خاتمين بكيف أنَّ كل مجتمع لا تحكمه مبادئ تفرض تصور معين للخير يكون أفضل حالًا وأحسن تنظيمًا.

صديقك المخلص

ف.د

3 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

المحاضرة الثانية

السلطة واللاسلطة

- إن المُتتبع للتاريخ الثوري للبشرية، سيجد أنَّ محاربة السلطة عن طريق محاربة الكيانات التي تتموضع وتتموقع فيها (طبقة، عائلة، حزب، جنس، عرق، دين، إلخ) هي ملاحقة ومطاردة لا تفلح في الوصول والقبض.

- نتفق أنَّ كل شكل جديد من أشكال السلطة، وكل تموضع وتموقع جديد قادر على إنتاج أشكال مختلفة من السلطة وتموقعات وتموضعات أخرى متعددة، وقد ينتهي هذا بالوصول إلى سلسلة لامتناهية، ولكن نجد أنَّ الانطلاق لمكافحة السلطة من هذا المعتقد من خلال تجاهل محاربتها في التموضعات والتموقعات الثانوية والتركيز على ذلك في الرئيسية نهج خاطئ، وهذا النهج هو المتسبب حسب اعتقادنا في تعثر مطالب وطموحات الفكر والخطاب اللاسلطوي في القرن التاسع عشر والعشرين.

- من الخبرة المُكتسبة من التجربة الطويلة بتنا ندرك أنه ممكن ومتاح تحصيل أكبر العوائد من خلال تأجيل الاصطدام المباشر بالتموقعات

والتموضعات الرئيسية للسلطة، والعكوف عن محاربة الثانوية والجديدة منها المتوزعة والمتناثرة هنا وهناك، والتي مقاومتها ليس لها تداعيات خطيرة، ولا تولِّد اضطرابات عنيفة وعاصفة تؤذِي الثوري أكثر مما تؤذي السلطة.

- إنَّ للثقافة اللاسلطوية أثر جد كبير في حال تم التركيز على نشرها، فهي تمنح تحصينًا لكافة الكيانات من السلطة التي تسعى دائمًا لإيجاد موطئ قدم لها فيها عن طريق خلق ظروف قاسية وصعبة تُعزز لدى هذه الكيانات الرغبة بها لدوافع دفاعية سرعان ما تتحول لدوافع هجومية.

- نعم، النطاقات الواسعة للسلطة والرئيسية (مثل الدولة) تشكلت في الأساس انطلاقًا من نطاقات ضيقة أخذت الحدود بينها بالتهدُّم والتكسُّر مُشكِّلة إياها، ولهذا دور اللاسلطوي يتمثل في طرد السلطة من النطاقات الضيقة، محاولةً في إعادة بناء الحدود بينها لتفكيك النطاقات الواسعة التي أخذت تلعب دورًا محوريًا منذ تأسيسها وإنشائها بخلق الظروف التي تسهم بإيجاد المزيد من النطاقات الضيقة بهدف توسيع نطاقها، بهدف خدمة أهدافها الإمبريالية.

- لقد وُجدتْ السلطة بسبب ظروف قاسية أثَّرت على قناعات الكيانات التي عانت منها، من خلال تشكيل تصورات خاطئة مبنية كرد فعل لا كفعل، ولأن السلطة خيار خاطئ لهذه الكيانات، ساهمت باختيارها في تشويه تصورات أكثر من خلال المساهمة بإيجاد ظروف أشد قسوة، وبالتالي المساهمة بتهيئة نطاقات وكيانات أكثر للتموضع والتموقع فيها.

- ولهذا نجد اللاسلطوي عاجز عن أن يكون لاسلطوي بالقدر الكافي في كثير من الأحيان في حربه ضد السلطة في النطاقات الضيقة نتيجة الظروف القاسية التي يعاني منها بسبب السلطة المتمركزة في النطاقات الواسعة.

- ولهذا أيضًا نجده يتنازعه ميلان يسهمان في كثير من الأحيان ببعثرة جهوده وتشتيته، الميل الأول يتمثل في مكافحة السلطة في النطاقات الضيقة، والميل الثاني يتمثل في خيار مكافحة السلطة في النطاقات الواسعة، فنجده منتصر في حربه ضد السلطة في النطاقات الضيقة، ومنهزم في حربه ضدها في النطاقات الواسعة لانتصارها عليه بإيجاد المزيد من النطاقات الضيقة للتمركز فيها، ولكن نجده في مجمل حربه ضد السلطة منتصر ولكن انتصاره هذا باهت نتيجة هزائمه في جولات عديدة ضد السلطة.

- ولهذا اللاسلطوي مطالب بالكشف عن انتصاره، وذلك بتعظيم وتوسيع المسافة الزمانية والمكانية الفاصلة بين هزائمه في جولاته مع السلطة وتقليص المسافة الفاصلة بين انتصاراته وذلك بتكثيف جهوده في الاستسلام للميل الأول والصمود أمام الميل الثاني. على اللاسلطوي تسريع انتصاراته وإبطاء هزائمه الحتمية في العديد من الجولات أمام السلطة، وذلك كما سبق وذكرنا بالاستسلام للميل الأول والصمود أمام الميل الثاني.

- وعليه أيضًا الحذر من ترقية الكيان الذي تموضعت وتموقعت فيه السلطة إلى مرتبة العدو وطرده من منزلة الصديق والحليف، فتلك الترقية بمثابة سعي للسلطة، بمثابة وقوع في فخ السلطة المفضل الذي يتمثل بإكثار الأعداء لخصومها لكي يسعوا لطلبها بنهم ويكفوا عن عدائها ورفضها. نعم، إنَّ هذه الترقية بمثابة وقوع في فخ السلطة الذي وقع فيه كثير من العباقرة الذين لم يخدم هدفهم الإنساني صدقهم وحماسهم.

- اللاسلطوي سيواجه صعوبة كبيرة في محاربة الظروف القاسية التي تجعل السلطة قادرة على النفاذ إلى الكيانات المختلفة -للتموضع والتموقع فيها-، ولهذا نعتقد بأنه سيكون لثقته بالإنسان وإيمانه بخيرية طبعه دور مهم في دفعه لمواصلة الكفاح في ظل هذه الظروف، وبالتالي مساعدته في التغلب على التصورات الخاطئة، فالثقة بالإنسان ستبدد اليأس من القدرة على إصلاح تصوره، وبالتالي النجاح بإصلاح سلوكه وتصويب اختياراته.

- نعم، لا يستطيع اللاسلطوي أن يسير كالسلطوي باتجاه إصلاح السلوك بالعقاب. نعم، اللاسلطوي يتجه لإصلاح السلوك عن طريق مكافحة الظروف الصعبة ومن ثم إصلاح التصور.

- تتبع التاريخ وتفحصه يقودنا إلى معرفة أنَّ من كانت ظروفهم هي الأقسى والأصعب والأكثر توحشًا، هم من يرثون ويمارسون السلطة، فالسلطة تتملص من أيدي من تصوبت تصوراتهم أو بقيت بذات الدرجة من التشوه، إلى أولئك الذين تشكَّلت لديهم تصورات مشوَّهة وتعاظم تشوه تصوراتهم.

- لهذا لا أحد يختار السلطة، لهذا السلطة ليست إرادة، لهذا السلطة هي التي تنتقي كيانها الذي تتموضع وتتموقع فيه وليس الكيان هو الذي يختارها، لهذا السلطة تفرض وجودها على الكيان بدون إرادة من الكيان لها مهما بان طلبه وإلحاحه عليها، لهذا السلطة تتنقل بخفة ولكن بدون حرية بل بانقياد نحو الأشد بؤسًا ومعاناة وتألمًا، ولهذا السلطة هناك إمكانية كبيرة للتخلص منها.

- إنَّ السلطة تتنقل بين الكيانات بواسطة مقدار تأثير ظروفهم القاسية على تصوراتهم (وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الظروف القاسية لا تشترط أن يكون الكيان فقيرًا مثلًا، فنحن في أحيان نجد أنَّ بؤس الغنى يكون أفتك من بؤس الفقر)، بدون أن تكون حكرًا لأحد لفترة أطول من تربع تصوره على عرش التصور الأكثر تشوهًا.

- وبالتالي يمكن تعريف السلطة بأنها الوضعية النافذة من تغلب الطبيعة الكونية على الطبيعة البشرية، وبالتالي هي الوضعية المنتفية بتغلب الطبيعة البشرية على الطبيعة الكونية، أو على الأقل التماهي والاندماج معها. نعم، السلطة هي الوضعية المطلوبة كرد فعل لا كفعل من قِبل كيانات تعرَّضت لظروف قاسية ساهمت بتشوه تصوراتها، وبالتالي السلطة هي مُنطلق كل فعل غير عقلي.

- وعليه يمكننا القول أنَّ السلطة في تزايد في ظل انهزام الطبيعة البشرية أمام الطبيعة الكونية. هنا نسأل: هل الهزيمة هذه إرادية أم حتمية لا سبيل للفكاك منها؟ وهنا نجيب بأنها إرادية بما للإنسان من قدرات غير مُستثمرة، بما له من إمكانيات هائلة مُهدرة بالصراع حول المركز. فهل تكون السلطة إرادة؟ بالتأكيد لا، فكون الهزيمة إراديةبالضرورة لا يعني أنَّ السلطة إرادة، أي كون الانتصار إرادي أيضًا يعني بالضرورة كون السلطة ليست إرادة.

- ولهذا نجد توصيف فوكو للسلطة على أنها ممارسة لا ملكية، تتوزع بمقادير ثابتة غير قابلة للتوارث، هدفه باعتقادنا إحالة السلطة لحالة طبيعية فطرية، وهذا بهدف دفعنا للاستسلام أمام السلطة التي يصورها كأمر حتمي لا سبيل للفكاك منه، بهدف دفعنا لممارستها مع تقبل سيولتها وتقبل عجز أكفنا عن التعامل مع هذه السيولة، بهدف دفعنا لتقبل الأدوار السلطوية التي أُحيلت إلينا لنمارسها وأُحيلت إلى غيرنا لتمارس علينا، وبالتالي دفعنا للتعايش في ظل نظام سلطوي نعاني فيه كما نحن سبب لمعاناة الآخر فيه.

- نعم، حاول فوكو تصوير السلطة كممماسة لا كملكية بهدف إيجاد التعايش في ظل نظام سلطوي، بهدف إيجاد حالة من اليأس من محاربة النظام السلطوي، بهدف الحفاظ وحماية النظام الديمقراطي، والاستمرار في الإفلات من منظمة الملك-القانون التي أبهرت الفكر السياسي لزمن طويل حسب توصيفه، بهدف الاستغناء عن شخص الأمير، بهدف محاربة حكم العائلة والفرد والحزب الواحد، بهدف التقليل من حدة ارتدادات وانتكاسات صراع الطلب. هنا نجد هدف فوكو التداول السلس للسلطة، معتقدًا بذلك أنَّ المُشكلة في الأشخاص لا في السلطة بحد ذاتها وهو ما نخالفه فيه.

- ولهذا نجد فوكو يعترف بأنه أينما وجدتْ السلطة تكون هناك مقاومة، ونتفق معه في ذلك، ولكن نختلف بإحالته هذا الوجود للمقاومة لدوافع سلطوية، أي يحيل وجود المقاومة لرغبة بتغيير شاغل السلطة لا لرغبة بالقضاء على السلطة بحد ذاتها، ولهذا نجده يُحيل المقاومة إلى فعل داخل السلطة لا خارجها، ولهذا نجده يذهب للتأكيد بجرأة على عجزنا عن اتخاذ مواقع للمقاومة خارج هذا النطاق، ليوحي بأنه بالضرورة نحن دائمًا راغبون بالسلطة وعاجزون عن إيقاف رغبتنا فيها.

- نعم، لقد ذهب إلى ذلك لكي يُشير إلى استحالة وجود خارج مُطلق يمكن فيه التموضع والتموقع بهدف المقاومة، لكي يُشير إلى حتمية السلطة واستحالة التخلص منها، لكي يقول بأنَّ السلطة دائمًا ما تنتصر فهي حيلة التاريخ كما أنَّ التاريخ حيلة العقل.

- نعم، إنه ينكر وجود موقع واحد للرفض الكبير، مَركَزًا لكل التمردات، وهذا بدافع إنكار وجود المقاومة خارج السلطة، أي إنكار وجود مقاومة لاسلطوية.

- ذهب فوكو مُجبرًا بعد إنكاره لوجود خارج يمكن الانطلاق منه للمقاومة اللاسلطوية، إلى الاعتراف باستحالة أن تكون المقاومة من الداخل مركزية أو منطلقها موقع وحيد، وإلى الاعتراف بأنَّ نقاط المقاومة متعددة تتناثر وتتوزع بطريقة غير مُنتظمة مُتنقلة ومرحلية ولها أهداف عديدة ووسائل مختلفة، لكي يقول بأن الثورة السلطوية ممكنة، وبأنها ليست خدعة ووعدًا خائبًا بالضرورة.

- إنَّ هذه المقاومة التي يريدها فوكو للإنسان، هدفها تشكيل الأفراد والجماعات في نطاق سلطوي هرمي، أي هو أراد للإنسان مقاومة هدفها انتزاع طبقة عوائدها أكبر في هذا الهرم السلطوي، أي أراد للمقاومة تكريس صراع طبقي، صراع على عضوية الطبقة الأفضل. إنَّ فوكو مستسلم أمام هذا الصراع الطبقي، مُسلِّم بحتمية وجوده ويائس من إيجاد سبيل للتخلص منه.

- إننا كلاسلطويين نجد أنه طالما استمرت نقاط المقاومة تتشكل نتيجة تغيُّر وحلول اختلاف في شبكة علاقات القوة المخترقة للأجهزة والمؤسسات - سواء في العضوية أو في درجة القدرة على الإخضاع والتأثير-، والتي تكون نتيجة لهذا التغيُّر مُطالبة بحصص جديدة أكبر، ستبقى المقاومة غير مجدية، وغير فعَّالة، وخائبة باستمرار.

- صحيح أنَّ هذا "الترميز الاستراتيجي لنقاط القوة" هو الذي يجعل الثورة السلطوية ممكنة، ولكنه في ذات الوقت هو الذي يجعل التغيير المأمول للجميع مستحيل وغير ممكن، هو الذي يجعل الثورة سببًا في بث اليأس في نفوس الثوار، وبالتالي عدم إقدامهم على الثورة من جديد إلى حين ظهور جيل جديد من الثوار لم يذق بعد اليأس من فشل الثورة.

- نعم، سيكون لكل تموضع وتموقع سلطوي دفاعي أو هجومي نهاية غير سعيدة، ولهذا هناك دائمًا شاغل جديد للسلطة، وهناك شاغل جديد لنقاط المقاومة السلطوية، ولكن دائمًا ما سيكون هناك شاغل وحيد لنقاط المقاومة اللاسلطوية، لهذا الثورة اللاسلطوية حتمية، لهذا المجتمع اللاسلطوي حتمي، ربما يكون هذا التحول بعيد، ولكنه حتمي بكل تأكيد.

- لم يكن ميكافيلي وحيدًا بسبب فضيحة وقاحته، بل نتيجة فضيحة صراحته، ولهذا حاول فوكو بمهارة أن يكون غامض غير مباشر غير واضح.

- نعم، إنَّ تقديم البعض الدمج لعلاقات القوة كحل لم يُنهِ الصراع، بل أوجد حالة مُختلَّة متغايرة مُتقلبة متوترة فيها التوافق بين علاقات القوة نتيجة الدمج سرعان ما ينتهي، نتيجة التفكك الذي يكون نتيجة تغير في موازين القوى، والذي يقود لمطالب بحصص جديدة من علاقات قوة جديدة أو علاقات قديمة لم ترضَ عن حصتها في عملية الدمج السابقة.

- ولهذا نجد أنَّ إحالة فوكو وجود الحرب لرغبة بالنصر لا لرغبة بإحلال ما هو عادل أو ما هو شرعي، هي محاولة منه لطمس ثنائية العدل والظلم وثنائية الشرعي وغير الشرعي، وبالتالي هي محاولة لإبراز الحرب كحدث حتمي لا سبيل للإفلات والتخلص منه.

- نعم، ففوكو لا يُشير للنصر على أنه تحقق لما هو عادل وشرعي، بل يُشير إليه على أنه حيازة للسلطة وممارسة لها.

- وبالتالي ذهابه إلى أنَّ فكرة العدالة وفكرة الشرعي فكرتان مُخترعتان، هي محاولة منه لإخراج السلطة من دائرة التشريع وعدم التشريع لعجزه عن شرعنتها.

- بالتأكيد، إنَّ الهجوم العنيف من فوكو على فكرة العدالة وفكرة الشرعية، هي دفاع عن السلطة، هي دعوة صريحة منه للتعايش مع الحرب والخضوع لمتطلباتها. كل هذا الهجوم لكي يبين أنَّ السلطة فطرية ومع ذلك فشل في ذلك.

- في حين نجده لا يتحرج من وصف الممارسات القمعية التي يحاول عزلها عن كونها ممارسات سلطوية، بأنها غير عادلة وغير شرعية.

- وهذا كله كان بسبب عدم اهتمامه بالبحث عن أصل السلطة أو سبب وجودها، وتركيزه فقط على كيفية ممارستها، الذي كان يهدف منه عزلنا عن مقاومتها والنظر في لاشرعيتها.

- نعم، لقد اهتم لا بكيف ظهرت بل بكيف تمارس، وهذا تسبب في تموقعنا وتموضعنا في مراكز الدفاع لا الهجوم.

- ولهذا أيضًا نجد أنَّ ذهابه للقول بأن السلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى، هدفه حماية السلطة، فهو يحاول بحتمية التطور المعرفي للإنسان ادعاء حتمية السلطة.

- بالتأكيد، إنَّ المعرفة تتولد لا من منطلق واستعداد سلطوي، وإنما من منطلق واستعداد فطري، ولهذا إحالة السلطة للمعرفة أو المعرفة للسلطة غير صحيح بتاتًا.

- وأيضًا المعرفة لا تتشكل لخدمة السلطة بل تتشكل بهدف مكافحتها وحصرها في أضيق نطاق لها (نقصد الفرد).

- إنَّ حتمية التطور في العلوم والفلسفات والصناعات وغيرها، هو في الأساس دليل على حتمية موت السلطة وانبلاج المجتمع اللاسلطوي.

- وأيضًا نجد أنَّ ذهاب فوكو وكثير من المفكرين ومنهم ماكس فيبر للقول بأن كل تنظيم يُعتبر تنظيمًا سلطويًا بحكم وجود هيئة إدارية، يؤكد على أنَّ هذه الإحالة هدفها تشريع السلطة وذلك بإلحاقها بمشروعية النظام، وبهدف إحالة الفوضى إلى كل دعوة لاسلطوية لحماية السلطة.

- بالتأكيد، إنَّ وصف كل تنظيم إداري على أنه تنظيم سلطوي هدفه إحالة النظام كنتيجة للسلطة والفوضى كنتيجة للاسلطة.

- يجب على الجميع أن يدركوا أنَّ العمل الإداري ليس بالضرورة عمل سلطوي، فتعديل ميزان قوى المتفاوضين -وهذا ما تسعى لتحقيقه اللاسلطوية- يُخرج العمل الإداري عن كونه لاسلطويًا.

- إنَّ معظم السلطويين يحاولون الخلط أو الفصل بين مفهوم السلطة ومفاهيم أخرى محاولة للتغطية على لاشرعية السلطة. فنجد هنا أيضًا أرندت تحاول

الفصل بين مفهوم كل من السلطة والعنف، مُدّعية بأنَّ السلطة لا تحتاج إلى تبرير "انطلاقًا من كونها لا تقبل أي فصل عن وجود الجماعات السياسية"، ولهذا نجدها تذهب للتصريح بأنَّ السلطة تحتاج إلى مشروعية أما العنف فإنه قد يبرر ولكنه لن يحوز على أي مشروعية أبدًا. موضحة أنَّ المشروعية تسند نفسها بالتوجه نحو الماضي أما التبرير فهو يرتبط بغائية تصله بالمستقبل.

- إنَّ محاولة الخلط منها بين مفهوم كل من السلطة والمجتمع وجعل كل منهما شرط للثاني، ومحاولتها فصل العنف عن السلطة، هما محاولتان تَبرز السذاجة فيهما بشكل واضح.

- إنَّ محاولة الربط بين مفهوم كل من السلطة والمجتمع يوقفها ويُعرقلها طبع الإنساني الاجتماعي، وإنَّ محاولة فصل العنف عن السلطة هي إشارة لطرف على أنه توجه عقلي وإلى الآخر على أنه توجه غير عقلي، وبما أنَّ العنف تختاره أرندت على أنه توجه غير عقلي تختار السلطة على أنها توجه عقلي، وهذا سبق وقمنا بتفنيده. وبما أن السلطة كما سبق وبيَّنا لا شرعية لها ولا تستطيع إسناد نفسها بالتوجه نحو الماضي، أصبح يلزمها تبرير. وانطلاقًا من هذا الاستنتاج نسأل: كيف يمكن تبرير السلطة والعنف؟ من له الحق بتبرير السلطة والعنف؟ أعملية التفكير عاجزة عن تقديم الحلول للأفراد للذهاب لتبرير السلطة والعنف؟ ألا يوَّلد العنف العنف؟ جميعها أسئلة واضحة إجابتها. إنَّنا نجد أرندت -بالرغم من احترامنا الشديد لها- تتعامل مع مفاهيم كالسلطة والقدرة والقوة والتسلط والعنف بشكل مستهتر وغير دقيق، يدل على ثقة مُفرطة لديها في ثقافتها.

- إنَّ جميع محاولات تبرير ما هو غير شرعي هدفها سلب حرية الأفراد والجماعات.

- إنّ السلطويين يتجاوبون مع ضرر الخيارات بنفي الحرية وإحلال القيد، وبالتالي هم في الأساس يُعقِّدون المُشكلة، ويبتعدون عن الحل. إنَّ آليات التعامل مع ضرر الخيارات يجب أنَّ تستبعد الحرية كمُشكِلة وكعائق أمام إيجاد حل لضرر الخيار.

- بالتأكيد، إنَّ محاولة التعامل بشكل سلبي مع مصدر النفع الأكبر في محاولة دفع ضرر خيار ما، محاولة ناجمة عن خطأ في القياس النفعي، وفي أحيان ناجمة عن رغبة بالسلطة.

- إنَّ التجاوب مع الخيار الضار عن طريق النظر للحرية كمتهم يُعرقل عملية التعافي والتعويض، ويتسبب بالفشل في تصويب التصورات عن الخيارات المتاحة في عملية التخبير.

- ميكانيزمات الدفاع تعجز عن إيجاد الحلول في حال النظر للحرية كمتهم، وبالتالي هذا يقود إلى الاكتفاء بالبحث عن الشر الأقل ضررًا، مع إنكار وجود قطب آخر اسمه الخير.

- بالتأكيد، إنَّ محاولة البحث عن السياسة الأقل ضررًا، ناجمة عن تراجع الحريات، فوحدها السياسة المثالية من تكون في ظل جو مُنزَّهة فيه الحرية. إنَّ اتهامنا نحن اللاسلطويين بعدم الواقعية ناجم عن الواقع المنتفية منه الحرية، ناجم عن تفكيرنا وسعينا باستمرار لواقع محمية فيه الحرية، نطمح إليه دائمًا ونتقبل بطيب خاطر في سبيله أقصى هجوم وأعنف رفض.

- دائمًا ما سنُتهم كلاسلطويين بالمُغالة في طلب الحرية، في حين سيُوصف السلطوي -ذلك المُطالب بالقيد المُأقنع بالحرية- بالاعتدال والواقعية. نعم، ليس هناك حرية مُتزنة وحرية حد أدنى، بل هناك الحرية فقط. إنَّ كل محاولة لإضافة لفظة لكلمة الحرية باعتقادي هي محاولة لأقنعت القيد بالحرية، هي محاولة لإلحاق القيد بشرعية الحرية. يجب على الجميع إدراك حقيقة أنَّ ليس هناك حد للحرية لأنها مفهوم ينطوي على دلالة تهدم كل حد غير ناجم عن اختيار شخصي، وبالتالي من الخطأ السؤال: إلى أي حد ينبغي على الإنسان أن يكون حرًا؟ نعم، الحرية هي بأن لا يكون للإنسان حدود مفروضة عليه، فالحرية تنتفي بذلك التعيين للحد العام الذي ينبغي أن يلتزم به البشر في المطالبة بحريتهم.

- الحرية تعني أن تتاح للإنسان القدرة على اختيار أي فعل ينتمي للنقيضين (أخلاقي أو غير أخلاقي (صائب أو غير صائب))، ومحاولة إعاقة الفرد سلطويًا من اختيار الفعل الذي ينتمي للتصنيف غير المُستحسَن، تكون ناجمة في الأصل عن عدم ثقة المانع بجاذبية الفعل المنتمي للنقيض المُستحسَن.

- قد ينجم عن مجتمع فيه الحرية مكفولة عنف نفسي من الفرد تجاه ذاته، ولكن هذا العنف يكون بدون عداء، بدون قصد، بدون معرفة من قبل الفرد بالارتدادات السلبية لخيارته، وهذا العنف يكون نتيجة كثرة الخيارات والتنقل المستمر والمتواصل بينها بدون استقرار. وهذا باعتقادنا لا يُعيب المجتمع الليبرالي، لأنَّ هذا العنف سرعان ما يتبدد وتختفي آثاره بإيجاد الفرد نفسه في الوظيفة التي هيَّأته لها الطبيعة أو الإله لأولئك المؤمنين

بوجود إله، وبالتالي يكون الحل موجود ومُستكشَف بالوقت، لا بتقليل الخيارات، وأيضًا يكون الحل بالحدود الشخصية التي يختارها الفرد للاطمئنان إليها لا بتلك المفروضة عليه.

- إنَّ إبداعية الفرد في مجتمع ليبرالي تفوق بكثير إبداعيته في مجتمع سلطوي. ولهذا تخوف الكثيرين من هذه الخيارات الكثيرة والجذابة للفرد لا داعي له. إنَّ هذه الليبرالية تصرف الفرد إلى غايته في مرحلة ما لا تكون غالبًا متاحة في ظل مجتمع شمولي سلطوي يحد من الخيارات.

- ولهذا لا تتوفر الحماية للفرد مما يُريد إلا في ظل مجتمع ليبرالي لاسلطوي. إنَّ ما نريده سيكون لبحثنا عنه ضريبة، ولهذا لا حماية للفرد من هذه الضريبة إلا بالوصول إلى الغاية الموجود لها وإلى الوسائل المختلفة في السعي إليها. نعم، لا تتشكل الحماية مما نريد بواسطة حرماننا منه والزامنا بما لا نريده، أو بتقليص عدد الخيارات المتاحة في عملية التخيير لتخفيض الضريبة. نعم، بدون توجه ذاتي للفرد لا سبيل لوصوله، ولا متعة من وصوله، ولا إبداعية ولا تمسك بالهدف.

- علم النفس والدين، هنا تبرز أهميتهما، فهما يُطببا النفس لمواصلة المسير حتى في حال الترنح والتعثر، لمواصلة المسير وعدم الاستسلام بالانتحار أو بالمواد المُخدِّرة والمُغيّبة.

- إنَّ الإنتاجية في ظل وجود نظام اقتصادي يكفل وجود حد أدنى لما يحوزه الإنسان، تُسهم بالإرشاد لا بالتضليل كما هو الحال في ظل نظام اقتصادي يحاول فرض حد أقصى أو في ظل نظام اقتصادي بدون حدود. إنَّ لهذه الإنتاجية حدود لجاذبية -الناجمة عن التنوع- مخرجاتها، وهي تكفل للفرد حيازته للقدرة على الالتفات إلى الوراء وتقييم حماسه الذي قاده للمواكبة والطلب، ليستخلص من تجربته المعرفة التي سترشده إلى هدفه وستدفعه لتحقيقه. إنَّ التنقل السريع بين مخرجات هذه الإنتاجية هو الذي يُسهم بإرشادنا إلى وجهاتنا الحقيقية.

- هناك دائمًا لحظة يتوقف فيها الجديد عن جذبنا ويعجز عن تضليلنا وإفراغ حماسنا الذي قد يُؤثِّر على عملنا على هدفنا، وبالتالي لا ينبغي علينا الخوف من جديد هذه الإنتاجية.

- في مجتمع لاسلطوي تسقط جميع تلك الصِّيَغ التآمرية وأدوات النهي ووسائل الإلزام الضاغطة على الفرد من أجل الإنجاز، وهذا يُسهم بتراجع

استشعار عبء المسؤولية، وبالتالي تراجع الضغط يقود لتراجع أبعاده النفسية وخاصة القلق والاكتئاب.

- إنَّ تخلى النظام عن دفع الفرد للإنجاز يُعزز لديه المبادرة الفردية بدون أن تكون لهذه المبادرة ارتدادات شديدة العنف على نفسيته، والنتيجة ستكون من هذه المبادرة تلاقي الأفراد مع أهدافهم التي تتوافق مع إمكانياتهم وقدارتهم، بدون انحراف لأهداف ليست أهدافهم ولا تتوافق مع امكانياتهم، تتسبب لهم بأذى نفسي شديد، نتيجة ضغط المسؤولية ونتيجة عدم تقبلهم للضغط لعدم مصاحبته للرغبة بالهدف وعدم مصاحبته للإمكانيات المُوصِلَة والتي بإمكانها بلورة الجهود بإنجاز ما.

- إنَّ الإمكان في ظل مجتمع لاسلطوي يؤمن بأن "لا شيء مستحيل" لا يسهم بتحديد جدول زمني للفرد للإنجاز، بل يترك المجال مفتوحًا للفرد لتحصيل التجربة الكافية في تصويب مساراته، وبالتالي يُخفف عن الفرد ضغط المسؤولية، وبالتالي يصرفه عن ممارسة التوبيخ والعداء الذاتي المُدمر.

- وبالتالي إحالة كثيرين ومنهم بيونغ شول هان المرض النفسي وبالأخص الاكتئاب إلى فائض الإيجابية هي إحالة لا نوافقهم عليها، ولهذا نُرجع إحالتهم هذه إلى نظرتهم للمجتمع الديموقراطي الليبرالي السلطوي على أنه المجتمع الذي يُمثِّل آخر ما كان الإنسان قادر على الوصول إليه من تقدُّم وتنوير، أي المجتمع الذي يُمثل أقصى درجات الحضارة الممكنة، المجتمع الذي يشير إلى نقطة النهاية للتطور الثقافي والاجتماعي والسياسي للإنسان، المجتمع الذي يمثل نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ولربما هذا راجع لتأثرهم بفوكوياما. ولهذا نحن نُحيل المرض النفسي لا إلى فرط الإيجابية بل إلى السلبية.

- وعليه، فالانحرافات النفسية لما سماه بيونغ شول هان "مجتمع الإنجاز"، ليست بمظاهر مرضيَّة لما سماه "حرية متناقضة"، بل هي مظاهر مرضيَّة للحالة السلطوية التي تتسبب بأن يكون الوجود مشروطًا، وبالتالي تثقل كاهل الفرد بمهام غير متوافقة مع إمكانياته وبالتالي غير مُتقبلة نفسيًا.

- يقول بيونغ شول هان في كتابه مجتمع الاحتراق النفسي: "عبر فكرة الحرية وإلغاء القيود التنظيمية، يقوم مجتمع الإنجاز المعاصر بتفكيك الحواجز والموانع التي تُشكِّل المجتمع التأديبي على نطاق واسع. إنَّ تفكيك السلبية يعمل على تعزيز الإنجاز، حيث تصل الأمور إلى حالة عامة من

الذوبان والتحرر من القيود، أو بالأحرى حالة من التشويش العام، والتي لا تصدر عنها أية طاقة قمع". على الرغم من إدراكه هنا أنَّ مجتمع الإنجاز يُحيل بعض الأفعال والممارسات إلى فكرة الحرية بهدف إحالة بعض الممارسات والأفعال الناجمة عن قناعات دينية أو أخلاقية أو ثقافية أو فلسفية إلى الفكرة النقيضة، إلا أنه يقع في فخ السلطويين الذين يحاولون تصوير هذا المجتمع على أنه مجتمع خالي من القمع، مع أنه يدرك أنَّ إخراج ممارسات وقناعات عن كونها ناجمة عن حرية هو قمع بحد ذاته.

- ومع ذلك في هذا النص نجده لا يدعو إلى إيجاد سياسات قمعية، كما سيبدو للوهلة الأولى، تستخدم صيغة النهي "لا" بشكل متواصل، وإنما نجده يهدف إلى منح الفرد القدرة على قول "نعم" و "لا" للخيارات المتاحة، أي يهدف لتوفير القدرة للفرد لمقاومة جاذبية الخيار، يهدف للقضاء على الإدمان، وهذا ما نراه غير ممكن إلا في ظل مجتمع لاسلطوي يتيح عملية تخيير قادرة على استيعاب جميع الخيارات، قادرة على إيجاد ساحة للتنافس بين الخيارات، هذه الساحة قادرة على منح الفرد القُدرة على قول "نعم" و "لا" في ذات الوقت، قدرة على الانسحاب، قدرة على الاختيار مجددًا، قدرة على الانتماء تتيح اللاانتماء في أي وقت.

- نعم، إنَّ جاذبية الخيارات المُتاحة في عملية التخيير السلطوية هناك صعوبة بالتغلب عليها، لغياب القدر الكافي من المنافسة، لوجود السلطة التي لا تتيح لكثير من الخيارات الفرصة لعرض ما لديها.

- ترتبط الإنتاجية في مجتمع الإنجاز بقدرة الفرد والمؤسسة على تغيير هوية الأفراد أي أقلبتهم وبالتالي توفير الظروف التي تسهم بجعل الشخص طيّعًا مرنًا لزيادة الإنتاج وللخضوع للخيار المتاح في عملية التخيير السلطوية.

- وبالتالي صعوبة الانسحاب بهدف التأمل العميق والتقييم، ناجمة عن سلطوية الخيار، ناجمة عن عدم توفر ساحة للمنافسة، ناجمة عن عملية التخيير الضيقة التي توهم اتساعها. نعم، لقد وقع هان في فخ الدعاية السلطوية التي تحاول الترويج بأن عملية تخييرها حائزة جميع الخيارات.

- إنَّ اعتقاد البعض بأنَّ فكرة الحرية تقوم بإلغاء القيود التنظيمية وتفكك الحواجز والقيود التي تتشكل بواسطة قيم وموروثات حضارية وثقافية وأحاسيس بشرية، والتي تُشكِّل منطقة الخصوصية للفرد، يُسهم بوجود أصوليين يهدفون إلى إعادة إنتاج أنظمة حكم شمولية تتخذ من العنف وسيلة

للقمع ونزع الحريات. يجب على الجميع أن يدركوا أنَّ الخيارات التي تتوفر بفكرة الحرية تمنح الفرد القدرة على الدخول والخروج، ولهذا لا خوف على الموروث من الحرية بل الخوف كل الخوف عليه من القيد الذي له انتقائية اقصائية نافية عازلة.

- شعور البعض أنَّ هان يُريد أن يحتفظ للإنسان بقدر من القمع والمعاناة والبؤس والألم ليواصل إبداعه، واعتقادهم بأنه يهدف للتمهيد لخطوات رجعية ولتضييق عملية التخيير، ناجم عن تصويره للمجتمع الذي نعيش فيه على أنه مجتمع إيجابي وتصوير عملية التخيير القائمة على أنها عملية تخيير تحوز جميع الخيارات، ناجم عن تصويره هذا المجتمع الذي وصفه بالإيجابي بأنه يمنح بدون عواقب، يمنح الفرد قدرة على تفادي جميع الضرائب والتنازلات، ويسهم بأقلمته على الطلب باستمرار.

- ومما عمَّق هذا لدى البعض إحالته الاضطرابات النفسية المختلفة لا إلى القمع بل إلى الإشباع المفرط والطلب المستمر بدون ثمن، واعتقاده أنَّ التحليل النفسي أصبح بلا جدوى في معالجة الأمراض الحالية كالاكتئاب وفرط النشاط والقلق والتوتر، التي يُصنِّفها جميعًا على أنها نتيجة الإفراط في الإيجابية.

- إنَّ ما غفل عنه هان هو أنَّ مجتمع الإيجابية غير موجود في ظل هذا القمع الذي يشهده عالمنا. إنّ الفرد مُقاد لإرادة ما لا يريده وذلك بهدف تجذيره في عملية تخيير ضيقة خيارتها محدودة، توقف مطالباته بعملية تخيير أوسع خياراتها أكثر. إنَّ عملية التخيير الحالية تعمل على أقلبة الفرد بقالب يخضع له الجميع لكي تُعطِّل انتباهه لوجود خيارات أخرى وتعطِّل سعيه للمطالبة بهذه الخيارات.

- باعتقادنا أيضًا ترديد هان لمفهوم "عنف الحرية" جعل البعض قلقًا من أهداف هان. فهنا يظهر لكثيرين وجود اعترض من هان على استرداد الإنسان لكامل حريته، لخوفه من إهدارها بسعيه لمواكبة جديد الإنتاجية الرأسمالية، أي لخوفه من تبعية الفرد لحاجاته وشهواته ورغباته التي أخذت الرأسمالية تُهيّجها لديه لتصريف المُنتج، وبالتالي زيادة الإنتاجية.

- إننا كلاسلطويين لا نتخوف على الفرد من الحرية بل من القيد، ولهذا نسب عنف للحرية هو نسب خاطئ، فلا عنف إلا للقيد. ولهذا نعتقد أنَّ سؤال كهذا: "لماذا نريد الحرية؟"، سؤال خاطئ، لأن الحرية بحد ذاتها غاية مدفوعين لها بالفطرة.

- ولهذا نقول أنَّ كل سياسة لاسلطوية ليست بحاجة إلى أن تنطوي على أسرار، وتحيا في عالم من السرية، بينما السياسة السلطوية على خلاف ذلك بحاجة إلى هذا العالم، فالشفافية تُعطِّلها لأنها تجري عكس الطبيعية، عكس حرية الإنسان. إنَّ معارضتنا لشميت في مطالبته بتبني السرية داخل المجل السياسي، سببه أنَّ هذه المُطالبة تنطوي على أطماع سلطوية، تنطوي على رغبة بفرض واقع مرير محمي من المعارضة. ولهذا نجد بأنه تبرز من كتابات هان تأثره بشميت، وتحديدًا في ناحية تخوفه على السلطة من التفتت وفي حرصه على القرار السيادي. إنه يرى أنَّ السلطة في مجتمعاتنا المُعاصرة مُعاقة قدرتها على العمل المباشر.

- ولكننا نجد أنه بالرغم من أنَّ النظام السلطوي يرفض الشفافية في المجل السياسي، إلا أنه يفرضها ويُعززها في المجال الاجتماعي والاقتصادي وذلك لأسباب عديدة سلطوية، منها أنه يحاول فرض مزيد من التحكم والسيطرة بها، وذلك بالاطلاع على رغبات الشعوب وشهواتها وطموحاتها وتوجهاتها وقناعاتها، وتوجيهها من خلال قاعدة البيانات التي يحوزها.

- نعم، تحاول السلطة عبر الشفافية القسرية محو نطاق الخصوصية للكشف المستمر عما يُرغب به وعما يتم التخطيط له، واستباق الحراك الذي يحمل مُناهضة لها، بافتعال حدث أو رغبة أو توجه معين يُفشل ما تم التخطيط لأجله. ولهذا السلطة لا تعني القدرة على احتواء الآخر برحمة كما يذهب هان، بل هي القدرة على إخضاع الآخر بعنف.

- إنَّ مجتمع الإيجابية -أقصد ذلك المجتمع الذي تصوّر السلطة إيجابيته- الذي تقوم السلطة بإحاطته بهالة من القداسة، مجتمع يُعيق السعي ويتسبب بتبعثر التطلع نتيجة هذه الهالة. إنَّ محاولة تقديم تصورات لمجتمع أفضل وتصورات للحياة الخيرة، تُعيقها سياسة السلطة في محاربة ومكافحة الخصوصية.

- إنَّ إيجابية المجتمع الذي تبذل محاولات عديدة وكثيفة لتصويره على أنه المجتمع الأكثر إيجابية، تتبعثر بمحاولات التصوير هذه.

- إنَّ هذا النهم في طلب المعلومات حول الأفراد والمؤسسات والمجتمعات، يتسبب بتراجع المساحة الخاصة، وبتراجع هذه المساحة يُصبح التعبير عن مكنونات هذه المساحة من أفعال ونوايا وأحاسيس أسهل، وبهذا يتم تهميش كثير من القيم والعادات والموروثات الثقافية والعقائدية، وبالتالي اندثارها. للأسف، عالمنا المعاصر يستخدم الشفافية لمحو المسافات.

- والنتيجة انصهار الأنا في الكل، وبالنتيجة تراجع إحساس الفرد لوجوده من ذاته ومن فردانيته، وبالتالي تبعيته المطلقة للآخر.

- إنَّ الرقابة التي تحاول السلطة فرضها من خلال مجتمع الشفافية هذا، تجعل المجتمعات الديمقراطية الليبرالية أكثر قابلية للتحول إلى مجتمعات تخضع لأنظمة حكم شمولية.

- ومن هنا نجد أنَّ حالة الاستثناء التي يبرر فيها السلطويون القرار الحاسم، هي حالة تظهر تناقض السلطويين. نعم، العلاج الذي يُقدمه السلطويون للسلطة هو السلطة، وهذا قمة التناقض. إنَّ استخدام شميت لفظ "الحسم" في تعريفه للسيادة (القدرة على الحسم)، هو استخدام هدفه تلطيف التعريف واللفظة الحقيقية في هذا المفهوم هي "القمع". إنَّ حالة الاستثناء غدت لأولئك السلطويين حالة دائمة مستمرة وليست عابرة ومؤقتة، ولهذا أخذت إجراءات السيادة بالتنوع وأصبحت أكثر استدامة وأكثر قدرة على اختراق النطاق الخاص للفرد.

- ولهذا لا مجال للتسوية مع الدولة سواء كانت محافظة أم ليبرالية، جمهورية أم ملكية، اشتراكية أم رأسمالية. إنَّ الأولوية الأولى للسلطة هي التدمير والفوضى لا التنظيم كما حاول نيتشه التصوير.

- إنَّ الفعل العقلي غير مُتضمِّن أي سلطة. إنَّ الثقة بقدرة الإنسان على الخضوع لما هو عقلي تُبدد أي حاجة للفرد لاستخدام السلطة، أما التنوع الذي تطرحه المصادر المختلفة للفعل الصائب تبرز أثر هذه المصادر في الحفاظ على حرية الفرد، فبوجود التنوع يُتاح الخيار وبالخيار يتاح الاختلاف وبالاختلاف ينتفي القالب الذي يُكرّس لوجود القيد.

- في نهاية محاضرتنا نود أن نختم بما أشار إليه فوكو. لقد رأى أنه بظهور القنابل الذرية والهيدروجينية أصبحت السلطة الحيوية تمتلك ليس فقط حق الإحياء بل حق الإماتة كالسلطة السيادية التي تراجعت أمام السلطة الانضباطية والحيوية، وبالتالي ظهرت العنصرية من وجهة نظره كحل للاحتفاظ بحق الحياة للأنواع الأسمى والحق بإصدار الحكم بالموت على الأنواع الأدنى، ظهرت العنصرية كوسيلة لتبرير ممارسة الحق السيادي القديم في القتل أو في الموت السياسي كالإبعاد والإقصاء والرفض والتهميش. وبالتالي كانت هناك أهمية للعنصرية في ممارسة السلطة. وعليه كان الحق في القتل سواء للشعوب أو الحضارات أو الأفراد في ظل السلطة الحيوية غير متضارب مع آليات الإحياء وذلك بواسطة العنصرية. وقدَّم

فوكو مثالًا على هذا، السلطة النازية كأكثر السلطات تمثيلًا للسلطة الانضباطية والسلطة الحيوية، أي أنها الأكثر خدمة لعرق معين، والأكثر إماتة واضطهاد للأعراق الأخرى، لدوافع عنصرية تهدف لحماية العرق وتنظيمه بيولوجيًا (معدلات الخصوبة والولادة والشباب والموت)، وزيادة ثقته بتفوقه.

- ولهذا نجد كلاسلطويين أنَّ العجز عن التخلص من العنصرية بالرغم من المحاولات العديدة والشعارات الرنانة في كل مكان، كان دائمًا نتيجة التمسك بالسلطة. وبالتالي كانت قضية اللاسلطوي ليست العنصرية بحد ذاتها وإنما السلطة فهي المصدر والأساس.

- يقول فوكو في خاتمة إحدى محاضراته: "كيف يمكن أن نوظِّف السلطة الحيوية، وفي الوقت ذاته نمارس حقوق الحرب، حقوق القتل ووظيفة الموت من دون أن نمر عبر العنصرية؟ هذه هي المسألة. وأعتقد أنَّ هذه هي المسألة دائمًا.". إننا نجده هنا يحاول عدم الإشارة للحرب والقتل كأثر من آثار السلطة، ولهذا نجد صيغة سؤاله المباشرة كالتالي: "كيف يمكن ألا نكون عنصريين بالسلطة في استبعاد آثار السلطة عن المحيط الذي ننتمي إليه (سواء كان عرق، دين، وطن، عائلة، حزب، إلخ)؟ أي كيف يمكن ألا نكون عنصريين بالسلطة في إحالة ارتدادات السلطة لمحيط غير محيطنا؟". نعم هذه المسألة ليس لها حل، ولن يكون لها حل، فالسلطة دائمًا تتطلب منا أن نكون عنصريين، ولهذا لا حل إلا باللاسلطة. إنَّ المُبقي على السلطة لا يهدف لاستبعاد العنصرية بل للإبقاء عليها.

صديقك المُحب

ف.د

6 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

المحاضرة الثالثة

- هل يمكن إلغاء الجسد كموضوع للعقاب مع الإبقاء عليه كعنصر في مشهد، وهل يمكن تعظيم تصور العقوبة بدون أن يكون الجسد موضوعها الرئيسي (أي إمكانية الاستغناء بفكرة الشيء في الذهن عن الشيء في ذاته؟)؟ إذا افترضنا أنه يمكن ذلك، فهنا ينبغي التساؤل: من هو البديل المُقترح الذي سيحل كموضوع للعقاب (فلا يمكن أن يُترك العقاب بدون موضوع)؟ هي النفس ذلك البديل المُقترح من قبل السلطويين. فهل هذا البديل يستطيع أن يضمن أن ينال الفرد تصور العقوبة بدون أن يكون الجسد موضوعها؟ لنفترض أنَّ الإجابة نعم يمكن ذلك. هنا نسأل: هل لهذه النفس التي أصبحت موضوعًا للعقاب بهذا الحلول تأثير لها على الجسد؟ هل ارتدادات هذا الإحلال الجديد تستطيع تجاوز وتفادي ارتدادات كون الجسد موضوعًا للعقاب؟ هل لتصور العقوبة ارتداداته على جسد ونفسية وأفكار الفرد؟ في حال نال الفرد تصور العقوبة واستطاع هذا التصور منعه من إتيان الجريمة، ألا يدفعه هذا التصور إلى التفريغ في تلك الفئات التي درج تصنيفها على أنها الأضعف؟ وألا يدفعه عجزه عن التعبير عن معاناته إلى إنهاء حياته في حال عجز عن التفريغ في تلك الفئات؟

- وأيضًا، ألم تشكِّل الجريمة طوال التاريخ أداة بها يتم الكشف عن أخطاء السياسات المُتَّبعة والإشارة إلى الظروف القاسية البائسة لبيئة مرتكب الجريمة؟ هل المشروعية تنتزع من العقوبة فقط في حال تحديد الجسد كموضوع لها؟ ألا يُشكل تصور العقوبة وسيلة تكميم للأفواه، ووسيلة حظر لتلك الأفعال التي بها يكون الاعتراض والرفض واقعًا؟ هل فعلًا يمكن خلق تصور العقوبة بدون أن يكون الجسد موضوعها في البداية؟ أليس محاولة إيجاد موضوع للعقوبة بديل للجسد تنطلق في البداية من التمسك والتأكيد على أنَّ الجسد موضوع العقوبة؟ أليس من المستحيل الإبقاء على التصور بدون وجود المتصور واقعًا، وبالتالي أليس هناك محاولة للإبقاء على الجسد كموضوع للعقوبة للبعض لإيجاد تصور العقوبة عند البعض الآخر سواء في نفس الحقبة الزمانية أو في حقب زمانية مختلفة، وبالتالي أليس هذا نوع من الظلم واللامساواة؟

- إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة بصدق سيثبت لامشروعية العقاب وستفشل جميع محاولات شرعنته.

- لنفترض بأنَّ العقوبة موجَّهة لردع بشكل أكبر أولئك الذين لم يرتكبوا الجريمة، أي أولئك الذين لديهم نية بالتقليد، فهل هذا التوجه عادل؟ وهل

يكفي إسقاط العقوبة عن مرتكب الجريمة إذا أمكن التأكد من رغبته وحرصه على عدم تكرارها، والاكتفاء بالإيحاء للآخرين بأن العقوبة تم تنفيذها؟

- إنَّ الانطلاق من إيذاء الفرد لتصويب توجه الجماعة (الآخر) في جميع الأحوال غير عادل. إنَّ العقوبة تشكل خطرًا حتى لو كان هدفها ردع أولئك الذين لم يُقدِموا على إتيان الجريمة، أو من لديهم نية لإتيانها، فهي في البداية تشكل ضغطًا نفسيًا عليهم، وثانيًا هي بوجودها تحاول تعطيل الفعل الأخلاقي، فيصبح منطلق الفرد للفعل المنفعة وتجنب المضرة، وبالتالي تكون الأوضاع والظروف التي تضعف قدرة العقوبة على أن تطال من ارتكبوا الجريمة محفزًا لارتكابها.

- وقبولنا بالمكافأة والعقوبة الأخرويتين سببه أنهما بالنسبة للفرد المؤمن متواجدتين باستمرار، لا سبيل للفكاك منهما، فالله عليم بأفعال خلقه في كل زمان ومكان.

- وأيضًا تصور العقوبة لا كما يُعتقد أنه يُقلل الضرر، بل على العكس هو يُعظم الضرر. نعم، تصور العقوبة أخطر على الفرد والجماعة من العقوبة بحد ذاتها. إنَّ صمت الشعوب عن وحشية العقوبة لا يمكن إحالته إلا إلى تصور العقوبة التي تحاول السلطات إيصاله للشعوب بهدف الاستمرار بالترهيب وتعطيل الثورات. نعم، تصور العقوبة يدفع السلطات للتمادي والإيغال في إصدار عقوبات متوحشة.

- وبالتالي الإيحاء للآخرين بأنَّ العقوبة تم تنفيذها بدون تنفيذها في الحقيقة بهدف الإبقاء على ردع العقوبة، يُشكل ضرر مماثل للضرر الذي يُشكله تنفيذ العقوبة في الحقيقة، ولربما هو يشكل ضرر أكبر. وعليه، نجد أنَّ العقوبة مُضرَّة في تصورها، ولهذا لا ينبغي ادعاء أنَّ التصور يَخفف وحشية وضرر العقوبة.

- وهذا يقودنا للقول بأنَّه حتى الحرص على الربط بين الجريمة والعقوبة (أي محاولة السعي إلى أن تكوْن العقوبة رد فعل وليس فعل بنظر الشعوب، وبأن العقوبة لا ينبغي أن تتسلل إليها الرغبات الشخصية للحكام، أي بأن لا تكون العقوبة أداة لتوسعات امبريالية سلطوية أو أداة انتقام حاقد) لن يُخفف الضرر، فمفهوم الجريمة سيبقى مفهوم متاح التلاعب بدلالته لمن بيده مقاليد الحكم، نعم سيبقى مفهوم كل من الجريمة والعقاب أداة إمبريالية، سيبقيان مفهومين آخذين بالتوسع لا في الانحصار، وكل هذا لأن السلطوي لا يستطيع التخلي عن نفعيته.

- إنَّ حجة الملائمة الزمانية والمكانية ستبقى مستخدمة من قبل السلطويين، ولهذا سيبقى مفهوم كل من الجريمة والعقاب نسبيين، حتى في تلك الأوقات التي نعتقد بأنهما آخذان بالانحصار. هما في الحقيقة سيكونان دائمًا آخذين بالتوسع ليُحيطا بأفعال أكثر ونوايا أخفى.

- ها نحن نكتشف أنَّ العداء العلماني للتصنيف الديني الدنيوي للجريمة والعقاب لم يكن سوى صراع على السلطة للتفرد بها ولضمان عدم منازعة المؤسسة الدينية ورجال الدين عليها، نعم هو عداء هادف لا إلى القضاء على الدكتاتورية بل هادف إلى إحلال دكتاتورية علمانية بدلًا من الدكتاتورية الدينية.

- ولهذا نقول أنَّ جميع محاولات نمذجة العقوبة بواسطة دراسة النوايا والاطلاع على الظروف وأسلوب حياة الأفراد والجماعات، لن يُخرجها عن كونها ضارة بالفرد والمجتمع.

- إنَّ محاولة التخلص من القوانين الثابتة والجامدة التي تُعامل الجميع ككل بدون النظر إليهم كأفراد لهم ظروفهم وبيئاتهم المختلفة، لم تنجح في شرعنة العقوبة على الرغم من تقليص ضررها الذي ما يزال يفتك بالبشرية.

- إنَّ هذا التوحش الذي يُشار به للقائم بالجريمة وأيضًا الذي يُشار في أحيان إلى أنه حامله من الطبيعة، هو محاولة لإضفاء الشرعية على العقوبة التي كانت لاحقة لمحاولات إضفاء الشرعية على العقد الاجتماعي، ولهذا نجد تمسك السلطة بالعقوبة ناجم عن محاولة تهدف للتغطية على طبيعة الإنسان الخيرة، ناجم عن محاولة لتشويه الحرية الطبيعية، ناجم عن محاولة لأقنعت القيد بالحرية.

- إنَّ الاحتراس الذي يدعيه البعض في شرعنة العقوبة ضار جدًا، فهو يتسبب بضرر للأفراد قبل وقوع العقوبة، يتسبب بالأذى لمن قام بها ومن لم يقم. إنَّ محاولات تبرير العقاب بدوافع إنسانية لن يخرجه عن كونه غير إنساني.

- إنَّ مُطالباتنا بإلغاء العقوبة ليست تضحية بالإنسانية بحد ذاتها باسم الإنسانية، بل دفاعًا عن الإنسانية من الوسيلة غير الإنسانية في الدفاع عنها.

- إنّ الذهاب للقول بأنَّ المجتمع لا يستهدف التلذذ البربري في إيلام الكائن البشري (وهذا ما لا نذهب نحن كلاسلطويين باتهام أحد به) عند استخدام

العقوبة، بل يستهدف الاحتراس واستباق وقوع الجريمة، هو دفاع لا يدافع بل يُدين.

- بالتأكيد، فالقائم بالجريمة هنا يبرز في هذا الدفاع كضحية، فهو لا يُعاقب على فعله بل على الضرر الواقع على المجتمع من فعله، وهذا يقودنا للقول بأن العقوبة لا تستهدف المُعاقَب بل تستهدف عدم تكرار فعله، تستهدف الآخر وتستهدف فعل المُعاقَب المستقبلي، وبالتالي فيها ظلم على الفرد بصفته فرد.

- نعم، العقاب لا يحترم فردانية واستقلال الفرد، وبالتالي دائمًا سيكون غير شرعي. إنَّ الانطلاق من الآخر لإصدار الحكم على الفرد، هو جريمة مماثلة لجريمة الفرد الذي انطلق من نفسه لإصدار الحكم على الآخر.

- إنَّ استهداف الآخر في إصدار الحكم على الفرد ظلم، وهو توجه نفعي هدفه التضحية بالفرد من أجل المجتمع. وعليه، فالاحتراس بحد ذاته وكمنطلق هو وسيلة هجومية لا دفاعية، وبالتالي فاقدة شرعيتها.

- العقوبة تستهدف مستقبلًا من ماضي، وبالتالي حاضر الفرد بائس. نعم، لقد تم التضحية بحاضر الفرد كمُنطلَق لمستقبل الجماعة الذي لن تكون الخطوات إليه موصلة بهذا المُنطلَق أبدًا. مُشرّع العقوبة غفل عن حقيقة أنَّ مستقبل المجتمع المُستهدَف لا يكون إلا بحاضر الفرد العادل. وحاضر الفرد وجود كل من الجريمة والعقاب فيه يوحي ببؤسه وانتفاء العدل منه، أما حاضر الفرد الذي تكون الجريمة وحدها فيه، فهو يوحي ببؤس وضرر أقل واقع على الفرد، لأنَّ هناك محاولات مبذولة فيه لعقاب ظروف الجريمة لا الجريمة بحد ذاتها.

- وبالتالي، فالجريمة تعبير عن ظروفها، وظروفها تعبير عن ظلم واقع على الفرد، وبالتالي عدم وجود العقوبة هو وجود للجهود المبذولة في سبيل نجدة الفرد الذي تحيط به الظروف الدافعة لارتكاب الجريمة، وبالتالي عدم وجود العقوبة هو حماية لحاضر الفرد وفي ذات الوقت سعي للمستقبل المستهدَف للمجتمع.

- وعليه، نقول بأنَّ جميع الجرائم ينبغي أن تكون بدون عقاب وليس فقط الجريمة الأخيرة التي أشار إليها فوكو (يقصد هنا الجريمة التي ليس لها سلالة وسلسلة -مُشيرًا هنا إلى حكمة خرافية تقول بأنَّ المجتمع في عشية

انحلاله وزواله ليس له الحق في نصب المشانق، الجريمة الأخيرة لا يمكن إلا أن تبقى بلا عقاب-).

- وعلى ما سبق، لامشروعية العقاب تكمن في نظرته للمستقبل، ومحاولته أداء وظيفة الاستباق والإنذار والاحتراس، وإهماله الحاضر والماضي، تكمن في كونه اعتداء على الفرد بداعي محاربة فعل الآخر، أو في محاربته فعل مستقبلي للآخر.

- إنَّ ضرر العقاب يقع على الفرد لدواعي المستقبل الذي لا يكون فيه فعل مماثل للفرد، وعليه يكون فعليًا أذى وضرر العقوبة سابق لفعله الذي يدَّعي مُشرّع العقوبة أنها تهدف لإيقاف ضرره، أو للتعويض عن ضرره. نعم، الإجراءات الاستشرافية هي أشكال مُجسِّدة لممارسة السلطة لا للتخلص منها وتقليل الاعتماد عليها.

- وأيضًا باعتقادنا ذهاب البعض للقول بأنَّ تحديد درجة صرامة العقوبة بالنسبة إلى إمكانية تكرارها لا إلى درجة الإهانة التي قامت بتوجيهها الجريمة، ساهم بتخفيف الضرر على البعض وبتعظيمه على البعض الآخر، وهذا باعتقادنا ساهم بتحميل القائم بالجريمة مسؤولية جرائم غير مرتكبة من قبل الآخرين أو من قِبله، أي مسؤولية جرائم مستقبلية، وهذا باعتقادنا ساهم بوقوع ضرر على الفرد أكبر من الضرر الذي ساهم به، وبالتالي هذا ساهم بتحفيز الرغبة بالانتقام لدى الفرد وشحذ إبائه بدلًا من استجلاب الندم.

- ولهذا لا سبيل للبشرية للتخلص من الرغبات الانتقامية للقائمين بالجريمة إلا بإسقاط العقوبة التي تُعيق استخدام الوسيلة الإصلاحية.

- يتعين أن يفهم البشر دوافع الجريمة لكي يُقدموا على إسقاط العقوبة. هنا نسأل: هل تُرتكب الجريمة لأنها تُقدِّم مكاسب؟ وهل تحديد عقوبة تُقدِّم خسارة أكبر من المكسب الذي تُقدِّمه الجريمة يُنفِّر منها؟ بالتأكيد الإجابة هي لا. فالجريمة لا ترتكب طمعًا في مكسب، بل اعترض ورفض لموقف وظرف غير إنساني، أي هي محاولة للإشارة ولفت الانتباه لظلم وضرر واقع على الفرد، محاولة للقول أنا أعاني، أنا أتألم، أنا لم يعد بإمكاني احتمال المزيد.

- وعليه، فالجريمة أسلوب دفاعي لا هجومي، الجريمة رد فعل وليس فعل، وبالتالي إضافة خسارة أكبر لخسارة المُستعين بالجريمة كاعتراض

واحتجاج على خسارته يقود لدفعه للاستعانة بجريمة أعنف محاولة لرفع صوته في طلب النجدة.

- وعليه، الخسارة المتسببة بها العقوبة، لا تدفع لتقبُّل الخسارة التي دفعت الفرد للاستعانة بالجريمة، بل تدفعه لمزيد من الاحتجاج والاعتراض والرفض مهما تعاظمت الخسارة التي تتسبب بها العقوبة. وعلى ما تقدَّم، فالعقاب هدفه إحالة الفرد للتعايش مع ظروفه القاسية وتقبل خسارته غير العادلة، تلك الخسارة التي لا ذنب له فيها.

- لقد كانت محاولات الربط بين العقوبة والانضباط (النظام) كسبب ونتيجة على مدار التاريخ، محاولة تهدف لتضليل الشعوب عن وحشية العقاب، وذلك بعائد الانضباط والنظام الفطري. ولهذا لا يوجد لما يُصطلح عليه بالعقوبة الانضباطية، بل الوجود لما يُسمى العقوبة الإخضاعية، العقوبة الإذلالية، عقوبة العبودية، نعم ولهذا محاولة الإشارة للانضباط كعائد مخصوص للسلطة خاطئة.

- السلطة تستبعد، تقمع، تكبت، تراقب، تبتز، تجرِّد، وعليه فممارسة الانضباط لا تفترض وجود ضرورة لجهوزية تحقق الإكراه.

- إشارة فوكو للانضباط على أنه نموذج من نماذج السلطة ونمط من أنماطها، تُحيلنا للقول بأنَّ فوكو يحاول الربط بين مفهوم كل من الانضباط والسلطة وإعطاء دلالة لكل مفهوم تشير للمفهوم الآخر، وبهذا نجد فوكو يُحيل الفوضى إلى طبع الإنسان، والانضباط إلى حالة دخيلة ناجمة عن وجود السلطة.

- نعم، هناك خلط بين مفهوم كل من الانضباط والخضوع.

- وبمناسبة حديثنا عن الخضوع، يذهب البعض للاعتقاد بأنَّ خضوع الفرد بالرغم من تراجع استخدام العقوبة، يعني أنَّ ممارسة السلطة هنا في أدنى مستوياتها ودرجاتها، وهذا خاطئ تمامًا. أي لا يعني تفادي استخدام العقوبة لمدة طويلة نتيجة وحشيتها، أنَّ ممارسة السلطة هنا متدنية. إنَّ وحشية العقوبة لا تبني عبودية قي زمانها فقط، بل تمتد هذه العبودية لتؤثر على أجيال مستقبلية عديدة، هذا في حال افترضنا بأنَّ وحشية العقوبة تدفع لتراجع استخدامها.

- نعم، السلطة تكون حاضرة حتى في الاستخدام غير الكثيف للعقوبة، نتيجة عنفها وقسوتها، فعدم الدفاع عن الحقوق المسلوبة بدافع الخوف والترهيب

هو دليل على حضور واضح للسلطة. السلطة لا تستخدم العنف الجسدي وحده بل أيضًا تستعين بالعنف النفسي.

- إنَّ العمل على طباعة تصور العقوبة العنيفة في ذهن الأفراد والجماعات، بهدف الحد من الاستخدام الكثيف لهذا العنف، لا يُدلل بتاتًا على جهود ونوايا لتقليص ممارسة السلطة، بل على العكس يدلل على نوايا لتعزيز ممارستها بعنف وبقسوة.

- وبناءً على كل ما سبق، نجد أنَّ اللاشرعية النوعية المغلقة، المحكومة، والمُسيطر عليها، التي يُفضلها الجهاز العقابي في معظم الدول، والتي يُفضلها عدد من المفكرين وفوكو واحد منهم، لا يُلتفت إلى امبرياليتها، ومحاولتها إخضاع أكبر عدد بحيث يصير جميع أعضاء المجتمع جواسيس ووشاة على بعضهم البعض، بحيث يصيرون مجرمين بالنسبة لبعضهم البعض، بحيث تصير الجريمة مقبولة طالما هي مُوجهة لخدمة السلطة، بحيث يصير الإجرام وسيلة للإخضاع بدلًا من كونه وسيلة للاعتراض والإشارة إلى عيوب النظام، بحيث يصير من يقومون بالجرائم موظفين لدى مؤسسات السلطة.

- إنَّ الجهاز العقابي يتخذ العقوبة وسيلة لتجنيد القائم بالجريمة لا وسيلة لمكافحة الجريمة، وسيلة لتوظيف الجريمة في خدمة السلطة لا وسيلة للتخلص منها.

- يُشكِّل الجهاز العقابي نظام رقابي هدفه الإشارة وتسليط الضوء على الجرائم المرتكبة خارج شبكته المُغلقة، بهدف إحالتها لخدمة السلطة عن طريق توجيهها بالعقوبة.

- إنَّ الجهاز العقابي هو عبارة عن شبكة من الجريمة المُنظَّمة بهدف توظيف الجريمة في خدمة النظام السلطوي القائم.

- إنَّ توظيف القائم بالجريمة بالنظام الرقابي للجهاز العقابي، هو بالضرورة إبقاء عليه في نطاق الجريمة، هو بالضرورة استغلال للإنسان، وأيضًا الرقابة المفروضة على القائم بالجريمة بالرغم من توظيفه في هذا النظام الرقابي، تُشكِّل خرقًا لحقوقه، وعقبة أمام حريته، وبالتالي محاولة تشريع هذا الجهاز والنظام هي محاولة لتعزيز السلطة.

- إنَّ السلطة تُشكِّل مجتمعًا إجراميًا موازيًا للمجتمع الطبيعي المفطور على الميل نحو الخير ونبذ الشر، تُؤسس مجتمعًا امبرياليًا بهدف محاربة الطبيعة الإنسانية.

- نعم، السلطة تؤسس وتوجد مجتمعًا فيه الجميع عدو للجميع، فيه الجميع في حرب مع الجميع، وعليه فمراكز الاعتقال لا تُشكِّل كما يدَّعي البعض مراكز للتعزية والإشفاء والنجدة والإصلاح بل مراكز لتوليد جريمة أعنف تخدم السلطة.

- وعليه الجهاز العقابي يتسبب بالجنوح لتوظيفه في خدمة السلطة. سنحاول في المستقبل القريب تقديم دراسة عن دور المؤسسات المصرفية -التي ترتكز على سعر الفائدة- في المساهمة بتعزيز السلطة ودفع المؤسسات التشريعية لتشريع قوانين سلطوية مُجحفة بحق الأفراد.

- ولهذا نجد أنَّ صرامة القوانين الجزائية خلال الاضطرابات الاجتماعية أداة للإسكات، أداة للقمع ودفع الشعوب للتعايش مع الظلم الواقع عليها. وهذا إن دل فإنه يدل على أنَّ القوانين السلطوية تعمل من أجل حفظ الامتيازات أو تأسيسها.

- يعترف الكثيرون ومنهم رولز أنه حتى مع وجود حرية سياسية -حرية اجتماع وتعبير، حرية مشاركة سياسية، حرية التأثير على مسار التشريع- لا سبيل لضمان سن تشريع عادل. وهنا نتساءل بتعجب: لماذا طالما لا وجود لما يكفل التشريع العادل، الاستمرار بسن القوانين، لماذا إلى الآن نحن نعاند بالتمسك بسن القوانين المُلزمة، لماذا إلى الآن ندَّعي الحاجة إلى إلزام الآخرين بالتقيُّد بالقوانين التي نحسبها عادلة، لماذا إلى الآن لم ندرك أننا ناقصون وبالتالي دائمًا ما نخطئ، لماذا إلى الآن نحن عاجزين عن إدراك أنَّ الإلزام الخارجي هو المصدر الأكبر لأخطائنا؟ لماذا نستمر بالاعتقاد أنَّ العدالة ممكنة بالإلزام الخارجي؟!

- نعم، ذلك سببه الاستمرار بالاعتقاد بأننا في خطر، ذلك بسبب الاعتقاد بأنَّ الإنسان عدو أخيه الإنسان، ذلك بسبب عدم إيماننا بفطرتنا السليمة التي شرَّعت لنا قوانين جميعنا متفقين عليها مجمعين على ضرورتها وخيرها ونفعها، مصرّين على التمسك بها. نعم، ذلك بسبب تجرّئنا على تجريم الإنسان الذي ننتمي إليه، ذلك بسبب تألهنا، ذلك بسبب انشغالنا عن تجريم ظروفنا القاسية.

- سيبقى التشريع حتى لو كان تمثيلي غير نافع.

- إذا كان يُراد منا فهم النقاش التشريعي كمحاولة لإيجاد السياسة الأفضل وليس كنزاع بين المصالح، هنا السؤال يكون: أفضل بالنسبة لمن، وأفضل بأي وسيلة، وأفضل متى وأين؟ نعم، لا بد أن ندرك أنَّ السياسة التي صُنِّفت كأفضل سياسة، هي في ذات الوقت صنِّفت كأسوأ سياسة لأقلية وفي أحيان لأغلبية، ولهذا حتى هذه المحاولة التي يُراد بها دفعنا لفهم النقاش التشريعي بطريقة أكثر تضليلًا، تعجز عن طرد تفسيرنا للنقاش التشريعي على أنه صراع مصالح، ومحاولة لاستغلال الفرص.

- إننا كلاسلطويين نؤمن بالنقاش، ولكن ليس ذلك النقاش الذي يتولد من عملية تخيير بين قانونين، وإنما ذلك النقاش الذي يتاح فيه الكشف عن لا مشروعية التشريع، ذلك النقاش الذي يتيح الفرصة للامشروعية التشريع بالكشف عن نفسها بدون عوائق سلطوية تهدف لحصر النقاش حول خيارات تشريعية مُستبعِدة للنقاش حول مشروعية ولا مشروعية التشريع. إذًا النقاش الذي يستبعد الحدود هو الذي نؤمن بجدواه، أما ذلك الذي يضع العراقيل والحدود ويترك الفضاءات ضيقة لا مساحة للتحرك فيها، فلا نؤمن بجدواه، لا نؤمن بقدرته على الإيصال لنتيجة عادلة.

- نعم، تبادل الآراء غير المُقيَّد هو من يصوّب قناعاتنا ويوسع مداركنا.

- وعلى الرغم مما تقدَّم، نستنتج بأنه ليس التشريع العادل هو الغاية الاجتماعية الأولية، بل عدم التشريع من الأساس هو الغاية الاجتماعية الأساسية، فلا تشريع يمكن أن يكون عادل.

- إنَّ مطالبتهم لنا بتفهم حالة الاستثناء -من خلال المنظور السياسي وليس القانوني والتشريعي- في الأزمات السياسية (حرب أهلية- انتفاضات- حروب دولية- إلخ) يُحيلنا إلى فهم المنطلق القانوني كمنطلق لحكم الأقوى، أو كمنطلق للحصص الجديدة للقوى المُنتصرة.

- إنَّ حالة الاستثناء التي نحن مطالبين بتفهمها، حالة تُكرّس لتشريع جديد يتوافق مع منظور توافقات القوى الجديدة، وبالتالي يُحيلنا هذا الفهم إلى النظر إلى التشريع القانوني كتشريع لصراع مركزي، وبالتالي يقودنا لفهم سلطة القانون على أنها سلطة الأقوى، على أنها سلطة نفي وتحييد وفصل وعزل، وبالتالي سلطة القانون راجعة لهرمية سلطوية.

- حالة الاستثناء تمثل مرحلة صراع لانتزاع مكتسبات، وبالتالي حالة الاستثناء محاولة الحسم فيها تقود لإشغال المركز لا لهدمه وإنهاء الصراع المركزي، تقود لاستمرار الصراع الذي يعود ليتخذ شكل قانوني.

- حالة الاستثناء تُمثِّل فرصة للجميع للتعبير، ومحاولة الحسم فيها هي تكميم للجميع واحتكار التعبير لخاصة. ولهذا الحسم في حالة الاستثناء إما أن يقود لعودة إلى منح القانون السابق سلطته، وهذا يعني عدم تغير في موازين القوى وبالتالي استمرار حكم القوى السابقة المُعلنة لحالة الاستثناء، وإما أن يقود إلى منح السلطة لقانون جديد، وهذا يعني تغير في موازيين القوى وبالتالي ظهور قوى حاكمة جديدة.

- إنَّ مرونة القانون بالتَّشكُّل بواسطة الحسم في حالة الاستثناء دليل كافي على أنه يهدف لحماية حالة مُستحسنَة من قبل البعض وغير مُستحسنة من قبل البعض الآخر الذي قد يُشكل أغلبية أو أقلية.

- ولهذا سلطة القانون سلطة عازلة، سلطة مُحتكرة نفعها للبعض، ولهذا تجد الرفض. إنَّ القانون العادل لا سلطة له، لا إلزام من الآخر على الخضوع له.

- إنَّ تعليق سلطة القانون في حالة الاستثناء تعليق لمكاسب وعوائد فئة مُطالَبة بتكريس هيمنتها على القوى الأخرى. إنَّ عدم التوافق بين الشأن القانوني السلطوي، والشأن السياسي السلطوي في حالة الاستثناء يعني أنَّ الشأن القانوني يُمثِّل المكتسب والعائد والشأن السياسي يُمثِّل وسيلة الحماية من اختلال موازين القوى في حال التفوق وسعي للإخلال بموازين القوى في حال التخلُّف، وبالتالي شأن يتطلب وضعية الحسم، ولأنَّ النصر يأتي قبل العائد والغنيمة، كان لا بد أن يتم تعليق تحصيل العائد لإحلال نصر جديد يُحافظ على العائد، أو يحاول انتزاع عائد أكبر.

- ولهذا ما هو قانوني هدفه العائد أما ما هو سياسي هدفه الحسم باستمرار لضمان التفوق أو لإحلال التفوق، ولهذا السياسي هدفه الحسم أما القانوني فهدفه تحصيل العائد

- ولهذا كان على اللاسلطوي مُناهضة سلطة القانون التي تُشكِّل الصراع المركزي، وذلك لإيقاف هذا الصراع الذي يستنزف الجميع.

- إنَّ وضعية الحسم لا تتطلب غياب سلطة القانون فحسب، بل تتطلب أيضًا غياب القانون، ولهذا اتهام اللاسلطويين بمعاداة القانون هدفه الدفاع بإلقاء التهمة على الآخر. نعم، السلطوي هو عدو القانون لا ذلك اللاسلطوي.

- إنَّ منح تشرشل القوات الجوية البريطانية أوامر بقصف المنشآت الألمانية المدينة بالرغم من هزيمة الجيش الألماني، ومنح ترومان الموافقة على قصف المدن اليابانية بالسلاح النووي بالرغم من هزيمة الجيش الياباني، يُبرز غياب القانون في وضعية الحسم وليس سلطته فحسب. إنَّ هذا الحسم الذي أراده كل من ترومان وتشرشل، يُراد به تكريس الهيمنة لأطول فترة ممكنة، أي يُراد منه الردع، وبالتالي يُراد منه تحصيل عائد أكبر بالسلطة التي حازها القانون الجديد للمنتصر.

- إنَّ وضعية الحسم تُكرّس لحماقات مُكلفة نتيجة ارتهان القرار بأفراد سلطويين يهدفون لتغييب قدرة الفرد على التفكير وتحييد معتقداته وانتماءاته في صنع قراراته وإلغاء فردانيته. إنَّ وضعية الحسم تتطلب تكريس الجماعة للفرد (القائد الأعلى) وتشكيلها لاستقبال وتنفيذ قراراته بدون اعتراض أو تفكير قد يُؤخِّر عملية التنفيذ.

- وضعية الحسم تتطلب سرعة هائلة تكفي لتعطيل عملية التفكير التي تتطلب وقتًا وشكًا، ولهذا الأفعال السلطوية أفعال لا تتطلب وقت للقيام بها، على خلاف الفعل اللاسلطوي الذي يتطلب وقتًا لكونه نتاج عملية تفكير.

- الفعل السلطوي فعل لحظي، نتاج زمن منزوع منه وقته، ولهذا أصله رد فعل لا فعل. حتى في أكثر الدول ديمقراطية وليبرالية تُشكِّل وضعية الحسم الشعوب لخدمة الأفراد (القادة). ولذلك هناك تطابق لا تشابه بين الدول الديموقراطية والشمولية في وضعية الحسم، ولهذا إحالة أخطاء هذه الوضعية إلى أحد الأقطاب، وشيطنة طرف وتبرئة طرف آخر، هي إحالة هدفها تزوير التاريخ، هي إحالة هدفها دفعنا للتصفيق للمنتصر وتحيته وإحالة الشتائم والأوصاف البشعة بالمنهزم لإشغالنا عن مكافحة السلطة التي تُعد هي العدو الوحيد للبشرية ومصدر كل الشرور.

- إنَّ وضعية الحسم تُشكِّل تهديدًا كبيرًا على أنظمة الحكم الديموقراطية، فهي قد تتحول من إجراء مؤقت واستثنائي إلى حالة دائمة تؤدي إلى تحول جذري، أي إلى تحول نظام الحكم الديموقراطي ليصبح حكم شمولي دكتاتوري. ولهذا نُكرر بأنَّ لا تمايز بين أنظمة الحكم الدكتاتورية والديمقراطية في وضعية الحسم.

- إنَّ هذه الحالة هدفها خلق وضع يُتيح تطبيق القانون أي تحصيل عائد، هي وضعية بلحظيتها وارتهانها بالسرعة يبرز عدم تعلقها بحالة التفكير التي تتطلب وقتًا، وبالتالي وضعية الحسم أفعالها أفعال عبثية فوضوية، هي وضعية تُشكِّل إبادة لمن تعتبرهم السلطة غير قابلين للاندماج في النظام السياسي.

- إنَّ السلطة السياسة سلطة ليست دائمًا ذات بُعد قانوني، أي ليست نتاج قانوني، وفي ذات الوقت ليست ضد القانون، وبالتالي السلطة السياسية القانونية قمعها وعنفها شرعي، بينما السلطة السياسية غير القانونية وسائل قمعها وعنفها لا يمكن الحكم عليها بالشرعية أو باللاشرعية لدى السلطويين، ولهذا كان لا بد لنا كلاسلطويين من مناهضة سلطة القانون والسياسة السلطوية.

- ولهذا نجد أنَّ تلك القوانين التي تنطوي على غموض أو قصور مليئة بالثغرات التي تستغلها السلطة التنفيذية، وبالتالي كان التوافق بين السلطة التشريعية والتنفيذية مبني على أساس نفعي لا على أساس عادل. إنَّ الثغرات تتيح للسلطات التنفيذية والقضائية عدم الامتثال للقانون في حالات، والامتثال له في حالات أخرى في ظل وجوده والاعتراف به.

- نعم، الثغرات تتيح الإفلات من القانون بالرغم من الاعتراف به والامتثال له من دون أن يُشار إلى المُراوغ على أنه فوق القانون أو قام بفعل غير قانوني.

- يهدف وجود الثغرة إلى احتكار وجود سلطة القانون على البعض، بدون إشاعة حقيقة وجود من هم فوق القانون للإبقاء على هدوء الشعوب، وللإبقاء على احترام العامة للقانون وخضوعهم له بدون شعور بالتمييز والظلم اللذين قد يدفعان لعدائه والمطالبة بتعطيله.

- ولهذا السبب كان نابليون يتهم المشرعين بالخيانة في حال تأخرهم وتراخيهم في إصدار قانون ينطوي على حالة من الغموض، أي يُسهم بوجود الثغرات، ولهذا كانت السلطة التنفيذية هنا مُشرّعة بمحاولتها استخدام هذه الثغرات لصالحها.

- ولهذا دائمًا ما نقول نحن كلاسلطويين بأن القانون يكف عن كونه قانونًا بمنحه السلطة. القانون بدون إلزام حياة. ولهذا اللاسلطوي لا يذهب كما يحاول البعض تصويره إلى المطالبة بإلغاء القانون والادعاء بأنَّ هذا الإلغاء

هو مفتاح باب العدالة، بل يذهب في الحقيقة للقول بأن إلغاء سلطة القانون والزاميته الخارجية هي المفتاح لباب العدالة.

- إنَّ النقاش كان يدور وما زال إلى الآن عن الحيز اللامعياري في حالة الاستثناء، عما إذا كان ينبغي أن يحتفظ هذا الحيز بغض النظر عن الثمن المُتكبَد بصلة مع القانون، أم ينبغي أن ينفصل ويتحرر منه كليًا؟ هل ينبغي إحالة السلطة الناجمة عن الحيز اللامعياري إلى السياق القانوني، أم الإشارة إليها على أنها ليست ذات بُعد قانوني، أي لا يمكن اتهامها بمعارضة القانون كما لا يمكن إدراجها على أنها نتيجة عنه؟

- حاول بعض السلطويين إيجاد حل لهذه المعضلة التي تتمثل بوضعية الحسم، فذهب بعضهم ومنهم فالتر بنيامين إلى أنَّ المهمة الرئيسية للسلطة التنفيذية تجنب حالة الاستثناء، وليس إعلانها كما ذهب شميت. وهنا نسأل: كيف يُتاح تجنبها؟ هنا يوصي بنيامين -وهذا حسب فهمنا له- بأن تكون وضعية الحسم متاحة في ظل السلطة القانونية، ولكن بأسلوب مراوغ وذلك باستخدام الثغرات في القانون، أي بإتاحة المجال للسلطة التنفيذية بمحاصصة التشريع مع السلطة التشريعية، وذلك بأن يكون للسلطة التشريعية مهمة تشريع القانون الغامض المليء بالثغرات وللسلطة التنفيذية مهمة التشريع في الثغرات المتاحة في القانون.

- إنَّ حل بنيامين يطرح حلول أقل عنف تعتمد على المراوغة والتضليل، ولكن يتيح تداخل بين مهام السلطات الثلاث ويتسبب بإلغاء الفصل، وبهذا نجد هذا الحل أيضًا يُهدد بتشكيل سلطة شمولية دكتاتورية تتمركز فيها السلطة بيد فرد أو حزب أو عائلة ما.

- إنَّ إعلان حالة الاستثناء هو إعلان للحرب، وبالتالي إعلان الحاجة لوضعية الحسم، ولهذا باعتقادنا إعلان حالة الاستثناء أقل ضررًا على الدولة من حالة تجنب وتفادي إعلانها، لأنَّ إعلانها يُحدد المُعلِن عدوًا للحدث أو للدولة العدوة أو للمجتمع الثائر، أما عدم إعلانها فيُحدد القانون والمؤسسات والسلطات الثلاث جميعًا عدوًا للحدث أو للدولة أو للمجتمع.

- إنَّ الجهد الأيديولوجي الذي استثمر ضد الإيمان بالله، كان دافعه الموقف المحافظ للكنيسة، وتحالف الكنيسة مع العرش، ليتسبب عدم تمركز السلطة في حالة الاستثناء بيد العرش، والذهاب لإتباع سياسة المُحاصصة، بعداء الثوار للكنيسة وللعرش وللإيمان بالله وخصوصًا في القرن السادس عشر والتاسع عشر.

- ولهذا غالبًا ما تختار الدول إعلان حالة الاستثناء بدلًا من تفاديها، وذلك بهدف الحفاظ على الدولة ومؤسساتها، بهدف الحفاظ على السلطة وتداولها. نعم، في حالات قد يُشكِّل عدم إعلانها ضررًا أقل ولكن المجازفة هنا خطيرة جدًا، وتحتاج لخطط بديلة ماكرة محبوكة جيدًا وإلا كانت النتائج وخيمة.

- وبالتالي نجد أنَّ سلطة القانون لا مجال لتفادي أضرارها هي والسلطة السياسية، ولهذا كان لا بد من المناهضة.

المخلص لك

ف.د

9 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

المحاضرة الرابعة

كارل شميت

- في هذه المحاضرة اخترنا دراسة شميت الذي يُعتبر كاللاسلطويين لا يُشكِّل لا يمين ولا يسار، محاولة لاستكشاف منبع السياسة اليمينية، التي يُشكِّل تطرفها وعنصريتها خطر على المسار الليبرالي.

- في البداية نود الإشارة إلى أنَّ شميت ككثير من المفكرين لم يستطيع تحديد الفعل الأخلاقي بشكل دقيق. فنجده قد أخطأ في الاعتقاد بأن التمييز في الحقل الأخلاقي يكون بين الشر والخير، والحقيقة هي أنَّ التمييز في هذا الحقل يكون بين ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، فتصور الخير والشر مُنطلَق للفعل النفعي، وهذا التصور أيضًا له مصادر مختلفة مثل معتقدات الأفراد وانتماءاتهم.

- لقد أوغل شميت بالخطأ عندما حاول فصل السياسي عما هو أخلاقي، فكان التمييز النوعي السياسي لديه هو تمييز بين الصديق والعدو، في حين أن التمييز النوعي في المجال الأخلاقي هو تمييز بين الفعل الأخلاقي والفعل

غير الأخلاقي، فكان فصله هذا مُشرّعًا للفعل غير الأخلاقي الصادر عن السياسي بغض النظر عن الصادر في حقه هذا الفعل سواء كان صديق أم عدو.

- بل إنه أيضًا بخطئه في استكشاف التمييز النوعي في الحقل الأخلاقي تمادى بالخطأ في فصل السياسة عن الأخلاق وذلك بفشله ربط التمييز النوعي السياسي بأساس واضح، بمعيار محدد، فبفصله السياسة عن الأخلاق جعل التحديد للصديق والعدو لا يعتمد على تصور الخير والشر لدى السياسي.

- إنَّ استقلالية التمييز التي أتاحها شميت تجعل التمييز مبني على أهواء وتقلبات مزاجية ومصالح شخصية وعواطف ومشاعر متقلبة. يعترف شميت بهذا بقوله: "يتسم هذا التمييز بالاستقلال"، وأيضًا في قوله: "تبعًا لما سبق، يصح القول من الجهة الأخرى إن الشرير أخلاقيًا، والقبيح جماليًا، والضار اقتصاديًا ليس بالضرورة عدوًا، كما أنَّ الخيّر أخلاقيًا والجميل استطيقيًا والنافع اقتصاديًا، ليس بالضرورة صديقًا بالمعنى النوعي، أي السياسي للكلمة".

- وفي قوله أيضًا: "العدو هو ذلك الغريب، حيث يكفي لاكتمال ماهيته كعدو أن يكون -بالمعنى الوجودي- شيئًا مغايرًا وغريبًا"، وهنا يعود بنا شميت بالتمييز الذي أتاحه للسياسي، للعصور السلطوية البدائية، أي بتمييز العدو على أساس الجهل به وعدم معرفته.

- إنَّ شميت بهذا التمييز الذي يريده في الحقل السياسي، يريد أن يوقف العولمة، ويمحي آثارها، يريد العزلة للدول والانطواء والاكتفاء الذاتي، يريد للعالم المفتوح أن يستحيل مغلقًا.

- وإنَّ التحديد اللامعياري للعدو والصديق الذي يريده شميت للسياسي يتسبب بحروب همجية شرسة.

- إنَّ توجُّه شميت هذا، كان سببه اعتقاده أنَّ مفهومَي الصديق والعدو يتم إضعافهما بخلطهما بتصورات اقتصادية أو أخلاقية، ونجده في ذات اللحظة يريد منا استبعاد النظر سيكولوجيًا بالمعنى الفردي لتحليله هذا، أي كتعبير عن مشاعر وعواطف ذات نزعة خاصة وفردية.

- ولهذا نجد أنَّ مُنطلَقه لعداء الليبرالية السلطوية كان استخدامها تمييز في الحقل السياسي للعدو والصديق مُرتكز على التمييز المُعتمَد في الحقل الاقتصادي، مُعتبرًا أنَّ لا أعداء على الصعيد الاقتصادي بل منافسين فقط.

- هنا يبرز لنا عداء شميت للمعيار بشكل عام، بعدائه للمعيار الذي يحكم إعلان حالة الاستثناء، وللمعيار الذي يحكم كيفية التصرف فيها، وللمعيار في التمييز في الحقل السياسي، وبرفضه للمعيار الذي يُحدد توفر إمكانية للقتال أو عدم توفرها. وبهذا نجده يمنح الفرد سلطة مُطلقة في إصدار القرار، لا للمعيار، للفرد الذي تتلاعب بقراراته عواطفه وانتماءاته وقناعاته وانفعالاته، وبهذا كان القرار السياسي عند شميت قرار ذو نزعة فردية خالصة لا عامة كما أحب أن يصوره لنا.

- صحيح، إنَّ شميت يهدف لمنح سلطة للأفراد (الحكام) غير محدودة، سلطة غير معيارية، تتجاوز كافة الحدود، وتُخضع كامل الإخضاع. لم أقرأ لشخص يملك عداء بهذا القدر من العدوانية للمعيار، نعم حتى عدوانية ميكافيلي لم تتفوق على عدوانية عداء شميت.

- نجده يقول: "العدو هو الجماعة من الناس، تحمل بالضرورة إمكانية القتال الواقعية في مقابل جماعة أخرى حالها كذلك. فالعدو إذن هو عدو عام حصرًا" نجده يشرح من خلال هذا النص أنَّ العدو هو ذلك الذي نحن في حرب عامة معه لا ذلك الذي ننفر منه لسبب خاص، أي ذلك الذي يُقاتلنا لا ذلك الذي يكرهنا. إنَّ العدو العام لا الخاص هو العدو السياسي حسب شميت. وهذا محاولة منه لتلطيف طرحه، وبالرغم من ذلك هو يفشل في ذلك. ففي نطاق الدولة، الجميع يحمل إمكانية للقتال، الجميع عداوتهم الخاصة في لحظة تغير موازين القوى يحولونها لعداوة عامة، أي لعداوة سياسية، وبالتالي في ظل الدولة الجميع عدو الجميع. ولهذا نجد محاولته لتلطيف مفهوم العدو غير مُجدية.

- في نقد طرح شميت هنا لا نحاول تلطيف التحديد الليبرالي السلطوي لمفهوم العدو ولمعيار العداوة.

- لقد كشف شميت بصراحته الفجة التي تشبه صراحة ميكافيلي عن حقيقة السياسة السلطوية. إنَّ الدولة تحارب الإنسان بالمفهوم السياسي السلطوي الذي كشف عنه شميت.

- ولهذا الدولة تحافظ على وجود العدو، لأنَّ وجود العدو يحافظ عليها، يحميها من انتباه الإنسان لعدم جدواها.

- لقد أراد شميت للدولة الحرية في بناء تصور عن الحياة الخيرة -النظام العام والأمن العام-، فقاده هذا إلى التصريح بأولية الخير على الحق، فكان من آثار هذا التصريح الغلو في منح السلطة للمُتصوّر، لتكون نتيجة هذا الغلو منه، منح الحق للمتصوّر بإلغاء وتعليق القانون بدون أن يتصف فعله هذا بأنه غير قانوني، أي ذهب لا للاكتفاء بنزع سلطة القانون بل أيضًا التمادي لنزع القانون وتحييده كركيزة في بناء الفعل.

- إنَّ وضعية الحسم نتيجة الذهاب للقول بأولية الخير على الحق لا حدود للعنف فيها، لا حدود للقمع والإرهاب وسلب الحريات فيها، وبالتالي هذه الأولية هي المُهدِدة باستمرار بظهور الاستبداديين والشموليين والعنصريين.

- إنَّ منح الدولة الحرية في بناء تصور عن الحياة الخيرة، يُهدد باستمرار الأقليات العرقية والدينية واللغوية وغيرها، لأنَّ هذا التصور غالبًا ما سيكون مُنطلَقه منح عرق ودين ولغة الأغلبية -والتي لها ارتباط تاريخي طويل بالمكان- الأحقية بنزع حيازة الأقليات، ليُشكِّل هذا الانتزاع انتصار للأغلبية يمنح الثقة بقدرتها على التغلب على من تم تصنيفه كعدو.

- فذهاب هتلر مثلًا لانتزاع حقوق الشيوعيين واليهود كان وظيفي لا غائي، والغاية هنا استعادة ألمانيا الثقة بعد الهزيمة التي تكبدتها، فهتلر أراد استرجاع الثقة بالقدرة على هزيمة الخصوم الكبار من خلال إلحاق هزيمة بمن صوَّرهم كخصوم.

- إنَّ أولية الخير على الحق تُسهم بإيجاد خصوم وهميين يُراد من الانتصار عليهم انتزاع الثقة بالقدرة على الانتصار على الخصوم الحقيقيين، وعليه فأولية الخير على الحق تُطيح بالأقليات في كل زمان ومكان.

- إنَّ تخبط الدولة في تحديد أعدائها بأولية الخير على الحق يُسهم بخسارتها للأصدقاء والحياد، وبإكثار أعدائها مما يُهدد بهزيمتها وإضعافها.

- أولية الخير على الحق تتسبب بأن يكون القرار في حالة الاستثناء حتى لو تم وفق قاعدة من المستحيل أن يبقي وفقًا لهذه القاعدة، ومن النادر أن تكون القاعدة قادرة على استيعاب ظرفية القرار وتوقع الحال الذي يُتخذ فيه، ولهذا لا يُشكِّل القرار والقاعدة إلا حالة تنصيب وتشكيل دكتاتور.

- ولهذا ذهب شميت يائسًا ومحبطًا للقول بأنَّ حالة الاستثناء لا يمكن تحديدها قانونيًا أو جعلها تتوافق مع قانون مُعد مسبقًا، وللقول بأنَّ الدستور لا يحق له إلا الإشارة للشخص الذي يمكنه إعلان حالة الاستثناء، وللقول بأنَّ إلغاء حالة الاستثناء ليست دستورية كما هو الحال مع توقيت إعلانها والتصرف فيها.

- إنَّ عداء شميت لليبرالية دافعه ومُنطلَقه سماحها بوجود كيانات اقتصادية واجتماعية وثقافية لها تأثير على القرار السيادي، فمثلًا يعتبر أنَّ وجود الاتحادات الاقتصادية داخل الدولة وبشكل خاص نمو النقابات التي تكاد الدولة تعجز أمامها عن مواجهة أداة قوتها الاقتصادية (أي الاضراب)، ساهم بموت الدولة.

- نعم، عداؤه لليسار راجع لقدرته على تعطيل القرار السيادي، لقدرته على الوقوف في بعض الأحيان أمام التصنيف السياسي (العدو/الصديق).

- إنه يرفض وجود كيانات واتحادات اقتصادية قادرة على التأثير على القرار السيادي، أو حتى كيانات دينية أو مؤسسات تمثيلية كالبرلمان، أو كيانات اجتماعية مؤثرة على القرار السيادي. إنه يعد القرار السيادي قرار إلهي لا ينبغي لأحد الوقوف معترضًا عليه أو متذمرًا منه.

- إنه يريد للقرار السيادي أن يمثل الكل وذلك باحتكار السلطة بيد فرد بدلًا من محاصصتها، لا يريد التعددية والاختلاف في المجتمع.

- بالتأكيد، إنه لا يكتفي بنزع حق الأقليات في التعبير بل يذهب لنزع حقهم في الوجود، وهذا ما كان للمجتمع الألماني في فترة حكم الحزب النازي الذي أخذ بنظريات شميت.

- إنَّ التعددية بحسب شميت توفر مساحة للمصالح المتعارضة والمتضاربة، وبالتالي هذه المساحة تُسهم بالتأثير سلبًا على القرار السيادي، فكان تفضيله لدولة العرق والدين الواحد.

- إنَّ رؤيته أنَّ مهمة السياسي تكمن في التمييز بين الصديق والعدو، جعلته يذهب للاعتقاد بأن السياسة تفتقر للقدرة على تخفيف حدة التضارب بين المصالح المختلفة، وتفتقر للقدرة على اتخاذ قرار يُراعي مصالح الجميع. لقد رأى أنَّ السياسة وظيفة الشمولي لا وظيفة المُلتفت إلى الاختلافات والكافل لوجودها.

- في رؤية شميت نحن كلاسلطويين نرى شيئًا من الواقعية، فالسلطة تُحتِّم على كل سلطوي أن يكون دكتاتور بدرجة ما ليكون سياسي بالمعنى الحقيقي الواقعي.

- إنَّ المركزية التي توجدها الدولة على الصعيد الدولي أو المحلي تتطلب دكتاتورية في جميع الأحيان تكون عنيفة ولكن بدرجات متفاوتة، ففي الدول الديمقراطية عادة ما تكون درجة العنف المُتطلَّبة أخف من تلك المُتطلَّبة في الدول الشمولية لا لشيء إلا لحماية الأغلبية من دكتاتوريتها، أما في الدول الشمولية ذات التنوع العرقي والديني فدائمًا ما تكون درجة العنف المُتطلَّبة هي الأكبر، أما في الدول الشمولية ذات العرق الواحد والدين الواحد فعادة ما تكون درجة العنف المُتطلَّبة هي الأدنى، لأن القرار السيادي ليس مُتعثِّر بمحاولة توفيق بين المصالح المتضاربة، أو بمحاولة اعتراض على حصص الخسارة أو الربح.

- لهذا أراد شميت لألمانيا أن تكون دولة للعرق الواحد والدين الواحد، نعم أراد ذلك ليُتيح للقرار السيادي المُتخَذ بسلاسة تصوير المجتمع كوحدة واحدة، وتقديم تصور مثالي للدولة، خالي من أي عنف وحاجة للقمع والإرهاب.

- نعم، كان شميت يحاول بناء مجتمع مُوحَّد بدون تعددية، بدلًا من البحث عن بوتقة لصهر المواطنين ذوي المرجعيات الدينية والعرقية المختلفة لتشكيل وحدة مجتمعية. إنه يريد أن يُلغي وجود الأقليات ليوجد إجماع على القرار السيادي، لا أغلبية فحسب.

- لقد رأى أنَّ التعددية تُشكِّل تهديد وجودي للدولة، ولهذا رأى أنَّ التوجهات الليبرالية توجهات تفكيكية هدفها حل الدولة. ولهذا نجده يرفض الإشارة لليبرالية على أنها تشاركية سياسية.

- إنه يرى أنَّ الحل الليبرالي يُسهم بأن تغدو الدولة رابطة تتنافس مع الروابط الأخرى سواء كانت اقتصادية أو دينية أو عرقية، إنه يراه حل يُعيق بأن يكون للدولة شخصيتها، يُعيق بأن تكون الدولة الكيان الأسمى. إنَّ أطماع شميت وأهدافه لألمانيا تكشف عن حقيقة الدولة، عن بشاعة السلطة وعن مدى ضررها على البشرية.

- ولهذا نجده في كتابه اللاهوت السياسي يُولي اللاسلطويين الاحترام، بينما لليسار الاحتقار، وهو أيضًا ما نجده في قوله في كتابه مفهوم السياسي:

"تنمو الراديكالية المُعادية للدولة بمقدار الإيمان بخيرية الطبيعة البشرية. أما الليبرالية البرجوازية فلم تكن مرة راديكالية بالمعنى السياسي.". لقد شعر أنَّ اللاسلطويين يحملون هدفًا إنسانيًا، بينما يحمل اليسار هدفًا تآمريًا. لقد شعر أنَّ اللاسلطويين يملكون مشروع كوني أما اليسار فيملك مشروع المجتمع الطبقي الامبريالي. نحن بالطبع لا نُقر شميت في جميع ما ذهب إليه في عدائه لليسار -الذي في حقيقة الامر، نحن نختلف معه أقل مما نختلف مع شميت- ولكن نُقر بأن كثير مما ذهب إليه يحمل الحقيقة المُرَّة.

- لا نستبعد أنه لو كان يحوز مقدار ولو ضئيل من التفاؤل والأمل بإمكانية إسقاط الدولة والقضاء على السلطة، لكان أحد أبرز اللاسلطويين، ولكن لتشاؤمه الحاد ويأسه العنيف أخذ بالتطرف والإيغال في تنزيه السلطة.

- لقد أراد شميت لألمانيا دولة كتلك التي أرادها هوبز لإنجلترا في اللفياثان، وكتلك التي أرادها ميكافيلي لإيطاليا في كتابه الأمير، دولة قادرة، دولة كاملة السيادة، دولة سياسية. لقد أراد نزع سلطة الكنيسة وسلطة البرلمان والسلطة الكامنة لدى الاشتراكيين لحيازتهم قدرة اقتصادية متمثلة بالعمل البرلماني وقوته الكامنة في قانون الإضراب. ولهذا نجد أنَّ هذه الأفكار التي تقدَّم بها شميت ابنة سياقها التاريخي.

- وعليه نجد أنَّ الدافع الرئيسي لهتلر في حربه على اليهود هو القضاء على التعددية الدينية، أما في حربه على الشيوعيين وعلى الاشتراكيين الديمقراطيين فذلك للقضاء على التعددية الأيديولوجية، وفي نفس الوقت نُفسِّر عدم إعلانه الحرب على الكنيسة بفقدانها منذ زمن بعيد نفوذها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعلى ما تقدم نجد هتلر تمكن في حقبته من حيازة قرار سيادي شميتي. لقد اعتقد هتلر أنه بالقضاء على التعددية، سيتخلص من مخاوفه من حرب أهلية أو اضطرابات واضرابات يقودها تحالف النقابة واليهود.

- لقد كان ليأس شميت المفكر العظيم أثر سلبي على العالم أجمع، ولهذا نحن بحاجة للتغلب على يأسنا لكي يتاح لنا بأن نكون لاسلطويين بالقدر الكافي للتغيير والتقدم نحو الأفضل.

- لقد أراد شميت للكيان السياسي قُدرة على الحسم مهولة بغض النظر عن مصادر ودوافع هذا الكيان النفسية. لقد رأى أنَّ الكيان السياسي بقدرة الحسم هذه سيكون موجودًا وبدونها لن يكون له وجود.

- لقد أثَّر مفهوم شميت ل"السياسة" وما زال للأسف إلى اليوم بشكل سلبي على الأقليات العرقية والدينية واللغوية وغيرها، وخصوصًا ممن تناولوا مفهومه من المحافظين الذين لا يتوقفون عن اتهام الأقليات بحيازة رغبات انفصالية لإسكاتهم أمام القرار السيادي وتبديد أي معارضة عليه حتى من تلك الفئات الأكثر تضررًا منه والتي غالبًا ما تصنَّف كأقليات.

- بل إنَّ بعض الليبراليين للأسف من تأثروا بهذا المفهوم، وأخذوا نتيجة هذا بالضغط على الأقليات لتقديم مزيد من التنازلات. ولهذا لا تزال الأقليات تحوز الحصة الأكبر من الضرر المتسبب به القرار السيادي وما زالت أيضًا تحوز الحصة الأصغر من عائد هذا القرار.

- ولهذا نجد الديمقراطية بسبب هذا المفهوم ما زالت تُشكِّل حجر عثرة أمام التوجهات الليبرالية.

- وبناءً على ما سبق، نجد أنَّ شميت لم يُرد للقرار السيادي أن يكون مرتهنًا بكنيسة أو اتحاد صناعي ما، أو خاضع لسيطرة عرق ما، ولكنه أراد له أن يكون مرتهنًا بمصالح وميول الفرد الحاكم وبذلك أراد سلطة مُطلقة بدلًا من سلطة مُحاصصة بين قوى مُختلفة.

- وهنا نتبين أنَّ شميت لم يلتفت إلى فعالية القرار السيادي لتركيزه على المرونة في اتخاذه. نعم، لقد ركَّز على ما تُسهم المرونة بتفاديه، بدون أن يُحيل أي اهتمام لعائد القرار بحد ذاته. وبهذا نجده غفل عن جانب أساسي من مهام السياسي وهو العائد من التصنيف السياسي، العائد من القرار السيادي، ذلك لانشغاله بمرونة اتخاذ القرار وعائدها.

- نعم، لقد التفت شميت لضرر عدم توفر المرونة، ولكنه غفل عن عائد التداول والتشاور في النفعية الاقتصادية للقرار السيادي والشرعية الدينية والأخلاقية له، وغفل عن أثر التعددية والعولمة على العالم أجمع.

- يقول شميت في كتابه مفهوم السياسي: "إذا سقط التمييز بين العدو والصديق من حيث هو إمكانية، فإننا سنكون عندئذ إزاء رؤية لاسياسية للعالم، فيه ثقافة وحضارة واقتصاد وأخلاق وقانون وفن ونقاش... إلخ، لكنه من دون سياسة ودولة. ليس لدي أدنى فكرة عن التوقيت الذي يمكن للعالم والبشرية فيه أن يصيرا على هذا الشكل، لكنه بكل الأحوال ليس متوفر حاليًا. ولعله من الخيال الخادع افتراض توفره ..." هنا يبدو شميت متشككًا ويائسًا وهذا سبب تطرفهِ.

- لقد غاب عن شميت أنَّ توفر مثل هذا العالم يتطلب سعي لإحلاله وليس تحوط بالسياسة إلى حين إحلاله، يتطلب من جميع الشعوب السعي لإنهاء وجود الدولة. لقد كان يائسًا من توفر القدرة لدى جميع الشعوب لإعلان مناهضتها للدولة وللتصنيف السياسي السلطوي، ولهذا وصف هذا التطلع والأمل ب"الخيال الخادع".

- لقد أدرك شميت أنَّ تلك الحروب التي تخوضها الدولة باسم البشرية هدفها ليس البشرية وإنما هي نتيجة رغبة لدى هذه الدول بالاستحواذ لنفسها على "مفهوم كوني تتماهى به" على حساب الآخر. لقد أدرك أنَّ الحرب بحجة ودافع "بشري" لها أهداف وأبعاد امبريالية، مستشهدًا هنا بمقوله المفكر اللاسلطوي برودون "مُخادع من يقول "بشرية""، ومؤكدًا على أنَّ كل من يحاول استخدام هذا الدافع في حربه، هدفه نزع صفة الإنسانية عن خصمه، هدفه تصوير الإنسان على أنه وحش.

- وبالرغم من ذلك كان مُستسلمًا ومؤيدًا لحرية الدولة باتخاذ قرار الحرب، نتيجة إيمانه بحتمية وقوعها، وهذا أيضًا يبرز مقدار اليأس الذي كان يستحوذ على روح شميت. نعم، لا يوجد أخطر من فرد أو مؤسسة أو كيان أو اتحاد يملك هذه العقلية الفذة التي يمتلكها شميت وفي ذات الوقت يتخبطه اليأس والإحباط.

- بالتأكيد، فالثورة التي دافعها اليأس من تحول لاسلطوي ثورة موغلة في تأييد السلطة ودعمها. لقد كان شميت مُدرك لضرر السلطة ولكنه نتيجة اليأس من إمكانية وجود فرصة لتحول لاسلطوي، تقبل ضررها.

- إنَّ تأثُّر شميت باللاسلطويين الكلاسيكيين أمثال برودون وباكونين وكروبوتكين، واضح جدًا وبارز في كتاباته، ولكن نظرًا لعصره المضطرب بالحروب الطاحنة والمتسبب بيأسه وإحباطه نجده فشل في أن يكون لاسلطويًا.

- نعم، شميت كان ضحية عصره المُضطرب، ولهذا علينا كلاسلطويين التغلب على اليأس الذي تحاول عصورنا المضطربة بثه في نفوسنا.

- إننا نعترف بأنَّ فهم كتابات شميت في سياقها التاريخي يجعلنا نتعاطف معه، يجعلنا نتفهَّم تطرفه، يجعلنا نُدرك خطر عصورنا المضطربة على معنوياتنا وتصوراتنا ومعتقداتنا وانتماءاتنا.

- يقول شميت في كتابه مفهوم السياسي: "ولما كان الأمر كذلك، فإنه لا يبقى سوى تلك الحقيقة اللافتة -والمُقلقة بالتأكيد-، أي أنَّ النظريات السياسية الحقيقية تفترض طبيعة شريرة للإنسان، بمعنى أنها تنظر إليه باعتباره كائنًا "ديناميكيًا" و "خطرًا"، وبكل الأحوال ليس ككائن غير إشكالي. يمكن بسهولة إثبات ذلك عند كل مفكر سياسي.". وهنا نستنتج من لفظة "مُقلقة" التي استخدمها، تعبير منه عن مقدار الخطر الذي يستشعره من هذا التوصيف البشع من الإنسان على الإنسان، ومن هنا كان مصدر احترامه للأناركيين واحتقاره لليسار واليمين.

- إنَّ اليمين الذي يحاول الاستشهاد بمخاوف شميت، شميت نفسه رافض لوجوده ولأفكاره (أقصد اليمين)، وإنَّ اليسار الذي يحاول أخذ المخاوف الأناركية على محمل الجد، الأناركية نفسها رافضة لأفكاره، وبالتالي كان شميت كالأناركيين لا يُشكِّل يسار ولا يمين.

- إننا كلاسلطويين نُحيل احترام لشميت على عدم تناقضه وصراحته في التعبير عن احترامه للأناركية التي يراها كند، أكثر من ذلك الاحترام الذي نحيله لليمين واليسار. إنه يقول بصراحة: "تنمو الراديكالية المُعادية للدولة بمقدار راديكالية الإيمان بخيرية الطبيعة الإنسانية."

- إنَّ تطرف شميت تقف راديكالية اللاسلطوي ندًا له. ولهذا كان الاحترام متبادل بين اللاسلطوي وشميت بالرغم من العداء الأيديولوجي الذي كان سينتفي في حال وجد ولو مقدار بسيط من الأمل لديه.

- في الختام، نجد أنَّ كل نظرية سياسية لها مرجعية أنثروبولوجية. ولهذا جميع النظريات السياسية يمكن امتحانها تبعًا لتوجهها الانثروبولوجي المقصود أو غير المقصود، وخصوصًا في قضية طبيعة الإنسان (خيرة/شريرة).

- ومن هنا نجد أنَّ الصراع بين النظريات السلطوية والأناركية ذو طبيعة انثروبولوجية في الأساس، وهذا ما شاركنا إياه شميت. فنجد أنَّ السلطوي لا يمكنه أن يكون متفائل انثروبولوجيًا في حين اللاسلطوي دائمًا متفائل.

- قد يعتقد البعض أننا بحاجة للتفاؤل للإيمان بخيرية الإنسان ولكن في الحقيقة نحن بحاجة للإيمان بخيرية الإنسان لا لنكون متفائلين فحسب بل لأنَّ هذه هي الحقيقة.

- حاول شميت بخبث تصوير الأناركيين على أنهم يذهبون في مُصادرة السؤال الانثروبولوجي إلى قلب العلاقة، أي للقول أنَّ الشرير هو من يعتبر الإنسان شرير، وهذا خاطئ تمامًا. إنَّ هذه السذاجة في الرد لا يقع فيها اللاسلطوي، لأنه يؤمن دائمًا بخيرية الإنسان، ويمتنع دائمًا عن إصدار أحكام مثل "مجرم"، "شرير" على البشر. حتى في العداوة لا يُصدر اللاسلطوي مثل هذه الأحكام التي تكفل تحوله ليكون سلطويًا. إنَّ اللاسلطوي يُريد إيقاف هذا الصراع الدائر في حلقة مُفرغة، هذا الصراع الذي يُقاوم فيه الإنسان السلطة بالسلطة.

- وعلى ما سبق نجد أنَّ السؤال الانثروبولوجي الأساسي الذي يُعتقد بأنه لا يسع أي نظرية سياسية تجنبه: ماذا يصنع الإنسان بحريته؟ يمكن تجنبه، حيث لا يحق لأحد أن ينطلق من تصوره لما سيفعله الناس بحريتهم لسلبها منهم. إنَّ ما سيفعله الناس بحريتهم هو شأن خاص بهم، فالحرية غاية بحد ذاتها لا تُعطِّلها النتائج المترتبة عليها والخيارات المتوفرة بها.

- وبناءً على جميع ما سبق استنتاجه، نجد أنَّ التطرف هو نتيجة اليأس من إمكانية انطلاق الحراك اللاسلطوي وتحقق أهدافه.

صديقك المحب

ف.د

12 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

المحاضرة الخامسة (الأخيرة)

الأسئلة وإجاباتها

السؤال الأول/ يسأل فوكو: "إذا لم تكن السلطة دومًا سوى سلطة قمعية، وإذا لم تفعل شيئًا آخر غير قول لا، فهل تعتقد بأنَّ الناس سيطيعونها؟" فما هي إجابتكم على هذا السؤال؟

- هل السلطة تتيح للناس إدراك أنها دومًا قمعية ولا تفعل شيء سوى قول "لا"؟ ألا تُشكِّل الثورات السلطوية في الأصل رفض للسلطة، ولكن بطريقة خاطئة؟

- السلطة تتناثر وتتوزع بطريقة غير منتظمة، لها القدرة على التحرك بشكل أعمق مما نتصور ونظن، ولها القدرة على التخفي في نقاط غير مرئية، مما يجعلنا في صراع مع عدو خبيث مرن قادر على التنقل بسرعة ومرونة، وعليه فلا يمكن حصرها في كيان معين تستقر فيه بلا حراك بحيث يمكن استهدافها بسهولة. وهذا ما يجعل معركتنا ضد السلطة جدًا معقدَّة، تنطلق من الفرد، بدايةً بتحصين نفسه من محاولات اختراقه وحماية نفسه من الرغبة فيها، أو من استخدامها كوسيلة. إنَّ التركيز اللاسلطوي على الدور الفردي كان انطلاقًا من مساعي السلطة لتهميشه بإدراجه ضمن الدور الجماعي الذي تختفي به شخصية الفرد ويصبح أكثر انقيادية وتبعية لرغبات وطلبات الجماعة.

- إنَّ الهرم الذي يتشكَّل بواسطة السلطة قائم في الأساس على تهميش دور الفرد. وبتهميش دور الفرد تتشكل جماعات تُحال لطبقات مختلفة داخل هذا الهرم السلطوي الذي تتفاوت طبقاته في القدرة على قول "لا" وفي الامتثال ل"لا".

- إنَّ هذا الهرم السلطوي يقف حائلًا أمام اعتراض الجميع ورفضهم، فمن نال فيه شرف الانتماء إلى الطبقات العليا سيكون راضي عن وضعه بخلاف أولئك الذين أُحيلوا ليشغلوا الطبقات القريبة من قاعدة الهرم. في كل طبقة سنجد رضى من قبل كثير من أعضائها على انتمائهم إليها لحيازتهم القدرة على قول "لا" لمن هم في الطبقات السفلى.

- ولهذا نجد أنَّ عضوية الطبقة تتغير بالثورات السلطوية.

- نستنتج، أنَّ هناك بالضرورة محاولات إحالة وإقصاء نسبي لأدوات السلطة عن طبقات هذه الهرمية، وبالتالي نجد بأنه ستكون هناك طبقة لن تتمكن من الحصول على أداة سلطوية، أي طبقة عاجزة عن قول "لا" في هذه الهرمية.

- وبهذا نجد أنَّ من يقول "لا" للسلطة ذلك الذي انتمى للطبقة التي في أسفل الهرم (في القاعدة)، وذلك اللاسلطوي الذي لا يريد أن تكون له سلطة على غيره أو سلطة من غيره عليه، أي ذلك الذي اختار ألا يقول "لا" سوى

ل"لا". فالأول به توجد الثورات السلطوية التي تُغيّر عضوية الانتماء لطبقة ما في هذه الهرمية السلطوية، والثاني به توجد الثورات اللاسلطوية الرافضة لوجود السلطة ككل ولهذا الهرم السلطوي المُتشكِّل بها.

- ولهذا نُلاحظ أنَّ تلك الحكومات الشمولية الدكتاتورية أكثر عجزًا من تلك الحكومات الديمقراطية في مكافحة الظلم الواقع على الأقليات، وفي مكافحة الظلم الواقع على الفئات التي درج تصنيفها على أنها الأضعف (كالأطفال، والنساء، والمرضى، والمراهقين ...إلخ)، لأنَّ محاولة تقييد الأغلبية وسلب قدرتها على قول "لا" -تلك القدرة التي تمنحهم مجال للتفريغ من "لا" طبقة أعلى- تسهم بتعظيم أعداد من لا يملكون القدرة على قول "لا"، أي تسهم بتعظيم حجم الجماعة التي نُفيت لقاعدة الهرم، وهذا ما تتخوف منه الطبقات في أعلى الهرم لأن هذا ما يُمهّد لثورات على التصنيف الهرمي، وبالتالي هو الذي يُشكِّل خطر على عضوية أعضاء الطبقات العليا، ولهذا نجد أعضاء الطبقات العليا يمنحون أعضاء الطبقات السفلى فرصة للتفريغ ووسيلة لتفادي الكبت. وعليه أيضًا نجد أنَّ الطبقات في أعلى الهرم السلطوي تستغل الطبقات السفلى لا في الامتثال ل"لا" فقط، بل أيضًا في امتثالها ل"لا".

- نعم، تهاون الحكومات الشمولية الدكتاتورية مع ظلم المرأة على سبيل المثال، أو مع ظلم الأقليات الدينية أو العرقية أو اللغوية، هو نتيجة رغبة بتوفير الحماية لأعضاء الطبقات العليا والإبقاء على عضويتهم، ولكن للنزاهة نقول بأن هذا لا يعني أنَّ الأقليات تحت حكم الحكومات الديمقراطية لا يعانون، ولا تنتهك حقوقهم.

- وعليه، نجد أنَّ التشكُّلات الهرمية التي تحتكر المقدرة الأكبر لقول "لا" لطبقة عليا، بدون أن تترك مقدرة لقول "لا" للطبقات السفلى، سريعًا ما تتطيح بها الثورات السلطوية.

- وقياسًا على ما سبق، نجد فوكو مخطئًا بالقول أنَّ السلطة مُتقبَّلة لأنها لا تثقل على الناس ب"لا"، ومخطئًا باعتقاده بأنها ليست سلبية على الدوام وبشكل مُطلق وبأن وظيفتها ليست في جميع الأحيان ممارسة قمعية.

- السلطة تقوم بتشكيل جسم اجتماعي مُهمِش للفرد بديلًا عن الجسم الاجتماعي الفطري الذي لا صراع فيه بين الفرد والجماعة، تقوم بتشكيل جسم اجتماعي ثقل وعبء "لا" فيه مُحاصصة على أعضاء طبقاته، ولهذا الصراع والحرب فيه دائمة ومستمرة. يقول إسحاق برلين: "لا وجود لعالم

اجتماع بدون خسارة"، ولكننا هنا نرد عليه بالقول: لا يوجد اجتماع سلطوي بدون خسارة، في حين هناك دائمًا اجتماع لاسلطوي لا خسارة فيه.

- ولهذا أردنا للجميع الانسحاب من هذا الصراع الطبقي في الهرم السلطوي، وذلك بتعزيز دور الفرد وحمايته وتفعيله باستمرار.

السؤال الثاني/ لمن ينتمي كل من الإبداع والابتكار، للسلطة أم للطبيعة الإنسانية؟

- تدفع الطبيعة الإنسانية نحو الإبداع والابتكار بهدف الانتصار والصمود في وجه الطبيعة الكونية، ولهذا نجد محاولات احتكار المُبدَع والمُبتكَر لطبقة غالبًا ما يكون ناجم عن اعتقاد مفاده أنه لا سبيل للصمود أمام الطبيعة الكونية -لقلة الموارد-، وإما أن يكون ناجم عن اعتقاد مفاده أنَّ مُكتسبات هذا الانتصار والصمود غير كافية وعاجزة عن تغطية الحاجات والمتطلبات للجميع، وبالتالي كان السعي لاحتكارها هدف، فشكَّل هذا إعاقة للإبداع والابتكار.

- وبالتالي الإبداع والابتكار سمة أساسية من سمات الطبيعة الإنسانية، وتراجعهما يكون حتمًا نتيجة وقوف في وجه الطبيعة الإنسانية، نتيجة وصف الحالة الطبيعية بأنها حالة توحُّش وعداء وبربرية وحرب.

- نحن البشر لدينا إمكانيات أكبر مما نعتقد، لدينا قدرة على الابتكار والابداع بشكل أسرع وأكثف وبشكل أكثر فعالية، لدينا قدرات هائلة، ولهذا تحاول السلطة دائمًا إبراز قدرتنا على الإبداع والابتكار في ظل مجتمع سلطوي على أنها قدرتنا القصوى، لكي تحيل هذه القدرة إلى وجودها، لكي لا يُشار إليها كعائق أمام ظهور قدرتنا الأكبر غير المُستغلة، لكي لا يُشار إليها كسبب في إهدار قدراتنا وكعائق أمام تفجر إمكانياتنا. نعم، السلطة تحاول رسم الحدود لإمكانياتنا وقدراتنا لكي تبرر قدراتنا وإمكانياتنا في ظل وجودها وانتشارها.

- جميع المجتمعات لديها القدرة على أن تكون مُنظَّمة ذاتيًا بدون سلطة تجبر الفرد على أن يكون ترسًا في آلة، وبالتالي جميع المجتمعات قادرة على منح الحرية لأفرادها في اختيار مساراتهم بدون قمع وإكراه، وبالتالي بالضرورة ستكون جميع المجتمعات مُنتجة مُبتكرة مُبدِعة، لديها القدرة على إشباع حاجاتها، والمساهمة في صناعة وكتابة تاريخ البشرية.

- وعليه الابتكار والإبداع وظيفتان تنتميان لوظائف الطبيعة الإنسانية، لا للوظائف السلطوية. ولهذا تقاوم السلطة الإبداع والابتكار بمقاومتها الطبيعة الإنسانية. وعليه نقول بأنَّ الإبداع والابتكار في ظل وجود نظام سلطوي يكونان نتيجة مقاومة الطبيعة الإنسانية للسلطة. نعم، هنا يكون ميل الإنسان للاستعانة بوسائل الطبيعة الإنسانية (التعاون والتكاثف والترابط) متفوق على قسر السلطة له على الاستعانة بوسائلها (الاعتداء والصراع). هنا لا نُريد أن يُفهم من كلامنا على انَّ وجود السلطة هو المُحفز للطبيعة البشرية على الإبداع والابتكار، بل نريد أن يُفهم بأنَّ السلطة هي التي تقف كعائق أمام انفجار أكبر للإمكانيات والقدرات البشرية.

- قد يعتقد البعض أنه بوجود بعض الدول التي ترعى إبداعًا وابتكارًا في نطاق ما أنَّ الطبيعة واقعة في فخ السلطة، أي أنَّ السلطة أخضعت الطبيعة الإنسانية ووظَّفتها لخدمتها، وهذا اعتقاد خاطئ بتصوري، فبرأيي السلطة هي الواقعة هنا في فخ الطبيعة الإنسانية، فالطبيعة الإنسانية جعلت السلطة بحاجة إلى الإبداع والابتكار لتوجيه العائد، وبالتالي تعاظم الحاجة يُسهم في تعاظم الخطر عليها، وبالتالي يهددها بالانقراض. نعم، فالسلطة لن تكون قادرة نتيجة حاجتها هذه على الوقوف في وجه الإبداع والابتكار اللذين يهددانها، وبالتالي لن تكون قادرة على الصمود أمام الانفجار الكبير للقدرات، لن تكون قادرة على الصمود أمام اعتياد الإنسان على عائد الابتكار والإبداع، لن تكون قادرة على دفعه لاستخدم وسائلها والرغبة بها. لربما الإنسان بالرغم من كل هذا الإبداع والابتكار التي تطورت بهما وسائل قمع السلطة، وتعززت بهما أدوات فتك الحروب التي تشعلها، قريب جدًا من إعلان لاسلطويته بعائد ذلك الابتكار والإبداع اللذين يهددان السلطة.

- السؤال الثالث: القسم الأول/ كلاسلطويين، هل نحن بحاجة إلى الإجماع على نموذج مثالي ينطلق جميعنا إليه بجهود موحَّدة، غير مُبعثرة في اتجاهات ومسارات مختلفة؟

- علينا كلاسلطويين في حراكنا اللاسلطوي تفادي المطالبة بنموذج اجتماعي مثالي وحيد متواكب مع قدراتنا الإنتاجية والإبداعية، علينا فتح المجال لكل فرد لخلق تصوره الخاص عن النموذج الاجتماعي المثالي الذي بالضرورة ستكون بعض من ملامحه مُرتسمة بالمبادئ اللاسلطوية الأساسية.

- هذا لنتمكن من إيجاد مساحة للاختلاف لا في مجتمعنا اللاسلطوي المأمول والمرغوب به فقط، بل أيضًا لنتمكن من إيجاد مساحة للاختلاف في حراكنا، ليُتاح لنا مساحة لمناورة الوسائل القمعية للسلطة، لنتمكن بواسطة هذا

الاختلاف في الحراك من الكشف عن جميع علاقات السلطة السياسية التي تسيطر على المجتمع والكشف بصورة أسرع وأأمن عن جميع الوسائل القمعية والتضليلية لها، ولتسليط الضوء على الفئات المقموعة والمُعنَّفة التي أُلزمت بالبقاء بالظل لضمان صورة ومظهر جميل وجذاب للدولة.

- نعم، نحن نمتنع عن طرح تصور للمجتمع اللاسلطوي يتجاوز تلك الملامح المستنبطة والمرسومة بالمبدأ والمعيار اللاسلطوي الأساسي، أي أننا لا نتجرأ على رسم تصور يحد من قدرة الأفراد على إعمال مُخيلتهم في تصور هذا المجتمع. تنوع التصورات يوجد حرية في السعي باتجاهات عديدة مختلفة. نعم، نحن كلاسلطويين نحاول الكشف عن الإمكانيات البشرية أكثر مما نحاول رسم تصور للمجتمع المأمول، فالكشف عن الإمكانيات يُحطم تلك الأوهام بالعجز ويوقف تأثير تلك الدعاية السلطوية التي تحاول الحط من القدرات التي يحوزها الإنسان.

- السؤال الثالث: القسم الثاني/ هل هذا إذن ينطبق على مشكلة الاستراتيجية؟

- بالتأكيد، جميعنا بشكل فردي أو جماعي ينبغي علينا أن نحفر أعمق في مشكلة الاستراتيجية لهذا التحول الاجتماعي، لهذه الثورة الاجتماعية، فحتمًا ستدفعنا المبادئ اللاسلطوية للالتقاء عند بعض المفترقات والتقاطعات. هذه المسارات المختلفة في الحفر ستوجد تنوع في وسيلة هذا التحول المأمول، وهذا التنوع سيوجد حرية ومرونة في التنقل بين الوسائل المتاحة للثورة وبالتالي ستتاح قدرة على المناورة أكبر.

السؤال الرابع/ ما هو أثر مرجعية هوبز؟

- لقد حاول البعض إلى الآن بمرجعية هوبز الخاطئة "حرب الجميع ضد الجميع"، بناء تصور يستطيع الفرد الانطلاق منه لا في قياس خطر الآخر -فهذا القياس غير مهم في ظل تصور يدفع باستمرار إلى استشعار أعظم خطر-، وإنما للانطلاق منه لخلق فعل الآخر -المُستهدَف ردعه قبل تشكُّله- بفعل المُتصوّر. إنَّ هذه المرجعية تسهم بتشكيل أفعال للجميع ضد الجميع، ولهذا كانت هذه المرجعية سببًا في دفع الجميع لصراع البحث عن السلطة. إنَّ هذه المرجعية تُسهم في خلق تصورات ليس هدفها التحوط بل هدفها خلق المزيد من الأعداء، وبالتالي تكبيد الإنسان المزيد من الهزائم. إنَّ ردود الأفعال مُتشكِّلة بهذه المرجعية لا من الفعل وإنما من التصور.

- حاول هوبز الانطلاق من هذه المرجعية في خلق مركز قادر على احتواء وتجميع القوة واحكار السلطة للقضاء على الحالة الطبيعية والتأسيس للحالة المدنية، وبالتالي كانت مُطالبة هوبز في إنهاء "حرب الجميع ضد الجميع" بهزيمة الجميع أمام المركز.

- نعم، هوبز لم ينطلق من تلك المرجعية ولم يؤسسها، إلا ليُكبّد الجميع الهزيمة،ولهذا كان ضد الديمقراطية وضد أي نظام حكم غير ملكي،فالنظام الديمقراطي بالنسبة له يُمثل حرب الجميع ضد الجميع. ولهذا السبب كان التوجه الديمقراطي في بريطانيا عاجز عن إزاحة النظام الملكي إلى الآن.

- الحالة الطبيعية حسب هوبز، حالة تُقدِّم درجة من التفاوت محدودة (في القوة أقصد) وهذا من وجهة نظره المتسبب بوجود استعداد للحرب لدى الجميع على الجميع، بينما الحالة المدنية من وجهة نظره فتطرح درجة من التفاوت كبيرة وبالتالي تسهم بوجود استعداد للحرب وإرادة للمواجهة لدى قلة، وبوجود حالة من الاستسلام لدى الأغلبية ومحاولة دائمة منها لتفادي الحرب. ولهذا نجد هوبز قام باستبدال الحرب التقليدية المادية في الحالة الطبيعية بالحرب النفسية في الحالة المدنية، استبدل الحرب التي تعتمد على القوةبالحرب التي تعتمد على مظهر القوة الأكثر بثًّا للرعب والأكثر إظهارًا للتفاوت، مظهر لا يحسن للآخر الاقتراب منه وزعزعة ثقة صاحبه به، مظهر يُعزز باستمرار استعداد صاحبه للحرب، ويعمل باستمرار على زعزعة ثقة الآخر بقوته وبالتالي تفاديه الحرب وخضوعه، مظهر يبرز بوقاحة الاختلاف والتفاوت، مظهر يبث الرعب والخوف والتردد والرغبة بالمهادنة والتنازل والتراجع، مظهر يبث القلق والخوف في نفس الآخر، مظهر يُعمَّق التفاوت بين الطبقات ويبرزها بوقاحة فجة.

- في الحرب البدائية هناك دائمًا معارك دموية ولكن في الحرب الحديثة المدنية هناك دائمًا حرب نفسية، هذا ما حاول هوبز إيصاله، فالحرب من وجهة نظره، بناءً على هذا التصور والتوجه، دائمة، لا سبيل لتفاديها وإيقافها، حتمية، فارضة وجودها بالقوة، ولهذا اختار لها شكل آخر، اختار الحرب النفسية بدلًا من الحرب الدموية. ولهذا نجد قراءة فوكو لهوبز خاطئة بقوله بأن الحرب البدائية عند هوبز ليس فيها معارك، ليس فيها دم وجثث.

- إنَّ عبارة "حرب الجميع ضد الجميع" في الحالة الطبيعية تُعبّر عن حالة التوحُّش المادي الجسدي، أما في الحالة المدنية فهي تُعبر عن حالة التوحش النفسي، وأيضًا على ما سبق نكتشف أنَّ حالة "حرب الجميع ضد الجميع" لا تنتهي بتأسيس الدولة واعتماد نظام الحكم الملكي،بل تستمر ولكن باختيار

العرش هو المنتصر الدائم في هذه الحرب، وهذا ما كان لعرش إنجلترا، بالرغم من تهاوي معظم العروش التي في مُحيطه الأوروبي.

- إنَّ مرجعية هوبز ساهمت إلى الآن باستمرار الحرب المادية والنفسية، وفي نفي الحالة الطبيعية التي تنتفي منها الحروب.

- لقد كان هوبز صادق في مسعاه الذي تمثَّل في خدمة البشرية، ولكن منطلقه كان للأسف خاطئ.

- كان على كل مُنظِّر سلطوي أن يؤمن بأن المجتمع واقع طبيعي وليس كيان صنعته إرادات أفراد وفقًا لعقد اجتماعي ما، لكي يتوقف عن إيمانه بالسلطة.

- لقد كان ادعاء البعض بأن الأفراد في الحالة الطبيعية لا يملكون تصور تام عن الحق، وبالتالي لا يملكون تصور للعدالة، محاولة منهم في الدفاع عن السلطة ومحاولة لتشريعها.

- إنَّ تصورنا للحالة الطبيعية محدود حتى في ظل دفاعنا عنها، للعديد من الأسباب التي منها التضليل السلطوي والدعاية السلطوية القوية، ومنها انطلاقنا للتصور من الحالة المدنية التي عايشناها والتي تُؤثِّر سلبًا على قدرتنا على التصور نتيجة عدم قدرتنا على التخلص من المخاوف التي تثيرها، ومنها مشكلة الثقة لدى الإنسان.

السؤال الخامس/ هل السيادة من أعلى أم من أسفل؟

- باعتقادنا في البداية أنَّ الفصل بين دلالة كل من مفهوم السيادة والهيمنة، هي محاولة لإخراج مفهوم السيادة من لاشرعيته، بتقديمه كمفهوم مغاير وفي أحيان مقابل لمفهوم الهيمنة الذي يُصنَّف كفعل غير شرعي، وأبرز من يحاول الفصل باعتقادنا بين المفهومين هو فوكو. وبالعودة إلى السؤال، نجد أنّ هناك جدل دائر منذ زمن بعيد لم يُحسم، يتمثل في منشأ السيادة، إذا كانت من أسفل أم من أعلى. نحن كلاسلطويين نتفادى المشاركة في هذا الجدل، ونعمل على تسفيهه. وذلك لأنه جدل ينطلق من الإيمان بأن وضعية أسفل وأعلى ضمن الحالة الطبيعية، أي أنَّ من ينتمون لأعلى أو لأسفل انتماؤهم طبيعي فطري، وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلًا. ومن هنا نسأل: كيف تكون السيادة من أعلى إذا لم يوجد في الأساس أسفل، أي كيف تكون من أسفل إذا لم يكن في الأساس هناك أعلى؟ وبهذا نجد أنَّ السيادة هي من أوجدتْ الأعلى والأسفل، ومحاولة الإشارة إلى أنَّ وجود السيادة لاحق

لوجود الأعلى والأسفل، هي محاولة لشرعنة السيادة، هي محاولة لإشغالنا عن الإشارة والبحث عن مصدرها. إنَّ محاولة الإشارة للسيادة من أعلى أو من أسفل تكون نتيجة تضليل بسبب الدعاية السلطوية.

- (السيادة← الحرب← أعلى وأسفل) من هنا نفهم أنَّ السيادة تنجم في ظل وضع الجميع متساويين فيه بالحقوق للانطلاق إلى وضع فيه أعلى وأسفل بواسطة الحرب التي ستستمر إلى أن يتوقف الجميع عن الرغبة بأدوار في أعلى وأسفل. إنَّ تحليل السلطة انطلاقًا من الفهم الخاطئ (أعلى وأسفل← الحرب← السيادة)، تسبب بفهم وتحليل خاطئ للسلطة.

- لقد افترض هوبز أنَّ وجود أعلى وأسفل طبيعي، ولهذا ذهب إلى أنَّ حالة الحرب طبيعية ولا سبيل لإيقافها، ولهذا قام باستبدال الحرب المادية (الجسدية الدموية) بالحرب النفسية، لكي يؤسس لوسيلة جديدة للسيادة، ولهذا كان الاستمرار والبناء على تقديم هوبز هو إقرار بأن وجود أعلى وأسفل طبيعي، أي إقرار بأن الحالة الطبيعية غير عادلة وفي الأساس لا وجود للمساواة والحق والعدالة فيها، ولا وجود فيها إلا للقوة الفطرية لا تلك القوة المتداولة لحائزيها -التي تكلم عنها ميكافيلي-.

السؤال السادس/ ينتقد ساندل ذهاب بعض الليبراليين لاحترام (بمعنى قبول وجود) المعتقدات الدينية بحكم أنها نتيجة خيار طوعي وحر، لا بحكم محتواها، فنجده يقول في كتابه الليبرالية وحدود العدالة: "إنَّ ما يجعل معتقدًا دينيًا آهلًا للاحترام ليس طريقة اكتسابه -بفعل الخيار، الوحي، الإقناع، أو العادة، إنما مكانته في الحياة الخيرة، والفضائل التي يسعى لتحقيقها، أو (من وجهة نظر سياسية) ميله إلى ترقية العادات والاستعدادات التي من شأنها خلق مواطنين صالحين". ما هو ردكم.؟

- انتقاده هذا يتسبب بعجزه عن تقديم إجابة شافية في حال سألنا عما يضمن حيادية منفذ المعيار وعدالته، وفي حال سألنا عن قدرة المنفذ على الاطلاع على كامل التصورات الدينية للخير ومنطلقات هذه التصورات، وفي حال سألنا عن قدرة المُنفِّذ على القياس النفعي الذي أثبتت التجربة عجز الإنسان عن استخدامه بدقة والتمسك حين استخدامه بمعيار وحيد والاهتداء عند استخدامه للقرار الصحيح.

- ولهذا نقول أنَّ الاحترام الليبرالي لا ينبغي أن يكون شخصي بل عام. الليبرالي الحق يرغب دائمًا بوجود عملية تخيير واسعة تحتوي جميع الخيارات لتتاح الحرية للفرد في التنقل بين خياراتها. المذهب الليبرالي

يختار الحياد كوظيفة للنظام السياسي، وهذه الوظيفة تضمن عدم وجود مركز، تضمن عدم حيازة أحد الفرصة لفرض خياراته وقناعاته وانتماءاته على الآخر بحكم أفضليتها بالنسبة له.

- وعليه، معايير أهلية الاحترام التي يحاول صياغتها المحافظون وبعض ممن يشيرون لأنفسهم كليبراليين، نرفضها جميعًا، لأنها تُكرّس لوجود المركز وبالتالي تكرس للاستعمال الخاطئ لها، تكرس لفرص يُتاح للمتطرفين استغلالها. ولهذا نجد ضرر الخيار المتاح في عملية التخيير قليل بدرجة تجعلنا نخجل من مقارنته بضرر عملية التخيير محدودة الخيارات، تلك المُستبعَد منها كثير من الخيارات لعجزها عن احتلال مكانة في الحياة الخيرة أو لتصنيفها على أنها ضارة أو من وجهة نظر سياسية لعجزها عن الإسهام بإيجاد مواطنين صالحين وطرح طرق عيش محل استحسان.

- إنَّ امبريالية الخيارات تكون بعملية التخيير المحدودة، وبالتالي تساهم هذه الامبريالية بالتمهيد لمعتقدات شمولية، ولهذا نجد أنَّ لا سبيل لإيقاف هذه الامبريالية إلا بإيقاف عملية التخيير المحدودة والعمل على توفير عملية تخيير واسعة مفتوحة للاحتواء، لأنَّ ضرر خياراتها بالتأكيد سينتفي بنفع وعقلانية الخيارات المتاحة المعروضة للجميع والمتاح الترويج لها للجميع.

- إنَّ ساندل يذهب للإيمان بالقياس النفعي الجمعي في حين نجده غير مؤمن ورافض للقياس النفعي الفردي، نجده لا يؤمن بالحكم الفردي وإنما بالحكم الجماعي على الفعل والمعتقد، وهذا ما يسهم بظلم الأقليات واضطهادها.

- وعليه، نستنتج أنّ الحياد الليبرالي يخدم الحرية الدينية دائمًا، ويجعلنا ندرك أنَّ الشروط أمام القبول تتيح الفرصة أمام المُشترط أو المُنفِّذ للشرط لاستخدام ميوله وتوجهاته في الرفض والحجب والقمع والحظر، وتجعلنا ندرك أنَّ القيمة النفعية دائمًا محل جدل ونزاع وخلاف واختلاف وبالتالي استخدامها في قبول الوجود أو رفضه يتسبب بصراع شرس واصطدام عنيف.

- وبناءً على ما سبق من نقد، نستطيع القول بأنَّ المقاربة الليبرالية للحقوق أكثر نفعية من المقاربة التي ترد الحقوق إلى نفعية غاياتها التي تخدمها لتبرير سلبها أو الحفاظ عليها.

- إنَّ غاية حقوقنا ليس من الضروري الالتفات إليها وإنما الضروري هو الحفاظ على الحقوق كغاية.

- لا ينبغي القبول بتعددية مقيدَّة محدودة، لأنَّ هذا القبول يُمهّد لأن تتصف هذه التعددية بالعقلانية، وبالتالي يصبح النفي والقمع والطرد والرفض وعدم القبول عقلي، أي تصبح كثير من المذاهب الفلسفية والدينية والعلمية عُرضة للاضطهاد والظلم والقمع، ولهذا نجد أنَّ لا سبيل آمن للبشرية سوى سبيل القبول بالتعددية المُطلقة، وبهذا تنتفي واقعة القمع التي يُدَّعى بأنها ضرورية في عملية التوحيد ويُدّعى بأنها تسهم بتسريع صدور القرار السيادي.

- إنَّ التعددية المُطلقة هي ملمح من ملامح الثقافة الليبرالية أما التعددية المُقيَّدة هي ملمح من ملامح الثقافة الديمقراطية

- يقول رولز في كتابه "العدالة كإنصاف/إعادة صياغة": "لنفترض أنَّ دينًا مُعينًا ذا مفهوم للخير مرتبط به لا يدوم إلا إذا سيطر على آلية الدولة، وكان قادر على ممارسة عدم التسامح بصورة فعالة: مثل هذا الدين لا يعود له وجود في مجتمع المذهب الليبرالي السياسي حسن التنظيم"، وعليه فرولز مهَّد بهذا النص -الذي حاول أن يُلطِّفه لاحقًا- للوقوف في وجه حرية المعتقد وذلك عن طريق منح هؤلاء المُعادين لدين ما فرصة لاتهام الأديان بعدم التسامح، لكي يقوموا بنفيها وحجبها وحظرها بحجة تعزيز الدعوات الانفصالية وتعزيز تدخلات رجال الدين في السياسة.

- بالتأكيد، غالبًا ما يكون اتهام دين ما بعدم التسامح انطلاقًا من كونه مَصْدَر للحكم بالصواب والخطأ على بعض الأفعال التي تحاول الدولة دعمها، وهذا يقودنا بالضرورة إلى كشف حقيقة عدم صحة ونزاهة ادعاء معظم الدول العلمانية حمايتها لحرية الاعتقاد.

- هناك بعض الطوائف الدينية أو الثقافية تحاول الانطواء والانزواء بأعضائها -وخصوصًا في مجال تربية الأطفال- عن ثقافة بقية أعضاء المجتمع، وخاصة أمام تلك الأفعال التي صُنِّفت كأخطاء من قبلها ولم تصنف كذلك وفق مدرسة الدولة ومناهجها التعليمية، بل صُنِّفت كحالة طبيعية أو كأفعال وتوجهات لا يمكن الحكم عليها، أي لا تخضع لهذا التصنيف. هذه الانطوائية نجد أنَّ كانط ومل ذهبا لشرعنتها وإقرارها بداعي أنَّ هذا يُعزز الاستقلالية والفردية ويحمي الخصوصية، ولكننا نجد بعض الليبراليين المعاصرين يتوجهون للوقوف في وجه هذه الانطوائية بحجة التسامح والقبول متناسين أنَّ التسامح والقبول يمكن أن يكون بدون الاطلاع والتعرف على اختلاف الآخر.

- حتى إنَّ تخوف البعض على حرية الانسحاب غير مُبَرر وغير منطقي، فحماية الاستقلالية والفردية للجماعات تسبقها حماية الاستقلال والفردية للأفراد، وبالتالي استقلالية الفرد وفردانيته توفران حرية الانسحاب وبالتالي لا خوف على هذه الحرية من إعطاء الحق بالانطواء والانزواء للجماعات.

- إنَّ الليبراليين والمحافظين المعاصرين يقفون في وجه أولئك الراغبين بالانسحاب من هذا العالم الحديث والاحتماء من ثقافته، وخصوصًا في وجه أولئك المنطلقين من دوافع دينية، وذلك بحجة أنَّ اهتمام الدولة بضمهم وتربيتهم يكمن في دورهم كمواطنين مستقلين. ولهذا نجد هنا تناقض، فبحجة استقلال الفرد نجدهم يعيقون استقلال الجماعة، أي بحجة الاستقلال نجدهم يقفون في وجه الاستقلال، وهذا ما تسبب بالكشف عن نية الدولة بإيجاد مجتمع الشفافية، ونيتها إلغاء المساحة الخاصة للفرد والجماعة.

- إنَّ حرية الفرد بالانسحاب تكون متاحة ومحمية بحرية الجماعة بالانسحاب وكذلك العكس، ولهذا كل تخوف على إحداهما من الأخرى ينطوي على نوايا خبيثة للدولة، وينطوي على نوايا سلطوية.

- إنَّ معرفة الفرد أنَّ انسحابه ليس بجريمة تكون في ظل مجتمع لا يصنف انسحاب الجماعة كجريمة، ولهذا تخوُّف ليبراليين أمثال رولز لا داعي له.

- المشكلة تكمن في اعتقاد كثيرين أنّ القبول يحتاج لمعرفة وجود، ولهذا يذهبون إلى ممارسة سلطة تساعدهم بفرض معرفة وجود اختلاف ما، وهذا باعتقادنا ساهم بوجود خلاف كبير بين المحافظين والليبراليين السلطويين.

- إننا نختلف مع من يذهبون لفرض معرفة باختلاف ما -وخصوصًا مع الليبراليين السلطويين-، لأننا نرى أنَّ القبول لا يشترط معرفة بوجود هذا الاختلاف مُسبقًا. ولهذا نرى أنَّ الحق بالانطواء -على سبيل المثال نتيجة معتقدات دينية ما- ينبغي حمايته وصونه، مع التأكيد هنا على ضرورة ذهاب أصحاب هذه الانطوائية للفت نظر أعضائهم على أهمية الاختلاف وضرورة القبول بالآخر، لكي يتاح مجتمع قادر الجميع فيه على احترام توجهات الآخر حتى في حال عدم معرفتها والاطلاع عليها.

- إنَّ رفض الوجود لا يأتي من الجهل بوجود الآخر المختلف بل لوجود السلطة ونتيجة لضغطها.

- إننا نرفض فكرة مجتمع مُوحَّد من منطلق عقائد دينية أو فلسفية شمولية، وبالتالي نقبل فقط بفكرة مجتمع موحد من منطلق إيمان بضرورة التنوع، وإيمان بسياسة القبول، وإيمان بأهمية التسامح.

- ولهذا باعتقادنا لقد أخطأ كل من الغرب والشرق في التعامل مع الشاذ، ففي الشرق تم تصنيفه على أنه كافر، وفي الغرب تم الإشارة لشذوذه كحالة طبيعية، وبهذا كانت السياسة مُهملة لوظيفتها المُكلَّفة بها من قبل الليبرالية (أقصد الحياد). فالشرق استخدم الدين وسيلة للهجوم، والغرب استخدم من عدم حيادية السياسة وسيلة للدفاع عن الشاذ وبالتالي هاجم غير الشاذ بالوقوف كحجر عثرة أمام حُكمه وبالذهاب لتشويه مصادر صوابه. ولهذا نجد أنَّ الشذوذ في جميع التوجهات لا ينبغي للنظام السياسي إصدار حكم عليه حتى لو كانت الغاية من ذلك توفير الحماية.

- حاول فوكو تقديم آنية الاقتطاعات السلطوية والمعرفية وتحديد علاقات السلطة-المعرفة "كقوالب للتحولات" بدلًا من تحديد البعض لها كأشكل مُعطاة للتقسيم، كدليل على عدم صوابية انتظار حكم على توجه ما ممن يشغلون سلطة ما أو ممن يحوزون معرفة ما، وعلى عدم صوابية اصدار حكم على توجهات من لا يمارسون سلطة ولا يملكون معرفة. رأينا كلاسلطويين فيمن يحوز السلطة واضح، ولهذا سنكتفي بتقديم رأينا فيمن يحوزون المعرفة. إننا نجد أنَّ لهم الحق في اصدار الأحكام ولكن لا يحق لهم قسر الفرد على تغيير توجهاته مهما كانت حججهم مُقنِعة. لقد استخدم فوكو حجة التنقل بين طبقات هرمية السلطة والمعرفة وعدم الثبات والاستقرار كدليل على الحاجة إلى عدم إصدار الأحكام في الشذوذ (وخاصة الجنسانية)، وعليه نجد فوكو هنا يحارب حرية إبداء الرأي بدلًا من شن الحرب على السلطة، لأنه يؤمن بحتمية السلطة وأبديتها وبعجز البشر عن التخلص منها والاستغناء عنها.

- لقد رأى فوكو أنَّ السبيل الوحيد لتخفيف ضرر السلطة هو اعتراض حرية إبداء الرأي وذلك بمحاربة مصادر الصواب والخطأ للفرد. نعترف بانَّ فوكو تمكَّن بهذا التوجه من انتزاع انتصار لبعض الأقليات وذلك بإيقاف الدساتير والقوانين في الدولة عن إصدار حكم في الشذود (وخاصة في الجنسانية وميادينها)، ولكنه للأسف أحلَّ ضرر كبير يتمثل بتمادي الدساتير والقوانين إلى حد منع الأفراد والجماعات من إبداء أراءهم والتمسك بمعتقداتهم وإصدار أحكامهم، والنتيجة من وراء كل هذا الوقوف في وجه

حرية المُعتقد الذي يُمثل مصدر لتحديد ما هو صائب وما هو خاطئ، وبذلك تسبب بوجود صراع جديد أشد شراسة وضراوة.

- لا ينبغي لهدفنا في تكريس ثقافة تقبل الاختلاف وإحلال التنوع وحماية حرية التنقل بين الخيارات، أن يكون مبرر للاعتداء على تملكات المعرفة، أو سببًا ومبررًا في الاعتداء على معتقدات ومنطلقات الرجال والراشدين والآباء والأطباء، مبرر لإلجام أفواههم ودافع لنزع حريتهم في التعبير وإبداء آرائهم في بعض توجهات النساء والقُصَّر والأطفال والمرضى (مع تأكيدنا على رفضنا لهذا التقسيم الطبقي الذي قدَّمه فوكو بهدف الشرح).

- إنَّ الإشارة للجنس أو الفئة العمرية أو الحالة العقلية والصحية أو إلى الانتماء الطبقي أو العددي (أقلية/أكثرية)، غالبًا ما كان هدفه استبدال وتهميش الإشارة للإنسان كفرد أو كجوهر لتبرير الهجوم عليه والتعدي على حقوقه، أي محاولة لإقصائه، وهذا ما أجج معارك وحروب شرسة مُطالَبة المقهورين فيها بإسقاط الثنائية أي إسقاط مفهوم كل من "الأنثى والذكر، المريض والمُعافى، الراشد والقاصر ...إلخ" هدفه إسقاط الدور الذي يُمثله ويحتكره القطب الآخر والذي يتمثل في الهيمنة والرفض والقمع وسلب الحريات، ومع أننا نجد لهذا التوجه مبرره التاريخي إلا أننا نرفضه للضرر الكبير المتسبب به للمهاجم والمدافع، ومع ذلك نذهب للاعتقاد بأن هذه المطالب هي في الأساس هدفها لاسلطوي، وهي تمثل تجسيد للحراك السلطوي الناجح في أحيان والفاشل في أحيان أخرى.

- كثير من الممارسات الشاذة غير الصائبة خرجت من تصنيفها المرضي بتمرد أصحابها الذي ساهمت فيه بعض السياسات، فنجد أنَّ مطالبة أصحاب هذه الممارسات بالإشارة إلى شذوذها كحالة طبيعية فطرية، كان بهدف التخلص من الإحالة الإلزامية للعلاج، هدفه التخلص من لاشرعية التوجيه القسري، هدفه حرية الاختيار.

- صحيح أنَّ هذا التوجه قدَّم للشواذ مُكتسبات كبيرة، ولكن في ذات الوقت اغتالهم وباغتهم بخسائر كبيرة أهمها صعوبة الرجوع عن الفعل في حالة إعادة التقييم نتيجة التكاليف الباهظة للحرب، وصعوبة الرجوع نتيجة تصور التوجه الشاذ كحالة طبيعية فطرية.

- إنَّ استعانة الشاذ بتصور لمنطلقه لا يمكن الرجوع عنه والانعتاق منه (أي أقصد تصور الفعل الشاذ كحالة طبيعية وفطرية)، تُحقِّق له مكاسب كبيرة من الآخر، ولكن تباغته بخسائر خطيرة مصدرها شخصيته، من هذه

الخسائر وضعه الحدود لنفسه، الحدود لفعله، الحدود لخياره، الحدود لقدرته، الحدود لفكره، أي أنَّ خيار الانعتاق من ملازمة الفعل للشخصية تُصبح تكلفته باهظة، وبالتالي تنجم عن صعوبة الانعتاق إيغال في الفعل وتمسك به ودوافع لتزوير قناعة إيجابية عنه لخداع النفس أنه خيار شخصي.

- لقد حاول كثير من المفكرين ومنهم فوكو إحالة ما تم تصنيفه تاريخيًا كرسم طبيعي فطري للميول الجنسية إلى توجه سلطوي لإتاحة المجال لما تم تصنيفه كرسم غير طبيعي للميول الجنسية للوجود بدون مقاومة واعتراض وقمع وترهيب، أي حاولوا إبطال إمكانية الحكم على التوجه الجنسي للفرد بالصواب والخطأ، وذلك بهدف إتاحة نشر ثقافة تقبل الاختلاف في المجتمع، ولكن هذا التوجه تسبب لهم بالضرورة بالمطالبة بالقضاء على الانتماء الديني والثقافي والقانوني، أي القضاء على مصادر الصواب والخطأ للأفراد، القضاء على مصادر التصنيف.

- لقد وضعوا القيود على معتقدات وآراء الفرد وذلك بوصفه بالجهل والعجز عن إصدار أحكام عادلة ومنصفة وصائبة ودقيقة لكي يُحيلوه إلى تفادي إصدار الحكم بالصواب والخطأ كحل، وبهذا لم يستطيعوا تفادي هجومهم العنيف على حرية المعتقد أي على مصادر الصواب والخطأ للفرد على الرغم من ادعائهم بتوفير الحماية لهذه الحرية.

- نعترف بأنَّ هذا التوجه ساهم في عدم استغلال مصادر الصواب والخطأ لتبرير وجود أفعال وتبرير محاربة ومكافحة أخرى بعنف، ولكنه ترك الفرد بدون مصدر للصواب والخطأ، وبهذا أوجد صراع جديد بين الأفراد وهو صراع بين المُتمسكين بمصادر الصواب والخطأ وبين الرافضين لهذا التمسك لإيجاد مساحة للاختلاف والتقبل.

- إنهم بتوجههم هذا، لم يكتفوا بالمطالبة بتقبل الاختلاف بل ذهبوا إلى المطالبة بعدم الحكم على الاختلاف، وبالتالي هم لم يوقفوا الاعتداء من طرف على الطرف الآخر، بل حوَّلوا الطرف المعتدَى عليه ليكون مُعتدِي.

- نعم، لقد كانت محاولة المطالبة بعدم إصدار وتبني حكم على اختلاف الآخر محاولة هدفها الاعتراض على وجود مصادر الحكم بالصواب والخطأ، وبالتالي إعاقة لحرية المُعتقد والتوجه وإعاقة لحرية إبداء الرأي.

- لا أحد يُنكر أنَّ كثير من الذين أصدروا الأحكام على اختلاف الآخر تقدموا بعدها للاعتداء عليه ونفيه وتعنيفه ووصفه بالجنون والمرض والكفر

والفسق والتمرد وغيرها من الأوصاف الجارحة، والتي قد تمهد للعنف وإيقاع الأذى، ولكن باعتقادنا لا ينبغي لإيقاف الاعتداء منح الآخر فرصة للاعتداء، أي لا ينبغي إيقاف الخطأ بخطأ، لأنَّ هذه المحاولة تُمثِّل استمرار بالسياسة الخاطئة لا سعي لإيقافها.

السؤال السابع/ ما هي الإسهامات التي تتوقعونها من الأديان في ظل مجتمع لاسلطوي؟

- باعتقادنا تُسهم الأديان بتشكيل عائق أمام سعي الاقتصاد الرأسمالي لإيجاد مجتمع الشفافية للإسهام بفرط النشاط، وفرط الإنتاج، وفرط الاستهلاك. إنَّ تلك الحدود الدينية تقف عائق أمام تشكُّل مجتمع الشفافية الهادف لمحو المسافات، وبالتالي الأديان توجد سردية تجعل الزمن مليئًا بالوقت. إنَّ الأديان تقف عائق أمام محاولة تعرية المشاعر والأحاسيس والشهوات والرغبات والأجساد والصور، وبالتالي تُشكِّل حماية للأفراد من الاستغلال الهادف لزيادة الاستهلاك وجعله مواكبًا للإنتاج المفرط الهادف لتعظيم الأرباح.

- وأيضًا هنا يُشكِّل المجتمع اللاسلطوي بتبديده لسلطة الحاجة عائقًا أمام تشكُّل مجتمع الشفافية الذي يحاول على الدوام استغلال حاجة الإنسان ومساومته على إشباعها بمطاليته بالعري والاستغناء عن قيمه ومعتقداته وموروثاته الحضارية التي تُشكِّل له مساحته الخاصة، ووقته الخاص، ذلك الوقت الذي ينصرف فيه للتأمل أو لاستجداء ربه وشكره وحمده، أو للتفكير والتعمق في ذاته ووجوده.

- وعليه، فالدين والمجتمع اللاسلطوي يسهمان بحماية الطابع الفردي للإنسان، بحمايته من الظروف التي تدفعه للإيغال والإفراط في الطلب والعرض، وبالتالي يدفعانه ليكون وسطي معتدل، متلذذ باللذة المُتحصل عليها، مستفيد من المعرفة التي سعى لها، متمعن ومتأمل بنعم مدركاته.

- نعم، تسهم الأديان والمجتمع اللاسلطوي بحيازة الزمن للوقت، تسهم بمنح القدرة للفرد على التوقف والتأمل، تسهم بنزع إحساس الفرد بالفراغ والعبثية واللاجدوى، تسهم بمنح القيمة للموجودات، تسهم باسترجاع الآلات الموسيقية لألحانها والحدائق لأشجارها وأزهارها والسماء لزرقتها وصفائها، والأفق لامتداده، تسهم بمنح العيون نظرتها والعقول بصيرتها، تسهم بمنح البُعد والقرب المسافة المتفاوتة، بمنح الخفاء حيازته.

- وأيضًا تقف الأديان بوجه الدعاية التي تروّج لبعد الموت أو تسهم بعدم الالتفات إليه لنثر الفرد على عدد من المهام التي لا طاقة له على إنجازها، وبالتالي إبقائه بدون وجهة وهدف وعمل وحماس وأمل. نعم، إنها تسهم بالوقوف في وجه هذه الدعاية التي هدفها تأجيل الفرد لمهامه التي يعاني من استمرار الفشل بإنجازها واستمرار التعثر، لتصرفه للتفرغ للاستهلاك والعرض والكشف وبالتالي إفراغه ليصبح أسيرًا لنرجسيته.

- إنَّ الإحساس بقرب الموت يصرف الإنسان لاستشعار وجوده وللعمل ولتحمل تبعات التعثر والسقوط في محاولات إنجاز العمل الذي وجد له، والذي لا ينطلق إليه لينزع اعتراف الآخر به. إنَّ طاقة الفرد على التحمُّل معدومة بتصديقه لهذه الدعاية، ولهذا نجده يهرب من موقع الفعل ليصبح في موقع المفعول به، أي أسيرًا للرغبة والشهوة التي يستشعر بها الراحة الجسدية لا النفسية، لاهثًا وراء اللذة والمتعة.

- وأيضًا نعتقد أنَّ نجاح الأديان في تشكيل هم كبير للإنسان، يُسهم بنزعه من الانشغال طويلًا بهمومه الدنيوية مهما عظمت والتي قد تشعره بعبثية وجوده، فالهم الأخروي أي الانشغال بالإفلات من الجحيم الذي تم تصويره بشكل مرعب، أحد أهم وسائل إراحة الإنسان من عتاب نفسه على قراراته وأخطائه في أموره الدنيوية، وأحد أهم وسائل الإفلات من قدرة الهموم الحياتية على انتزاع الفرد من منطلقه ودفعه للبؤس الذي يحاول إقناعه بالانتحار.

- إنَّ الهم الأخروي هو وسيلة لمواصلة المسير. إنَّ هذا الهم يمنح راحة مرهقة وإرهاق مُريح. وعليه فالتصوير الديني الذي يستهدف بث الخوف في النفس الإنسانية، لا يكون دافعه المنع والإبعاد والخطر، بقدر ما يكون دافعه التشجيع على مواصلة المسير وتبديد كل ما يُرغِّب بخيار عدم المواصلة الذي في الحقيقة له جاذبية كبيرة.

- إنَّ الانشغال بما هو ليس دنيوي عن ما هو دنيوي في الحقيقة يهوّن على الإنسان جميع العقبات الدنيوية ويهوّن عليه نقصه، ويهوّن عليه عيوبه، ويهوّن عليه عدم كمال دنياه وبشاعة واقعه، ولهذا يُسهم في إطفاء بعض مستقبلات البؤس والألم والقلق والقهر والارتباك والوحدة والخوف، والتي جميعها قادرة على منح الفرد بؤس وألم وقلق لم يُخصص له كإنسان، والتي بالضرورة ستجعله عاجز عن الصمود والمقاومة. نعم، لقد منحت الأديان وسيلة للإنسان تحفظه من الانقراض.

- تهوْن على الإنسان جميع مصائبه الدنيوية مهما عظمت في ظل مصائب الحياة الآخرة. ولهذا الأديان تمنح الشعور بالسعادة للفرد، فالانشغال بما هو ليس دنيوي يمنح ما هو دنيوي نطاق يتسع للسعادة والطمأنينة وراحة البال، فاستنزاف مشاعر السلبية بما هو ورائي يمنح ما هو ظاهر نطاق أوسع لاستنزاف مشاعرنا الإيجابية فيه. إنّ ما هو ميتافيزيقي يميل إلى تحرير الناس من أعباء حياتهم وضغط مسؤولياتهم ومن الأحزان والبؤس الذي يبثه فشلهم.

- إنَّ العقاب الأخروي والرهبة التي يبثها في النفس، يمنح الحياة الدنيوية الفرصة ليحوز فيها الإنسان السعادة بغض النظر إذا كان فيها يتلذذ أو يتألم، لأنه يُفرّغ مشاعر الإنسان المُستنزفة له في حياته الدنيوية في نطاق تكون هذه المشاعر عاجزة عن استنزافه فيه. إنَّ العقاب الأخروي يمنح الإنسان الطمأنينة أكثر مما يمنحه الخوف، ويمنحه السعادة أكثر مما يمنحه الحزن، ويمنحه الهدوء أكثر مما يمنحه القلق، ويمنحه السلام أكثر مما يمنحه الحرب.

- لقد آن لنا أن نصدر أحكام حيادية، لا لكي ننتصر للأديان بل لكي ينتصر الإنسان بها. لقد آن الأوان لإيقاف الدعاية السلبية غير النزيهة التي تهدف لتشويه الأديان. لقد آن الأوان لتعود الأديان فاعلة في حياتنا.

- نعم، لا يمكن لحيادنا إلا أن يصدر حكم حسنًا في الأديان.

- في مجتمع ليبرالي ينبغي أن يكون هناك قبول بوجود مذاهب شاملة ولكن ينبغي أن يكون أيضًا هناك رفض من الجميع لطموح أصحاب هذه المذاهب إلى بناء تصور سياسي للعدالة مُرتكز على الصواب الذي تُحدده وفقًا لمبادئها التي لا يقبلها إلا الذين يُدينون بها.

- هنا ينبغي الإشارة لمشكلة قد تكون خطيرة. إنّ التوافق الغالب للتعاليم الدينية مع التعاليم الداخلية للفرد، في أحيان كثيرة يكون سببًا في اتكالية الأفراد على ما هو ديني لتشكيل ما هو مُقدس لديهم، وبهذا يكون للقداسة عرش في قلب كل إنسان ساهم في بنائه عامل خارجي، قد يتعارض في بعض الأحيان مع عرش القداسة الفطري.

- بالتأكيد، فثقة الناس بأديانها للتوافق الذي تحدثنا عنه، ساهم في استغلال هذه الثقة لتمرير تعاليم أُلبست ثوب ديني وتمثلت بطابع ديني لضمان تمريرها بدون فحص وتمحيص ونقد واعتراض. لقد نجا المؤمنون الأوائل

بالأديان من هذا التضليل وهذا الاستغلال لأنهم أعملوا النقد واستخدموا الاعتراض والرفض كوسيلة للحصول على مزيد من التوضيح والإبانة، فكانت التعاليم الدينية المتوافقة مع تعاليمهم الداخلية هي وحدها التي تمر.

- ولهذا باعتقادنا لا ينبغي محاربة الثقة التي حازتها الأديان بل محاربة توارث هذه الثقة، أي محاربة عدم السعي في منحها بشكل مستقل، ومحاربة الخمول والتقاعس الذي ينجم عنهما الأخذ الأعمى، ومحاربة الاتكالية عن طريق توفير أنظمة تعليمية جيدة وأنظمة بحثية ذات كفاءة وفعالية عالية، وحوارات ونقاشات للمتحاورين فيها كل الشجاعة والحماية في النقد والحوار والسؤال.

- إنَّ استغلال البوابة الدينية المفتوحة دائمًا لتمرير ما هو ليس ديني، يستدعي وجوب إغلاقها لكي تكون الإجابة المُقنِعة بعد الطرق هي مفتاح البوابة، وعلى رجال الدين عدم التخوف من هذا الطرح، لأنَّ تخوفهم واعتراضهم يُشكك في نزاهة توجهاتهم الدينية وصحة أديانهم وعقلانيتها. لقد أصبحت الأديان غريبة لكثرة ما يتم إلباسه الثوب الديني وإخفاءه بالطابع الديني.

- يجب علينا التوقف عن منح ثقتنا للتعاليم الصادرة عن رجال الدين قبل الفحص وتمحيص وتدقيق، لكي نضمن تبني ما هو مُقدَّس ليس مخالف لما هو مقدس في الحقيقة، لكي نتوقف عن التصرف ضد ضمائرنا بضمائرنا، لكي نتوقف عن محاربة عقولنا بجهلنا.

- إنَّ خطر التصرف ضد الضمير بالضمير أشد فتكًا من خطر التصرف ضد الضمير بغيره، فالندم يخنقنا بالثاني ويدفعنا للتراجع ولكن بالأول الندم بالكاد يكون مُستشعَر وبالتالي التراجع يكون صعب للغاية.

- وبناءً على ما سبق، نجد أنَّ النضال ضد الدكتاتورية الدينية للأسف، لم يمهد لزوال الدكتاتورية بل مهَّد لصعود الدكتاتورية العلمانية.

- إنَّ تطرف بعض العلمانيين الحائزين على السلطة، تسبب باتصاف كل ما هو ديني بالرجعية، بهدف القضاء على كل منافسة دينية على حيازة السلطة. وبهذا نجد أنَّ السلطة هي المُشكِلة وليس شاغلها سواء كان علماني أو ديني.

- إنّ دكتاتورية العلماني برَّأت الدين من التهم الموجَّهة إليه، ولكنها لم تبرء من قاموا باستغلاله.

السؤال الثامن/ ما هي خطورة العوائد الإمبريالية؟ وما أثر هذه العوائد على الحراك اللاسلطوي؟

- لم يعد الصراع بين قطبين لدوافع احتكارية يُرضي غرور المتابع، ولم يعد يكفيه الميل لأحد الأقطاب مُشجعًا ومتابعًا وداعمًا، لقد بدأ المتابع بإعلان نفسه قطب، أي إعلان نفسه فاعلًا مُتجرّدًا من ثوب المؤيد والمعارض والتابع لأحد الأقطاب. إنَّ هذا التحول سيفرض واقع جديد، والأحداث المُعاصرة بمثابة ارهاصات لتغيرات جذرية ستحمل نتائج مؤلمة للبعض ولذيذة للبعض الآخر. إنَّ النظام العالمي المعاصر لم يعد ممكنًا فيه التوفيق بين المحتكرين.

- نحن أمام امبريالية تتخذ شكلًا أو بالأحرى أشكالًا جديدة، بعد استنفاذ العوائد من الأشكال القديمة، امبريالية يقل فيها أو يكاد لا يكون التنسيق والتوافق بين المتنافسين، امبريالية تتضارب فيها المصالح بين الامبرياليين وتتفكك العلاقات التاريخية. السؤال هنا: هل يحمل المستقبل تصادم عنيف بين الامبرياليين يحصد فيه الجميع الخراب والدمار والهلاك، أم ستكون عملية المحاصصة للأسواق العالمية سلمية وتترك عادتها العنيفة؟

- إنَّ الدول الامبريالية أوصلت شعوبها إلى درجة من الرفاه والرخاء شكَّلت به ضغطًا كبيرًا على الأحزاب الحاكمة والمناصب صاحبة القرار للمحافظة عليها إذا لم يكن بالإمكان زيادتها وتعظيمها، ولتجنب سخط الشعوب تلجأ الدول الامبريالية إلى الاستعانة بوسائل ضغطها على خصومها الامبرياليين، أو على حصصها الامبريالية، وهذا تسبب في زيادة العداء بين الامبرياليين. في حين نجد بعض الدول الامبريالية في ظل العجز عن التوسع الامبريالي وفي ظل مطالب شعوبها بالمزيد، تلجأ إلى استخدام وسائل أكثر عنفًا وتشريع قوانين أكثر تقييدًا للسيطرة على شعوبها، وهذا بالتأكيد يتسبب في تحوُّل هذه الدول الديمقراطية إلى دولة دكتاتورية. نعم، إنَّ معظم ديمقراطيات عصرنا محمية بالعوائد الامبريالية. إنَّ صعود اليمين المتطرف في الوقت الحالي هو دليل على تراجع العوائد الامبريالية.

- وعليه، فالشعوب مُخيَّرة في ظل الدول الديمقراطية الامبريالية التي تراجعت قدرتها الامبريالية وعوائدها بالقبول بدرجة رفاه ورخاء أقل أو بعودة الحكم الدكتاتوري.

- ولهذا نجد الامبرياليات التي تعجز عن تكييف شعوبها على درجة من الرخاء أقل هي الامبرياليات التي ستكون الأكثر ترنحًا والأقل صمودًا.

- الازدياد المستمر في صعود الامبرياليات، يُحتِّم إيجاد وخلق مزيد من التقسيم عن طريق إذكاء حدة التناقضات الداخلية للدول. وإنَّ تقلص الحصص الامبريالية سيخلق واقع فيه استغلال واستنفاذ حاد وسريع لثروات هذه الحصص مما يقودها إلى مزيد من الفقر والتخلف، وهذا سيجعل الامبرياليات تبحث عن حصص جديدة لتتصادم مع بعضها البعض، ليقود هذا التصادم لصراع عسكري سيمهد لسقوط امبرياليات وصعود أخرى يسهم بوجود عملية محاصصة جديدة.

- إنَّ الأمل بانتقال سلمي توافقي في توزيع الحصص الامبريالية بين القوى الامبريالية ضعيف جدًا، ولكن الأمل معدوم في وجود ظروف تكفل وجود توافق لآجال طويلة. فوجود ما لا يضمن عدم تغير موازين القوى هو وجود ما لا يضمن التوافق على التفاهمات القديمة في التقسيم والمحاصصة والاستحواذ، وبالتالي الانجرار إلى سلسلة من المشاحنات والاستفزازات والاحتكاكات والتي ستتخذ طابعًا أكثر حدة وعنفًا وهمجية يتناسب مع القوة الجديدة المملوكة والحقد المتراكم من سنين التوزيع غير العادل.

- علينا نحن البشر أن ندرك أنه كلما تعاظمت الحاجة تعاظمت تهديدات البقاء، وطلب القوة هو ما يُعظِّم الحاجة. عالم الحيوان أكبر مثال حي لنا، ففيه كلما تعاظمت حاجة الحيوان أصبح أكثر تطلبًا للغذاء، وكلما أصبح أكثر تطلبًا للغذاء زادت فرص عدم توفره وبالتالي ارتفعت نسبة الخطر الذي يتهدد. نجد أنه كلما كانت الحاجة أكبر كانت النهاية أسرع، ولهذا نجد الحيوانات آكلة اللحوم مهما تعاظمت قدرتها على الافتراس إلا أن مطاردة الفناء لها أسرع وخطر الانقراض أكبر، فعظم الحاجة أيضًا يولد دافع للتهور وعدم التحوط ولهذا يتعاظم الخطر. ولهذا نجد الحيوانات النباتية لديها قدرة على البقاء أكبر لوفرة الغذاء، ولهذا أيضًا نجد الحيوانات النباتية الضخمة أيضًا أكثر عرضة للانقراض وذلك أيضًا لعظم حاجتها. هذا ما علَّمنا إياه علماء كلمارك وداروِن وسبنسر وغيرهم. لو سعينا لنكون عادلين بقدر ما سعينا لنكون أقوياء، لكانت القوة ترف لا حاجة للإنسان به.

- إنَّ القوة ليست هي التي تكفل البقاء إلا إذا حصرنا مفهوم القوة في قلة الحاجة. ولهذا طلب القوة لا يجب أن يكون إلا لتقليل تعاظم الحاجة وتقليل إلحاحها، وتعظيم التأقلم في الظروف التي لا تكفل توفر ما يشبعها.

- ولكن علينا أن ندرك أنَّ مفهوم "صراع البقاء" مفهوم خاطئ، فالبقاء لا يتطلب صراعًا، بل تعاونًا ومهادنة ومسالمة. إنّ الأقل حاجة هو الأكثر مسالمة وبالتالي الأقدر على البقاء.

- إنَّ قوة الله (للمؤمن بوجوده) تكمن بانعدام حاجته، ولذلك علينا أن نسعى للقوة بتقليل حاجتنا وتخفيف سطوتها علينا بالانجرار خلف لذة إشباعها.

- نعم، البقاء لا يتطلب صراعًا بل يتطلب فِرارًا.

- لقد أخذ الحكام بنظريات دارون فقط ليقوموا بانتخاب شعب من الشعوب صنَّفوه على أنه الأفضل، وأخذوا يتحججوا بمصطلح سبنسر بقاء الأصلح، فأنشأوا الروابط الوطنية والقومية وفتتوا الرابط الإنساني.

- في الغابة، لو كان للحيوان قدرة على التساؤل، لتساءل عن أي جوع يجدر به الاحتراس منه، ولكن من حسن حظه عدم حيازته لهذه القدرة، لأنها لو كانت لديه لما لبث في غفلة ذلك التساؤل أن انقضَّ عليه جوع شرس، فهو غالبًا ما تفشل اليقظة في حمايته، فماذا لو نازع تلك اليقظة غفلة؟! أما في الدولة يتساءل الإنسان عن أي إحساس لا يجدر به الحرص منه، ولا يلبث أن يدرك أنَّ الاحتراس لا يجدي فلا شبع مأمول، ولا جوع معزول، ولا سعادة ممكنة، ولا تعاسة مدفوعة، ولهذا حتى في غفلة التساؤل وفي يقظة الحرص هو مُفترَس ومفترِس.

السؤال التاسع/ إذًا هل الرفض الكلي للموجود كان بمثابة مناهضة للسلطة؟

- إنَّ الرفض الكلي للموجود إذا اتخذ طابعًا عمليًا، يُصبح تدميرًا للسائد وأكثر انتقائية للنادر والشاد بدون قصد، فالرفض الكلي لا يُحارب الأفكار والتصورات والمعتقدات والقيم السائدة بمعزل عن وضعها، نعم يحاربها لوضعها، أي لكونها سائدة، وهذا هو العامل ذاته الذي يُوجد الانتقائية للنادر والشاذ، هذه الانتقائية التي تكون لا بدافع التأييد والنصر لذات المعتقد أو الفكرة أو الرأي النادر والشاذ بل بدافع الانتصار لهم والتعاطف معهم لوضعهم.

- وبالتالي، فعملية الرفض الكلي للموجود هي عملية تضامن مع وضع الجديد أو النادر أو الشاذ بغض النظر عما يحمله الجديد أو النادر أو الشاذ من صواب أو نفع، فالرفض الكلي هي عملية تضامن في حد ذاتها. ولهذا وجدنا ديكارت كان شديد الحرص والحذر في إفراغ سلة تفاحه، فهو كان يُفرغها لا بدافع الرفض بل بدافع الانتقاء، وأيضًا كذلك كانط كان شديد الحذر في التمييز بين معرفة الأشياء في ذاتها ومعرفة الأشياء في ظواهرها وفي التفريق بين ما هو فيزيقي وما هو ميتافيزيقي، فنجده لم يتخذ من الرفض مذهبًا بالرغم من قوله بعجز الإنسان عن إدراك الأشياء في ذاتها

والحكم عقليًا على ما هو ميتافيزيقي، فمثلًا نجده يؤمن بوجود إله بالرغم من تأكيده على عجزنا نحن البشر عن التحقق عقليًا من وجوده. لقد كان كثير من المفكرين حذرين في الرفض لكي يتجنبوا الوقوع في فخه المتمثل بالإيغال في المادية.

- وعلى الرغم مما سبق، سنكون غير منصفين إذا لم نعترف بالأثر الإيجابي العائد من الرفض الكلي لكونه عملية تضامن. لقد أوجد هذا الأسلوب في التضامن واقعًا أقل عدوانية للجديد والنادر والشاذ، وبالتالي أوجد نطاق أوسع للتنوع وجرأة أكبر للاختلاف وعقاب أقل بشاعة وقسوة بحق الأقليات.

السؤال العاشر/ ما هي عوائد العمل غير المشروط (العوائد المتوقعة على الأقل)؟

- تُشكِّل فترة بحث الفرد عن عائد يُمكِّنه من سداد حاجاته فترة كبيرة من وقته وكذلك فترة الراحة من البحث والعمل، ولهذا نجد أنه بتوفير ما يسد حاجات الفرد يتم توفير جزء كبير من وقته لنفسه، يسهم هذا الفراغ غير المحتمل بدفعه لاستكشاف إمكانياته ومواهبه وأهدافه التي وُجد لتحقيقها، وبهذا تتطور الإنتاجية بدون أن تعتمد على تكثيف العادات الاستهلاكية، أي عدوانية الإنتاجية للقديم تختفي، ويصبح معيار قابلية الاستهلاك أقل تطرفًا وعدوانية، وبالتالي لا يُشكِّل ما يتم تصنيفه غير قابل للاستهلاك قيمة سلبية تُكرّس الرجعية والجمود والركود.

- وعليه، المقولة الموروثة من الأجيال السالفة: "الفراغ مفسدة" غير صحيحة، فالفراغ هو وسيلة الإنسان الوحيدة للشعور بالملل الذي يعجز الجميع عن احتماله، والنتيجة اندفاع الفرد للكشف عن إمكانياته وقدراته، وبالتالي نجد أنَّ الفراغ إبداع وتقدم وتطور.

- وبهذا نجد أنَّ الحرية بريئة من تهمة شميت لها بأنها مسؤولة عن إنتاج درجات متباينة من العدوانية، ونجد أنَّ القيد المفروض على الفرد والمُتمثل بالعمل المشروط هو المُتكفل بإيجاد درجات من العدوانية متفاوتة. إنّ الحرية منبعها العقل، والحداثة أثر من آثار الحرية، ولهذا لا يوجد استبدال بالإحلال، فإحلال العقل لا يتم استبداله بإحلال الحرية، وإحلال الحرية لا يتم استبداله بإحلال الحداثة. لقد حاول شميت تشويه الحداثة وتشويه الحرية، لكي يقول أنَّ القيد منطقي وعقلي.

- بتعطيل العمل المشروط تتوقف الإنتاجية عن كونها عملية إحلال بالإزالة، عملية استبدال بالتشويه، عملية تجديد بالحظر، عملية إيجاد بالنفي، تتوقف عن كونها عملية تفريغ للفراغ، وبهذا تُصبح جميع الموروثات من قيم وعلوم وفلسفات وحيازات مادية ليست عرضة للعداء والاستهداف.

- إنَّ عداء الإنتاجية ليس حلًا، فمن حق كل فرد ومؤسسة أن تكون مُنتجة، وأي محاولة تكبيل لهذه الإنتاجية ستكون غير عادلة، ولهذا لتفادي العداء كان لا بد لنا كلاسلطويين من توجيه العداء للعمل المشروط الذي يتسبب للإنتاجية بالاعتماد على السلب والاستهلاك والعداء للقديم رغبة بتحفيز الإبداع والابتكار. العالم لن يكون بحاجة إلى إيجاد سلطوي لأعداد أكبر من أصحاب الثروات الكبيرة لحماية العملة، لن يكون بحاجة لسحب فائض العملة المتواجد في السوق من الطباعة المتكررة.

- أفضى المجتمع الرأسمالي المُكرَّس على الإنتاجية إلى ضبط أجساد أعضائه ونفوسهم على نحو يجعلهم متوافقين مع المتطلبات التي ترفع الإنتاجية، وبالتالي تَشَكَّلَ كل من الجسد والنفس بواسطة الارتدادات النفسية الناجمة عن الشعور بالإنهاك والعجز وفي أحيان عن الشعور بالقوة والحيوية. إنّ هذه الارتدادات النفسية كان لها تأثير كبير على السلوكيات الجنسية والغذائية وعلى مختلف الأذواق في الملبس والفن وغيرها، وبالتالي تَشَكَّلَتْ ميولنا بواسطة حالتنا غير الطبيعية، تلك الحالة التي لا استقرار وتوازن لنا فيها، تلك الحالة التي نكون فيها على أشد اضطراب، تلك الحالة التي لا ينبغي أن تكون مُنطلقًا لقرار أو حكم.

- وعليه، نجد أنَّ تعاسة العمل لا تكون بكونه مأجورًا كما يعتقد برودون وماركس وغيرهم، وإنما تكون بكونه مشروطًا. يجب أن ندرك أنَّ الاغتراب لا ينجم عن العمل المأجور بل عن العمل المشروط، فالأول بإمكانه التواجد بدون سلطة أما الثاني فليس بإمكانه ذلك، ولهذا العمل المشروط هو نتاج وجود سلطوي.

- نعترف بأنَّ العمل غير مُستغل وغير مُثمَّن طبقًا لقيمته، ولكن نجد أنَّ تثمينه بدون إخراجه عن كونه مشروط فاشلة وسالبة للحرية وغير عادلة. نعم، ينبغي إخراجه عن كونه شرط للحياة في البداية وتلقائيًا سيصبح مُثمن وفقًا لقيمته.

- إنَّ الإشباع غير المشروط للحاجة بمثابة مقاومة للسلطة.

المخلص لك

ف.د

15 شباط (فبراير)

صديقي العزيز ل.ت

الله كريم جدًا جدًا يا صديقي. لماذا منحني كل هذه السعادة التي لا أستحقها، لما أدخلني جنَّته قبل الموت؟! نعم يا صديقي، جنة الله مصاحبتنا من نحب. كل هذه المعصية، كل هذه الذنوب، كل هذا البُعد عن الله لم يمنعه من التوقف عن منحي المزيد والمزيد الذي لا استحقاق لي به، لماذا؟ هل يعطيني الله ليُبقيني على ضلالي وتيهي؟ إذًا فهذه صفقة عادلة من الله، نعم أنا راضي بها تمام الرضى. أيريد منحي الدنيا بها وسلبي الآخرة؟ إذا كان الأمر كذلك، فهذا عدل منه، هذه صفقة رابحة لي وله سبحانه.

ما أشد حماقتي، وهل تتصف اختيارات الله لخلقه بالظلم؟! نعم، الله عادل في جميع اختياراته وقراراته، فالظلم ليس بصفة ملاصقة لأفعال الخالق بمخلوقاته وإنما صفة ملاحقة وملاصقة لأفعال المخلوقات بحق أنفسهم وبحق إلههم عليهم. أرأيت يا صديقي ماذا فعلت بي؟ لقد زادت إيماني، لقد جعلتني أعرف الله أكثر، لقد جعلتني أُنزّهه باستمرار. نعم، لقد تجلى الله لي بها أعظم تجلي، سبحانه كم هو عظيم، كم هو جميل، كم هو كريم! لقد أحبني الله، فكل هذا التجلي دليل على ذلك، فحُق لي أن أحبه وأحبه وأحبه. دموعي التي تنهمر من عينيَّ الآن وأنا أكتب لك هذه الرسالة دليل على صدقي. لا يا صديقي، لن يكون حبي له مشروط، فليختر لي جحيمه إن شاء، فسأبقى أحبه حتى وأنا في ذلك الجحيم. ها أنا أخطئ في حق الله وأدَّعي بأنه هو الذي يختار الجحيم لنا والحقيقة هي أننا نحن من نختاره لأنفسنا. يستوجب مني هذا الخطأ التكفير، ولهذا سأقول الليل كله أسبّحه سبحانه. نعم يا صديقي، لقد بت بها إنسان آخر، إنسان أفضل، إنسان عارف بالله.

لقد بت قادر على تصور جزء أكبر من قوة الله، ولهذا بت أشك في فائدة "أنا قوي"، بت أشك أنها سبب في خسارتي. أعتذر يا صديقي على

صراحتي الفجة، ولكنني عاهدتك عليها. نعم يا صديقي، لربما أنت مخطئ. لن أتعجل وأتوقف عن ترديدها قبل التأكد من صحة حكمي. حتى لو كنتَ مخطئًا فسأبقى يا صديقي مدين لك، نعم فلقد اجتهدت وأنا أُقدِّر لك ذلك حتى لو لم تصب. ستبقى صديقي المخلص الذي امتناني له لا يفوقه امتنان، ستبقى طبيبي النفسي العبقري الذي لا تنافسه عبقرية أخرى. لا، أنا لا أجاملك لتلطيف وقاحتي في صراحتي، بل أقول الحقيقة وهذا أيضًا لا لتلطيف وقاحتي بل شكرًا وعرفانًا. لعلك تتساءل عن سبب رقتي ورهافة مشاعري وحسي تجاهك وأنا الذي لطالما كنتُ فظًا غليظ القلب مندفعًا بوقاحة معك، فلا تتساءل ولا تتعجب فلقد سبق وأخبرتك أنها منحتني الكثير الذي بت فيه مختلفًا تمامًا. نعم، أنت تُفضِّل النسخة القديمة، لا تقلق أيها الأحمق، فلقد احتفظتُ بشيء منها لك خصيصًا، احتفظتُ بشيء منها لك لأنني أدرك أنك تحتاجها لتكون مُروَّضًا وأحتاجها لصد استفزازك وحماقاتك معي أنا الذي بالكاد أحتملها. نعم، لقد أبقيت منها شيء للهجوم والدفاع.

لقد كنتُ أُتَّهم بالنرجسية في وقت سابق من بعض ممن هم حولي، ولكنني الآن بت مطمئنًا من احتمال صحة وصفهم. نعم، لقد تسرّب إليَّ الشك بصحة ما يقولونه عني، ولكنني الآن بت متيقنًا بأنني لستُ كذلك. نعم يا صديقي، النرجسي ليس بمقدوره التمتع بكل هذا الجمال المُتجلِّي. أنا لستُ موغلًا بالتوجه إلى الداخل، أنا لستُ مبالغًا في تقدير نفسي كما خُيِّل للبعض.

يا إلهي كم أتعجب من نفسي! في كل مرة أراها يضيع طلبي، وأنا من تعوَّدت أن أكون الأكثر تطلبًا، في كل مرة أراها أنتفي وتبقي هي الحاضرة فقط. كيف أضيع، كيف أتوه، لا أعلم! كيف يكون ذلك مصيري في كل مرة بالرغم من تحوطي هذا الذي أبديه دائمًا؟! نعم يا صديقي، لا مُرشد، لا خريطة في وجودها، فجميع الدروب توصل إليها فقط، تُعلنها وجهة دائمًا. لقد حُق للدروب أن تتوه كما تُهتْ، أن تضيع كما ضعتْ، أن تتنفي كما انتفيتْ.

ما أجملها هذه الفترة التي قضيناها معًا نبحث سويًا ونحاضر سويًا! يا إلهي كم هي عبقرية، كم هي مُحيطة، كم هي مثقفة! نعم، لقد بتُّ أحبها أكثر وهذا مما أتعجب له يا صديقي، فكيف لي أن أكون مُحِب بكل هذا القدر، كيف لقلبي أن يتسع لكل هذا الحب، كيف أمكن أن أكون ضعيفًا إلى هذا الحد؟! ولكن كيف لا يكون لي ذلك وقد بتُّ أعرفها أكثر، بتُّ أُقدِّس غموضها الذي أَعْجَزَ فضولي الذي لطالما ضايقني؟! نعم، غموضها جميل ولذيذ ولهذا

تعطَّل فضولي. نعم لقد بات سرّها لي لمسة تمنحها المزيد الذي أعجز عن فهم كيفية احتوائها له.

سأعترف لك يا صديقي. الكتاب يجعل اللقاء أسهل وأجمل. الحوارات التي تتطلب مني حضورًا ذهنيًا كبيرًا تجعلني أكثر طمأنينة في وجودها، ولهذا كنتُ غير مضطرب في أغلب أوقات الفترة التي قضيناها في البحث والتحضير. لمجاراتها على المستوى الفكري كنتُ مضطرًا إلى بذل المزيد والمزيد من الجهود، وعلى الرغم من ذلك لم أكن متعجب من سر قدرتي على ذلك، فلقد كنتُ أدرك أنها السبب، وكفى بها سبب. لقد وسَّعت مداركي فمنحت نظراتي قدرة على الولوج إلى زوايا ضيقة مُعتمة، ومنحتْ عقلي قدرة على إحاطة أوسع، نعم لقد منحتني الكثير في هذه الفترة القصيرة.

هل لاحظتْ خلال هذه الفترة نظرة الافتتان في عينيَّ؟ يا إلهي كم أنا خائف من ذلك. ما هو الحل؟ لقد بحثتُ كثيرًا ولم يكن أمامي طوال فترة بحثي إلا خيار واحد بت مقتنع أنه الخيار الصائب.

نعم يا صديقي، لقد قررتُ الاعتراف لها بوقوعي في حبها. لم أعد قادر على المجازفة بالإخفاء. تلك العواقب التي أتوقعها أخذت تتسرب إلى أحلامي من شدة تفكيري بها. نعم، لقد باتت الكوابيس تراودني في جميع أوقات نومي، لا تترك لي ولو منامًا لأرتاح فيه. نعم، لم يعد بمقدوري إخفاء حبي لها. الإخفاء وسيلة من هم أقوى. ما أشد حماقتي وهل هناك قوي في الحب؟! نعم، جميعنا ضعاف بالحب. الحب هو تعبير الإنسان الصادق عن ضعفه، الحب موجود لتحطيم غرور الإنسان وتباهيه بقوته.

نعم يا صديقي، لقد قررتُ وحسم الأمر، ولهذا لن أطلب رأيك للمرة الأولى. سأعترف لها بحبي رغمًا عن الثورة، رغمًا عن ضعفي، رغمًا عن جبني.

لقد تواعدنا هي وأنا مع مجموعة من الأصدقاء على الالتقاء بعد يومين من الآن في منزل الرفيقة رقم 28، سيتاح لنا بعد هذا اللقاء وقت لا التزامات علينا فيه، قررتُ فيه الاعتراف لها بحبي. لقد قررتُ يا صديقي، وأعدك أنني لن أتراجع مهما حدث.

سأُراسلك بعدما أعترف لها لكي أُطلعك على ما سيحدث. تمني لي حظ كافي قادر على تجنيبي كل ردود الأفعال التي أتصورها والتي لا أتصورها، حظ يُحافظ على صورتي عندها. لا تُهدر وقتك بتمني حظ يمنحني مبادلتها الحب، فليس من طبع الحياة يا صديقي تمام الحظوظ.

ملاحظة: - سأبقى كماسبق وأخبرتك ملتزمًا بترديد "أنا قوي" إلى أن أتمكن من إصدار حكم عادل بحقها.

المحب لك

ف.د

5 نيسان (أبريل)

صديقي العزيز ف.د

يا لسعادتي يا صديقي بنجاتك. لقد أخبرني الأصدقاء مؤخرًا أنك استيقظتْ من غيبوبتك. أنا حقًّا آسف، فلولا هذه الحرب الدائرة الآن لوجدتني أقف بجانب سريرك. لا تقلق أنت الآن في منزل جدتي في القرية، فلقد طلبت من الأصدقاء نقلك إليه بعيدًا عن صخب المدينة وأحداثها.

أرجو أن تكون جروحك تتعافى بسرعة لتتمكن من الخروج والجلوس بين الأشجار أو للذهاب إلى شاطئ البحر القريب منك. نعم يا صديقي، الخروج سيريحك.

أعلم أنك الآن تفكر في عدم متابعة قراءة رسالتي والعودة لأحزانك، ولهذا تجدني أطالبك بمواصلة القراءة، وعدم تركها جانبًا لأنني أعلم بأنك لن تعود لإكمالها إن فعلت. أرجوك تابع القراءة ولا تقلق لن أكون قاسيًا عليك.

أنا آسف يا صديقي لخسارتك، بل آسف لخسارتنا جميعًا، نعم فلقد كانت الآنسة هيا رفيقة الجميع، رفيقة أحلامنا وطموحاتنا وآمالنا. نعم، لقد كانت تلك الرصاصات الغادرة الحاقدة المصبوبة بغباء مُوجَّهة صوب أحلامنا وأهدافنا ومشاريعنا، موجهة صوب ثورتنا، موجهة صوب حزبنا.

نجاتك من ذلك الحقد الغادر لها معنى، نعم الحياة ما زالت تحتفظ لك بمهام لن يستطيع سواك القيام بها، نجاتك دليل على أنك لم تُستنفَذ بعد، دليل على أنه بحوزتك ما تقدِّمه، ما تضيفه، ما تبدعه.

لقد حزنتُ يا صديقي وصدمني الخبر بعنف عندما سمعت به، نعم لقد بكيتُ بحرقة الأطفال، ومن منا لم يفعل ذلك. هي تستحق حزننا ودموعنا، ولكن عليك أن تدرك يا صديقي أنَّ لا أحد يستحق حزننا الأبدي ودموعنا الأبدية.

نعم، هي وجِدَتْ في حياتك لهدف، هي وجدتْ لتُعلِّمك كيف تحب، لتفتح قلبك المغلق. لقد سبق وأخبرتني أنَّ لا أحد بإمكانه استحقاق حبها، ولقد كنتَ على حق، فها هي ترحل بدون أن تمنح حبها لأحد، ترحل وحيدة. لا، لربما هي لم ترحل وحيدة، نعم فحبك لها سيرافقها، سيؤنسها، سيحميها.

ليس من العدل يا صديقي أن تتذكرها باستمرار بصورة واحد، أقصد صورتها وهي غارقة في الدماء بين يديك العاجزة عن إسعافها. هناك صور تستحق الالتفات إليها في ذاكرتك، صورة ابتسامتها، صورة عينيها. نعم، كل هذا الجمال يستحق منا الالتفات، يستحق منا الابتسام له، يستحق منا الفرح به، يستحق منا الاهتمام بتفاصيله. نعم، أعترف بأنَّ صورة المأساة قد تكون لذيذة لعقول البعض المتمردة على رغبات وأذواق أصحابها، فإن كنتَ منهم فأنا لست قلق عليك لأنه بإمكانك إلجام عقلك عند حدوده كما كنت تفعل دائمًا مع قلبك. نعم، أنت أقوى مما تتصور. نعم، لقد كانت "أنا قوي" تمنحك ولكنك لم تكن تدرك ذلك، لرغبتك بالمزيد دائمًا، ولأنَّ القوة دائمًا لذيذة، مطلوبة، مرغوبة، محبوبة، نعم لربما ذلك لاتصاف الله بها، لربما لرغبتنا بالتأله، لرغبتنا بالحلول مكان الله ومنافسته وقتله. نعم، قاتلي الله هم أولئك الذين أوغلوا بطلب القوة، من أرادوا بها التفوق وادعاء الأفضلية وخضوع الآخر. نعم، بقدر ما هو مهم طلب القوة، ينبغي علينا الحذر منها لا على غيرنا بل على أنفسنا، فنحن أكثر ضحاياها خسارة.

توقف عن ترديد "أنا قوي" مؤقتًا، فلقد أخبرني الأصدقاء أنك كنتَ ترددها أثناء غيابك عن الوعي بعد الصراخ والبكاء وطلب النجدة الذي هو بالتأكيد نتيجة الصور المُلتصقة بذاكرتك لها وهي غارقة بدمائها ودمائك. نعم، أنا أخاف عليك من طلب القوة الآن، فهذه الظروف تدفع الجميع للإيغال في طلبها، وبالتالي الانحراف وتشوه التصورات. لديك يا صديقي منها القدر الذي يكفي لجعلك قادر على التعامل مع مأساتك هذه وتخطيها، لديك ما هو كافي، فأرجوك توقف الآن، إن شئت عد للطلب لاحقًا، ولكن الآن ينبغي عليك التوقف.

يا إلهي ما أعظمها من خسارة قد منينا بها، يا إلهي ما أعظمها من صدمة، ولهذا يا إلهي ما أعظمها من استفاقة تلك التي قُدِّرت لنا، يا إلهي ما أعظمها من دفعة تلك التي سننالها، يا إلهي ما أعظمه من عائد ذلك الذي كُتب لنا!

نعم يا صديقي، هذا الصنف من البؤس والحزن والألم، مُقدَّر له أن يمنح ذاك الصنف العجيب من السعادة وتلك اللذة الفريدة وتلك الراحة التي لا يُستشعر بعدها بشقاء. نعم، هذه هي طبيعة حياتنا، لا تُعطي إلا عندما تأخذ، لا تُسعِد إلا عندما تُحزن، لا تمنح السلام إلا بعد حرب طاحنة، لا تكون سبب في تعقُّل إلا بعدما تكون سبب في حماقة. لا تعدو عيناك عن هذه الحقيقة يا صديقي تُريد زينة هذه الحياة التي صوَّرتها أطماعنا وأوهامنا كزينة. نعم يا صديقي، ذلك التعاقب المتواصل للذة هو الأشد ألمًا، تلك السعادة الدائمة المُستهدفة هي في الحقيقة غير موجودة، ولهذا أكثر الخاسرين هم أولئك الباحثين عنها، من يجعلونها غاية مُستهدَفة، من يرفضون ويتمردون على حقيقة أنها غاية لا يجدر بأحد استهدافها، من يتمردون على حقيقة أنهم يجهلون المسارات الموصلة إليها والوسائل المساعدة على التنعم بها. نعم يا صديقي، السعادة لا طريق موصل إليها في حال كانت مُستهدَفة، السعادة لم يكن وجودها غاية بالفطرة إلا لاختبارنا ولتخييرنا. نعم، حمقى أولئك الذين يعتقدون بأنَّ كونها غاية فطرية يجعل من السعي إليها فطري. لا يا صديقي، السعي خلفها خيار ليس بالوحيد، وعدم السعي ليس بالضرورة سعي لنقيضها، فعدم السعي لها أيضًا موصل إليها. ولهذا يا صديقي ارضَ بما عليه هذه الحياة، تقبَّل جحيمها لكي يتاح لك نعيم الحياة الأخرى. ألم تقل لي أريدها في حياة أخرى غير هذه الحياة، أريدها في حياة لا يُفسدني الطلب فيها، أريدها في حياة ليس فيها فراق، فها هو مطلب عقلك يتحقق طارد معه كل طلباتك العاطفية. لا بأس يا صديقي، اكره هذه الحياة أشد الكره إذا رغبت، فهذا ليس مُضر كثيرًا إذا أحببت الحياة الأخرى أشد الحب، نعم هذا يترك لقلبك فرصة للعب أدواره وممارسة رغباته بدون كبت قد يتسبب بتشوهات في تصوراتك وبالتالي انحرافات في سلوكياتك.

أنا أحاول تحييد جلافتي وقسوتي واسلوبي العلمي، والتعامل معك بمشاعري وعواطفي قدر المستطاع. هذا صعب علي، ولكنني أحاول باجتهاد، وسأحاول ذلك أيضًا في رسائلي اللاحقة. قد لا تنفعك نصائحي هذه في لحظات تعبيرك الطبيعية عن مأساتك -نعم، لربما هي مأساتك وحدك لأنك منحتها حبًا لا سبيل للبشر منحه، لأنك رفضتها ثم أردتها ثم رفضتها ثم أردتها، رفضتها لأنك شعرت بعدم استحقاقك لها وأردتها لأنك أحببت أن تكون مُستحقًا-، ولكنها ستنفعك لاحقًا، هذا أنا متأكد منه.

خذ وقتك بالحزن، احزن كثيرًا واستشعر بؤسك أعظم استشعار لكي تولد من جديد، لكي تكون لك بداية. نعم، فالبدايات لمن يحزن كثيرًا، لمن يستشعر بؤسه بالقدر الكافي.

لن أعرقلك بذلك برسائلي، ولهذا سأغيب عنك لفترة أتمنى أن لا يدفعني خوفي عليك وحبي لك إلى إساءة تقدير ما إذا كانت ستكون كافية أم لا، سأغيب رغمًا عني، سأحاول إشغال نفسي بأي شيء لأستطيع التوقف عن التفكير بك هذه الفترة التي ستكون مؤلمة لي.

يا إلهي كم تمنيتُ لو كان بمقدوري أن أكون برفقتك الآن، واقف بجوارك، أساعد، أشاركك الحزن والبكاء والألم والبؤس. نعم، مؤلم هذا العجز، مُحزن أن أراك بهذا القدر من البؤس ولا أكون بجوارك. نعم، سأبقى متفائلًا، وسأبقى متمسكًا بالاعتقاد بأن هذا فيه خير، أنَّ هذا منه عائد عظيم، أنَّ هذا محض تصويب للمسارات.

أرجو أن تتمكن من الكتابة لي قريبًا. سأبقى بانتظارك، فأرجوك لا تدعني أطيل الانتظار.

صديقك المخلص

ل.ت

8 أيار (مايو)

صديقي العزيز ف.د

طمئني عنك يا صديقي، هل أنت بخير؟ أرجو أن تكون ذلك. أعتذر لم أستطع الغياب لفترة أطول. أرجو أن تكون فترة غيابي كافية. نعم، هي ليست كذلك، ولكنك ستعذرني.

لا، ليس قلقي عليك وحده من دفعني لمراسلتك، فلقد استجدَّت أحداث أحببت إعلامك بها، لربما لن تنال اهتمامك الآن، ولكن في قادم الأيام أنا على يقين أنها ستنال ذلك.

نعم، قرار اطلاعك على آخر المستجدات كنتُ صراحة متردد باتخاذه، فبالتأكيد أنت مغلق الآن، ولكن هي محاولة مدفوعة بأملي بأن أراك أفضل.

لا تتوقف عن مواصلة قراءة الرسالة أرجوك، أعدك أنني لن أطيل ولن أسرد لك الأحداث بالتفصيل بل باختصار وبسرعة.

لقد صدقتْ ظنونكم، فالحكومة الائتلافية التي تُمثِّل الطبقة البرجوازية قد اتخذت قرارات على المستوى الاقتصادي صعبة جدًا زادت من هموم الشعب وعظَّمت أوجاعه.

لقد تعاظم الدمار الاقتصادي مؤخرًا، فلقد كان هناك نقص حاد في المواد الغذائية وارتفعت أسعار مختلف السلع الاستهلاكية إلى حدود لا تطاق، وكل هذا في ظل ندرة العمل وانخفاض الأجور التي كانت بالكاد تستطيع الإيفاء بالاحتياجات المعيشية، وعم الفساد البلاد وانتشرت الأمراض والمجاعات والأوبئة وتدهورت قيمة العملة المحلية.

كانت هذه الحكومة قد ساهمت بشكل كبير في زيادة ثروات البرجوازيين وعظَّمت من أرباحهم، وذلك بمنحهم صلاحيات بإغلاق فروع كاملة من مختلف الصناعات وفصل العمال بأعداد كبيرة وإلغاء سقف الأسعار والحد الأدنى للأجور، وبغض الطرف عن مساعي هذه الطبقة في طرد كافة العمال الذين كانوا على صلة بالاتحاد وقادوا العمال في الحراك السابق لضمان عدم تمردهم مجددًا وتأجيج العمال على سياساتهم، وأخذت هذه الحكومة بتوصية من الطبقة البرجوازية بتفكيك مختلف النقابات والاتحادات العمالية ولجان المعامل والمصانع، وسحب السلاح من مختلف الرفاق الذي كانوا في الخطوط الأمامية في الحراك السابق، وبإعادة كثير من الرفاق إلى السجون التي امتلأت بالعمال والثوار والمتخلفين عن سداد ديونهم.

بالرغم من كل هذه التحوطات البرجوازية إلا أنَّ سخط الجماهير تعاظم وأخذت تخرج بعشوائية وبدون تنظيم بمظاهرات هنا وهناك، وتعلن الإضرابات تعبيرًا عن ذلك.

وجرَّاء هذه الإضرابات التي أخذت بالانتشار والمظاهرات التي أخذت بجذب مختلف فئات المجتمع، استشعرت الطبقة البرجوازية بالخطر، فدفعت الحكومة الائتلافية إلى إعلان دخول الحرب العالمية الدائرة والتي لا شأن لبلادنا فيها، وذلك لإطفاء غضب الشعب وإشغاله بالحرب التي أُريد لها أن تكون سبب للأزمات التي تعصف بالبلاد.

بعدما نفَّذت الحكومة الائتلافية توصيات تلك الطبقة بسرعة، دفعت بالأفواج والفيالق والسرايا المشكوك في ولائها والتي وقفت بجانب الثورة إلى الجبهات بدون عتاد كافي وبلا أي إمدادات وذلك بهدف التخلص منها في الحرب، وضمان عدم وقوفهم بجانب الشعب ضدها، وأخذت بنشر عناصر الشرطة والجيش في كافة أنحاء البلاد بحجة عدم الإخلال بأمن الجبهة الداخلية التي من المفترض أن تكون قوية كما كانوا يروّجون.

الحرب كانت تلتهم وتستنزف كافة موارد البلاد، تاركة الشعب يحتضِر ببطؤ. ارتأت الطبقة البرجوازية في هذه الفترة أنَّ الشعب بحاجة لاسم، وذلك تمهيدًا لصناعة دكتاتور جديد يخدم مصالحها ويحمي امتيازاتها ويُشبع رغباتها الامبريالية يكون تابع لها كامل التبعية، فوقع اختيارهم على أحد القادة العسكريين السابقين، والذي كان مُناهضًا لاتحادنا سابقًا، وذو سمعة قادت للتحقيق معه في جرائم بشعة وإبادات جماعية بحق الثوار والجماهير المتظاهرة في الحراك السابق، وعلى الفور بعد تعيينه من قبل الحكومة الائتلافية تقرر إعلانه قائدًا عامًا للقوات المسلحة، وعلى الفور دفعته الطبقة البرجوازية لتطهير البلاد من جميع الرفاق وتوجيه ضربة قاضية وبالتحديد للحزب الأحمر الذي كان أكثر الأحزاب تنظيمًا وتأثيرًا على الجماهير ومثار قلق لحكمها.

ساهم هذا كله وخاصة بعد قرار دخول الحرب، بتحفيز الحكومة الائتلافية على تكوين تحالفات دفاعية مع حكومات الدول الحليفة بالحرب، للتعاون في محاربة الأحزاب الداعمة للثورة سواء كانت يسارية أم يمينية، فحصلت نتيجة هذه التحالفات على دعم عسكري كبير لقمع الاحتجاجات وتوسيع أنشطتها الامبريالية.

عكف الرفيق رقم 17 خلال هذه الفترة على تشكيل التحالفات وتشكيل اتحاد يضم مختلف الأحزاب لمجابهة أطماع هذه الطبقة وحكومتها، بعدما أصبح الجميع مهدد بالفشل في حال استمر العمل الفردي، ونجح في تحقيق ذلك بسرعة كبيرة.

بعد تشكيل الاتحاد وبعد تخبط لفترة طويلة -بمعايير تلك الفترة المُضطربة- في تحديد موعد الحراك والهدف النهائي منه والوسائل المستخدمة للمجابهة، ألقى الرفيق رقم 17 خطابًا حماسيًا أمام اللجنة المركزية للاتحاد تحدَّث فيه عن ظروف الشعب والوضع الخارجي والداخلي، واختتمه باستنتاج مفاده ضرورة التحرك فورًا للاستيلاء على السلطة وعزل هذه الحكومة وتفكيك

هذه الطبقة، وقوبل هذا البيان الحماسي بتصفيق عاصف وبتصويت معظم أعضاء اللجنة المركزية لصالح القرار. نعم، لقد شعر بفطنته السياسية التي لا يجانبها الصواب، أنَّ اللحظة الحرجة والحاسمة حلت، وأنَّ لا سبيل للنجاح في حال التأجيل والتأخير.

كانت الساعة تُشير إلى العاشرة وعشرون دقيقة من صباح السابع من أكتوبر عندما أعلن الرفيق رقم 17 للشعب باسم مجلس الثورة -الذي تم تشكيله بسرعة- بدء الثورة.

دعا مجلس الثورة في ظل الحرب إلى اضراب شامل شل الحركة في جميع أنحاء البلاد، ونظَّم مظاهرات غفيرة ملأت الميادين واحتلت معظم الشوارع الرئيسية، وتمكن بواسطة مجموعاته القتالية -التي أبقاها نائمة لفترة طويلة- من السيطرة على جميع مرافق البلاد، فأخذت المدن تسقط تباعًا بيد الشعب الذي سيطر أخيرًا بعد ضريبة مُكلفة على كافة أرجاء البلاد.

سيطر مجلس الثورة على السلطة، وأول قراراته بعد الإطاحة بالحكومة الائتلافية كان قرار الانسحاب من الحرب بدون شروط. وبعد نحو أسبوع عُقد مؤتمر الحزب الأحمر الأول بعد نجاح الحراك وتقرر فيه سيطرة الحزب على السلطة لضمان عدم تكرار الخطأ الذي ارتكب في الحراك السابق، وكان قادة الحزب الأحمر قد أطلعوا قادة الأحزاب الأخرى عن نواياهم في وقت سابق، وما هي إلا أيام معدودة بعد ذلك حتى سيطر الحزب على السلطة، وأُعلن الرفيق رقم 17 بصفته رئيسًا للحزب وقائدًا للثورة، قائدًا للبلاد، وأُخذ الشعب بمنحه ألقاب مختلفة أبرزها: "الرفيق الأكبر" و "الثائر الأول"، وغيرها من الألقاب والمسميات.

لم يكن هناك اعتراض وتمرد من الأحزاب الأخرى، فلقد كانت شعبية الحزب الأحمر طاغية، وأيديولوجيته هي الأيديولوجيا المطلوبة والمرغوبة. نعم، لقد كانت الاعتراضات فردية هنا وهناك، ولا تحظى باهتمام الكثيرين، ولا تُشكِّل أي تهديد للحزب الذي بات حاكمًا للبلاد.

تحرَّك الرفيق رقم 17 بعد ذلك لإعادة تأسيس الجيش الأحمر وتوسيع انتشاره وتسليحه بكافة العتاد اللازم للقضاء على كافة المتمردين والانقلابيين من أنصار النظام السابق والائتلاف الحاكم، وأيضًا خرج للشعب ببيان أعلن فيه البدء بتنفيذ أيديولوجيا الحزب، وما هو إلا أسبوع وحيد بعد بيانه حتى استولى حزبه على كافة أملاك الطبقة الحاكمة والطبقة البرجوازية والطبقة الأرستقراطية وأعلن تأميمها، واستولى العمال على

المصانع والمزارعين على الأراضي بدون دفع أدنى تعويض لأصحابها، وأعلنت الاتحادات والنقابات يوم العمل بسبع ساعات -وهذا إنجاز غير مسبوق-، بعد ذلك تشكلت لجان خاصة من العمال في مختلف المصانع فنظَّمت الإنتاج ووفرت المواد الخام والأموال اللازمة للعمل، وتشكلت لجان هدفها الربط بين لجان الصناعات المتداخلة لتسريع الإنتاج والامداد وتبادل الخبرات والحاجيات. وخلال هذه الفترة أُعيد تنظيم اللجان الحربية على أساس المركزية الديمقراطية.

شيئًا فشيئًا في مجال الصناعة والزراعة والتجارة كانت إدارة ورقابة المجالس على الإنتاج والتوزيع تتحسن وتتطور، وتم توحيد البنوك جميعها في بنك واحد، وبذلك تمكَّن الحزب من رفع مستوى معيشة الشعب لدرجة أفضل بسرعة لم تكن متوقعة، وذلك لفعالية إدارة موارد البلاد التي كانت تسيطر عليها الطبقة البرجوازية.

خلال هذه الفترة كان هناك من استغنى عن طابعه الراديكالي، وهناك من تمسك به أشد تمسك، وكذلك حال المتطرفين. نعم يا صديقي، هذه الثورة غيَّرت قناعات الكثيرين.

زاد هذا النجاح والانتصار تنظيم الحزب الأحمر، فأخذ الحزب بالانتشار في مختلف الدول مهددًا أنظمتها، ولهذا لا أستبعد قريبًا إقرار برنامج لتصدير الثورة، ونقل خطوط الدفاع للأمام لكي تتاح مساحة للمناورة أكبر، وتدعيم الحزب بكوادر مشحوذة القوى لاقتحام عالم مُستعصي على الثورة.

نعم يا صديقي، ثورة هذا الحزب شغلت العالم، الجميع آخذ بتحليل وقائعها السياسية، وقراءة أبعادها، وتحليل العلاقات السببية المباشرة لها، وتوقُّع قدراتها، والتنبؤ بحدودها، واستنباط العِبر منها.

أرجو ألا أكون قد أطلت عليك، فلقد استغنيت عن سرد كثير من الوقائع لكي أوجز.

صراحة يا صديقي، لا أريد إنهاء رسالتي قبل التعبير لك عن شوقي لرسائلك، وطمعي بأن تنهض وتكتب لي فور الانتهاء من قراءة هذه الرسالة.

لا بأس، ابْكِ في رسائلك، كن صامتًا فيها لو رغبت، كن ساخطًا إن شئت، سأحتملك، لن أصدَّك، لن أُشير إلى أين أنت مخطئ فيها أو حتى إلى أين

أنت مُصيب، لن أزعجك بنصحي، ولكن أرجوك لا تتجاهلني، لا تُشعرني بأنني لست موجود، بأنني خائن، بأنني مذنب، بأن لا صداقة بيننا.

لا أحد ممن أعرفه يعلم كيف حدث ما حدث معك، فاكتب لي كيف جرى ذلك إن شئت، أو إن شئت اكتب عما تشعر به، عن الحب، عن الثورة، عن البؤس، عن الشقاء، عن أي شيء تشعر به أو يخطر على بالك.

أنا بانتظارك يا صديقي.

صديقك المحب

ل.ت

13 أيار (مايو)

صديقي العزيز ل.ت

ها أنا أمسك القلم من أجلك وأنا بالكاد أستطيع فعل ذلك. نعم، أنت قاسي القلب بإلحاحك هذا بالرغم من إدراكك لما أنا فيه من بؤس. لقد بت أُدرك بإلحاحك كم الصداقة ثقيلة، مزعجة، فضولية، قاسية، لا يستحقها إلا آثم.

تريد معرفة كيف حدث ما حدث؟ سأطلعك على ما أتذكره، فلقد نسيت كثير من تفاصيل الأحداث التي جرت في ذلك اليوم، ولكن أرجوك بعد قيامي بذلك أريد منك الغياب، أريد منك تركي لوحدي، تركي لحزني الذي تألَّه، ولبؤسي الذي بات أقتم.

ذاك اليوم، خرجتُ أنا وهي بحدود الساعة الثالثة مساءً متوجهين إلى منزل الرفيقة رقم 28 للقاء بعض الأصدقاء الذين كنا قد تواعدنا معهم. قضينا هناك ساعات أذكر أنها كانت سعيدة ولكن كان يغلب عليها حديث جاد لا أذكره ولم أشارك فيه لسبب لا أتذكره أيضًا.

عندما قررنا الانصراف كان هناك شيء ما يشغلني لا أتذكره، فكنتُ شارد الذهن به تمامًا. كنتُ أصافح الأصدقاء بدون انتباه، وأبادلهم تعابير الوجه المشابهة لتعابير وجوههم مُدعيًا أنني أستمع إليهم، لدرجة أنني تسببتُ

بشرودي بوقوع وتحطم إحدى المزهريات ومع ذلك لم أعتذر ولم أشارك في التنظيف أو في لملمة الورود ووضعها في مزهرية أخرى.

وقفت أنتظرها أنا وإحدى الرفاق عند مُنعطف الشارع مبتعدين عنها لما يقارب الأمتار العشرة لإتاحة المجال لحديث نسائي.

أعتقد أنَّ الرفيق الذي كان يقف معي ذهب لاقتناء علبة سجائر، فبقيت أنتظرها وحدي تحت المطر.

ما زلتُ أشتم رائحة مطر تلك الليلة. نعم، لقد كانت تلك الرائحة كرائحة مطر أول غيمة تعلن بداية فصل الشتاء، تعلن موعد حصاد الزيتون. لم أكن أعلم السبب، ولكنها رائحة تلذذتُ باشتمامها، رائحة شعرتُ بأنها إعلان للمُقدَّس، إعلان للطهارة، إعلان للخير.

تبًا لتلك الرائحة التي ضلَّلتني وتبًا لذلك الموضوع الذي شتتني وجعلني شاردًا كل ذلك الشرود.

رأيتها تصافح الرفيقات، فاعتدلتُ في وقفتي بعدما كنتُ مستندًا إلى الحائط، وفي أثناء تلك اللحظات سمعتُ صراخًا من بعيد فالتفتُ لمصدر الصوت فتبن لي أنَّ مصدره أحد الرفاق وقد كان يركض نحوي مضطرب بشدة، لاهث الأنفاس، يشاور بيده محاولًا تحذيري، فالتفتُ بسرعة إلى الأنسة هيا فوجدتها تسير باتجاهي، وفجأة شعرت بشيء اخترق جسدي، أحسست بضربة قوية في صدري وبجرح في عنقي، ثم سمعت طلقات نارية.

سقطتُ مرتطمًا بالأرض بعنف. لم أكن حين ذاك مُدرك بعد لما يجري، فحاولت النهوض، ولكنني عجزت. نظرت إليها فوجدتها ساقطة على الأرض غارقة بالدماء بالقرب مني، لم أستوعب ما حدث، وأخذتُ أزحف باتجاهها كالمجنون متمردًا على جسدي الذي كان دفء دمائه في البداية يُخيفني. تبًا لجسدي أتذكَّر أنه كان ثقيل جدًا، ثقل الجبال.

وصلتُ إليها وأخذتُ أحاول إغلاق الثقوب في جسدها، ولكن تبًا لم يكن لي سوى يدين، كلما أغلقت ثقب تدفقت الدماء من الثقوب الأخرى. أخذتُ أبكي بحُرقة لعجزي، فوجدتها تمسح دموعي عن خدي الذي تمكنتُ من الوصول إليه، ثم استسلمتُ وأخذتُ أسندها بيدي رافعًا رأسها عن الأرض، أنظر إليها محاولًا إبقاء نظراتها الأخيرة عليَّ لكي أطمئنها بأنها ليست وحيدة، بأنني معها، بأنني بالقرب منها.

لقد رأيت الموت في تلك اللحظة في عينيها، لم يكن مخيفًا كما يصوره البشر، بل كان مُحزنًا.

لا أذكر ماذا حدث لاحقًا.

لقد ماتت لأنني أحببتها، لأنني أردتها. نعم، أنا المُتسبب بذلك يا صديقي. نعم، أنا قاتلها. نعم، لقد كنتُ أدرك أنَّ الحياة تحرمني ممن أحب، ومع ذلك أحببتها واستمريت بحبها. أنا مجرم يا صديقي.

لم أعد قادر على مواصلة الكتابة، سأتوقف. أعتقد أنَّ هذا يكفيك. تبًا لك.

ف.د

17 أيار (مايو)

صديقي العزيز ل.ت

نعم، زائف هذا العالم الذي يستمر شروقه بملاحقة غروبه، زائف لأننا بلا شروق يُلاحق مغيبنا الأبدي، بلا شروق يطرد هذه الظلمة التي لم تتعب بعد عيوننا من التذمر والتأفف منها.

استيقظتُ هذا الصباح بعدما تمكنتُ من النوم، وفجأة وجدتُ نفسي أمام المرآة، فأخذتُ أتساءل: إذا لم يكن الإنسان قادر على إنهاء شقائه فماذا يكون، جبان أم عاجز؟ لماذا أُحرم من القدرة على إنهاء شقائي؟ لماذا أُحرم القدرة على التخلص من عجزي عن تحقيق رغبتي بالانتحار؟

أخذتْ الفترات الفاصلة بين نوبات الرغبة بالانتحار بالتقلُّص، هذه إحدى الإرهاصات التي تدعو للتفاؤل. نعم، بات المُنتظَر قريب. أشعر به بكل جوارحي، أتحسسه من بُعدِي ومن قُربه. نعم يا صديقي، عادت تراودني بعض الأفكار السوداء بكثافة عالية أعجز أمامها عن استشعار الوقت الذي لطالما أتاح لي الموازنة.

نعم، بت فقط يا صديقي بحاجة إلى حتى ولو القليل من التفاؤل يطرد شيء من تشاؤمي الذي يقف كحجز عثرة في وجه إقدامي على طردي من هذا العالم أو تعليق وجودي فيه على الأقل.

هذا كُله المتسببة به هذه المقادير الهائلة الغزيرة من الحوافز التدميرية التي أحاول كبتها. نعم يا صديقي، هناك غضب يملأ فضاء رأسي لن أجد إلا وجودي لصبه عليه. هناك شيء مجهول يدفعني لتصويب أخطاء الرب، نعم لعله الرب نفسه من يستخدمني لتصويب أخطائه.

ولكن بالرغم من كل ذلك هناك شعور يؤرّقني، يزعجني، يُرهقني، وحده من بين جميع مشاعري المُثارة الآن أرفضه، أقاومه ولكن بدون جدوى، هذا هو شعوري بأن العالم بحاجة لمعاناتي. من أين يتولد لي هذا الشعور السام، وكيف يُتاح لي قتله؟

نعم يا صديقي، حُق لي أن أتعجب من كيف لهذه السماء الممتلئة بالنجوم أن تمتنع عن قذفنا نحن الزائدون بنجم يمحي هذه اللمسة العشوائية التي لا تُضيف! كيف لها أن تتمسك بالاحتفاظ بكل هذه النجوم بدون رغبة واستعداد للاستغناء عن نجم واحد فقط؟! كيف لها أن تشتكي من عيوننا العاجزة عن الإحاطة بجمالها والمُهملة لأناقتها بدون أن يكون لها انتقام أو حتى عقاب؟!

يا تُرى من لعننا وكان له هذا القرب من الله، وهذه الاستجابة التي لا تدل إلا على أننا بغضاء بدرجة غير مُتنازعة؟! من هذا الذي طاردنا حتى وصل إلى الله والشيطان معًا؟! كيف يا تُرى كان خياله قادر على رسم هذا الجحيم الذي طالب به لنا؟! يا إلهي كم هم البشر بارعون في رسم الجحيم لبعضهم البعض!

وجودها يا صديقي لعن مباهج الحياة، فلماذا وجدتْ طالما كُتب لها رحيل؟! نعم، رحيلها دليل على العبثية، دليل على أنَّ هذا الوجود خدعة. يا إلهي كُلها ترحل! من ذاك الإله القادر على انتزاعها كلها مرة واحدة؟!

نعم يا صديقي، لم تعد "الآن" منذ تلك اللحظة ابنة الحاضر، بل ابنة الماضي والمستقبل. نعم، لقد باتت "الآن" تصلح لما كان وسيكون. نعم، لقد بتُّ ابن الدقائق التي لم ولن تعلن عن وجودها في عالمنا القبيح هذا، لقد بتُّ ابن الدقائق التي لن تتسع للحظات السعيدة. نعم، أنا في أبدية بؤسي. نعم، بؤسي أعلن عن أبديته في تلك اللحظة، ولربما هو مُعلنها من قبل ولكن لم يتح لي

ملاحظة ذلك إلا في تلك اللحظة، ولعله انتظر ليُعلنها في تلك اللحظة حتى يزيد عذابي باكتشافي أنَّ أملي محض وهم وخيال بموتها.

في جميع الأوقات لم تعد للذكرى وظيفة إلا دفعنا للالتفات إلى ما ينتزع منا، إلى ما يبتعد عنا، إلى ذلك الذي استُكثِر علينا. كيف يا تُرى أضاعت الحياة مفاتيح أقفالها التي صنعتها لنا؟! نعم، مؤلم أن يتحدَّى فينا البؤس ذاته، أن يُعلن فينا حربه، أن يُفاخر فينا بتفوقه، أن يُظهر لنا نصره.

إلى أين تقودنا كل هذه المحاولات للتقدم والتي تُخلِّف مزيد من التراجع والتخلُّف؟ ألا توجد حدود للوراء الذي لا يُسهم البعد عن أقصى حدوده بتعطيل جاذبيته؟! ألا توجد حدود يتسبب اصطدامنا بها بإيقاظنا من سباتنا العميق، ألا توجد حدود تُبقي الأمام خلف بدلًا من تلك التي تُبقي الخلف أمام.

لم أكن أدرك أنَّ الأرض باتت بهذا القدر من الصلابة. كنتُ أعتقد أنَّ ارتطامي جراء السقوط سيوجد حفرة، ولكنه لم يفعل. نعم، لقد باتت الأرض غير قادرة على احتمالنا، عاجزة عن تقبُّلنا لا تمنحنا قبورًا، تتركنا نتعفن على سطحها، غير راغبة بالتعاطف معنا. نعم يا صديقي، قذارتنا هي المُتسببة بقسوتها، هي غير مُلامة.

إلى ماذا نتطلّع نحن العائدون من جحيم المستقبل، والمارون من كابوس الماضي، والواقفون على شفير هاوية الحاضر؟ لا لشيء، لا لشيء.

دعك من شكواي وتذمري وسخطي، فَهُمْ لي، وانتبه لطلبي فهو لك. لم أبكِ منذ مدة طويلة. أريد أن أبكي. نعم، أريد بضع دمعات فقط أستشعر بها بذلك الإنسان المُتبقي فيّ، المُختبئ في تلك الزوايا المُظلمة من ذلك البؤس المتراكم، أريد بضع دمعات أستشعر بها بحزن عميق يشغلني عن شعور القهر المُمزّق. نعم، أنا أريد أن أحزن، أريد أن أُعبّر عن حزني، أما في الوجود من لحن حزين، أما في الوجود من أغنية حزينة، أما في الوجود من قصة حزينة؟ نعم يا صديقي، أريد أن أنفجر بالبكاء، أريد حُرقة الأطفال وأنينهم ونحيبهم، أما من طفل بقي فيَّ، أما من طفل في الوجود أقتبس عنه. نعم، لا بد لي من الخروج للبحث، نعم سأحاول الخروج قريبًا.

صديقك المحتاج لك

ف.د

22 أيار (مايو)

صديقي العزيز ل.ت

اليوم بكيتُ يا صديقي بحرقة، باختناق، بألم لم أعرف له مثيل. لقد خرجتُ اليوم للجلوس بجوار البحر آملًا بإيجاد مواساة منه، وبينما كنتُ جالس على الرمال أستمع لصوته وأتابع تكسُّر موجاته، كنتُ بالرغم من استشعاري لجماله غير قادر على تحصيل أي قدر من السعادة من هذا الجمال المُتجلّي، وجدتُ أنني بلا إحساس، جامد كصخرة، مُتبلد بلادة خانقة. كيف يا صديقي لهذا الجمال المُتجلّي للبشر والذي لطالما كان مصدر سعادة لهم أن يعجز عن أن يكون لي مصدرًا.

نعم، قلة هم من يقدِّرون جمال شعاع شمس غاربة مُستلقي على سطح البحر، وأنا من هذه القلة، ولكن حزين يا صديقي أنَّ تلك السعادة التي كان هذا الشعاع يمنحني إياها باتت غير متاحة، باتت مُستكثرَة عليَّ. هل بتُّ مغلق، أم هو الذي أصبح ظالم؟ حتمًا، هو أنا الذي بات مغلق.

نعم يا صديقي، من التأمل والانطباع ندخل عالم تتلامس فيه حواسنا مع أعظم لذة، وتستشعر فيه أرواحنا أعظم حرية، وتستشعر فيه عقولنا أطرب هدوء، وتستقر فيه قلوبنا أعظم استقرار. أعلم ذلك، ولكن لماذا هذا العالم مُغلق في وجهي؟

نعم، أنا في ظلمة أبدية، في جحيم هو الأشد سعيرًا، أنا بعيد جدًا جدًا جدًا عن أقرب مُنقذ في حال كان موجود، أنا وحيد، أنا ممتلئ بالألم، غارق في الشقاء، محترق بالبؤس. أين أنا منتفي، أين أنا مطرود، لماذا هذه القسوة، لماذا هذه الوحشية، أين هو الله، بل أين هو الشيطان، ألم يعد هناك شياطين بإمكانها الإغواء، ألم يعد يوجد للشيطان ما يُرغِّب به الإنسان لتضليله؟! نعم، أنا أريد أن أشعر بالشعور ونقيضه ولو للحظة لكي يُتاح لي أمل، أريد هذا من الإله أو حتى من الشيطان.

أرأيت، نعم أنا في العتمة أحاط بما يصرفني عن استشعار كل هذه المعاناة، في العتمة هناك ما يحتويني ويضمني ويحيط بي بحنان، هناك من هو قادر على لملمتي، من يحميني من شعوري بأنني كيان مُشتت، مترامي الأطراف، معزول عن قطعِه. نعم الظلمة هي مهربي من تلك الموجودات التي يكشف عنها الضوء، أنا هارب إلى الظلمة من رغبة لا سبيل لتحققها،

من شهوة لا سبيل لإشباعها، من جمال عاجز عن إدخال أثره فيَّ، من أيام مُهدرَة لا عطاء فيها.

من يقنع العالم أنني ما زلتُ أستجيب لقسوته، من يُقنعه أن استمراره لن يقتلني ويريحني من العذاب. نعم، أنا أتأثر بهذا السلب، أنا أتكسر أمام تلك الظروف التي تتطلب مني ذلك، وأحترق أمام تلك الظروف التي تريد مني الاحتراق. من يُقنع العالم أنني ما زلتُ إنسان بعد، من يُقنعه أنَّ ذلك التأله الذي اصطنعته استجابة له لا ينفع في تخفيف الضرر، من يقنعه أنني لا أملك تلك القوة التي دفعتْني لادعاء حيازتها، من يقنع عالمنا هذا أنَّ قسوته اختير لها كيان لا يحتملها، كيان لا يتعظ ولا يرتد بها، كيان يزداد انحطاطًا ودناءة وتفاهة بها.

هل كنتُ وحيدًا دائمًا، هل كنت بعيد باستمرار؟ ألم يكن هناك من هو قريب؟ هل العطب في ذاكرتي؟ لماذا لا أحوز ذكريات تداعب روحي الغارقة في هذه الظلمة؟ أنا أقبل بدفء نيران خامدة، أما من نيران كانت موجودة في حياتي؟ ألم تكن لي خطوة تائهة ومبعثرة خارج هذه الأرض الباردة المُتجمدة الغارقة في عتمة لا يخترقها أي شعاع، ألجأ إليها بخيالي لأرسم أمل ما يُحيي فيَّ الرغبة، أو ألجأ إليها بروحي لأستشعر دفئها، ألجأ إليها لأستشعر وجود غير هذا الوجود؟ هل محكوم على بؤسي بأبدية ملازمتي؟ نعم، يستحق بؤسي الحزن عليه بكونه محكوم عليه بي.

لماذا مبائس الوجود تتراقص حولي؟ هل تحاول دفعي لفعل لطالما فكرتُ به ولكن دائمًا كان تشاؤمي يمنعني من الإقدام عليه؟ أما من مباهج في هذا العالم قادرة على الكشف عن نفسها لي؟ لماذا هذه الظلمة القاتمة التي تتغلغل في ثنايا الأشياء المُحيطة؟ لماذا عاجز رغم هذا عن النظر إلى ما بعد الحياة أو إلى ما قبلها؟ لماذا لا أُمنح لمحة لما خلف المحجوب المستور بهذه الظلمة لأتمكن من التجرؤ على الطلب والفعل؟ ماذا يُراد مني بعد كل هذا الذي أريد لي؟ ماذا يُراد مني أنا الذي لم يتبقَ مني شيئًا لي؟ ماذا يُراد مني أنا الذي لستُ لي؟ إلى ماذا سأصل أنا الذي لم أنطلق؟ إلى أين سأذهب أنا الذي لا مُنطلق لي؟ كيف يُطلب مني البقاء وأنا لم أوجد بعد؟ كيف يُطلب مني الالتفات وأنا لا اتجاهات لي؟ كيف يُطلب مني الانتظار وأنا لا ساعة لي؟ مأسورة فيَّ ومُحتكِرة لي تلك الموجودات التي وجدتْ لتلغي الوجود، فماذا أنتظر، ولماذا أنتظر، وكيف أنتظر، ومن متى أنتظر؟ جميعها أسئلة لا ألقى لها جوابًا بعد، لأنني ما زلتُ أنتظر وأنتظر.

نعم، الرغبة الشديدة في شيء لا تكون إلا إذا كنا نجهله أو لا نحوزه، فالرغبة مطرودة بالمعرفة والحيازة، ولهذا تجدنا نرغب بالحياة بشدة. نعم، نحن نجهلها، لأننا لم نحيَ بعد، لأننا إلى الآن بانتظار إدخالنا فيها. ولكن توقف قليلًا، أيُعقل أن تكون رغبتنا بالوجود وحدها من تقف عائقًا أمام استشعارنا بالوجود.

كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى أبعد الحدود بدون أن تعطف عليه بإشعاره أنها تحدُّه، كيف استحال مصيره إلى ذلك البؤس؟! كيف تمكَّن الإنسان أن يصل إلى أبعد الحدود وتجاوزها ليجد نفسه بلا حد يطمئن إليه، يرتاح عنده، يلتقط أنفاسه بجواره؟! كيف أمكن للإنسان أن يصبح عاجز عن الاقتراب والابتعاد عن الحدود. نعم، هو الفراغ ما أوجده الإنسان لنفسه، فلا هو محدود ولا هو حد لغيره.

كيف سيكون خيار الرجوع متاحًا لي وأنا بهاتين العينين القادرتين على النفاذ إلى أدق التفاصيل، وأنا بهذا القلق المُتعاظم باستمرار، وأنا بهذه القدرة الكبيرة على الرفض والاعتراض، وأنا بهذه المقدرة الكبيرة على التخيل ورسم غير الموجود، وأنا بهذه القدرة على الخلق، وأنا بهذا البُعد، وأنا محاط بهذا القدر من الأفكار، وأنا بهذا الإصرار على التحكم بعواطفي ومشاعري؟! نعم يا صديقي، طمعي بالكثير نفاني إلى أبعد الأصقاع، إلى أسحق الأعماق، إلى أحلك الظلمات. نعم، حتى رمادنا ستستثقله تلك الرياح المرتحلة.

نعم يا صديقي، الإنسان يُجيد التعبير عن ضعفه بادعاء القوة. تبًا للقوة وللضعف. ماذا تعني القوة، وماذا يعني الضعف؟ نعم، نحن جميعنا لا نعلم، ولكن ندعي بأننا نعلم.

يُقال أنَّ اليوم يقف بين الأمس والغد، فلماذا يومي لا غد له، لماذا يومي امتداد غير متناهي للأمس، لماذا يومي لا يحتمل الجديد؟! نعم، هذه سخرية. حتى غياب بعضي لم يترك لي بعض، كأنَّ البعض انطلق من غياب إلى غياب، كأنَّ بعضي لم يكن ينتمي إليَّ كما هو حال كُلي.

ماذا أنا البعيد عن أقربهم؟ نعم، ماذا أنا، لأنه كيف للبعد أن يمنح تحديدًا وتعريفًا؟! نعم، أنا بحاجة للقرب لكي أعرف إلى ماذا يُشار لي، لكي أعرف من ماذا أنطلق لأشير إلى غيري.

ف.د

25 أيار (مايو)

صديقي العزيز ف.د

الإنسان يا صديقي إذا لم يعرف حدوده، حدوده عرفته. لا تتعجل وتعترض. نعم، أعترف: كلٌ يرى بعين مأساته، كلٌ يرى بعين بؤسه، ولكن يا صديقي هناك عيون للحظات السعيدة ينبغي علينا النظر منها. أتتوقف الشمس يا صديقي عن نثر شعاعها اعتراضًا على غيمة حجبه؟ أتعتقد أنك أعظم من ذاك النجم، أتعتقد أنَّ شعاعك أهم من شعاعه؟ انهض أيها المغرور، وانفض عن نفسك غرورك، ليتاح لك التخلص من بؤسك.

نعم يا صديقي، أنت تلاحق الهمسات المُتسللة من فم البُعد، آملًا بمعرفة المهموس به استشعار القرب، آملًا بمعرفة البعيد أن تُمنح تمييزًا، ولكن للأسف تتركك ملاحقاتك تلك لتعب يُطفئ الخارج لك، تعب يُبقيك في الداخل مُحاط بأسوار من الظلمة لا يخترقها أشد شعاع كثافة.

عجيب أثر منزل جدتي الذي طلبتُ نقلك إليه، ولهذا أنا مدهوش من عجزه عن التأثير بك، من عجزه عن إحلال تغيير فيك. كيف يحدُث يا صديقي أن تكون ممتلئ بهذا القدر، كيف يحدث أن تكون بهذا الاتساع الذي يدفعك للطمع وبهذا الامتلاء الذي يُبطل أي تأثير للخارج عليك. لقد بثَّ فيَّ هذا المنزل طمأنينة وهدوء وسكون في أحلك الأوقات، كلما كنتُ ألجأ إليه، فلماذا هو عاجز معك؟! حولك كثير من الأشجار الصامتة ولكن أيضًا حولك كثير من الأشجار التي تُجيد الحديث فتحدَّث معها، حولك الكثير من الأزهار التي تتراقص فارقص معها، حولك الكثير من الطيور التي تغني فغنِّي معها. أنا مُتفهّم لحزنك وبؤسك ولكن عاجز عن تفهُّم عدم سعيك لدفعهما. سكان القرية حولك مختلفون عن سكان المدينة، اخرج وخالطهم، حاول التعرف عليهم، حاول الجلوس في مقهاهم، وأنا على يقين أنك لن تندم، أنا على يقين أنك ستصبح أفضل حالًا، فقط حاول ولا بأس إن فشلت.

درّب نفسك على المحاكاة يا صديقي في هذه الطبيعة الخلابة من حولك. إحدى أبرز أسباب فشلنا في تجاوز مشاكلنا وأزماتنا النفسية، هو عجزنا عن الرؤية، عجزنا عن إدراك رسائل الموجودات، عجزنا عن الاستفادة من تجاربها. تجدنا يا صديقي نرى تلك الورود الميّتة في مزهرياتنا وأحواضنا لنسيان ريّها، وعلى الرغم من ذلك تجدنا بدلًا من محاولة إدراك رسائلها نلتقطها ونلقي بها في سلة النفايات. نعم، رسالتها المُهملة والتي فحواها أنَّ الماء نعمة ينبغي الحمد عليها، جعلتنا غير ملتفتين للنعم التي

تُغرقنا، جعلتنا بعيدين عن الحمد والشكر، جعلتنا نواصل الطلب، جعلتنا نواصل السخط والغضب. نعم، معاناتنا من إهمال الرسائل. نعم، نحن بحاجة للمحاكاة لكي نستطيع فهم الرسائل وتقبُّلها، نحن بحاجة للمحاكاة لكي يتاح لنا استقاء الخبرة والفائدة من تجارب الآخر. نعم يا صديقي، التدرب على عملية المحاكاة يمنح الخبرة والمعرفة بدون التواجد في مواقع التواجد فيها جد مؤلم وقاسي، يترك ندوب وجروح يصعب تطبيبها، تمكننا من معرفة الألم والمعاناة بدون المرور بهما. نعم، نحن بحاجة ماسة لتلك اللحظات التي نتوقف فيها، فالقيم الحقيقية تتجلى لنا فيها، ميزان الأهمية الخاص بنا يصبح أجود. نعم، المدينة ميتة، لأنها لا ترى باستمرار الموت، لأنها لا ترى الأشجار في دورتها، لا ترى الربيع والخريف. أنت بحاجة للمُحاكاة، فتعلَّمها.

ولتطمئن يا صديقي، فكثيرًا ما يرشدنا اللاطريق إلى الطريق.

ملاحظة: - أعتقد أنه حان الوقت لعودتك لترديد "أنا قوي"، فأرجوك عد لها.

المخلص لك

ل.ت

7 حزيران (يونيه)

صديقي العزيز ل.ت

"أنا ضعيف" يا له من نعيم أدخلني إياه ترديدها في هذه المدة القصيرة! نعم، لقد باتت جروحي مُطيبة وندوبي مداواة. ماذا كنتُ قبلها وماذا بت بها! يا إلهي ما أعظم الفرق. لم تعد مرآتي تتعرف علي. نعم مرآتي متفاجئة تتساءل مثلي عن كيف لكلمة واحدة تستبدل أن تحل كل هذا التغيير. لعلك خائف من تحولي السريع هذا، قلق، تشعر بأنني سأُقدِم على فعل ما، فالتحولات السريعة دائمًا ما تنبؤ بمستقبل مُظلم. لا داعي للقلق يا صديقي، فأنت مخطئ بتحليلك وقياسك. نعم أنا بخير، بل أنا في أفضل حال. لقد بُعثت من جديد،

نعم "أنا ضعيف" باتت خالقي. أنت غاضب الآن، أعرف ذلك، ولهذا سأبدأ بالتوضيح.

قبل نحو أسبوع بتُّ قادر على تذكر ذلك الحديث الذي جرى في تلك الليلة، في تلك الجلسة الأخيرة، والذي تسبب بشرودي ودهشتي وغيابي وصدمتي مما كُشف به. نعم، لربما لم توجد الأنسة هيا إلا لاطلاعي على فلسفتها وسر قوتها في ذلك الحوار الذي جرى والذي لم أشارك فيه على الاطلاق وبقيتُ صامتًا لشدة دهشتي وصدمتي مما كُشف به. نعم، ذلك الحديث كشف لي كيف أنَّ "أنا قوي"جحيمي. لا تتعجل، ودعني أعرض عليك مجمل ما قالته وبيَّنته في ذلك الحوار.

في جلستنا أذكر أننا طرقنا بنقاشنا عدة مواضيع ولكن لا أذكر كيف دخلنا في هذا الموضوع، ولهذا دعني أعرض لك ما قالته فقط.

بدأت بالقول مبدية رأيها بهدوء في توجُّه ورأي أحد الرفاق: "أنا قوية" هذا ما أراد لي نيتشه اعتقاده، وهذا ما أراد لي الأطباء ترديده، معتقدين بأنَّ هذا يُطبب، وهو في الحقيقة للأسف لا يفعل. ها هي علامات الدهشة على وجوهكم، ولهذا سأسارع للتوضيح قبل اعتراضاتكم، وأرجو أن تعذروني إن كنتُ سأطيل.

بعدما جالت ببصرها على كافة الرفاق، أخذت تقول: في الحقيقة، أجد "أنا ضعيف" هي التي تمنح الإنسان علاجه. لا بد أنكم تتساءلون: كيف ذلك؟ أولًا أجدها تمنحه ذلك بمساعدته على تبديد ضغط خوفه من الخطأ الذي دائمًا ما يكون سببًا رئيسيًا في الوقوع في الخطأ. نعم، في حال تمكَّن الفرد من تجنب خوفه من الخطأ -وهذا لا يتاح له إلا بالاعتراف بضعفه- سيتمكن من إزاحة عبء ثقيل عن عاتقه. اعتراف الإنسان بضعفه وتقبله، اعتراف وتقبل بأنه مخطئ، بأنه ناقص، وبالتالي هذا يساعده على طرد خوفه من الخطأ وبالتالي تفادي الوقوع فيه في كثير من الأحيان. باعتقادي إزاحة النفس من التقريع والعتاب واللوم على كثير من الأخطاء، يُهيّئها لتفادي الوقوع فيها بشكل أسرع وأسهل. "أنا ضعيف" يعني أنني لست إله، يعني أنَّ خطئي لا محالة واقع، يعني أنني ناقص بحاجة إلى التعلُّم، وبالتالي هذه المعاني والمقاصد تتيح للفرد قدرة أكبر على تفادي الأخطاء بسبب تفادي ضغط الخوف من الوقوع فيها. نعم، "أنا ضعيف" يعني أنَّ خطئي لن يكون سبب في نهاية الحياة فأنا لست إله أبدأها وأعلن نهايتها، "أنا ضعيف" يعني أنني حتمًا سأخطئ، "أنا ضعيف" يعني أنني إنسان متقبل لإنسانه.

ثم أخذت تبيّن كيف أنه إذا استشعر الفرد بضعفه لم يستشعر قوة في غيره من البشر وبالتالي شعر بتساويه معهم، وبالنتيجة استغنى عن المنافسة غير الشرعية والتدافع والتصادم والرغبة بالانتقام والهيمنة وإثبات الذات للغير التي جميعها تتحفز بشعور الفرد بقوته، ثم أخذت توضِّح كيف أنَّ من يتقن فن تعميم الضعف حتى في تلك الحالات التي يحاول المظهر الإيحاء بالعكس، هو الأنجح في تخطي مشاكله وأزماته، وهو صاحب القدرة الأكبر على تفادي الوقوع في الأخطاء، مؤكدة بذلك أنّ استشعار الضعف ينبغي أن يقود المُستشعر إلى تعميمه لا لحصره في شخصه ونطاقه مهما حاولت مظاهر الآخر الإيحاء بقوته، مُبينة أنَّ استشعار الضعف يدفع الفرد للاستغناء عن محاولات إثبات تفوقه للآخر أو حتى تساويه كرد فعل على إقدام الآخر على ادِّعاء القوة، موضِّحة أنَّ النتيجة انتفاء الصراع والنزاع العبثي.

ثم أخذت تشرح كيف "أنا ضعيف" تدفعنا للتعاون، وإلى التخصص وعدم الطمع بالإلمام بالكثير من المهام (أي الاكتفاء الذاتي المُكلف والمُضر جدًا)، وبالتالي الاعتماد على الآخر في توفير احتياجاتنا وإتمام مهامنا، ثم أخذت تبين كيف "أنا ضعيف" خلَّصتها من توهمها بالعظمة وتوهمها بحيازة قوة كبيرة، كيف ساعدها في عدم التكبر، ودفعتها للتخصص مُحررة إياها من عبء الطمع بالإلمام بالكثير من المهام، وبالتالي خلَّصتها من الشعور بالعجز الناجم عن الفشل وليس ذلك الشعور الناجم عن رؤية ما هي عليه في الحقيقة، وكيف ساعدها هذا على التخلص من الإحباط والاكتئاب والقلق والرغبة بالاستسلام، وكيف ساعدها أيضًا في التخلص من النظرة المُحقِّرة للآخر، وكيف ساعدها أيضًا في التخلص من شعورها بعدم حاجتها للآخر، وكيف ساعدها في التخلص من الخطوات الثقيلة التي لا تقطع المسافات.

ثم أخذتْ تُبيّن كيف تُسهم الأديان بتعزيز استشعار الإنسان لضعفه، وهذا بالمقارنة التي تتيحها لمعتنقيها أي (المقارنة بين الإنسان والله)، موضحة أنَّ وجود الكيان الأسمى يتيح للفرد (الذي يُشكِّل الكيان الأدنى) استشعار ضعفه من هذا الكيان (مُبينة كيف أنَّ الشعور بالدونية هنا فقط مفيد)، وبالتالي يدفعه هذا الشعور لاكتشاف تساوي البشر جميعًا لبعدهم جميعًا عن عظمة الله، لبُعد ذلك الذي يدَّعي جماله وقوته عن جمال الله وقوته، وبالتالي إدراك حقيقة أنَّ البشر متساوين تدفع لنبذ العنصرية، ثم أخذت تبين كيف أنَّ الإيمان بوجود الكيان الأسمى واستشعار الضعف يُساعد بتسليط الضوء على الضعف والنقص الإنساني مما يتيح ويوفر رغبة لدى الجميع بتقديم المساعدة وطلبها، رغبة بالتعاون والتعاضد والتكاتف والإخاء، وأيضًا رغبة

ودافع لاحترام الأنواع الأخرى من الخلق، دافع لحماية الطبيعة والحفاظ عليها، دافع يُعزز مشاعر الرأفة بالحيوان، مؤكدة بأنَّ الهرمية التي يطرحها الإيمان بوجود إله تقود إلى نبذ كل هرمية سواء كانت عرقية أم دينية أو جنسية أو سلطوية، إلخ.

ثم أخذت تُبين كيف "أنا ضعيف" تتيح للإنسان كفرد القول: "أنا مهم من أهميتي لغيري، وغيري مهم من أهميته لي"، كيف أنَّ "أنا ضعيف" تُحفِّز شعور الفرد بأهميته، مؤكدة بذلك أنها لا تؤثر سلبًا بتاتًا على فردية واستقلال الإنسان بل تعززهما بدون تأثير على الجماعة. ثم أخذت تبدد صحة كلام من كان لديه شك بأن "أنا ضعيف" تُحفِّز لدى الفرد ميول استسلامية، مبينة بأن الفرد بتخلصه من المهام التي لم يوجد لها لا يكون استسلامي، وبأن ذلك التخلص يوفِّره لمهام وجد لها ووجدت له.

ثم يا صديقي أخذت تبين كيف أنَّ البحث عن استشعار التفوق وعن المزيد من القوة يدفع الفرد للاعتقاد بأنَّ آلية الطلب الفوقية هي حق له، وبأنَّ صيغة الأمر حق شرعي له، وبأن ملكيته لها الحق بأن تطال البشر، وكيف أنَّ هذا يقود الفرد لتنصيب نفسه إلهًا. مضيفة أن هذا التنصيب يُشكِّل عائق أمام قدرة الفرد على التمسك بمعتقداته والخضوع لواجباته، فتلك الحدود التي تضعها المُعتقدات سيُنظر إليها بهذا التنصيب على أنها عائق لجهود البحث عن مزيد من الشعور بالتفوق ومزيد من القوة. مؤكدة يا صديقي أنَّ البحث عن التفوق يقود الإنسان إلى العدمية، يُفقده التمييز بين النقيضين (الأخلاقي وغير الأخلاقي، الصواب والخطأ، الجميل والقبيح، الخير والشر، إلخ)، مؤكدة أنَّ هذه الثنائية التي تُشكِّل عقبة أمام البحث عن التفوق تختفي أو تصبح أفعالها وأحكامها نسبية تقودها النفعية. ثم أخذت تُضيف كيف أنَّ الباحث عن التفوق يقوم بتحقير جميع تلك المعتقدات التي دان بها الإنسان، أو على الأقل يُطوّعها لخدمة مصالحه، لأنه ببحثه هذا يُنصِّب هواه إلهًا، وبالتالي يُعطي لنفسه الحق بوضع الحدود التي تدعم ألوهيته وتزيد استشعاره بها، مقتبسة عن أدلر في هذا الصدد بالقول: "إنَّ البشر قد اعتادوا على إخفاء هذا الغرور عن طريق استخدام كلمة ذات وقع طيب في النفس مثل "الطموح"".

وبمناسبة مرورها على أدلر وخلط بعض الرفاق بين الشعور بالضعف وعقدة النقص والشعور بالدونية الذي يُمهد لإساءة طرحها، شنت هجوم عنيف على كثير مما توصل إليه أدلر مع التأكيد مرارًا على احترامها له وتقديرها لجهوده.

فبدأت بالقول: باعتقادي أنه حتى السعي إلى الهيمنة والتفوق والسيطرة ناجم عن الشعور الاجتماعي (الحس الاجتماعي)، فهذا السعي نتيجة رغبة بالوجود بمساعدة الآخر، فالآخر مطلوب منه العون بوجوده في منح شعور التفوق، ومطلوب منه التعاون في الخضوع، ولهذا أختلف مع أدلر الذي أشار للسعي إلى الهيمنة والتفوق كسعي ناجم عن حس اجتماعي منخفض وضعيف، وبأنه سعي على علاقة عكسية مع الشعور والحس الاجتماعي. اعتقد أنه لا وجود لأي علاقة بينهما سواء كانت طردية أم عكسية، لأنني أعتقد أنَّ الحس الاجتماعي لا يتأثَّر بأي ظروف، فالإنسان لا يستطيع الخروج عن طبيعته وفطرته.

ثم ذهبت للإشارة إلى أنَّ تقدير حالة الضعف على أنها حالة نقص ودونية ناجم عن التغاضي عن اعتبارات في تكوين الطبيعة البشرية، وهذا التقدير غالبًا ما يكون في مرحلة الطفولة ولكنه يستمر إذا لم يجد الطفل الدعم ليصبغ كافة حياته بكامل فئاته العمرية، راجعة هنا للاستفادة من قراءة أدلر التي يذهب بها إلى أنه ينبغي معرفة الانطباعات التي تتركها خبرات المريض في مرحلة الطفولة لأنها تُشير إلى الاتجاه الذي ينمو فيه الطفل ويتطور، ولأنها تشير إلى الطريقة التي يستجيب بها لتحديات المستقبل، وإلى ردود أفعاله، مؤكدة على أنَّ الفرد لا يُغيّر موقفه الذي اتخذه في مرحلة الطفولة ولكن يُغيّر طريقة تعبيره عنه، مضيفة أنَّ نمطنا الفردي يتشكَّل في الحياة من خلال قراءتنا المختلفة وانطباعات تجاربنا المتعددة في مرحلة الطفولة.

ثم انتقلت بعد ذلك لتوضِّح كيف أنَّ خطر ازدياد الشعور بالدونية يكمن في عدم قدرة الفرد على التوقف في حال النجاح بتلك الدونية عند نقطة توازن، وبالتالي سعيه إلى تحصيل الشعور بالتفوق، مُضيفة أنَّ خطر هذا الشعور يكمن في توليد حالة يصعب فيها الرضى والقناعة بالمُكتسَب والعائد، وبالتالي هناك استمرار بطلب المزيد، هذا المزيد الذي لن يكون الفرد متمسكًا به إلا بالاعتداء، مُستنتجة من ذلك بأن العنصرية حالة مرضية ناجمة في الأساس عن الشعور بالتفوق الذي كان نتيجة شعور بالدونية عنيف وقاسي ومُفترس.

ثم أخذتْ تُبيّن كيف أنَّ الشعور بالتفوق قد يكون نتيجة سعي أهدافه مُحققة مُنجزة ومطالبه مُستجابة، وكيف أنه قد يكون نتيجة سعي فشل في الإيصال والاستجابة للمطالب والآمال، مؤكدة على أنَّ الشعور بالتفوق الذي يكون نتيجة السعي الثاني يكون مبني على محاولة لرفض الواقع غير المُستجيب،

أما الشعور بالتفوق الذي يكون نتيجة السعي الأول يكون مبني على محاولة مُوغلة في قبول الواقع المُستجيب بعد أن أثمر الإيغال في الرفض. ثم أخذت تضيف كيف أنَّ العجز عن التوقف عن طلب المزيد الذي كان متوفر للكثيرين سبب في الوصول من الشعور بالدونية إلى الشعور بالتفوق بدون توقف عند نقطة التوازن، مُضيفة كيف أنَّ الجهد المبذول للوصول إلى نقطة توازن غالبًا ما يُدمِن الأشخاص على بذله والنتيجة عجزهم عن الاستغناء عنه للاستراحة والإقامة عند نقطة التوازن، مُضيفة كيف أنَّ صعوبة الاستغناء عن هذا الجهد تكمن في أنَّ هذا الجهد يمنح الأفراد شعور مقبول بقيمتهم التي يقاومها الآخر بنظراته المُحقِّرة. ثم أخذت تضيف كيف أنه بازدياد شعور الدونية تتولد الطاقات التي من الصعب كبحها للنجاح في كبح الرغبة بالمزيد، وبالتالي يكون من الصعب التوقف عن طلب شعور التفوق. ثم أخذت تبين كيف أنّ شعور التفوق هو نتيجة سعي لاكتناز العوائد التي تضمن أن لا تكون عودة لشعور الدونية، فهذا الشعور ليس لإشباع حاجة وإنما نتيجة تحوط من العجز عن إشباعها، ولهذا رأت بأنه يمكن مقاومة هذا الشعور بمنح الأمان الداخلي للفرد بطمأنته أن لا عودة له إلى شعور الدونية، وذلك عن طريق مساعدته بالاعتراف بضعفه، فهذا الاعتراف سيمنح الفرد مناعة من الحكم الخارجي، وبالتالي إيقافه عن السعي إلى إثبات ذاته للآخر، ثم أخذت تؤكد بأن الاعتراف بالضعف يمنح الفرد قدرة على النظر إلى نظرات الآخر المُحقِّرة على أنها نظرات استنجاد نتيجة ضعف غير مُعترف به، وبالتالي شعوره بأن نظرات الآخر المُحقِّرة له نظرات من هو بحاجة للمساعدة، مضيفة أنَّ الاعتراف بالضعف يمنح للجميع قدرة على اكتشاف حاجة الجميع للمساعدة والتكاتف والترابط والتآخي لتقديمها، وبهذا تتوقف العداوة اللاإرادية والصراع بين الفرد ومُحيطه، وتنشأ روابط وصلات وثيقة لا يمكن التأثير عليها، وهذا يمنح المجتمع قدرة على احتواء أفراده بهدوء وحنان وعطف وأمان.

ثم ذهبت لمواصلة الشرح بعد إلحاح الرفاق بادئة بالاقتباس عن أدلر: "عظمة الشعور بالنقص أنه يختبر والأقوى أنه يحث"، معترضة على أدلر بالقول بأن هذا الشعور يحث للسعي لأهداف ليست بأهداف شخصية قام الفرد باختيارها تماشيًا مع ميوله وقناعاته وقدراته، شعور يحث الفرد على المسير في مسارات ليست بمساراته، ولهذا الوصول للنهايات والسعي غير مريح، مُبينة أنَّ النصر بهذا الشعور غير مفرح بل على العكس يولِّد انكسارات لا يمكن إصلاحها، يولِّد شعور بالانحطاط، يولِّد مشاعر الحزن والاكتئاب وعدم الرضى والقلق، يكون سبب بانحرافات سلوكية، وأيضًا

يولِّد رغبات انتحارية، مؤكدة أنَّ عقدة النقص تدفعنا لخيارات ليست بخياراتنا، النجاح أو الفشل فيها لهما نفس النتيجة، كلاهما مدمران، أنّ عقدة النقص هي مسار الإنسان لأهداف ليست أهدافه، ولهذا على أولئك الآباء الذين يعتمدون عليها لدفع أبنائهم التوقف عن ذلك.

ثم أخذت تُبين كيف أنَّ عقدة النقص هي أحد دوافع الإثبات للآخر التي منها تتولد شراسة الإنسان في صراعه، كيف أنَّ عقدة النقص ليست بالضرورة سعي للتفوق، فلربما تكون سعي لانتزاع اعتراف بالمساواة أي تحدي لشعور الآخر بتفوقه، مُشيرة ومُحذرة بأن الشعور بالنقص أسرع المشاعر تكونًا، وهذه السرعة هي المُتسببة بعدم حيازة الإنسان لوسائله الدفاعية العادلة والملائمة. مؤكدة بعد ذلك على أنّ اعتراف الإنسان بضعفه هي الوسيلة الأمثل لمقاومة ضرر الشعور بالنقص، فالاعتراف تقبُّل بالنقص، وبالتالي توقف عن الشعور بالدونية التي تدفع آثاره إلى طلب الشعور بالتفوق.

ثم واصلت بعد إلحاح الرفاق مُجددًا لتُبين كيف أنَّ الشعور بالنقص يُحارب الشعور بالضعف الذي نتساوى به نحن البشر جميعًا، وتبين كيف أنَّ الشعور بالنقص هو شعور بقوة لا وجود لها عند الآخر، هو شعور بضعف زائف يولِّد رغبة بالقوة والسلطة لطرد هذا الضعف الذي لا وجود حقيقي له، مما يتسبب بمقاومة غير واعية لشعور بضعف حقيقي نحن بحاجته أشد الحاجة، مؤكدة أنَّ الشعور بالنقص هو منبع الشرور والشعور بالضعف هو منبع الخيرات، مضيفة أنَّ الشعور بالضعف لا سبيل به إلى إهانة الآخر، ومُضيفة أنَّه بالشعور بالنقص يُتاح طلب أكثر من العرض، أما بالشعور بالضعف فيتاح عرض أكثر من الطلب، وموضحة كيف أنَّ الإنسان بالشعور بالنقص مُطالب بالأخذ أما بالشعور بالضعف مُطالب بالعطاء، كيف أنه بالشعور بالنقص حاجة الأنا مُتجلية تجلي مستفز وطاردة لحاجة الآخر، أما بالشعور بالضعف حاجة الآخر وحاجة الأنا لهما نفس درجة التجلِّي، وكيف أنه بالشعور بالنقص هناك إيغال في القسوة بينما بالشعور بالضعف هناك تعاطف مع ظروف الآخر ومراعاة لأخطائه.

ثم أخذت تختتم حديثها الذي أرهقها بالقول: النقل من اللاشعور إلى الشعور هو الذي يجعلنا نتمكن من تحديد العلاج وتقديم النصر لمصادر الفعل الأخلاقي والصائب على الرغبة، وذلك من خلال إصلاح تصورنا عن لذتها. إنَّ إصلاح التصور عن اللذة والعائد المتوقع والمُستهدف، هو سبيل لنصر الدافع الأخلاقي والديني على الرغبة، وهذا لا يكون لنا إلا من خلال

الكشف عن مكنونات اللاشعور ونقلها إلى الشعور مهما كانت حدة الصراع التي سيتسبب بها هذا النقل. لربما إصلاح التصور قبل مواجهة ومقاومة المريض لمكنونات لاشعوره التي تم نقلها إلى الشعور يُسهم في تخفيف حدة الصراع. "أنا ضعيف" تساهم في تخفيف مقاومة المريض لأنها تُقدِّم له دليل على أنَّ الجميع يُخطئ والجميع ضعفاء الجميع عرضة للظروف القاسية والجميع يتعرَّضون للرفض والجميع تتشكل لديهم تصورات قبيحة مُشوهة نتيجة رغبات مكبوتة أو نتيجة ظروف قاسية والجميع بحاجة للمساعدة. "أنا ضعيف" تفسح المجال أمام تقبل الإنسان لإنسانه من خلال تقبل أخطائه، وبالتالي تبعده عن دوافع التأله الذي سيطالبه عند الخطأ بإنزال العقاب العنيف بحق نفسه ورفضها، تبعده عن دوافع التأله الذي في أحيان سيدفعه لعدم استشعار خطئه نتيجة النظرة الفوقية التي تحط من الآخر وتجعل الخطأ في حقه ليس بخطأ. "أنا قوي" في حال استشعار الخطأ أو عدم استشعاره تتسبب بضرر كبير، لا يمكن تجاوز ارتداداته. "أنا ضعيفة" تدفعني لإشباع حاجتي للاجتماع لأنها تشعرني بضعف الآخر وضعفي وبالتالي حاجتي إليه وحاجته لي، وبالتالي تشعرني بضرورة التعاون. "أنا ضعيفة" تدفعني لإحالة رفض الآخر لي أو رفضي له إلى ضعف متبادل وبالتالي تدفعني للتمسك بمحاولات القبول أو على الأقل البحث عن القبول مع طرف آخر، وبالتالي فهي لا تبث فيَّ مشاعر كاليأس والإحباط والتشاؤم. "أنا ضعيفة" تدفعني لإدراك أهمية الحفاظ على الطبيعة وعلى الأنواع التي تحتويها، وذلك لقدرتها على إشعاري بالحماية التي توفرها لي الطبيعة. "أنا ضعيفة" تجعلني أدرك أهمية وجودي لغيري، تجعلني راغبة بالمواصلة ودفع الرغبة بالاستسلام والتوقف. "أنا ضعيفة" تُشعرني بعزلة هذه الحياة الأرضية في هذا الكون. "أنا ضعيفة" تجعلني خائفة ولكن بدون قلق، متفائلة ولكن بحذر، مُنشغلة ولكن بدون تعب وتذمر، مواصلة المصير ولكن مع لحظات انكسار وتعثُّر، محتاجة بدون جشع وطمع بالكثير، غاضبة ولكن بدون رغبات انتقامية، مُتفهِّمة بدون عدم تقبل، رافضة بدون عنف، مُتقبِلة للاختلاف مع الاحتفاظ برأيي في هذا الاختلاف، نعم "أنا ضعيفة" تجعلني لاسلطوية بشكل أفضل وأسرع وأسهل.

بعدما توقفت هنا، أخذ أحد الرفاق بالتصفيق وعلامات الإعجاب على وجهه ثم تبعه بقية الرفاق، ثم نهض بحماس وأخذ يقول بكل جد: "أنا ضعيف" أعترف أمامكم وأمامي بفخر وبدون أدنى قدر من خجل. نعم، هذا الاعتراف وحده ما يجعلني مستشعر بإنساني استشعار أرتضيه لنفسي. ثم أخذ بقية

الرفاق بترديد "نحن ضعفاء"، ثم أخذت إحدى الرفيقات تدعو إلى ضرورة تبني الحزب لفلسفة الضعف هذه ونشرها.

هذا ما جعلني أتخلى عن "أنا قوي". ألستُ محق في ذلك؟ نعم، هذا مقنع حتى لك. نعم، أعرفك، أنت الآن تشك في جميع معارفك، ذاهب إلى فلترتها، ذاهب إلى عتاب ولوم نفسك أنك أخطأت معي بحَثِّي على ترديد "أنا قوي". لا داعي لذلك يا صديقي، فأنت ضعيف، وأنا ضعيف، وجميعنا ضعفاء.

ب"أنا ضعيف" لم يعد الغضب قادر على ترك تلك الندوب والجروح المؤلمة العميقة. نعم، ب"أنا ضعيف" باتت جميع جروح "أنا قوي" مُطببة.

لم أعد يا صديقي خائفًا من أن تكون عفتي لعلة كما قال المتنبي، ولا تمسكي بأخلاقي مجرد ضعف كما قال نيتشه، ولا لاسلطويتي مجرد يأس كما قال لينين، فلماذا أخاف وأنا مُعترف بعلتي وضعفي الذي بتقبُّله أنا متقبل لإنساني، ولماذا أخاف وأنا معترف بيأسي من إمكانية إصلاح كل سلطة.

نعم، لا يُمكنني أن أكون عادلًا بالحكم على حياة لم أحيَها. دخلت الحياة ب"أنا ضعيف" بعد انتظار طويل تسبب به "أنا قوي". سأبدأ، فلتنتظر حكمي العادل.

قبل أن أنهي رسالتي، أحب أن أعلمك أنني التقيت صدفة بالرفيق رقم 17 قبل يومين، وكل منا عبَّر للآخر عن صداقته واحترامه بعناق دافئ ومصافحة شديدة. كان يبدو على مظهره الإرهاق الشديد والتردد في صوته وابتسامة على شفتيه توحي بالإعياء. لربما المهام المُوكلة إليه هي المتسببة بذلك. تبادلنا الحديث لمدة لم تطل عبَّر لي فيها عن أسفه لفقدان الثورة ثائرة نموذجة كالأنسة هيا، وأيضًا عبر لي فيها عن تخوفه من أن تفقد المجالس سلطاتها وصلاحياتها، فاستنتجتُ من كلامه وجود خطر على حياته، ثم عندما صافحني للانصراف همس بأذني قائلًا: لربما ثورتكم باتت قريبة، لربما هي ثورة الإنسان الأخيرة.

لربما كانت كلماته الأخيرة لي لها علاقة بالأخبار التي تردني عن الرفاق في حزبنا والذين باتوا ينتشرون في جميع أنحاء العالم، والذين بتُّ أسمع بأنهم تمكنوا من الضلوع بعمل كبير على المستوي الفكري والتنظيمي والدعائي.

سأبدأ بالعمل معهم يا صديقي، سأبدأ بإكمال جهود الأنسة هيا، سأبدأ ولكن هذه المرة ب"أنا ضعيف"، فأنا بها سأتمكن من المسير بدون التفات لبعد المحطة الأخيرة.

ملاحظة: - تذكر دائمًا وأبدًا ترديد "أنا ضعيف".

صديقك المحب

ف.د

تمت

إلى ماذا نتطلع نحن العائدون من جحيم المستقبل، والمارون من كابوس الماضي، والواقفون على شفير هاوية الحاضر؟

أنا ضعيف